آيات الكون وأسرار الطبيعة في القرآن الكريم

الشيخ عبد الله الغديري

دار المحجة البيضاء

مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

آيات الكون وأسرار الطبيعة في القرآن الكريم

آيات الكون وأسرار الطبيعة يشتمل على ثقافة واسعة في علوم الطبيعة ويتضمن أيضاً بيان آراء العلماء والفلاسفة واستدلالاتهم. وأقوالهم في هذا العلم.

المقدمة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله وصلى الله على رسوله والأئمة الميامين من أهل بيته وسلم تسليماً كثيراً وبعد. . .

فهذه مقدمة تشتمل على فروع:

١ ـ الغرض من تأليف هذا الكتاب هو: اطلاع الإنسان على المخلوقات الموجودة في هذا الكون وما فيها من القوانين المنتظمة والسنن المحيّرة للعقول الموجودة في الأجرام السماوية والأجرام الأرضية والبحرية وتدبير أمور جميع المخلوقين على أحسن وجه: ﴿...هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

٢ ـ التفكر في آيات هذا الكون والتفكّر في أسرار وعلوم هذا الكون لأن التفكر أهمُّ من عمل المستحبات لأنها توصل الإنسان إلى الثواب والأجر والتفكر يوصل إلى الله تعالى ولهذا جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام: «تفكر ساعة خير من عبادة كذا سنة» بالمضمون قال تعالى: ﴿...وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

٣ ـ إن عقولنا هي التي فرضت علينا النظر والتفكر في الخلق ومعرفة خالق هذا الكون كما فرضت علينا النظر والتفكر في دعوى من يدعي النبوة وفي معجزته، ولا يصح تقليد الغير في ذلك كله واعلم أن الاعتقاد بأصول الدين وجوب عقلي قبل أن يكون وجوباً شرعياً أي لا يستقي علمه من النصوص الدينية وإن كان يصح أن يكون مؤيداً بها بعد دلالة العقل ولهذا السبب ذمّ سبحانه المعاندين المعرضين عن التفكر في الدلالات المنصوبة في هذا الكون: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥].

٤ ـ اعلم أن أصول الدين عندنا خمسة أولها الإيمان بوجود الله وتوحيده وأنه الخالق لهذا الكون وما فيه والمدبر والمربي لعالم الوجود بكامله ونعتقد أن كل شخص مهما كانت منزلته وفي أي درجة من درجات هذا الوجود أمره بيد رب العالمين: ﴿...ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣] وبهذا الإيمان يصل الإنسان إلى أشرف الفضائل الخلقية والكمالات النفسية والسعادات غير المتناهية...

٥ ـ ويجب أن لا يتوقَّع أحد أن يبيِّن القرآن الكريم جميع مسائل العلوم الطبيعية، وأسرار وخواصّ كل الأشياء لأن القرآن لم ينزل لبيان هذه الأمور فهو ليس دائرة للمعارف أو كتاباً لعلم طبقات الأرض «الجيولوجيا» أو لعلم النبات، وإنما هو كتاب للتربية والهداية نزل ليقود الناس إلى حياة نقيَّة مقترنة بالسعادة والفضيلة، ويحكمها الصدق والأمانة والنظام والرحمة، وليوصلها في النهاية إلى القرب من الله تعالى، وأما الغرض من قوله تعالى في صدد القرآن: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، فهو لبيان كليات الأمور التي تتعلَّق بنجاة الإنسان وسعادته وتربيته، كقوله تعالى: ﴿...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. ولذلك يقول تعقيباً على هذه الجملة: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] بيد أن بعضاً من الآيات

الإلهية، ومن أسرار الخلق في العالم وفي وجود الإنسان ذاته تساعد على معرفة الله تعالى لذلك قد نجد أحياناً إشارات إلى هذه المسائل بين الآيات القرآنية وقد رفعت الستار عن أمور خفيت واستترت عن جميع علماء العالم في ذلك الوقت.

وملخص الكلام هو: إن الإتيان ببعض أسرار العلوم وحقائق عالم الوجود في القرآن لا لعرض العلوم الطبيعية أو لتأليف دائرة للمعارف. بل الغرض منه هو تبيين الأهداف التربوية والأخلاقية، وتعليم درس التوحيد، ومعرفة الله تعالى، وفهم أسماء وصفات الحق سبحانه أو الإطّلاع على جانب من أسرار المعاد، وما شاكل ذلك.

الكرسي

قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ...﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال أبو علي الطبرسي (رض): اختلف فيه على أقوال:

أحدها: وسع علمه السماوات والأرض عن ابن عبّاس ومجاهد وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﷺ ويقال: للعلماء «كراسيّ» كما يقال لهم «أوتاد الأرض» لأن بهم قوام الدين والدنيا.

وثانيها: إن الكرسيّ ههنا هو العرش عن الحسن، وإنما سمّي كرسيّاً لتركب بعضه على بعض.

وثالثها: إن المراد بالكرسيّ ههنا: الملك والسلطان والقدرة كما يقال «إجعل لهذا الحائط كرسيّاً» أي عماداً يعمد به حتى لا يقع ولا يميل فيكون معناه: أحاطت قدرته بالسماوات والأرض وما فيهما.

ورابعها: إن الكرسيّ سرير دون العرش وقد روي ذلك عن أبي عبد الله ﷺ وقريب منه ما روي عن عطاء أنه قال: ما السماوات والأرض عند الكرسيّ إلا كحلقة خاتم في فلاة، وما الكرسي عند العرش إلا كحلقة في فلاة ومنهم من قال: إن السماوات والأرض جميعاً على الكرسي والكرسي تحت الأرض كالعرش فوق السماء.

وروى الأصبغ بن نباتة أن علياً عليه السلام قال: «السماوات والأرض وما فيهما من مخلوق في جوف الكرسي»[١].

وفي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر»[٢].

---

(١) مجمع البيان ج ٤، ص٣٦٢.
(٢) التوحيد.

العرش

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] منهم من فسّر العرش هنا بمعنى الملك. قال القفّال: العرش في كلامهم هو السّرير الّذي يجلس عليه الملوك، ثمّ جعل العرش كناية عن نفس الملك يقال «ثُلّ عرشه» أي انتقص ملكه، وقالوا: استوى على عرشه واستقرّ على سرير ملكه. ومنهم من فسّر العرش بالجسم الأعظم. والاستواء بمعنى الاستيلاء كما مرّ. قال الرّازيّ في تفسيره: اتّفق المسلمون على أنّ فوق السماوات جسماً عظيماً هو العرش. واختلف في المراد بالعرش هنا، فقال أبو مسلم: المراد أنّه لما خلق الله السماوات والأرض سطحها ورفع سمكها، فإنّ كلّ بناء يسمّى عرشاً وبانيه يسمّى عارشاً، قال تعالى: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] والاستواء على العرش هو الاستعلاء عليه بالقهر، والمشهور بين المفسّرين أنّ المراد بالعرش فيها الجسم العظيم الّذي في السّماء، وقيل: المراد من العرش الملك، وملك الله تعالى عبارة عن مخلوقاته ووجود مخلوقاته إنّما حصل بعد خلق السماوات والأرض، فلا جرم صحّ إدخال حرف «ثمّ» عليه، والحاصل أنّ المراد استواؤه على عالم الأجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ، يعني أنّ من فوق العرش إلى ما تحت الثرى في حفظه وتدبيره وفي الاحتياج إليه[1].

---

(١) مفاتيح الغيب: ج٤ ص٣٤٢.

تحقيق وتوفيق: (قال المجلسي:) اعلم أنّ ملوك الدنيا لمّا كان ظهورهم وإجراء أحكامهم على رعيّتهم إنّما يكون عند صعودهم على كرسيّ الملك وعروجهم على عرش السلطنة ومنهما تظهر آثارهم وتتبيّن أسرارهم، والله سبحانه لتقدّسه عن المكان لا يوصف بمحلّ ولا مقرّ وليس له عرش ولا كرسيّ يستقرّ عليهما، بل يطلقان على أشياء من مخلوقاته أو صفاته الكماليّة على وجه المناسبة، فالكرسيّ والعرش يطلقان على معانٍ:

أحدها: جسمان عظيمان خلقهما الله تعالى فوق سبع سماوات، وظاهر أكثر الأخبار أنّ العرش أرفع وأعظم من الكرسي، ويلوح من بعضها العكس، والحكماء يزعمون أنّ الكرسيّ هو الفلك الثامن، والعرش هو الفلك التاسع، وظواهر الأخبار تدلّ على خلاف ذلك من كونهما مربّعين ذاتي قوائم وأركان، وربما يؤوّلان بالجهات والحدود والصفات الّتي بها استحقّا التعظيم والتكريم، ولا حاجة لنا إلى هذه التكلفات، وإنّما سمّيا بالاسمين لبروز أحكامه وتقديراته من عندهما، وإحاطة الكرّوبيّين والمقرّبين وأرواح النبيّين والأوصياء بهما، وعروج من قرّبه من جنابه إليهما، كما أنّ أوامر الملوك وأحكامهم وآثار سلطنتهم وعظمتهم تبدو منهما، وتطيف مقرّبوا جنابهم وخواصّ ملكهم بهما، وأيضاً لمّا كانا أعظم مخلوقاته الجسمانيّة وفيهما من الأنوار

العجيبة والآثار الغريبة ما ليس في غيرهما من الأجسام فدلالتهما على وجوده وعلمه وقدرته وحكمته سبحانه أكثر من سائر الأجسام، فلذا خصّا بهذين الاسمين من بينهما، وحملتهما في الدنيا جماعة من الملائكة كما عرفت، وفي الآخرة إمّا الملائكة أو أولو العزم من الأنبياء مع صفوة الأوصياء ﷺ كما عرفت، ويمكن أن تكون نسبة الحمل إليهم مجازاً لقيام العرش بهم في القيامة وكونهم الحكّام عنده والمقرّبين لديه.

وثانيها: العلم كما عرفت إطلاقهما في كثير من الأخبار عليه، وقد مرّ الفرق بينهما في خبر معاني الأخبار وغيره، وذلك أيضاً لأنّ منشأ ظهوره سبحانه على خلقه العلم والمعرفة، وبه يتجلّى على العباد، فكأنّه عرشه وكرسيّه سبحانه وحملتهما نبيّنا وأئمّتنا ﷺ لأنّهم خزّان علم الله في سمائه وأرضه لاسيّما ما يتعلق بمعرفته سبحانه.

وثالثها: الملك، وقد مرّ إطلاقهما عليه في خبر «حنان» والوجه ما مرَّ أيضاً.

ورابعها: الجسم المحيط وجميع ما في جوفه أو جميع خلق الله كما ذكره الصدو ويستفاد من بعض الأخبار، إذ ما من شيء في الأرض ولا في السماء وما فوقها إلاّ وهي من آيات وجوده وعلامات قدرته، وآثار وجوده وفيضه وحكمته فجميع المخلوقات عرش عظمته وجلاله، وبها تجلّى على العارفين بصفات كماله وهذا أحد المعاني الّتي خطرت ببالي الفاتر في قولهم ﷺ: «وارتفع فوق كلّ منظر فتدبّر».

وخامسها: إطلاق العرش على كلّ صفة من صفاته الكماليّة والجلاليّة إذ كلٌّ منها مستقرّ لعظمته وجلاله، وبها يظهر لعباده على قدر قابليّتهم ومعرفتهم فله عرش العلم، وعرش القدرة، وعرش الرحمانيّة،

وعرش الرحيميّة، وعرش الوحدانيّة. وعرش التنزّه كما مرّ في خبر حنان وغيره. وقد أوّل الوالد ﷺ الخبر الّذي ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] انّ المعنى: استوى من كلّ شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء، انّ المراد بالعرش هنا عرش الرحمانيّة والظرف حال أي الربّ سبحانه لكونه على عرش الرحمانيّة استوى من كلّ شيء، إذ بالنظر إلى الرحيميّة الّتي هي عبارة عن الهدايات والرحمات الخاصّة بالمؤمنين أقرب، أو المراد أنه تعالى بسبب صفة الرحمانيّة حال كونه على عرش الملك والعظمة والجلال استوى نسبته إلى كلّ شيء، وحينئذ فائدة التقييد بالحال نفي توهُّم أن هذا الإستواء مما ينقص من عظمته وجلاله شيئاً.

وسادسها: إطلاق العرش على قلب الأنبياء والأوصياء ﷺ وكُمَّل المؤمنين فإن قلوبهم مستقر محبته ومعرفته سبحانه، كما روي: إن قلب المؤمن عرش الرحمن، وروي أيضاً في الحديث القدسي: «لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن».

ثم اعلم أن إطلاقهما على بعض المعاني عند التصريح به أو إقامة القرائن عليه لا ينافي وجوب الإذعان بالمعنى الأول الذي هو الظاهر من أكثر الروايات والأخبار والله المطّلع على الأسرار.

وروي عن الصادق ﷺ أنه سئل «لم سمّيت الكعبة كعبة؟ قال: لأنها مربّعة فقيل له: ولم صارت مربعة؟ قال: لأنها بحذاء البيت المعمور وهو مربّع. فقيل له: ولم صار البيت المعمور مربّعاً؟ قال: لأنه بحذاء العرش وهو مربَّع. فقيل له: ولم صار العرش مربعاً؟ قال: لأن الكلمات التي بُني عليها الإسلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر».

سورة المنتهى ومعنى عليين وسجين

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم: ١٣-١٤].

المطففين: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ -إلى قوله تعالى- ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين: ٧-٢١].

تفسير: قال الطبرسيّ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ [النجم: ١٣] أي رأى جبرئيل في صورته الّتي خلق عليها نازلاً من السماء ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣] وذلك أنّه رآه مرّتين على صورته ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤﴾ [النجم: ١٤] هي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة، انتهى إليها علم كلّ ملك عن الكلبيّ ومقاتل، وقيل: إليها ينتهي ما يعرج إلى السماء وما يهبط من فوقها من أمر الله عن ابن مسعود والضحّاك، وقيل: إليها تنتهي أرواح الشهداء وقيل: إليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرواح فيقبض منها والمنتهى موضع الانتهاء، وهذه الشجرة حيث تنتهي إليه الملائكة فأضيفت إليه، وقيل: هي شجرة طوبى عن مقاتل، والسدرة هي شجرة النبق ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النجم: ١٥] أي جنّة المقام وهي جنّة الخلد، وهي في السماء السابعة، وقيل في السماء السادسة، وقيل هي الجنّة الّتي كان أوى إليها آدم وتصير إليها أرواح الشهداء عن الجبائي

وقتادة، وقيل: هي التي تصير إليها الجنة عن الحسن وقيل هي التي يأوي إليها جبرئيل والملائكة عن عطاء عن ابن عبّاس ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ [النجم: ١٦] قيل: يغشاها الملائكة أمثال الغربان حتّى يقعن على الشجرة عن الحسن ومقاتل، وروي أن النبيّ ﷺ قال: رأيت على كلّ ورقة من أوراقها ملكاً قائماً يسبّح الله تعالى، وقيل: يغشاها من النور والبهاء والحسن والصفاء الّذي يروق الأبصار ما ليس لوصفه منتهى عن الحسن، وقيل: يغشاها فراش من ذهب عن ابن عبّاس ومجاهد، وكأنها ملائكة على صورة الفراش يعبدون الله تعالى والمعنى أنّه رأى جبرئيل على صورته في الحال الّتي يغشى فيها السدرة من أمر الله ومن العجائب المنبّهة على كمال قدرة الله تعالى ما يغشاها، وإنّما أبهم الأمر فيما يغشى لتعظيم ذلك وتفخيمه[١].

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطفّفين: ٧] يعني: كتابهم الّذي فيه تثبت أعمالهم من الفجور والمعاصي عن الحسن، وقيل: معناه أنّه كتب في كتابهم أنهم يكونون في سجّين، وهي في الأرض السابعة السفلى عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وضحّاك وعن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «سجّين أسفل سبع أرضين»، وقال شمر بن عطيّة: جاء ابن عبّاس إلى كعب الأحبار فقال: أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطفّفين: ٧] قال: إنّ روح الفاجر يصعد بها إلى السماء فتأبى السماء أن تقبلها ثمّ يهبط بها إلى الأرض فتأبى الأرض أن تقبلها فتدخل تحت سبع أرضين حتّى ينتهى بها إلى سجّين وهو موضع جند إبليس، والمعنى في الآية أنّ كتاب عملهم يوضع هناك. وقيل: إنّ سجّين جبّ في جهنّم مفتوح والفلق جبّ في جهنّم مغطّى، رواه أبو هريرة عن النبيّ ﷺ وقيل: إنّ

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص١٧٥.

السجّين اسم كتابهم وهو ظاهر التلاوة أي ما كتبه الله على الكفّار بمعنى أوجبه عليهم من الجزاء في هذا الكتاب المسمّى سجّيناً، ويكون لفظه من السجن الّذي هو الشدّة عن أبي مسلم[١].

وقال: ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] أي مراتب عالية محفوفة بالجلالة، وقيل: في السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين، وقيل: في سدرة المنتهى الّتي إليها ينتهي كلّ شيء من أمر الله تعالى، وقيل: عليّون الجنّة عن ابن عبّاس، وقال الفرّاء: في ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له، وقيل: هو لوح من زبرجدة خضراء معلّق تحت العرش اعمالهم مكتوبة فيها عن ابن عباس في رواية أخرى وعن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال في عليين: في السماء السابعة تحت العرش وقال ابن عمر: إن أهل عليين لينظرون إلى أهل الجنة من كذا فإذا أشرف رجل منهم أشرقت الجنة وقالوا: قد اطلع رجل من أهل عليين»[٢].

وفي الخبر عن أبي جعفر عليه السلام: «إنما سميت سدرة المنتهى لأن أعمال أهل الأرض تصعد بها الملائكة الحفظة إلى محل السدرة قال: والحفظة الكرام البررة دون السدرة يكتبون ما يرفعه إليهم الملائكة من أعمال العباد في الأرض وينتهون بها إلى محل السدرة»[٣].

وفي الخبر أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: لما أسري بي إلى السماء انتهيت إلى محل سدرة المنتهى، وإذا الورقة منها تظلّ أمة من الأمم فكنت منها كما قال الله ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٩]»[٤].

---

(١) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٥٢.
(٢) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٤.
(٣) العلل ج١ ص٢٤٣.
(٤) تفسير علي بن إبراهيم ص ٣٧٤.

وفي النهاية (على ما ينقل) «إن أهل الجنة ليتراؤون أهل عليِّين كما ترون الكوكب الدرِّي في أفق السماء» علِّيُّون اسم للسماء السابعة وقيل: هو اسم لديوان الملائكة الحفظة ترفع إليه أعمال الصالحين من العباد» وقيل: أراد: «أعلى الأمكنة، وأشرف المراتب وأقربها من الله تعالى في الدار الآخرة»[1].

وقال: سدرة المنتهى شجرة في أقصى الجنة إليها ينتهي علم الأولين والآخرين، ولا يتعداها»[2].

---

(١) النهاية ج٣ ص١٢٥.
(٢) المصدر السابق نفسه ج٢ ص١٥٢.

الحجب والسُّرادقات

عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه، عن جدّه [عن] عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال: إنّ الله تبارك وتعالى خلق نور محمّد صلى الله عليه وآله قبل أن خلق السماوات والأرض والعرش والكرسيّ واللوح والقلم والجنّة والنار، وقبل أن خلق آدم ونوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وداود وسليمان وكلّ من قال الله عزّ وجلّ في قوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٧] وقبل أن خلق الأنبياء كلّهم بأربعمائة ألف وأربعة وعشرين ألف سنة، وخلق عزّ وجلّ معه اثني عشر حجاباً: حجاب القدرة، وحجاب العظمة وحجاب المنّة، وحجاب الرحمة، وحجاب السعادة، وحجاب الكرامة، وحجاب المنزلة، وحجاب الهداية، وحجاب النبوّة، وحجاب الرفعة، وحجاب الهيبة، وحجاب الشفاعة، ثم حبس نور محمّد صلى الله عليه وآله في حجاب القدرة اثني عشر ألف سنة وهو يقول «سبحان ربّي الأعلى» وفي حجاب العظمة أحد عشر ألف سنة وهو يقول «سبحان عالم السّر [وأخفى]» وفي حجاب المنّة عشرة آلاف سنة وهو يقول «سبحان من هو قائم لا يلهو» وفي حجاب الرحمة تسعة آلاف سنة وهو يقول «سبحان الرفيع الأعلى» وفي حجاب السعادة ثمانية آلاف سنة وهو يقول «سبحان من هو دائم لا يسهو» وفي حجاب الكرامة سبعة آلاف سنة وهو يقول «سبحان من هو غنيّ لا

يفتقر» وفي حجاب المنزلة ستّة آلاف سنة وهو يقول «سبحان ربّي العليّ الكريم» وفي حجاب الهداية خمسة آلاف سنة وهو يقول «سبحان ذي[1] العرش العظيم» وفي حجاب النبوّة أربعة آلاف سنة وهو يقول «سبحان ربّ العزّة عمّا يصفون» وفي حجاب الرفعة ثلاثة آلاف سنة وهو يقول «سبحان ذي الملك والملكوت» وفي حجاب الهيبة ألفي سنة وهو يقول «سبحان الله وبحمده» وفي حجاب الشفاعة ألف سنة وهو يقول: «سبحان ربي العظيم وبحمده» ثم أظهر عز وجل اسمه على اللوح فكان على اللوح منوّراً أربعة آلاف سنة ثم أظهر على العرش مثبتاً سبعة آلاف سنة إلى أن وضعه الله عز وجل في صلب آدم عليه السلام إلى آخر ما مرّ في المجلد السادس[2].

وفي الخبر أيضاً عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال جبرئيل في ليلة المعراج: إنّ بين الله وبين خلقه تسعين ألف حجاب، وأقرب الخَلْق إلى الله أنا وإسرافيل وبيننا وبينه أربعة حُجب حجاب من نور، وحجاب من ظُلمة وحجاب من غمام، وحجاب من ماء»[3].

وفي خبر آخر أيضاً سُئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الحُجب فقال عليه السلام: «أول الحجب سبعة غلظ كل حجاب منها مسيرة خمسمائة عام، وبين كل حجابين مسيرة خمسمائة عام، والحجاب الثاني سبعون حجاباً بين كل حجابين مسيرة خمسمائة عام، وطوله خمسمائة عام، حجبة كل حجاب منها سبعون ألف ملك قوّة كل ملك منهم قوّة الثقلين منها ظلمة ومنها نور، ومنها نار، ومنها دخان ومنها سحاب ومنها

(١) في الخصال: ربّ العرش.
(٢) الخصال: ٨١ ـ ٨٢.
(٣) تفسير علي بن إبراهيم، ص٣٧٣.

برق، ومنها رعد ومنها ضوء ومنها رمل، ومنها جبل، ومنها عجاج ومنها ماء، ومنها أنهار، وهي حجب مختلفة غلظ كل حجاب مسيرة سبعين ألف عام، ثم سرادقات الجلال وهي سبعون سرادقاً في كل سرادق سبعون ألف ملك بين كل سرادق وسرادق مسيرة خمسمائة عام، ثم سرادق العز، ثم سرادق الكبرياء، ثم سرادق العظمة ثم سرادق القدس، ثم سرادق الجبروت ثم سرادق الفخر، ثم سرادق النور الأبيض، ثم سرادق الوحدانية وهو مسيرة سبعين ألف عام، ثم الحجاب الأعلى ثم انقضى كلامه عليه السلام وسكت فقال له عمر: لا بقيت ليوم لا أراك فيه يا أبا الحسن»[1].

---

(١) التوحيد: ص٢٠١.

البيت المعمور واللوح والقلم

١ ـ **البيت المعمور**: هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة تعمره الملائكة بما يكون منها فيه من العبادة عن ابن عباس وغيره وعنه أيضاً قال رسول الله ﷺ: «البيت الذي في السماء الدنيا يقال له «الضراح» وهو بفناء البيت الحرام لو سقط سقط عليه يدخله كل يوم ألف ملك لا يعودون إليه أبداً» وقيل: البيت المعمور هو الكعبة البيت الحرام معمور بالحجِّ والعمرة عن الحسن وهو أول مسجد وضع للعبادة في الأرض وعن النبي ﷺ أنه قال: «لما عرج بي إلى السماء انتهيت مع جبرئيل إلى السماء الرابعة فرأيت بيتاً من ياقوت أحمر فقال جبرئيل هذا هو البيت المعمور خلقه الله تعالى قبل السماوات والأرض، بخمسين ألف عام ثم قال: قم يا محمد فصلِّ وجمع الله النبيين فصلّيت بهم»[١].

٢ ـ **اللوح المحفوظ**: سأل ابن سلام النبي ﷺ قال: «فأخبرني عن اللوح المحفوظ مما هو؟ قال ﷺ: من زمرّدة خضراء أجوافه اللؤلؤ بطانته الرحمة قال: صدقت يا محمد قال: فأخبرني كم لحظة لرب العالمين في اللوح المحفوظ في كل يوم وليلة؟ قال: ثلاثمائة وستون لحظة. . .» وهذا اللوح يحفظ الله فيه أعمال عباده من خير ومن شر.

---

(١) البرهان.

٣ ـ القلم: ثم سأل ابن سلام النبي عن «ن والقلم» قال ﷺ: النون: اللوح المحفوظ والقلم: نور ساطع وذلك قوله: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم: ١] قال: صدقت يا محمد فأخبرني ما طوله، وما عرضه، وما مداده وأين مجراه؟ قال ﷺ: طول القلم خمسمائة سنة، وعرضه مسيرة ثمانين سنة له ثمانون سناً يخرج المداد من أسنانه»[1].

(١) البحار.

آياته في السّماءُ

وفيها أبحاث:

البحث الأول

في تعريفها وما يتعلق به

وهو الشيء الذي يرتفع عالياً، قيل: وإن لها صبغة نسبية حين يمكن أن تكون نسبة شيء إلى شيء آخر كنسبة السماء إلى الأرض، واشتق (الإسم) من هذه المادة أيضاً لأن التسمية عامل في رفعة وسموّ مقام المسمَّى.

وقيل: إن السماء قد تكون ملموسة ومادية كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النحل: ١٠] أو معنوية كقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وفي اللسان: السُّموُّ: تعني الارتفاع والعلو وبناء على ذلك فإن كلمة السماء لا تعني هذه السماء فقط بل تعني أي نحو من الإرتفاع والعلو إلا أنها جاءت في الآيات القرآنية بمعنى السماء التي نشاهدها والتي فيها الشمس والقمر والنجوم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] وهذه الآية تشير إلى أن للسموات عموداً إلا أنه غير قابل للرؤية فهو عمود غير مرئيّ، فأي شيء أن يكون هذا العمود؟

قيل: هو توازن قانون «الجذب» و«الطرد»، أي «القوة الطاردة المركزية» أجل إن تعادل الجذب والطرد هذا هو العمود القويّ الذي يرفع جميع كُرات المنظومة الشمسية، وبقية المنظومات في مداراتها بإحكام مع أنه غير مرئي كما ويمنع تساقطها على بعضها أو الابتعاد عن بعضها فيختل نظامها أو يحدث تصادم فيما بينها بشدَّة وتختفي أو تبتعد عن بعضها نهائيّاً، وينفصم الإرتباط بينها.

وقد روي هذا المعنى بتعبير «عمود من نور» في حديث لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمود من نور»[1].

والسماء الدنيا ليس لها مدلول واحد محدد فقد تكون هي أقرب المجرّات إلينا وهي المعروفة بسكة التبانة والتي يبلغ قطرها مائة ألف مليون سنة ضوئيّة.

وقال الرّازي: في قوله «ترونها» أقوال:

الأول: إنّه كلام مستأنف والمعنى: رفع السماوات بغير عمد، ثم قال: ترونها أي وأنتم ترونها أنّها مرفوعة بلا عماد.

الثاني: قال الحسن: في تقدير الآية تقديم وتأخير، تقديره: رفع السماوات ترونها بغير عمد.

الثالث: إنّ قوله «ترونها» صفة للعمد، والمعنى: بغير عمد مرئيّة أي للسماوات عمد ولكنّا لا نراها، قالوا: ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدّنيا ولكنّكم لا ترونه، وهذا التأويل في غاية السقوط لأنّه تعالى إنّما ذكر هذا الكلام ليكون حجّة على وجود

---

(١) بحار الأنوار.

الإله القادر ولو كان المراد ما ذكروه لما ثبتت الحجّة، لأنّه يقال: إنّ السماوات لمّا كانت مستقرّة على جبل قاف فأيّ دلالة [تبقى] فيها على وجود الإله؟

وعندي فيه وجه آخر أحسن من الكلّ، وهو أنّ العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على أنّ هذه الأجسام إنّما بقيت واقفة في الجوّ العالي بقدرة الله فحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى فصحّ أن يقال رفع السماوات بغير عمد ترونها أي لها عمد في الحقيقة إلّا أنّ تلك العمد هي قدرة الله تعالى في حفظه وتدبيره وإبقاؤه إيّاها في الجوّ العالي وأنّهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك[1].

وقال المجلسي: هذا الوجه الأخير الذي يتبجّح به ونسبه إلى نفسه أورده شيخنا الطبرسي ﵀ في مجمع البيان راوياً عن ابن عباس ومجاهد. ويتفرّع على ما تقدم ما يلي:

أ ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ... ﴿١١﴾﴾ [فصّلت: ١١] المراد من هذه الآية: إن الكرات السماوية كانت في بداية الأمر على هيئة دخان وهذه الآية تنسجم مع الإكتشافات العلمية للعلماء التي لم تزل حديثة العهد وفي ذلك دلالة واضحة على الإعجاز العلمي للقرآن الذي يكشف عن الحقيقة التي كانت مجهولة في زمن نزول القرآن بصورة كاملة.

وقد قال في نفحات القرآن: بأنه بالرغم من وجود فرضيات مختلفة لم تخرج عن حدود الفرضية في صدد كيفية نشوء العالم إلا أنه نظراً للمطالعات التي أجريت عن المجرّات والمنظومات التي تتّجه نحو التكوُّن والحدوث بدا من المسلَّم أن العالم كان على شكل أكوام من

---

(١) مفاتيح الغيب ج٥ ص٢٦٠.

غاز في بادىء الأمر نظير الشيء المضغوط الذي تنعزل منه قطعاته وتتطاير أوصاله على أثر دورانه حول نفسه وهذه القطع تبرد شيئاً فشيئاً ثم تظهر بشكل مائع أو جامد في كثير من الأحيان لتشكل الكرات المسكونة وغير المسكونة.

وبعبارة أخرىٰ تدلُّ مطالعات العلماء الفلكيين في مجال السحب والعوالم البعيدة عن متناول اليد، والتي تأخذ طريقها نحو الإتمام على أنهم أخرجوا هذه المسألة، وهي كون الدنيا على شكل أكوام من غاز البخار من حيِّز الفرضية واعتبروها من النظريات القطعية، وهذا الأمر وقع مورداً لتأييد المحافل العلمية الدولية.

ب ـ النظريات العلمية المسلَّمة عندهم اليوم هي:

١ ـ كان العالم في بادىء الأمر على شكل غاز وبخار.

٢ ـ كان العالم متصلاً في البداية ثم فصلت الكرات السماوية إحداها عن الأخرى.

٣ ـ بدأت خلقة الموجودات الحيَّة من الماء، وكل هذه الأمور تدلّ دلالة قطعية على حدوث العالم وعلى خلق جميع الموجودات الحيَّة وغير الحيَّة.

البحث الثاني

في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ (الملك، ٣)

في تفسيرها أقوال مختلفة: قال الشيخ أبو علي الطبرسي في تفسيره: المراد من قوله تعالى «طباقاً» واحدة فوق أخرى يعني: سماء فوق سماء ويؤيد هذا القول روايات عن أهل البيت عليهم السلام منها: قيل لأبي الحسن الرضا عليه السلام أخبرني عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ

ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ [الذاريات: ٧] فقال ﷺ: هي محبوكة إلى الأرض، وشبك بين أصابعه فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض والله يقول: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] فقال ﷺ: سبحان الله أليس الله يقول: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] فقلت: بلى فقال: ثم عمد ولكن لا ترونها قلتُ: كيف ذلك؟ جعلني الله فداك. قال: فبسط كفّه اليسرى ثم وضع اليمنى عليها فقال: هذه أرض الدنيا والسماء الدنيا عليها فوق قبّة والأرض الثانية فوق سماء الدنيا والسماء الثانية فوقها قبّة والأرض الثالثة فوق السماء الثانية والسماء الثالثة فوقها قبّة والأرض الرابعة فوق السماء الثالثة والسماء الرابعة فوقها قبّة والأرض الخامسة فوق السماء الرابعة والسماء الخامسة فوقها قبّة والأرض السادسة فوق السماء الخامسة والسماء السادسة فوقها قبّة والأرض السابعة فوق السماء السادسة والسماء السابعة فوقها قبّة وعرش الرحمن تبارك وتعالى فوق السماء السابعة وهو قوله عز وجل: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢][1].

وقال العلم الحديث (على ما ينقل): المراد بالسماوات السبع: الأجرام السبعة وهي: الغلاف الجوي. الشهب. النيازك. الأقمار. الكواكب السيارة. المذنبات. الشمس.

والغلاف الجوي هو: تلك الطبقة السميكة التي تتكوَّن من غازات أهمُّها: الأوكسجين الذي تتنفس منه جميع الكائنات الحية من إنسان وحيوان في البر والبحر... وثاني أوكسيد الكربون الذي يبني النبات منه جسمه....

وقال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧] قال في نفحات

(١) البرهان.

القرآن: صحيح أن أغلب المفسرين اعتبر هذه الآية رداً على جدال المشركين (في المعاد) أي أنكم تشكون في بعث الإنسان من جديد في حين أن خلق الإنسان ليس بأعظم من خلق السماوات بل إن خلق السماوات والأرض أهمُّ من ذلك وأعظم بيد أن جملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] هي إشارة إلى حقيقة أن عظمة السماوات كانت مجهولة لدىٰ معظم الناس سابقاً وبالرغم مما اكتشفه العلم الحديث من أسرار عظيمة ومهمّة جداً عن وجود البشر لم يكن واحد من الألف منه معروفاً في العصور السابقة إلا أن الإكتشافات التي تحقّقت بصدد عظمة السماوات تدلّ على أن خالقها (يعني السماوات) والأرض يفوق بمراتب خلق البشرية بكل ما تنطوي عليه من عجائب.

إن آخر ما توصل إليه العلماء بصدد السماوات وبالأخص المجرات يقول إنّه قد اكتشف إلى اليوم أكثر من مليارد مجرة بواسطة المراصد الفلكية الكبيرة. ومنظومتنا الشمسية ما هي إلاّ جزء ضئيل من إحدى المجرات التي تسمى بـ «درب التبانة»، ففي مجرتنا فقط أكثر من مائة مليارد كوكب والشمس بعظمتها هي إحدى النجوم المتوسطة في هذا الجيش الجرّار للنجوم.

الفضاء واسع جداً بحيث إن سبر أغواره يستحيل بالمركبات الفضائية البشرية فحسب، بل إننا لو ركبنا ذرات الضوء ـ التي تسير بسرعة فائقة تصل إلى ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة ـ لاستغرقت رحلتنا هذه ملياردات السنين الضوئية أيضاً حتى يمكننا أن نقطع المساحة المكتشفة في هذا العالم.

وكلما كان حجم المراصد الفلكية أكبر وأدق، كلما كشفت لنا الحجب عن عوالم جديدة أخرى.

بالرغم من ذلك فإنه لا يعلم أية عوالم وراء ما نعرفه ونشاهده. ولعل ما اكتشف بأكبر المراصد هو زاوية صغيرة وتافهة من هذا العالم العريض.

حسب قول أحد العلماء: إن كل هذا العالم الواسع الذي نشاهده ليس إلاّ ذرة صغيرة، وجزءاً لا حدود له من عالم أكثر عظمة[1].

ومن هنا نقف على عمق الآية الآنفة الذكر التي تقول: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

ونتساءل ألا يُعدُّ بيان مثل هذه الأمور من قبل فرد أُمي في عصر نزول القرآن وفي بقعة من أكثر بقاع العالم تأخراً، معجزة؟

ومجموعة أخرى من الغازات أهمها: بخار الماء، والأرجون، والهليوم. والينيوم. والنتروجين...

ونحن نعيش في أعماق هذا البحر الجوي ولولاه ما كانت تستقيم الحياة فوق سطح الأرض...

ويمتد هذا الغلاف الجوي من سطح الأرض إلى ارتفاع ألف كيلومتر.

والشهب هي: أجسام صلبة تجري بسرعة مذهلة في السماء، فإذا دخلت الجو الأرضي احترقت وذلك عند احتكاكها بذرّات الهواء الجوّي وعندئذٍ ترسم وراءها خطاً من نور لا يلبث أن ينطفىء، وتصبح رماداً قبل أن تصل إلى الأرض، وقد يصل منها كتل كبيرة أو صغيرة إلى الأرض...

---

(١) مجلة القضاء العدد ٥٦، سنة ١٩٧١.

وهي تجري في مدارات حول الشمس، وحين تمر الأرض بمستعمرات الشهب أثناء دورانها حول الشمس تقطع مدرارات الشهب، فتنهال عليها جموع الشهب في أسراب متوازية...

والنيازك هي: أجرام سماوية تحوم حول الشمس، وكثير ما يسقط النيزك حتى يصل إلى الأرض، فيحدث بها هولاً ودماراً شديدين مثل: نيزك (تانجوسكا).

الأقمار هي: توابع الكواكب... ومنها قمر الأرض الذي تولد منها ـ كما تقول بعض النظريات ـ حين جذبت الشمس قطعة من الأرض وهي مائعة وظلت تجذبها حتى انفصلت عن الأرض ودارت كما دارت الشمس والأرض من غرب إلى شرق... واستقرّ القمر أخيراً على مسافة (٢٣٨٨٦٠) ميلاً من الأرض...

وإذا كان للأرض قمر واحد، فلبعض الكواكب أقمار كثيرة، وهي كقمر الأرض حول كواكبها دوارة... فللمريخ قمران، وللمشتري اثنا عشر قمراً، ولزحل تسعة أقمار ولأورانوس خمسة، ونبتون له قمران...

والأقمار في عمومها تدور حول نفسها، وتدور حول كواكبها، وتدور مع كواكبها حول الشمس... ولكنها تدور في نسق، ينظم الأجرام جميعاً...

الكواكب السيارة هي: عطارد ـ الزهرة ـ الأرض ـ المريخ ـ المشتري ـ أورانوس ـ نبتون ـ بلوتو ـ وأكبرها حجماً المشتري، ومع ذلك فقطره عشر قطر الشمس ومعنى هذا أنّ حجمه (١/ ١٠٠٠) من حجم الشمس لأنّ أحجام الكرات تتناسب، ومكعبات أقطارها...

وأقربها إلى الشمس عطارد (٣٦ مليون ميل).. وأبعدها بلوتو (٣٦٧٠ مليون ميل) وكلها تدور حول الشمس كما تدور الرحى، قطبها الشمس في مركز الدوران...

المذنبات هي: أجرام سماوية صغيرة تتكون من المعادن، والعناصر التي تتكون منها الأرض، ويرى العلماء أنّها بقايا كوكب تحطم فيما بين المريخ والمشتري...

ومن أمثلة المذنبات مذنب (هالي) الذي اكتشف سنة (١٦٨٢م). وهي تدور حول الشمس في مدارات أهليلجة... وترى في السماء ذات رؤوس لامعة، وذيول مستطيلة، تحوم حول الشمس، وتملأ السماء نوراً وإشراقاً...

وفي النهج: قال ﷺ اللّهم رب السقف المرفوع، والجوّ المكفوف، الّذي جعلته مغيضاً للّيل والنهار، ومجرى للشمس والقمر، ومختلفاً للنجوم السيّارة، وجعلت سكّانه سبطاً من ملائكتك، لا يسأمون من عبادتك، وربّ هذه الأرض الّتي جعلتها قراراً للأنام.. ومدرجاً للهوامّ والأنعام، وما لا يحصى ممّا يرى وممّا لا يرى، وربّ الجبال الرواسي الّتي جعلتها للأرض أوتاداً، وللخلق اعتماداً[1].

بيان: السقف المرفوع السماء، والجوّ الهواء وما بين السماء والأرض، وكفّه أي جمعه وضمّ بعضه إلى بعض، وفسّر بعضهم الجوّ المكفوف بالسماء أيضاً والظاهر أنّ المراد به هنا الهواء بين السماء والأرض فإنّه مكفوف بالسماء، وقد ورد في الدعاء «وسدّ الهواء بالسماء» وغاض الماء يغيض غيضاً: نضب وقلّ، وكون السماء مغيضاً للّيل والنهار والشمس والقمر ظاهر لأنّها فيها تغيب، وأمّا الجوّ المكفوف فإن فسّر بالسماء فظاهر أيضاً، وإن فسّر بالهواء فلكون آثارها تظهر فيه ويرى بحسب الحسّ كذلك، وقيل: المراد به الهواء والفضاء بين السماوات فإنّه مكفوف بها، ويمكن حمله على البعد الموجود أو

---

(١) النهج: ج١، ص٣١٨ و٣١٩.

الموهوم الّذي هو مكان الفلك، وكفّها تحديدها وضبطها بالسماوات، ويمكن جعل الموصول صفة لمجموع السقف والجوّ لاتّصالهما بعدّهما شيئاً واحداً، فإنّ المجموع محلّ لتلك الآثار والأجرام في الجملة ومختلفاً للنجوم السيّارة. وقال ابن ميثم: المراد بالجوّ السماء، وكونه مغيضاً للّيل والنهار لأنّ الفلك بحركته المستلزمة لحركة الشمس على وجه الأرض يكون سبباً لغيبوبة الليل وعن وجهها لغيبوبة النهار، فكان كالمغيض لهما، وقيل: جعلته مغيضاً أي غيضة لهما، وهي في الأصل الأجمة كما يجتمع فيها الماء فتسمّى غيضة وينبت فيها الشجر، كأنّه جعل الفلك كالغيضة والليل والنهار كالشجر النابت فيها.

وقال الكيدريّ في شرحه: المغيض: الموضع الّذي يغيض فيه الماء أي ينضب ويقلّ، وجعل السماء والفلك مغيضاً للّيل والنهار مجازاً أي ينقص الله الليل مرّة والنهار أخرى وإن زاد في الآخر، وذلك بحسب جريان الشمس. وقال: الجوّ المكفوف كأنّه أراد الهواء المحدود الّذي ينتهي حدّه إلى السماء، والجوّ ما بين السماء والأرض كأنّه كفّ أي منع من تجاوز حدّه. وقال أبو عمرو: الجوّ ما اتّسع من الأودية، وكلّ مستدير فهو كفّة ـ بالكسر ـ كأنّه أراد الهواء الّذي هو على هيئة المستدير، لأنّه داخل الفلك الكرويّ الشكل، أو أراد بالجوّ الفلك العريض الواسع وبالمكفوف ما كان عليه كفّة من المجرّة والنيّرات فيكون من كفّة الثوب أو أراد بالمكفوف الفلك المحكم الخلق الشديد المتبرّىء عن الخلل والفطور من قولهم «عيبة مكفوفة» أي مشرجة مشدودة (انتهى).

والاختلاف: التردّد، وحمله على اختلاف الفصول بعيد. والسبط ـ بالكسر ـ الأمّة والقبيلة.

«لا يسأمون» أي لا يملّون «قراراً» أي محلّ استقرار، ودرج كقعد أي: مشى. والهوامّ: الحشرات. وقال ابن ميثم: قال بعض العلماء:

من أراد أن يعرف حقيقة قوله عليه السلام «ممّا يرى وممّا لا يرى» فليوقد ناراً صغيرة في فلاة في ليلة صيفيّة وينظر ما يجتمع عليها من غرائب أنواع الحيوان العجيبة الخلق لم يشاهدها هو ولا غيره. وأقول: يحتمل أن يراد ما ليس من شأنه الرؤية لصغره أو لطافته كالملك والجنّ. والاعتماد: الاتّكاء والاتّكال، إذ الجبال مساكن لبعضهم ومنها تحصل منافعهم.

النهج: عن نوف البكاليّ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال في خطبة: «فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطّدات بلا عمد، قائمات بلا سند، دعاهنّ فأجبن طائعات مذعنات، غير متلكّئات ولا مبطئات، ولولا إقرارهنّ له بالربوبيّة، وإذعانهنّ بالطواعية لما جعلهنّ موضعاً لعرشه، ولا مسكناً لملائكته، ولا مصعداً للكلم الطيّب والعمل الصالح من خلقه، جعل نجومها أعلاماً يستدلّ بها الحيران. في مختلف فجاج الأقطار، لم يمنع ضوء نورها ادلهمام سجف الليل المظلم، ولا استطاعت جلابيب سواد الحنادس أن تردّ ما شاع في السماوات من تلألؤ نور القمر» (إلى آخر الخطبة)[1].

توضيح: المراد بشواهد الخلق آيات الإبداع وعلامات التدبير المحكم، أو ما يشهد من الخلق بوجوده سبحانه وتدبيره وعلمه، أو ما حضر من خلقه أي ظهر وجوده بحيث لا يمكن لأحد إنكاره من علامات التدبير. ووطدت كوعدت أطدُها طدة ووطّدتها توطيداً: إذا أثبتّها بالوطء أو غيره حتّى تتصلّب، وتوطيد السماوات إحكام خلقها وإقامتها في مقامها على وفق الحكمة. والعمد ـ بالتحريك ـ: جمع عماد ـ بالكسر ـ وهو ما يسند به، أو جمع عمود. والسند ـ بالتحريك ـ: ما استندت إليه واتّكأت من حائط وغيره، والطائع:

---

(١) النهج، ج١، ص٣٣٩ و٣٤٠

المنقاد السلس. وأذعن أي انقاد ولم يستعص وتلكّأ: أي توقّف واعتلّ. والطواعية ـ كثمانية ـ: الطاعة، ولعلّ المراد بالملائكة المقرّبون أو الأكثر، لأن منهم من يسكن الهواء والأرض والماء، وصعود الكلم الطيّب والعمل الصالح صعود الكتبة بصحائف أعمال العباد إلى السماوات، وفيه إشارة إلى قوله سبحانه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وإجابتهنّ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت: ١١] وقد مرّ الكلام في تأويل الآية، وقيل: هنا إقرارهنّ بالربوبيّة له راجع إلى شهادة حال الممكن للحاجة إلى الربّ والانقياد لحكم قدرته، وظاهر أنّه لولا إمكانها وانفعالها عن قدرته وتدبيره لم يكن فيها عرش ولم يكن مسكناً للملائكة ولا مصعداً للكلم الطيّب والعمل الصالح من الخلق (انتهى). وأمّا تخصيصه ﷺ السماوات بالطاعة مع اشتراك الأرض لها في ذلك في الآية فلعلّه لكونها أكثر طاعة لكون مادّتها أقبل أو لشرفها. والعلم ـ بالتحريك ـ: ما يهتدى به والمختلف: الاختلاف أي التردّد، أو موضعه، أو هو من المخالفة. والفجّ: الطريق الواسع بين جبلين، والقطر: الجانب والناحية، فالمعنى: يستدلّ بها الحيارى في التردّد في فجاج الأقطار، أو في اختلاف الفجاج الموجودة في الأقطار، وذهاب كلّ منها إلى جهة غير ما يذهب إليه الآخر كاختلاف القوم في الآراء. والسجف ـ بالكسر وبالفتح ـ: الستر، والجلباب ـ بالكسر ـ: ثوب واسع تغطّي به المرأة ثيابها كالملحفة، وقيل: هو الخمار، وقيل: القميص، والحندس ـ كزبرج ـ: الشديد الظلمة، وشاع الشيء يشيع أي ظهر وذاع وفشا، وتلألأ القمر والبرق أي لمع.

المبحث الثالث

في بروج السماء

البروج الاثنا عشر:

ومن البروج التي تدخل فيها الشمس، وهذه البروج تمرّ بها الشمس في كل سنة مرة واحدة، وبسبب هذا المرور تحدث الفصول الأربعة في كل سنة، وهذه البروج يجمعها قول الشاعر:

حَمَلَ الثورُ جوزةَ السَّرطانِ ورعى الليثُ سنبلَ الميزانِ
ورمى عقربٌ من القوسِ جَدْياً واستقى الدَّلوُ بركةَ الحيتانِ

وأول برج تدخل فيه الشمس هو:

برج الحمل، وتدخله في يوم النوروز، وهو أول يوم من السنة الشمسية، وتبقى الشمس في هذا البرج (٣١) يوماً.

وبعد هذه المدة تنتقل إلى برج الثور، وتبقى فيه (٣١) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج الجوزاء، وتبقى فيه (٣١) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج السرطان. وتبقى فيه (٣١) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج الأسد، وتبقى فيه (٣١) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج السنبلة وتبقى فيه (٣١) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج الميزان، وتبقى فيه (٣٠) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج العقرب، وتبقى فيه (٣٠) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج القوس، وتبقى فيه ٢٩) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج الجدي وتبقى فيه (٢٩) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج الدلو، وتبقى فيه (٣٠) يوماً.

ثم تنتقل إلى برج الحوت، ونبقى فيه (٣٠) يوماً.

وبعد كمال ثلاثين يوماً في هذا البرج يتم دوران الشمس في البروج الاثني عشر.

وبذلك تكتمل السنة الشمسية، وبعدها مباشرة يصير عيد النوروز.

والبَرَجَ معناه هو: الشيء الظاهر فيقال: بَرَجَ الشيء: ظهر، وارتفع وتبرَّجت المرأة! أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب.

والبُرْج معناه: الحصن، أو القصر. وهو: بناء مرتفع على شكل مستدير أو مربع. ويكون منفرداً أو قسماً من بناية عظيمة.

وقال في (المنجد): بروج السماء أي: صور تقع فيها، وهي: اثنا عشر برجاً....

وإذا أردنا أن نعرف في أثناء السنة أنَّ الشمس في برج من هذه البروج علينا أن نبدأ الحساب من يوم النوروز على التفصيل المتقدم.

وبمناسبة ذكرى البروج أذكر الأوقات التي يكره فيها الزواج:

الأول منها: إذا صار القمر في برج العقرب، وإذا أردنا أن نعرف بأنّ القمر هو في أي برج من البروج الاثني عشر فعلينا أن نطبق القاعدة الآتية، والقاعدة هي:

خذ ما مضى من الشهر العربي، ثم أضف إليه مثله، وزد عليه خمسة أيام، ثم قسم المجموع على خمسة، معطياً كل برج خمسة أيام، مبتدئاً من البرج الذي فيه الشمس، فالقمر يكون في أول برج ينتهي إليه العدد.

مثال ذلك: إذا فرضنا أنّه مضى من الشهر العربي خمسة أيام،

وأنّ الشمس في برج الحوت، نزيد عليه خمسة أيام، فيكون المجموع عشرة أيام ثم نزيد خمسة أخرى فيكون المجموع خمسة عشر يوماً ثم نقسمه على خمسة من البروج يساوي ثلاثة من البروج فالقمر يكون في برج الثور.

ومثال أوضح: تقسم الخمسة عشر يوماً في المثال المتقدم على البروج، كل واحد نعطيه خمسة أيام من خمسة عشر يوماً، نبدأ من البرج الذي فيه الشمس، نفرض أنّ الشمس في برج الحوت، فنعطيه خمسة أيام، وبعده الحمل فنعطيه خمسة أيام أيضاً، وبعده الثور. فنعطيه خمسة أيام أيضاً. انتهى العدد ببرج الثور فيكون القمر في برج الثور.

قال الإمام الصادق ﷺ: «من تزوج والقمر في العقرب لم ير الحسنى».

والثاني: من الأوقات التي يكره فيها الزواج إذا كان القمر في المحاق:

قال في الحدائق: وينبغي أن يعلم أنّ المحاق إسم الليالي الثلاث من آخر الشهر، إن كان الشهر تاماً، لأنّه عن الليالي التي يمحق فيها ضوء القمر لطلوعه مع الشمس، فتمحقه.

وروى الشيخ في حدائقه عن علي بن محمد العسكري عن آبائه ﷺ في حديث قال: «من تزوج والقمر في العقرب لم ير الحسنى، ومن تزوج في محاق الشهر، فليسلم لسقط الولد».

وقال الشيخ: المراد بالتزويج المنهي عنه عند أكثر الأصحاب هو: العقد بناء على أنّ الزواج حقيقة في العقد، لكن قال بعد ذلك الأحوط الإجتناب في كلا الأمرين من العقد والدخول لما تقدم من الإشكال الذي ذكروه.

الثالث: من هذه الأوقات المكروهة هي: الثالث، والخامس، والثالث عشر، والسادس عشر، والحادي والعشرون، والرابع والعشرون، والخامس والعشرون، من كل شهر، وهذه الأيام في كل شهر تسمى الكوامل.

وقد ورد عن أهل البيت ﷺ إنّها أيام نحسة فلا تعمل فيها عملاً واتق فيها المنازعة، والخصومة، ولا تطلب فيها حاجة، ولا تخرج فيها من بيتك لسفر أو غيره، ومن أراد أن يطلع على أدلتها فليراجع كتاب (الحدائق الناضرة المجلد ٢٣ ـ صفحة ٢٩).

البحث الرابع

في رتق السماء والأرض وفتقهما

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾

[الأنبياء: ٣٠].

سأل الأبرش أبا عبد الله ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] بما كان رتقهما، وبما كان فتقهما؟ فقال أبو عبد الله ﷺ: يا أبرش هو كما وصف نفسه، كان عرشه على الماء، والماء على الهواء والهواء لا يحد، ولم يكن يومئذٍ خلق غيرهما والماء يومئذٍ عذب فرات، فلمّا أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربت الماء حتى صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه في موضع البيت، ثم جعله جبلاً من زبد ثم دحا الأرض من تحته، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦] ثم مكث الربّ تبارك وتعالى ما شاء فلمّا أراد أن يخلق السماء أمر الرياح فضربت البحور، حتى أزبدتها فخرج من ذلك الموج والزبد من وسطه دخان ساطع من

غير نار، فخلق منه السماء، وجعل فيها البروج والنجوم ومنازل الشمس والقمر، وأجراها في الفلك، وكانت السماء خضراء على لون الماء الأخضر، وكانت الأرض غبراء على لون الماء العذب وكانتا مرتوقتين ليس لهما أبواب ولم يكن للأرض أبواب وهو النبت ولم تمطر السماء عليها فتنبت، ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات (تفسير القمي).

وللمفسرين أحاديث مطولة في صدد «الرتق» و«الفتق» الموجودتين في الآية المتقدّمة والتي هي في الأصل بمعنى «الاتّصال» و«الانفصال» اختار البعض هذا المعنى وهو: السماء والأرض كانت على هيئة أكوام عظيمة من البخار والغاز المحْرق، وتجزَّأت شيئاً فشيئاً على أثر الإنفجارات الداخلية، وحركتها حول نفسها، ومن ثم ظهرت الكواكب والنجوم من جملتها المنظومة الشمسية.

والبعض الآخر اختار هذا المعنى وهو: إن ذلك إشارة إلى الوحدة النوعية في مواد العالم بحيث كانت متداخلة في بداية الأمر بحيث ظهرت على هيئة مادة واحدة لكنها انفصلت هذه المواد إحداها عن الأخرى وتشكّلت مع مرور الزمان تركيبات جديدة.

وجمع آخر اختار هذا المعنى وهو: إن ذلك اشارة إلى عدم نزول المطر ونمو النباتات من الأرض بمعنى أن السماء كانت في بداية الأمر متَّصلة مع بعضها الآخر فلم يكن ينمو النبات، ثم بأمر من الله تعالى انفجرت السماء ونزل المطر، وتفتَّحت الأرض فنمت النباتات.

وقد أشارت إلى المعنى الأخير روايات متعددة من طريق أهل البيت ﷺ وكذلك قسم من الروايات الواردة من طريق العامة في حين تتضمَّن بعض الروايات الأخرى الإشارات إلى المعنى الأول، وتبدو الإشارات إلى هذا الإتصال أيضاً في الخطبة الأولى من نهج البلاغة،

وفي كل الأحوال ينسجم ظاهر الآية مع التفسير الأول، علاوة على عدم وجود مانع من الجمع بين التفاسير المتقدّمة فمن الممكن الجمع بين كل من المعاني الثلاثة في المفهوم الجامع للآية ومما يسترعي الإنتباه هو قول الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢].

وتدل هذه الآيات بوضوح أيضاً على كون السماء مخلوقة قبل الأرض ثم إن ظهور الماء والنباتات والجبال كان بعد الانتهاء منها.

وبناءً على ذلك يكون هذا الأمر هو الشيء الذي يؤكّد عليه العلم الحديث وهو يرى أن الأرض وجدت بعد وجود الشمس، ويعتبر ظهور الماء من سطح الأرض ومن ثم النباتات، وكذلك ظهور الجبال بعد خلق الأرض[١].

البحث الخامس

في فوائد السماء ومنافعها

وهي كثيرة يصعب إحصاؤها لكن نكتب ما نستطيع بيانه في فروع:

١ ـ **من فوائد السماء:** النظر وذلك إن كثرة آيات الله في عرض السماوات وجمال السماء في الليل، دفع القرآن الكريم والأحاديث إلى دعوة الناس بأسرهم وخص المؤمنين منهم إلى التفكر في السماوات من أجل كسب المزيد من الهداية والإيمان فقد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦].

---

(١) نفحات القرآن، ج٨.

ومن ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠] فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن لاكها بين لحييه (أي قرأها) ثم لم يتدبرها، فقد ذمَّ كل إنسان يقرأ هذه الآية ولم يتفكر ويتدبَّر بما فيها من الآثار التي تدل على وجود الله تعالى لأن الآية ذكرت ضمناً الأجرام السماوية والأرضية بما فيها من آثار الصنع والقدرة، والعلم بهذه الموجودات التي تدل على وجود صانعها، وعلى قدرته وعلمه، وهذا يعني أن الإستدلال على وجود الله واجب.

وقد أمرت الروايات: «المستيقظين في الأسحار» خاصة، أن ينظروا إلى السماء أولاً حين ينهضون «الصلاة الليل» وأن يقرأوا الآيات الأخيرة من سورة آل عمران التي تنعكس فيها جميع هذه الحقائق بنحو عرفاني، ثم يتوجهون نحو العبادة (حيث يمتزج الدعاء بعطر التوحيد ومعرفة الله) واعلم أن التمعن في خلق السماوات والأرض يكفي في اقتلاع كل نوع من أنواع الشك والريب في (وجود الله ووحدانيته وقدرته) من قلب الإنسان.

٢ ـ من فوائد السماء: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] فهل هناك سماء في العالم على هيئة سقف يحفظ من تغلغل الكائنات الخارجية؟ نعم... فالسماء هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الفضاء الذي يحيط بالأرض ويبلغ سمكه مئات الكيلومترات فهذه الطبقة التي تتألف من الهواء المضغوط اللطيف، وبقية الغازات المحيطة بجوانب الكرة الأرضية على هيئة سقف دائري قوية بالقدر الذي يصفها بعض العلماء بأن لها مقاومة بقدر سقف فولاذي بسمك عشرة أمتار، وهي لا تمنع نفوذ الإشعاعات المدمرة فحسب بل تمنع سقوط الصخور الفضائية التي تنجذب نحو الأرض باستمرار لاصطدامها بهذه الطبقة الجويَّة بسرعتها الخارقة فتكون مانعاً

لحركة تلك الصخور، كما ويؤدّي هذا الإصطدام إلى احتراق تلك الصخور وانصارها، ويمنعها أيضاً عن الوقوع بقدرته أو عن الفساد والإنحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته تعالى أو عن استراق السمع بالشهب.

والمراد بالصخور الفضائية: الشهُبُ وهي أجسام صلبة تجري بسرعة مذهلة في السماء فإذا دخلت الجوّ الأرضي احترقت.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]

وهذه الآية تحكي لنا قول المشركين النابع من إحساسهم بأنه لا بدَّ للسماء والأرض من خالق لأنه في وجهة نظرهم يستحيل أن تكون السماوات والأرض (بما فيهما من مخلوقات) قد وجدت من تلقاء نفسها.

٣ ـ من فوائد السماء: الغلاف الجوّي وهو:

أ ـ غلاف غازي يحيط بالأرض: يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة إلينا منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية كما تقدم ولولا وجود هذا الغلاف لتسلطت علينا الآثار المدمِّرة الناتجة عن اصطدام أشعة الشمس فوق البنفسجية فهي أكثر خطراً من آثار الشهب.

ب ـ الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض: يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف ويصير مطراً يحيي الأرض بعد موتها.

والمطر: هو مصدر الماء العذب ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة.

الغلاف الجوّي: هو تلك الطبقة السميكة التي تتكون من غازات أهمها: الأوكسجين الذي تتنفس منه جميع الكائنات الحيَّة من إنسان وحيوان في البر والبحر... ... وثاني أوكسيد الكربون الذي يبني النبات منه جسمه...

ومجموعة أخرى من الغازات أهمها: بخار الماء، والأرجون، والهليون، والينيوم. والنتروجين....

ويمتد هذا الغلاف الجوي من سطح الأرض إلى ارتفاع ألف كيلومتر ونحن نعيش في أعماق هذا البحر الجوي ولولاه ما كانت الحياة تستقيم فوق سطح الأرض... وأي فائدة أكبر من هذه الفائدة.

٤ - **من فوائد السماء**: لقد لاحظ العلماء: إن النيتروجين بوصفه غازاً ثقيلاً أقرب إلى الجمود يقوم عند انضمامه إلى الأوكسجين في الهواء بتخفيفه بالصورة المطلوبة للاستفادة منه ولاحظوا هنا أن كميَّة الأوكسجين التي ظلّت طليقة في الفضاء وكميَّة النيتروجين التي ظلّت كذلك منسجمتان تماماً، بمعنى أن الكمية الأولى هي التي يمكن للكميَّة الثانية أن تحققها. فلو زاد الأوكسجين أو قلّ النيتروجين لما تمَّت عملية التخفيف المطلوبة التي تتوقف عليها حياة كل إنسان، وكل حيوان.

والنيتروجين: هو عنصر أساسي في بناء (تركيب) المادة الحية ودورته على مسارين:

الأول: تمثَّل في أنَّ بعض الكائنات الحيَّة لها القدرة على تثبيت نيتروجين الجوّ في التربة الأرضية، وتحويله إلى أملاح، ومن ثمَّ يمتصه النبات ليكون غذاءً للحيوان والإنسان.

الثاني: ناشىء من التفاعل الذي يحدثه البرق بين النيتروجين

والأوكسجين في الجوّ حيث يُذوِّبُ غاز النيتروجين في مياه الأمطار ليصل إلى النَّبات، وهذا الإستهلاك الضخم لغاز النيتروجين يقابله ولادة نيتروجين جديد حيث تقوم البكتيريا بتحليل المواد العضوية والأجسام الميتة إلى نيتروجين يصعد للجوّ وبذلك يحدث توازن في نسبة النيتروجين. وهكذا نجد دورته من الهواء إلى التربة فالماء إلى النبات فالحيوان ثم إلى الهواء مرة أخرى.

واعلم أنه يمكن القول: إن سلامة الحياة على الأرض بفضل النيتروجين الذي سخَّره الله تعالى ليحفظ الأرض من الإشعاعات الشمسية (الفوق بنفسجية) ومن خصائص هذه الأشعة إن طاقة إشعاعها تفوق طاقة الترابط لجزئيات الخلية الحيَّة الموجودة في أجسام الكائنات الحيَّة، وهذا يعني أنه في حالة تعرض أي كائن حي لهذه الأشعة سوف تتحطم طاقة الترابط للجزئيات الخلوية ويتسبب عند ذلك هلاك الكائن الحي والمعجزة فيه: هي موجودة في جميع فروعه بكل وضوح حيث إنه ظاهرة كونية لا يشك أحد في أن منظماً ومدبراً حكيماً قادراً على كل شيء هو الذي أقام هذا النظام في هذه الظواهر التي تحتاج إلى قوة حاذقة ودقة فائقة يعجز عنها البشر.

٥ ـ من فوائد السماء: وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً... ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٨]، وهو المطر، وقيل: كل ماء كان في الأرض فهو من السماء. ثم إنه تعالى ينزله إلى بعض المواضع ثم يقسّمه قوله: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزُمَر: ٢١] أي فأدخله ونظّمه ينابيع في الأرض عيوناً ومسالك ومجاري كالعروق في الأجسام قوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزُمَر: ٢١] من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك أو مختلفاً أصنافه من بُرٌ وشعير وسمسم ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ [الحَديد: ٢٠] وذلك لأن إذا تم جفافه جاز له أن ينفصل من منابته، وإن لم تتفرق أجزاؤه فتلك الأجزاء كأنها هاجت للتفرق ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ [الزُمَر: ٢١] أي يابساً

وقيل: فتاتاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٣٧] يعني أن من شاهد هذه الأحوال في النبات علم أن أحوال الحيوان والإنسان كذلك وأنّه وإن طال عمره فلا بد له من الانتهاء إلى أن يصير مصفرّ اللون متحطم الأعضاء والأجزاء ثم عاقبته الموت فإذا كانت مشاهدة هذه الأحوال في النبات مذكّرة حصول مثل هذه الأحوال في نفسه وفي حياته فحينئذ تعظم نفرته من الدنيا وطيّباتها قوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣] أي أسباب رزق كالمطر ﴿يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [الشورى: ٢٨] أي المطر الذي يغيثهم من الجدب والقحط ولذلك خصّ بالنافع منها ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨] أيسوا منه ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨] في كل شيء من سهل وجبل ونبات وحيوان ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ [الشورى: ٢٨] الذي يتولّى عباده بإحسانه ونشر رحمته ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨] المستحق للحمد على تلك النعم. وقوله: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [الزخرف: ١١] أي بمقدار ينفع ولا يضر ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [الزخرف: ١١] لا نماء فيه... ويحتمل المراد بالسماء: الفلك والسحاب وجهة العلو(١).

وقال الرازي: فإن قيل: أفتقولون إن الماء ينزل من السماء على الحقيقة أو من السحاب أو تجوّزون ما قاله بعضهم من أن الشمس تؤثّر في الأرض فتخرج منها أبخرة متصاعدة فإذا وصلت الجوّ بردت فثقلت فنزلت من فضاء المحيط إلى ضيق المركز اتّصلت، فتولّد من اتّصال بعض تلك الذرّات بالبعض قطرات هي قطرات المطر.

قلنا: بل نقول: إنه ينزل من السماء كما ذكر الله تعالى وهو الصادق في خبره، وإذا كان قادراً على إمساك الماء في السحاب فأيُّ بُعد في أن يمسكه في السماء؟ وأما قول من يقول: إنه من بخار الأرض فهذا ممكن في نفسه ولكن القطع بأنه كذلك لا يمكن إلا بعد القول بنفي الفاعل

---

(١) أنوار التنزيل.

المختار وقِدَم العالم وذلك كفر، لأنا متى جوَّزنا أن الفاعل المختار قادر على خلق الجسم فكيف يمكننا مع إمكان هذا القسم أن نقطع بما قالوه؟

٦ ـ **نزول الرزق من السماء:** كما أشار الله تعالى إليه في قوله: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢] يعتبر نزول الرزق من أحد خصائص السماء فقد كتب المفسر الطنطاوي (وهو عالم مصري ضالع في العلوم الحديثة وله تحقيقات مفصلة ومسهبة بهذا الشأن) إن العلم الحديث توصل إلى أن الفضاء المحيط بالأرض امتداداً من سطحها وحتى قطر ١٦ فرسخاً يشتمل على وجود المواد الغذائية، وأن الجزء الذي تنتجه التربة من الغذاء إنما حصل بفضل وجود الهواء، ولا زالت التحقيقات جارية من أجل التوصل إلى إمكانية الحصول على الغذاء من الهواء مباشرة وقيل: معنى السماء في الآية: هو السحاب لأنه مرتفع في الفضاء باعتبار وجود الفضل والبركة فيه ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحجر: ٢١].

٧ ـ **نزول البركات من السماء:** وفوق نزول الأرزاق فإن ألوان البركة وأشكال الرحمة الإلهية تنزل من السماء حيث محل وجود الملائكة إذ أن الملائكة بأصنافهم العديدة، وعظمة خلقهم وضخامة هيئاتهم نجدهم قد عمروا السماوات، ومن الأمور الأخرىٰ التي أعطت للسماء رفعتها درجة ومنزلة هو أن جعل الله تعالى العرش فوقها ووضع الجنة عليها فقد جاء من سأل الإمام كشّاف الحقائق جعفر بن محمدالصادق ﷺ قائلاً: يقول الله عن الجنة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] فأين هي الآن؟ (قاصداً أين يكون مقرها إن كان عرضها لوحده يعدل السماوات والأرض مجتمعات، فما بالك بطولها؟) فأجابه الإمام ﷺ: «الجنة فوق السماوات، والعرش من فوقهن».

ومن الأمور الأخرى التي تدل على رفعة السماء هو: إن الله

تعالى يأمر الملائكة المكلفة بحمل صحائف أعمال المؤمنين بالعروج بها إلى السماء تكريماً لمقام المؤمنين وإلى هذا المعنى أشار تعالى بقوله: ﴿...إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] فضلاً عن أن أرواح المؤمنين يصعد بها إلى السماء.

وفي البحار قال المجلسي: وأما منافع السماء: فإن الله تعالى زينها بمصابيح ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]، وبالقمر ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وبالشمس ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] وبالعرش ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] وبالكرسي ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وباللوح ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢٢] وبالقلم ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ١] وسمّاها سقفاً محفوظاً وسبعاً طباقاً، وسبعاً شداداً، وذكر أن خلقها مشتمل على حكم بليغة، وغايات صحيحة ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ١٩١]، ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [ص: ٢٧] وجعلها مصعد الأعمال ومهبط الأنوار، وقبلة الدعاء، ومحل الضياء والصفاء، وجعل لونها أنقع الألوان وهو المستنير، وشكلها أفضل الأشكال وهو المستدير ونجومها رجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر، وقيّض للشمس طلوعاً وسهّل معه التقلّب لقضاء الأوطار في الأطراف، وغروباً يصلح معه الهدوء والقرار في الأكناف، لتحصيل الراحة وانبعاث القوّة الهاضمة وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء. وأيضاً لولا الطلوع لانجمدت المياه، وغلبت البرودة والكثافة، وأفضت إلى جمود الحرارة الغريزيّة وانكسار سورتها، ولولا الغروب لحميت الأرض حتّى يحترق كلّ من عليها من حيوان ونبات، فهي بمنزلة السراج يوضع لأهل بيت بمقدار حاجتهم، ثمّ يرفع عنهم ليستقرّوا ويستريحوا، فصار النور والظلمة مع تضادّهما متظاهرين على ما فيه صلاح قطّان الأرض.

البحث السادس

في الصواعق

وهي جمع والمفرد: صاعقة وهي ظاهرة جوية تحدث من تولّد الشحنات الكهربائية في السحب من احتكاك الهواء بها عند سيرها في الجوّ ولاسيما أثناء العواصف الشديدة فإذا كانت شحنة إحدى السحب أكثر من الأخرى التي اقتربت منها حدث التفريغ بينهما والشرارة المكوّنة أثناء التفريغ تسمّىٰ بالبرق كما أن التمدّد الشديد لهذا الهواء الساخن «بسبب الفرقعة التي تصحب البرق» تسمّىٰ بالرعد والشرارة إذا أخذت في الهبوط نحو الأرض سميت: صاعقة.

وفي الميزان «الصواعق جمع صاعقة وهو القطعة النارية النازلة من السماء عن برق ورعد» قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ...﴾ [الرعد: ١٣].

وفي الحديث: «قال أبو عبد الله عليه السلام قال لي أبي عليه السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله عز وجل جعل السحاب غرابيل المطر تذيب البَرَدَ حتى يصير ماء لكي لا يضرّ شيئاً يصيبه والذي ترون فيه من البَرَد والصواعق نقمة من الله عز وجل يصيب بها من يشاء من عباده ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تشيروا إلى المطر ولا إلى الهلال فإن الله يكره ذلك»[(١)].

وآخر عن أبي عبد الله عليه السلام: «الصواعق تصيب المؤمن والكافر ولا تصيب ذاكراً».

وفي آخر قال عليه السلام: «الصواعق لا تصيب ذاكراً قيل وما الذاكر؟ قال من قرأ مائة آية»[(٢)].

---

(١) البحار.

(٢) البرهان.

وفي آخر: وسئل ﷺ عن ميتة المؤمن قال ﷺ: «يموت المؤمن بكل ميتة غرقاً ويموت بالهدم، ويبتلى بالسبع ويموت بالصاعقة. ولا تصيب ذاكراً»(١).

البحث السابع
آيات السماء

٨ ـ قال في جنة الخلد (رض): وقد أثار البعض شبهة مفادها: أن لا شرف للسماء على الأرض إذ أن الأرض هي محل هبوط الوحي الإلهي، ويكفي الأرض فخراً وشرفاً أنها ضمّت أجساد أشرف الكائنات سيدنا محمد ﷺ وعترته الطاهرين ﷺ.

والرد على هذه الشبهة نقول فيه: ـ السماء محل صدور الوحي، وقرار أرواح أهل البيت ﷺ نعم إن الأرض كانت محلاً لنزول الوحي الإلهي، ولكن السماء كانت محل صدور ذلك الوحي ومن البديهي أن يكون محل الصدور أعظم شرفاً من محل الهبوط، ثم إن الأرض تحتضن الأبدان الطاهرة للنبي وآله ﷺ، ولكن السماء محل قرار أرواحهم ﷺ، وللتدليل على صحة ما ذهبنا نستشهد بهذه الرواية الشريفة المروية عن الإمام الصادق ﷺ حيث يقول: «إن جدي الحسين ﷺ لعلى يمين العرش وهو ينظر إلى زوّار قبره» إذاً ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ (الرحمن: ٧) تعني أن الله عز وجل شرّفها برفعتها فأين منها الأرض، وسائر الأفلاك؟

ثم قال: لماذا نرفع أيدينا بالدعاء نحو السماء؟

جاء رجل إلى أمير المؤمنين ﷺ وسأله: أليس الله موجوداً في

---

(١) البرهان.

آياته في الشمس

البحث الأول

في الشمس

الشَّمْسُ: هي كرة هائلة من غازات متوهِّجة، وإنها أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة، وقطر الشمس عند الوسط: يقرب من (مليون وأربعمائة ألف كيلومتر) وتبلغ الفاصلة بيننا وبينها (١٥٠) مليون كيلومتر تقريباً وأن نورها يقطع طريقه بسرعة (٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية يصل إلينا خلال (٨) دقائق تقريباً، وإن للشمس ثلاثة أنواع من الحركة تقريباً:

١ ـ حركة حول نفسها (كل ٢٥ يوماً مرة واحدة تقريباً).

٢ ـ وحركة مع المنظومة الشمسية في قلب المجرَّات نحو الصورة الفلكية (الجاثي) حيث تبتعد عن مكانها أكثر من ٦٠٠ كم كل ساعة.

٣ ـ وحركة حول مركز المجرّات، وتدور حول هذا المركز خلال هذه الحركة مرَّة واحدة كل (٢٥٠) مليون سنة وحرارة سطح الشمس تعادل (٦٠٠٠٠) سانتغراد تقريباً وحرارة عمقها تبلغ (٢) مليون درجة سانتغراد وتندلع من سطح الشمس ألسنة نيران يبلغ ارتفاعها أحياناً (١٦٠) ألف كم.

هذا ما ورد من أقوالهم وكلها تقديرات قابلة للزيادة والنقصان.

الحركة المنتظمة للشمس والقمر:

قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥] وكلمة (بحسبان) تعني؛ الحساب والانتظام والترتيب ويكون معنى الآية إن الشمس والقمر يتحركان بحركة منتظمة ومحسوبة دون أدنى تغيير أو عشوائية في دورانهما.

ومن الباعث على الدهشة ما تم كشفه في هذا العصر من أن الشمس ومنظومتها تتحرك بسرعة مذهلة نحو نجم يقع في كبد السماء يسمى النجم: (فيغا) أو (النسر الواقع).

عن حركة الشمس: فهي تجري ضمن مدار محدد ومعروف يقدَّر بعشرين مليون كيلومتر في الثانية الواحدة من حيث سرعة الحركة أي أنها تطوي بسرعتها في الدقيقة الواحدة ألفاً ومائتي مليون كيلومتر مع منظومتها التي تصحبها برفقتها وهي (الأرض، عطارد، المريخ، المشتري، زحل، الزهرة، أورانوس، نبتون، بلوتو) باتجاه النجم (فيغا) وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨].

ومن كل ما سبق نتوصل إلى أن الله تعالى خلق بقدرته القاهرة الشمس ثم جعل لها فلكاً تسبح فيه، فانظر إلى عظمة الله وقدرته التي لا يعجزها شيء وقد شهدت له إحدى مخلوقاته وهي الشمس بحجمها الهائل وبحركتها المذهلة في مدار منتظم لا تزيد على العشرين مليون كيلومتر في الثانية ولا تنقص عنه شيئاً وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥].

وقال المجلسي: معنى «بحسبان» أي يجريان بحساب معلوم مقدَّر

في بروجهما ومنازلهما، وتتَّسق بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات، ويعلم السنون والحساب.

ـ **توحيد المفضل**: قال: قال الصادق ﷺ: فإن قالوا فلم يُختلف فيه أي في ذاته تعالى وصفاته: قيل لهم: لقصر الأفهام عن مدى عظمته، وتعدّيها أقدارها في طلب معرفته، وأنّها تروم الإحاطة به وهي تعجز عن ذلك وما دونه فمن ذلك هذه الشمس الّتي تراها تطلع على العالم ولا يوقف على حقيقة أمرها، ولذلك كثرت الأقاويل فيها، واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها، فقال بعضهم: هو فلك أجوف مملوء ناراً له فم يجيش بهذا الوهج والشعاع، وقال آخرون: هو سحابة، وقال آخرون: هو جسم زجاجيّ يقبل نارية في العالم ويرسل عليه شعاعها وقال آخرون: هو صفو لطيف ينعقد من ماء البحر، وقال آخرون: هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار، وقال آخرون: هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربع. ثمّ اختلفوا في شكلها فقال بعضهم: هي بمنزلة صفيحة عريضة، وقال آخرون: هي كالكرة المدحرجة، وكذلك اختلفوا في مقدارها فزعم بعضهم أنّها مثل الأرض سواء وقال آخرون: بل هي أقل من ذلك وقال آخرون: بل هي أعظم من الجزيرة العظيمة وقال أصحاب الهندسة: هي أضعاف الأرض مائة وسبعون مرَّة ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم في الشمس دليل على أنهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها، وإذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر ويدركها الحسُّ قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها فكيف ما لطف عن الحسِّ واستتر عن الوهم؟!

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢] فيه أنواع من الدلالة على وجود الإله الحق وحكمته وقدرته. إذ أصل تلك الحركات السريعة واستمرارها وكونها على أقدار مخصوصة وكون بعضها مشرقيّة وبعضها مغربية. وبعضها مائلة إلى الشمال

وبعضها مائلة إلى الجنوب ممّا يدلّ دلالة قطعية على وجود قادر قاهر كامل في العلم والحكمة واللطف والرحمة. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣] قال الرازي: فيه قولان:

الأول: قال ابن عباس: للشمس مائة وثمانون منزلاً كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد واحد منها في ستة أشهر مرة أخرى، وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلاً فالمراد بقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: ٥] هذا، وتحقيقه أنه تعالى قدّر لكل واحد من هذه الكواكب سيراً خاصاً إلى جهة خاصة بمقدار خاصّ من السرعة والبطء ومتى كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حال أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك.

والثاني: المراد كونهما متحرّكيْن إلى يوم القيامة، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ١-٢]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: ١]، ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة: ٩][1].

ـ توحيد المفضل: قال: قال الصادق عليه السلام فكّر يا مفضّل في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي النهار والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كلّه فلم يكن الناس يسعون في معايشهم، ويتصرّفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم ولم يكونوا يتهنّأون بالعيش مع فقدهم لذّة النور وروحه، والإرب في طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الإطناب في ذكره، والزيادة في شرحه، بل تأمّل المنفعة في غروبها،

---

(١) مفاتيح الغيب، ج٥ ص٢٦١.

فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة، لسكون أبدانهم، وجموم حواسّهم، وانبعاث القوّة الهاضمة لهضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء، ثمّ كان الحرص سيحملهم من مداومة العمل ومطاولته على ما يعظم نكايته في أبدانهم، فإنّ كثيراً من الناس لولا جثوم هذا الليل لظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء ولا قرار، حرصاً على الكسب والجمع والادّخار، ثم كانت الأرض تستحمي[1] بدوام الشمس بضيائها[2] وتحمي كلّ ما عليها من حيوان ونبات، فقدّرها الله بحكمته وتدبيره تطلع وقتاً وتغرب وقتاً، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم، ثمّ يغيب عنهم مثل ذلك ليهدأوا ويقرّوا، فصار النور والظلمة مع تضادهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

ثمّ فكّر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما في ذلك من التدبير والمصلحة، ففي الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات، فيتولّد فيهما موادّ الثمار، ويستكثف الهواء، فينشأ منه السحاب والمطر وتشتدُّ أبدان الحيوان وتقوى. وفي الربيع تتحرّك وتظهر الموادّ المتولّدة في الشتاء، فيطلع النبات، وتنور الأشجار، ويهيج الحيوان للسفاد. وفي الصيف يحتدم الهواء، فتنضج الثمار. وتتحلّل فضول الأبدان، ويجفّ وجه الأرض فتهيّأ للبناء والأعمال. وفي الخريف يصْفو الهواء، وترتفع الأمراض، وتصحّ الأبدان ويمتدّ الليل ويمكن فيه بعض الأعمال لطوله، ويطيب الهواء فيه إلى مصالح أخرى لو تقصّيت لذكرها لطال فيها الكلام.

فكّر الآن في تنقّل الشمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنة

(١) ستحمى (خ).
(٢) وضيائها (خ).

وما في ذلك من التدبير، فهو الدور الّذي تصحّ به الأزمنة الأربعة من السنة: الشتاء، والربيع والصيف، والخريف، ويستوفيها على التمام، وفي هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلاّت والثمار. وتنتهي إلى غاياتها، ثمّ تعود فيستأنف النشوء والنموّ، ألا ترى أنّ السنة مقدار مسير الشمس من الحمل إلى الحمل، فبالسنة وأخواتها يكال الزمان من لدن خلق الله تعالى العالم إلى كلّ وقت وعصر من غابر الأيّام، وبها يحسب الناس الأعمار والأوقات الموقّتة للدّيون والإجارات والمعاملات وغير ذلك من أمورهم، وبمسير الشمس تكمل السنة ويقوم حساب الزمان على الصحّة انظر إلى شروقها على العالم كيف دبّر أن يكون، فإنّها لو كانت تبزغ في موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات، لأنّ الجبال والجدران كانت تحجبها عنها، فجعلت تطلع في أوّل النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من وجه المغرب، ثمّ لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتّى تنتهي إلى المغرب. فتشرق على ما استتر عنها في أوّل النهار، فلا يبقى موضع من المواضع إلاّ أخذ بقسطه من المنفعة منها، والإرب الّتي قدّرت له، ولو تخلّفت مقدار عام أو بعض عام كيف كان يكون حالهم؟ بل كيف كان يكون لهم مع ذلك بقاء؟ أفلا يرى الناس كيف هذه الأمور الجليلة التي لم تكن عندهم فيها حيلة فصارت تجري على مجاريها لا تعتل ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه؟

البحث الثاني

في فوائد الشمس وفيه فروع

١ ـ من فوائد الشمس: إن فلكها يسير مرتين:

السير الأول: يتم في سنة، وبهذا السير تقترب من وسط السماء في حين، وتبتعد عنه في حين آخر، وتتوسط بينهما في حين ثالث،

ولولا هذا القرب والإبتعاد، والتوسط لم تحصل الفصول الأربعة، فإنها إذا ابتعدت عن وسط السماء فإنه يصير الشتاء، وإذا اقتربت منه، فانه يصير الربيع، وإذا وصلت إلى النصف من السماء، فإنه يصير الصيف، وإذا ابتعدت عنه. فإنه يصير الخريف.

وماذا يكون من منافع الشمس في الشتاء؟

قال الإمام الصادق ﷺ: «في الشتاء تعود الحرارة في الشجر والنبات فيتولّد فيهما مواد الثمار، ويتكثّف الهواء أي يغلظ، ويكثر فينشأ منه السحاب والمطر، وتشتدُّ أبدان الحيوان وتقوى» وماذا يكون من منافع الشمس في الربيع؟ قال ﷺ:

«وفي الربيع تتحرَّك، وتظهر المواد المتولِّدة في الشتاء. فيطلع النبات، وتنور الأشجار يعني (تخرج زهرها)، ويهيج الحيوان للسِّفاد».

وماذا يكون من منافع الشمس في الصيف؟ قال ﷺ: «في الصيف يَحْتَدِمُ الهواء يعني: (ينقص) فتنتج الثمار وتتحلَّلُ فضول الأبدان، ويجفُّ وجه الأرض فتهيَّأ للبناء والأعمال» وماذا يكون من منافع الشمس في الخريف؟ قال ﷺ:

«وفي الخريف يصفو الهواء، وترتفع الأمراض، وتصحُّ الأبدان، ويمتدُّ الليل، فيكون فيه بعض الأعمال لطوله، ويطيب الهواء فيه إلى مصالح أخرى لو تقصّيتُ لذكرها لطال فيها الكلام» والسير الثاني للشمس: هو الذي يحدث بسببه الليل والنهار وبه يتميَّز وقت المعاش عن وقت الإستراحة، وتُعرف المواقيت من الشهور والأعوام، والساعات والأيام، وبهذا السير يحسب الناس الأعمار، والأوقات الموقتة للديون والإجارات والمعاملات وغير ذلك من أمورهم، ويقوم حساب الزمان على الصحة.

(توحيد المفضل) فلو (لا سمح الله) قدّر للشمس أن تقف عن هذا السير لتعطّلت حركة هذا الكون بكامله وبذلك يفسد أمر هذا العالم بجميع ما فيه.

٢ ـ **من فوائد الشمس**: ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] فيمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى المشارق والمغارب «المكانية» المختلفة، لأن كروية الأرض تؤدي إلى وجود مشرق ومغرب بعدد نقاط سطح الأرض، أو يكون إشارة إلى المشارق والمغارب (الزمانية) لأن حركة الأرض حول الشمس تؤدي إلى استحالة شروق الشمس وغروبها من نقطة واحدة خلال يومين متتاليين.

وهذا الإختلاف في المشارق والمغارب الذي يتمُّ من خلال نظام دقيق، ومنهجي سبَّبَ في حدوث «الفصول الأربعة» بما فيها من بركات من جهة، ومن جهة أخرى فهو يؤدي إلى موازنة الحرارة والبرودة والرطوبة على سطح الأرض، ويمنح حياة الإنسان والحيوان والنباتات نظاماً وترتيباً، وكل منها آية من آيات الله، وبرهان من براهينه سبحانه.

٣ ـ **من فوائد الشمس**: إن جاذبية الشمس تُؤدي إلى استمرار الأرض في دورانها في مدارها الثابت. وإلا سقطت في إحدى زوايا هذا الفضاء اللامتناهي ككُرة مضطربة.

٤ ـ إن الشمس تضع في خدمة الإنسان نوراً سليماً ومجانياً وغير حارٍ أو محرقٍ، ولا بارد وخال من الأثر بشكل دائم.

٥ ـ إن ضوء الشمس يتركب من [٧] ألوان مزجت مع بعضها وظهرت على هيئة هذا النور الأبيض والشعاع الحالي وهذا النور يعتبر عاملاً مساعداً للنباتات حيث يمتص غاز ثاني أوكسيد الكاربون من الجوّ، ويطرح في المقابل غاز الأوكسجين الذي هو عماد حياتنا فهو

يساعد النباتات في نموّها بسحب ثاني أوكسيد الكاربون. ونحن نميّز الأشياء (حسب العادة) عن طريق ألوانها، وهذه الألوان تحصل من شعاع الشمس لأن كل موجود يقوم (وحسب تكوينه) بامتصاص جانب من ألوان الشمس فنطلق على اللون الذي لم يسحب لون الشيء أي إن الورق الأخضر للنباتات يمتص جميع ألوان الشمس عدا اللون الأخضر إذنْ فنور الشمس هو الذي يظهر جميع الألوان.

٦ ـ إن ضوء الشمس المشرق على الكون لا يقوم بتدفئة وإنارة الكائنات الحية في العالم فحسب بل له نصيب أساسي في نموّ النباتات وحياة الحيوان، وقد ثبت حقيقة أن كل حركة نشاهدها في الأرض هي من بركات ضوء الشمس، فلو فكرنا بإمعان في حركة الرياح والغيوم. وأمواج البحار، وجريان الأنهار والشلالات، والحيوانات، والناس لوجدناها تنبع من ضوء الشمس بدون استثناء، ولو انطفأت الشمس، وانقطعت هذه الأشعة «التي تهب الحياة» عن الأرض فسيعم الموت والسكون والظلام كل مكان خلال فترة قصيرة جداً.

٧ ـ إن الأشعة فوق البنفسجية والتي هي من إشعاعات الشمس تفيد في القضاء على ٩٠٪ من الجراثيم، وتقوم بدور منع التعفُّن بنحو تام، ولولاها لتبدَّلت الأرض إلى مستشفى كبير.

٨ ـ لقد استطاع العلماء من خلال استخدامهم للعدسات المحدبة الفخمة من توليد حرارة هائلة بإمكانها تشغيل المصانع المهمة ولعلّ الكثير من المؤسسات الصناعية الحسّاسة سيتم تشغيلها في المستقبل القريب بالاستفادة من نور الشمس وتحلّ الطاقة الشمسية عندئذٍ محلّ الكهرباء في البيوت.

٩ ـ ان تكوُّن الغيوم نتيجة لأشعة الشمس على المحيطات وهبوب الرياح نتيجة لاختلاف درجات الحرارة على الأرض بسبب أشعة

الشمس، ثم حركة الغيوم نحو اليابسة وهطول الأمطار التي تبعث الحياة هي إحدى الفوائد المهمة للغاية لنور وحرارة الشمس.

١٠ ـ إن حركة الشمس المنظمة في ابراج الشمس (الصور الفلكية) وشروقها وغروبها المنهجي الذي يجري بنظام وتعاقب دقيق ومحسوب على مدى أيام السنة إضافة إلى مساعدتها في تكوين الفصول المتعددة فهي تساعد في تقويم وحساب منظم للزمان الضروري جداً للحياة الإجتماعية للبشر وإن السبب الرئيسي لحصول هذه الأمور في الواقع هو دوران الأرض حول الشمس. (نفحات القرآن).

١١ ـ إن الإسلام اعتبر الشمس من المطهرات: فهي تطهر الأرض المتنجسة وغيرها من كل شيء لا ينقل ولا يحول كالأبنية والحيطان وما يتصل بها من الأبواب والأخشاب والأوتاد والأشجار المتنجسة وما عليها من الأوراق والثمار وكذا الخضروات والنباتات وما شابه ذلك إذا كانت فيها رطوبة مسرية وجفَّفتها الشمس بإشراقها عليها ولم توجد فيها عين النجاسة بعد الجفاف.

١٢ ـ وإنّ الشمس التي تشرق نهاراً وتغيب ليلاً تترك في الأجسام التي على سطح الأرض حرارة وهذه الحرارة المعتدلة تساعد على نموّ النباتات وحركة الحيوانات وحياة الجميع ولولا وجود هذه الحرارة لتعذّر نموُّ النباتات وحياة الحيوانات.

١٣ ـ ومن الفوائد الموجودة فيها أن الأرض تتلقى من الشمس كمية من الحرارة تمدها بالدّفء الكافي لنشوء الحياة وإشباع حاجة الكائن الحي من الحرارة.

وقد لوحظ علمياً أن المسافة التي تفصل بين الشمس والأرض تتوافق توافقاً كاملاً مع كميَّة الحرارة المطلوبة التي تضمن الحياة على هذه الأرض فلو أزيحت الأرض إلى مسافة أبعد من بُعدها الحالي عن

الشمس لما وجدت حرارة بالشكل الذي يتيح للحياة الوجود فتنقص الحراة التي تتلقاها الأرض من الشمس وهذا يسبب أن الأرض تنقطع دورتها حول الشمس في وقت أطول، ويتضاعف بسبب ذلك طول فصل الشتاء وتتجمّد الكائنات الحية على سطح الأرض ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس بأقلّ مما هي عليه الآن لاحترقت الأرض ومن عليها، لأن درجة الحرارة التي تتلقاها الأرض تبلغ بسبب ذلك أربعة أضعاف، وتضاعف سرعتها المدارية حول الشمس.

وعند ذلك تصير الفصول إلى نصف طولها الحالي، وتصير الحياة على سطح الأرض غير ممكنة، وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس، وسرعتها في مدارها تهيّىء للإنسان أسباب الحياة والإستمتاع بها في صورها المادية، والروحية على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا. ونحن نميز الأشياء (حسب العادة) عن طريق ألوانها.

١٤ ـ **حركة الأرض**: إن الله سبحانه خلق الأرض متحركة تدور حول الشمس فإنها لو كانت واقفة في موضع واحد لاشتدت السخونة في ذلك الموضع واشتد البرد في سائر المواضع وفسد الكل بذلك فيفسد القريب بالسخونة والبعيد بالبرودة المفرطتين لكن الله جلّ وعلا بحكمته وقدرته جعلها تطلع أول النهار من المشرق فتقع على ما يحاذيها من وجه الغرب، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على الجوانب الشرقية وحينئذ بسبب هذه الحركة والدوران لا يبقى موضع مكشوف في المشرق والمغرب إلا ويأخذ حظاً من شعاع الشمس هذا بحسب المشرق والمغرب، وأما بحسب الجنوب والشمال فإن الله تعالى جعل حركاتها مائلة عن منطقة الفلك الأعظم لأنه لو لم تكن للأرض حركة في الميل لكان تأثيرها مخصوصاً بمدار واحد، فكانت سائر المدارات تخلو عن المنافع

الحاصلة منه، وكان يبقى كل واحد من المدارات حينئذ على كيفية واحدة أبداً فإن كانت تلك الكيفية حارة أفنت الرطوبات كلها وأحالتها إلى النارية ولم تتكوَّن المتولِّدات في العالم أصلاً لأن الموضع المحاذي للشمس على كيفية الإحتراق والنارية، والبعيد عنها على كيفية باردة مفرطة والمتوسط بينهما على كيفية متوسطة فيكون في موضع شتاء دائم، وفي موضع صيف دائم وفي موضع آخر ربيع أو خريف فلا يتم فيه النضج.

وقال بعضهم: لو لم تكن للشمس عودات متوالية بل كانت تتحرَّك حركة بطيئة لكان هذا الميل قليل النفع وكان التأثير شديد الإفراط، وكان يفرض قريباً مما لم يكن ميل البتة كذلك لو كانت حركتها أسرع من هذه لما كملت المنافع أيضاً ولا تتم لقصور التأثير، وأما إذا كان هناك ميل يحفظ الحركة في جهة مدَّة ثم تنتقل إلى جهة أخرى بمقدار الحاجة وتبقى في كل جهة برهة من الدهر فإنّه يتمُّ بذلك تأثيرها وكثرت منافعها كما هو الموجود.

١٥ ـ من فوائد الضَّوْء:

١ ـ ما هو الضوء؟ إنه شيء نَراه ونُفيد منه يومياً لكنّه قلَّما يشغل تفكيرَنا وهو شكل من أشكال الطاقة، فطاقة الشمس هي مصدر القدرة لمختلف الكائنات الحيَّة على الأرض. يسري الضوء بسرعة فائقة جداً، فما أن تفتح مِقلادَ المصباح الكهربائي حتى يغمر الضوء المكان إذ يسري، الضوء بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية، وهي السرعة الحدِّيَّة القُصوىٰ في الكَون، ولا شيء يستطيع تجاوزها. أحياناً يظهر الضوءُ كأنَّه ذو طبيعة موجيَّة، لكنَّه، بخلاف أمواج الصوت والماء، إذ ينتقل في الفراغ أيضاً، وأحياناً يبدو الضوءُ وكأنه دَفْقٌ من الجُسَيْمات ينبعث الضوء عادة من الأجسام الساخنة، كالشمس واللَّهب، لكن

يمكن توليْدُه بطرق أخرى أيضاً. فالكهرباء تَبْعثُ الضوء. وكذلك بعض التفاعُلات الكيماويَّة، كتلك التي تحدث في الحُباحِب فتجعلها تتوهج في الظلمة.

٢ ـ الطاقة الضوئيَّة: يُمكنُك تَحَسُّس الطاقة الضوئية وأنت تتشمَّس. فضوء الشمس يدْفيءُ جسْمَك، ويُحدِث في جِلدِك تفاعُلات كيماويَّة تَنْفَعُهُ وتَلْفَحُهُ. إن كميَّة الضوء السَّاقِط على متر مربع واحد من سطح الأرض يمكنُها تشغيل عشرة مصابيح كهربائية. ومحطَّات القدرة الشمسية تُسَخِّرُ هذه الطاقة باستخدام مرايا لتركيز أشِعَّة الشمس في مُسْتَقبِلٍ مركزيٍّ يُحوِّل الماء إلى بخار، وهذا بدوره يستخدم في توليد الكهرباء.

٣ ـ الظاهرة الكَهْرضَوئيَّة: أشِعَّة الضوء الساقطةُ على فِلِزٍّ ذي خاصَّة كَهرضوئيَّة، تَبْتَعِثُ بعض الإلِكترونات من ذرَّات ذلك الفِلِز وتُسْتَخْدَمُ هذه الظاهرة الكَهْرضوئية في الخلايا الشمسيَّة بكهرباء تُولِّدها من الضوء. إن زيادة شدَّة الضوء لا تزيدُ سُرعة الإلِكترونات المبْتَعِثة بل تزيد عددَها. وذلك يمكن تعليله فقط باعتبار الضوء رِزَماً صغيرة من الطاقة الضوئيَّة تُدعىٰ فُوتُونات. فعندما يصدِم الفُوتُونُ ذرَّة تنتقل طاقته إلى أحد إلِكترونات الذرَّة فينطلق مُبْتَعَثاً منها، وبازدياد الفُوتُونات تزداد الإلِكتُرونات المبْتَعَثة (المنطلقة) من الذرَّةِ.

الألوان:

١ ـ تخيَّل عالَماً كل شيء فيه بلون ضوء النهار ـ أبيض. إن الحياة فيه ستكون رَتيبةً مملَّة. ولا شك فَمِن حسن الحظ أن عالَمنا مشرق ناضر بالألوان البهيجة المتنوِّعة وتستطيع عيوننا بتركيبها الرائع تمييز الأطوال الموجيَّة المختلفة للضوء المنظور كألوان مختلفة. فكل طول (أو جميعة أطوال) موجيَّة ضوئيَّة هو (أو هي) لَونٌ معين. وأطول هذه الأطوال الموجيَّة المَرئية هو الضوء الأحمر، وأقصرها هما الأزرق

والبنفسجيّ فإذا مُزِجَتْ كميّات متساوية من جميع أطوال الضوء الموجيَّة معاً، تكون النتيجة ضوءاً أبيض. يعتقد العلماء أن الكثير من الحيوانات لا يستطيع تمييز الأطوال الموجيَّة المختلفة، فهي تعيش في عالم لا تعرف اللَّون فيه.

٢ ـ الأجسام غير المضيئة تكتسب ألوانها بطريقة طرح الألوان، فهي تطرح الضوء من بعض أجزاء الطيف المنظور دون الأجزاء الأخرى فورقة النبات الخضراء مثلاً تبدو خضراء لأنها تمتصُّ كل ألوان ضوء الشمس تقريباً ما عدا اللَّون الأخضر الذي تعكسه. الخُضُبُ والأصباغ هي مواد طبيعيَّة، أو اصطناعية تضاف إلى الدِّهانات والحُبور (ج حبر) لِتَكْسِبَها ألوانها. فالخضب الأحمر يمتصُّ الأخضر والأزرق، ويعكس الضوء الأزرق، فامتصاصها الألوان، تضيف هذه المواد بالفعل لوناً للعالَم الذي نعيش فيه!.

آياته في القمر

وفيه أبحاث:

البحث الأول

في تعريفه وما يتعلق به

إن القمر كوكب صغير نسبياً فهو أصغر من الأرض بـ (٤٩ مرَّة) وفقاً لما أثبته العلم الحديث وتقول بعض النظريات: إن القمر تولَّد من الأرض، وذلك حين جذبت الشمس قطعة من الأرض وهي مائعة، وظلَّت تجذبها حتى انفصلت عن الأرض، ودارت كما دارت الشمس والأرض من غرب إلى شرق. . . واستقر القمر أخيراً على مسافة أكثر من ٣٨٤ ألف كيلومتر من الأرض، لذلك فإن نور القمر يصل إلينا خلال أكثر من ثانية واحدة بقليل، وجاذبيته تعادل ١/٦ قوة جاذبية الأرض، وتبلغ سرعة حركته في دورته حول الأرض كيلومتراً واحداً في الثانية ويدور حول الأرض مرة واحدة على مدى شهر قمريٌ واحد أي (أكثر من ٢٩ يوماً بقليل)، ويدور حول نفسه أيضاً مرة واحدة خلال نفس هذه الفترة، وإن جانب القمر الذي يقابل الأرض يكون ثابتاً على الدوام، وإن نور القمر حين اكتماله ليلة البدر أقل من ضوء الشمس بـ (٤٦٠) ألف مرة والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] هي تلك المنازل الثمانية والعشرون التي يطويها

القمر كل شهر منذ بداية مرحلة الهلال وحتى المحاق وهو (الظلام المطلق) وفي الليلة الثامنة والعشرين يظهر ثانية على هيئة هلال أصغر رفيع جداً، وقليل الإشعاع والنور ويبقىٰ ليلتين حين يقال له (المحاق) إذ تتعذر رؤيته لأنه يدخل في شعاع الشمس.

ظاهرة القدرة الإلهية المدهشة:

وهي تغيير صورة القمر من هلال إلى بدر ثم إلى محاق هذه الصورة التي تثير إعجاب الرائي والباعثة على تحيُّر المشاهد لها من خلال دقّة النظام والحساب في تدرّج مراحلها لتقدم تقويماً جميلاً للناس كافة يعرفه الأُمي والمتعلم بحيث تبدأ الأهلة بأولى مراحلها عندما تكون صورة القمر في ليلته الأولى على شكل خيط دقيق، ثم لا يلبث في الليلة اللاحقة حتى يمسي هلالاً ضعيفاً ثم يتدرج في باقي اللّيالي اللاحقة حتّى يكون بدراً في الليالي الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة من الشهر بحيث تظهر صفحة القمر كاملة متألّقة بعد ذلك تأخذ صورة القمر (البدر) في التناقص والإنحسار في الليالي المقبلة تدريجياً فتتحول إلى هلال عريض ثم لا تلبث أن تزداد نحافة وضعفاً ليلة بعد أخرى حتى يصل إلى آخر الشهر فيكون كأنَّه خيط دقيق ثم تستحيل صورة القمر إلى محاق فتنعدم صورته تماماً ثم تبدأ من جديد رحلة الظهور ليبدأ الشهر الآخر من الأشهر القمرية على طبق ما ذكرناه آنفاً.

وبتفصيل أكثر وضوحاً: القمر ليس جسماً مضيئاً بذاته كالشمس أو النجوم ولكنه يعكس الضوء الساقط عليه من الشمس وعند اقترانه بالشمس لا نرى منه شيئاً إلاّ وجهه المنير يكون جهة الشمس ووجهه المظلم يكون جهة الأرض، ويقال له حينئذ: إنَّه في المحاق أي محاق الشمس وهو شعاعها الذي يمحق نوره أو يقال له أيضاً إنه في

الإجتماع مع الشمس، وعند مفارقته لها يقال له حينئذ: هلالاً، وكل ليلة يتزايد الهلال عرضاً بحركته التي يميل فيها إلى الأرض، ويبعد عن الشمس إلى الشرق بنحو ١٣ درجة وهو ما يوازي ٥٢ دقيقة. وذلك بحركته الذاتية، ويلزم أن يتأخر في غروبه كل ليلة بعد غروب الشمس بهذا المقدار مضافاً لكل ليلة ٥٢ دقيقة تقريباً حتى يظهر لنا نصف الجزء المنير في اليوم الثامن بعد ولادته وفي هذه الحالة يكون بعده عن الشمس ٩٠ درجة أو ثلاثة بروج، ويقال له حينئذ: إنَّه في التربيع الأول ثم يتقدم القمر في فلكه من الغرب إلى الشرق فيستمر في تباعده عن الشمس كل يوم ١٣ درجة تقريباً حتى يصل إلى الإستقبال في منتصف الشهر الهلالي وفي هذه الحالة يكون بعده عن الشمس ١٨٠ درجة أو ستة بروج. ويتجه إلينا عند ذلك جزؤه المنير كله وحينئذ يسمى بدراً، ويقال له إنَّه في الإستقبال ثم يعاكس التغيُّرات من التوليد إلى الاستقبال أي يأخذ الجزء المنير في التناقص، ويتأخر في طلوعه بالمقدار المتقدم كل ليلة حتى يخفى نصف الجزء المنير، وفي هذه الحالة يكون بعده عن الشمس ٢٧٠ درجة أو تسعة بروج، ويقال له حينئذ إنَّه في التربيع الأخير، ولا يزال يتناقص، ويتأخر حتى يصير هلالاً يطلع في الشرق قبل طلوع الشمس ثم يغيب الجزء المنير تماماً، ويعود إلى المحاق عند اجتماعه بالشمس وهكذا، ومدة هذه الدورة ٢٩ يوماً و١٢ ساعة و٤٤ دقيقة و٣ ثوانٍ وهي مدة الشهر العربي، هذا ما جاء عن بعض علماء الفلك.

والمُعْجِزَةُ في القمر: هي ان القمر يبعد عن الأرض مسافة محددة وهي تتوافق تماماً مع تيسير الحياة العملية للإنسان على هذه الأرض، ولو كان يبعد عنا مسافة قصيرة نسبياً لتضاعف المدُّ وأصبح من القوة على نحو يزيح الجبال من مواضعها لقوة جاذبيته؛ ولو ابتعد عنا مسافة أكثر مما هو عليها الآن لانتفت بعض المنافع منه التي منها: المدُّ

والجزر ومعاجز القمر ١ ـ ظهوره، ٢ ـ استتاره آخر الشهر . ٣ ـ زيادته ونقصانه. ٤ ـ وكسوفه وفي ذلك كله من التنبيه على قدرة الله تعالى خالقه ما يعتبر به المعتبرون.

البحث الثاني

القمر، وضوؤه، والمنافع المترتبة عليه

من الظواهر التي تكشف ملاحظتها عن وجود خالق، ومدبّر لهذا العالم. هو:

القمر، وضوؤه، والمنافع المترتبة عليه.

قال الإمام الصادق عليه السلام في توحيد المفضل:

«فكر في إنارته في ظلمة هذا الليل، والمنافع في ذلك، فإنّه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان، وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيه شيء من العمل، لأنّه ربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال في النهار، ولشدة الحر، وإفراطه، فيعمل في ضوء القمر أعمالاً شتى لحرث الأرض، وضرب اللبن، وقطع الخشب، وما أشبهه ذلك، فجعل ضوء القمر معونة للناس على معاشهم إذا احتاجوا إلى بعض ذلك، وأنساً للسائرين.

وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم في النهار، ويمتنعوا من الهدوء، والقرار فيهلكهم ذلك، وفي مهله أي: (ظهوره)، ومحاقه. أي (في غيابه آخر الشهر)، وزيادته، ونقصانه، وكسوفه، من التنبيه على قدرة الله تعالى، خالقه المصرّف له، لصلاح العالم ما يعتبر به المعتبرون.

وإذا أردت المزيد من هذه الظواهر التي يتجلى فيها الخالق سبحانه وتعالى فاقرأ في (توحيد المفضل) فإن كلّه من أقوال الإمام الصادق عليه السلام.

منازل القمر

١ ـ الشرطين	٢ ـ البطين	٣ ـ الثريا	٤ ـ الدبران
٥ ـ الهقعة	٦ ـ الهنعة	٧ ـ الذراع	٨ ـ النثرة
٩ ـ الطرف	١٠ ـ الجبة	١١ ـ الزهرة	١٢ ـ الصرفة
١٣ ـ العوّاء	١٤ ـ السماك	١٥ ـ الغفْر	١٦ ـ الزبانا
١٧ ـ الإكليل	١٨ ـ القلب	١٩ ـ الشولة	٢٠ ـ النعائم
٢١ ـ البلدة	٢٢ ـ سعد الذابح	٢٣ ـ سعد بلْع	٢٤ ـ سعد السعود
٢٥ ـ سعد الأخبية	٢٦ ـ فرع المقدم	٢٧ ـ فرع المؤخر	٢٨ ـ بطن الحوت

وهذه قاعدة الحساب لمعرفة القمر في أي منزل من هذه المنازل:

مثلاً: إذا كانت الشمس في البرج الخامس، وقد مضى من الشهر العربي خمسة أيام. فنقول: خمسة من البروج زائداً خمسة أيام، فإنّه = ١٠.

ثم نزيد عليها واحداً فإنّه = ١١.

ثم نزيد عليها خمسة فإنّه = ١٦.

ثم نقسم هذا الرقم (١٦) على ستة عشر منزلاً بادئين التقسيم بأول منزل من هذه المنازل، فيكون القمر في آخر منزل يصل إليه العدد وهو المنزل السادس عشر. قال الشاعر:

ضاعف بروجاً بها شمس الضحى دخلَتْ
وواحداً زد وماضي شهر العربي جَلَتْ

البحث الثالث

في فوائد القمر وفيه فروع

١ ـ إن الضياء المناسب الذي يمنحه القمر يساعد الإنسان في كثير من الليالي على اكتشاف طريقه في المدن والصحاري والبحار، وإن نور القمر مناسب وملائم بحيث لا يزعج الإنسان والموجودات الأخرىٰ أثناء النوم والراحة ليلاً بل يشعر الإنسان باطمئنان خاص من خلال نور القمر، وينقل عن بعض المزارعين: إن (نور القمر) ذو دور حسَّاسٍ في نموّ الفواكه، والنباتات.

٢ ـ إن مسألة المدِّ والجزر في البحار هي إحدىٰ الآثار البارزة لوجود القمر حيث يرتفع، وينخفض منسوب المياه مرتين كل يوم في الليل والنهار، ويعبَّر عن ذلك بالمدِّ والجزر، ويستمر كل منهما لمدة ٦ ساعات تقريباً، فأثناء المدِّ يرتفع منسوب المياه، ويغطي معظم سواحل البحر، وخلال الجزر ينخفض منسوب المياه، وتنكشف سواحل البحار ويأتيك التفصيل فيما يلي:

في بعض البحار يحصل فيها المدُّ والجزر في كل يوم وليلة في طلوع القمر وغروبه فإذا وصل القمر مشرقاً من مشارق البحر فإنه يصير المدُّ ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر وسط السماء في ذلك الموضع فعند ذلك يصل المدُّ إلى منتهاه، واعلم أنَّ المدَّ يقوى إذا اقترب القمر من الأرض ويضعف المدُّ إذا ابتعد وذلك بسبب الجاذبية الموجودة في القمر وإذا أخذ القمر في النزول والإنحطاط فإنَّ البحر يشرع في الجزر والرجوع ولا يزال كذلك راجعاً إلى أن يبلغ القمر مغربه فعند ذلك يصل الجزر إلى منتهاه فإذا غاب القمر من مغرب ذلك الموضع ابتدأ المدُّ هناك في المرة الثانية ولا يزال زائداً إلى أن يصل

القمر إلى وَتَدِ الأرض فحينئذ يصل المدُّ إلى منتهاه في المرة الثانية واعلم أن الجاذبية الموجودة في الأرض هي التي تحدِّد المدَّ وتمنع ماء البحر من أن يطغى على المدن ويتجاوز حدوده المعروفة ثم يبتدىء الجزر مرة ثانية ويرجع إلى البحر حتى يبلغ القمر أفق مشرق ذلك الموضع فتعود الحالة الأولى من المدّ مرة أخرى وهكذا دائماً أبداً وتكون الأرض مستديرة والبحر محيطاً بها على استدارتها والقمر يطلع عليها كلها مقدار يوم وليلة فكلما تحرك القمر صار موضع القمر أفقياً لموضع من مواضع البحر، وصار ذلك الموضع وسط السماء لموضع آخر.

٣ ـ للمدِّ والجزر فوائد مهمة في حياة البشر منها: تراجع مياه الأنهار التي تصب المياه العذبة في البحار، وذلك يؤدي إلى رَيِّ الأراضي الواسعة عن طريق ذلك كما يشاهد في بساتين النخيل الواسعة في بعض الأماكن.

ومن الفوائد الأخرى للمد والجزر: هي حركة المكائن في المصانع.

نشاط الخزانات الكهربائية:

ومن فوائد ذلك أيضاً: الإبحار حيث إنَّ السفن الكبيرة تستطيع خلال المد أن ترسو في معظم السواحل حيث يتم تحميل وتفريغ حمولتها، وتنظيف الموانىء، وصيد الأسماك، وتحريك مياه البحر موازنة حرارته، ومركباته أيضاً وأمور أخرى[١].

٤ ـ إن القمر بسيره المنظَّم وحركته الدقيقة يعتبر تقويماً واضحاً

---

(١) عن إعجاز القرآن.

ويمكن للإنسان أن ينظّم برامج حياته على أساس تقويم القمر، وإن مسألة تنظيم حياة الإنسان ترتبط بقوّة بحساب السنين والشهور ووجود تقويم طبيعي حين يتكفَّلُ القمر والشمس ودوران الأرض المنظّم حول نفسها وحول الشمس بإنجاز هذا الدور، وإن التقويمات الحالية التي نظّمت لا تنفع إلا إذا كانت مفهومة. والتقويم الوحيد المفهوم والمفيد للجميع هو التقويم الطبيعي الذي يتوفّر لدينا من حركة القمر منذ مرحلة (الهلال) وحتى وصوله إلى مرحلة (البدر الكامل) ومن ثم إلى (المحاق) ولو تفحّص الإنسان قليلاً لاستطاع أن يحدّد ليالي الشهر من خلال ملاحظة حجم القمر لأن القمر لا يستقر على حال واحدة في السماء على مدىً ليلتين أبداً.

وقال ﷺ في توحيد المفضّل:

استدل بالقمر ففيه دلالة جليلة[١] تستعملها العامّة في معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة، لأن دوره لا يستوفي الأزمنة الأربعة، ونشوء الثمار وتصرّمها، ولذلك صارت شهور القمر وسنوه تتخلّف عن شهور الشمس وسنيها، وصار الشهر من شهور القمر ينتقل فيكون مرّة بالشتاء ومرّة بالصيف. فكّر في إنارته في ظلمة الليل والإرب في ذلك، فانّه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيه شيء من العمل. لأنّه ربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في تقصّي الأعمال بالنهار. أو لشدّة الحرّ وإفراطه، فيعمل[٢] في ضوء القمر أعمالاً شتّى، كحرث الأرض، وضرب اللبن. وقطع الخشب وما أشبه ذلك فجعل ضوء القمر معونة

(١) جلية (ظ).
(٢) فيعملون (خ).

للناس على معايشهم إذا احتاجوا إلى ذلك، وأُنساً للسائرين وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض، ونقص مع ذلك من نور الشمس وضيائها لكيلا تنبسط الناس في العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار، فيهلكهم ذلك، وفي تصرّف القمر خاصّة في مهلّه[1] ومحاقه، وزيادته، ونقصانه، وكسوفه من التنبيه على قدرة الله خالقه المتصرّف له هذا التصريف لصلاح العالم ما يعتبر فيه المعتبرون.

الصحيفة السجادية: صلوات الله على من ألهمها: كان من دعائه عليه السلام إذا نظر إلى الهلال: أيّها الخلق المطيع الدائب السريع، المتردّد في منازل التقدير المتصرّف في فلك التدبير، آمنت بمن نوّر بك الظلم، وأوضح بك البُهم، وجعلك آية من آيات ملكه، وعلامة من علامات سلطانه، وامتهنك بالزيادة والنقصان، والطلوع والأُفول، والإنارة والكسوف، في كلّ ذلك أنت له مطيع، وإلى إرادته سريع، سبحانه ما أعجب ما دبّر في أمرك، وألطف ما صنع في شأنك! جعلك مفتاح شهر حادث، لأمر حادث ـ إلى آخر الدعاء ـ.

تنوير: اعلم أنّ الهلال إنّما سمّي هلالاً لجريان عادتهم برفع الأصوات عند رؤيته من الإهلال وهو رفع الصوت، وقد اضطربوا في تحديد الوقت الّذي يسمّى فيه بهذا الاسم، فقال في الصحاح: الهلال أوّل ليلة والثانية والثالثة ثمّ هو قمر[2] وزاد صاحب القاموس فقال: الهلال غرّة القمر، أو لليلتين، أو إلى ثلاث أو إلى سبع، والميلتين من آخر الشهر: ستّ وعشرين، وسبع وعشرين، وفي غير ذلك قمر[3]. وقال في مجمع البيان: اختلفوا في أنّه إلى كم يسمّى هلالاً ومتى

(١) في تهلله (خ).
(٢) الصحاح: ج٥، ص١٨٥١.
(٣) القاموس: ج٤، ص٧٠.

يسمّى قمراً، فقال بعضهم: يسمّى هلالاً لليلتين من الشهر، ثمّ لا يسمّى هلالاً إلى أن يعود في الشهر الثاني. وقال آخرون[1]: يسمّى هلالاً ثلاث ليال، ثمّ يسمّى قمراً. وقال آخرون: يسمّى هلالاً حتّى يحجر. وتحجيره أن يستدير بخطّ دقيق[2] وهذا قول الأصمعيّ، وقال بعضهم: يسمّى هلالاً حتّى يبهر ضوؤه سواد الليل ثمّ يقال قمر وهذا يكون في الليلة السابعة[3] (انتهى) وقالوا: إنّما يسمّى بعد الهلال قمراً لبياضه، فإنّ الأقمر هو الأبيض وقيل: لأنّه يقمر الكواكب أي يغلبها بزيادة النور، ويسمّى في الليلة الرابعة عشرة بدراً، قال في الصحاح: سمّي بذلك لمبادرته الشمس في الطلوع كأنّه يعجلها المغيب، ويقال: سمّي لتمامه[4] (انتهى) أي تشبيهاً له بالبدرة الكاملة، وهي عشرة آلاف درهم. قال الشيخ البهائيّ رحمه الله يمتدّ: وقت الدعاء بامتداد وقت التسمية هلالاً، والأولى عدم تأخيره عن الأولى عملاً بالمتيقّن المتّفق عليه لغة وعرفاً، فإن لم يتيسّر فعن الثانية لقول أهل اللغة بالامتداد إليها، فإن فاتت فعن الثالثة لقول كثير منهم بأنّها آخر لياليه.

قال المجلسي: وأمّا ما ذكره صاحب القاموس وشيخنا أبو عليّ رحمه الله من إطلاق الهلال عليه إلى السابعة فهو خلاف المشهور لغة وعرفاً، وكأنّه مجاز من قبيل إطلاقه عليه في الليلتين الأخيرتين ـ ثمّ قال: ـ ولو قيل بامتداد ذلك إلى ثلاث ليال لم يكن بعيداً، فلو نذر قراءة دعاء الهلال عند رؤيته وقلنا بالمجازيّة فيما فوق الثلاث لم تجب عليه القراءة برؤيته فيما فوقها حملاً للمطلق على الحقيقة، وهل تشرع؟ الظاهر نعم إن رآه في تتمّة السبع، رعاية لجانب الاحتياط، فأمّا فيما

---

(١) قال بعضهم.

(٢) بخطة دقيقة.

(٣) مجمع البيان: ج١، ص٢٨٣.

(٤) الصحاح: ج٢، ص٥٨٧.

فوقها فلا، لأنّه تشريع ولو رآه يوم الثلاثين فلا وجوب على الظاهر، لعدم تسميته حينئذ هلالاً.

قوله ﷺ «أيّها الخلق المطيع» الخلق في الأصل مصدر بمعنى الإبداع والتقدير، ثمّ استعمل بمعنى المخلوق كالرزق بمعنى المرزوق، وإطاعته كناية عن تأتّي كلّ ما أراده سبحانه فيه، تشبيهاً بإطاعة العبد لمولاه «الدائب السريع» يقال: دأب فلان في عمله أي جدّ وتعب، وجاء في تفسير قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣] أي مستمرّين في عملهما على عادة مقرّرة جارية. قال الشيخ البهائيّ ﷺ وصفه ﷺ القمر بالسرعة، ربما يعطي بحسب الظاهر أن يكون المراد سرعته باعتبار حركته الذاتيّة الّتي يدور بها على نفسه، وتحرّك جميع الكواكب بهذه الحركة ممّا قال به جمّ غفير من أساطين الحكماء، وهو يقتضي كون المحو المرئيّ في وجه القمر شيئاً غير ثابت في جرمه، وإلاّ لتبدّل وضعه كما قاله سلطان المحقّقين في شرح الإشارات. والأظهر أنّ ما وصفه به ﷺ من السرعة إنّما هو باعتبار حركته العرضيّة الّتي تتوسّط فلكه، فإنّ تلك الحركة على تقدير وجودها غير محسوسة ولا معروفة، والحمل على المحسوس المتعارف أولى، وسرعة حركة القمر بالنسبة إلى سائر الكواكب أمّا الثوابت فظاهر، لكون حركتها من أبطأ الحركات، حتّى أنّ القدماء لم يدركوها، أمّا السيّارات فلأنّ زحل يتمّ الدورة في ثلاثين سنة، والمشتري في اثنتي عشرة سنة، والمرّيخ في سنة وعشرة أشهر ونصف، وكلاً من الشمس والزهرة وعطارد في قريب من سنة، وأمّا القمر فيتمّ الدورة في قريب من ثمانية وعشرين يوماً، ولا يبعد أن يكون وصفه ﷺ القمر بالسرعة باعتبار حركته المحسوسة. على أنّها ذاتيّة له بناء على تجويز كون بعض حركات السيّارات في أفلاكها من قبيل حركة الحيتان في الماء كما ذهب إليه جماعة ويؤيّده ظاهر قوله تعالى: ﴿...وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

[يس: ٤٠] ودعوى امتناع الخرق [والالتئام] على الأفلاك لم تقترن بالثبوت، وما لفّقه الفلاسفة لإثباتها أوهن من بيت العنكبوت، لابتنائه على عدم قبول الفلك بأجزائها الحركة المستقيمة، ودون ثبوته خرط القتاد، والتنزيل الإلهيّ الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ناطق بانشقاقها، وما ثبت من معراج نبيّنا ﷺ بجسده المقدّس إلى السماء السابعة فصاعداً شاهد بانخراقها.

«المتردّد في منازل التقدير» أي السائر في المنازل الّتي قدّرها الله تعالى لها إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] وهي المنازل الثمانية والعشرون الّتي يقطعها في كلّ شهر بحركته الخاصّة، فيرى كلّ ليلة نازلاً بقرب واحد منها قال نصير الملّة والدين ﷺ في التذكرة: وأمّا منازل القمر فهي من الكواكب القريبة من منطقة البروج، جعلها العرب علامات الأقسام الثمانية والعشرين الّتي قسمت المنطقة بها، لتكون مطابقة لعدد أيّام دور القمر. وقال الخفريّ في شرحه: والمراد من المنزل المسافة الّتي يقطعها القمر في يوم بليلته، ومنازل القمر عند [أهل] الهند سبعة وعشرون يوماً بليلته وثلث، فحذفوا الثلث لكونه أقلّ من النصف كما هو عادة أهل التنجيم، وأمّا عند العرب فهي ثمانية وعشرون، لا لأنّهم تمّموا الثلث واحداً كما قال البعض، بل لأنّه لمّا كان سنوهم لكونها باعتبار الأهلّة مختلفة الأوائل لوقوعها في وسط الصيف تارة وفي وسط الشتاء أخرى احتاجوا إلى ضبط سنة الشمس لمعرفة فصول السنة حتّى يشتغلوا في استقبال كلّ فصل منها بما يهمّهم فيه، فنظروا إلى القمر فوجدوه يعدو إلى وضع له من الشمس في قريب من الثلاثين يوماً، ويختفي في آخر الشهر ليلتين أو أكثر أو أقلّ، فأسقطوا يومين من الثلاثين فبقي ثمانية وعشرون، وهو الزّمان الواقع في الأغلب بين رؤيته بالعشيّات في أوّل الشهر ورؤيته بالغدوات في آخره، فقسّموا دور الفلك عليه، فكان كلّ منزل

اثنتي عشرة درجة وإحدى وخمسين دقيقة تقريباً، أي ستّة أسباع درجة فنصيب كلّ برج منزلان وثلث، ثمّ وجدوا الشمس تقطع كلّ منزل في ثلاثة عشر يوماً بالتقريب، فصارت المنازل في ثلاثمائة وأربعة وستّين يوماً، لكن عود الشمس إلى كلّ منزل إنّما يكون في ثلاثمائة وخمسة وستّين يوماً فزادوا يوماً في إيّام منازل غفر، وقد يحتاج إلى زيادة يومين للكبيسة حتّى تصير أيّامه خمسة عشر ويكون انقضاء أيّام السنة الشمسيّة مع انقضاء أيّام المنازل ورجوع الأمر إلى منزل جعل مبدءاً. ثمّ إنّهم جعلوا علامات المنازل من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة ممّا يقارب ممّر القمر أو يحاذيه، فيرى كلّ ليلة نازلاً بقرب أحدها. . . .

«المتصرّف في فلك التدبير» التصرّف: التقلّب، إشارة إلى أنّ تقلّباته وتغيّراته بتدبير الحكيم الخبير والفلك مجرى الكواكب سمّي به تشبيهاً بفلكة المغزل في الاستدارة والدوران. قال أبو ريحان: إنّ العرب والفرس سلكوا في تسمية السماء مسلكاً واحداً، فإنّ العرب تسمّي السماء فلكاً تشبيهاً لها بفلكة الدولاب، والفرس سمّوها بلغتهم «آسمان» تشبيهاً لها بالرحى، فإنّ «آس» هو الرحى بلسانهم و «مان» دالّ على التشبيه (انتهى).

وقال الشيخ البهائيّ تَدَّسَّهُ: المراد بفلك التدبير أقرب الأفلاك التسعة إلى عالم العناصر، أي الفلك الّذي يتدبّر بعض مصالح عالم الكون والفساد، وقد ذكر بعض المفسّرين في تفسير قوله تعالى ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ٥] ، أنّ المراد بها الأفلاك وهو أحد الوجوه الّتي أوردها الطبرسيّ تَدَّسَّهُ ويمكن أن يكون على ضرب من المجاز كما يسمّى ما يقطع به الشيء قاطعاً، وربما يوجد في بعض النسخ «المتصرّف في فلك التدوير» وهو صحيح أيضاً وإن كانت النسخة الأولى أصحّ، والمراد به رابع أفلاك القمر وهو الفلك غير

المحيط بالأرض، المركوز هو فيه، المتحرّك أسفله على توالي البروج وأعلاه بخلافه مخالفاً لسائر تداوير السيّارة كلّ يوم ثلاث عشرة درجة وثلاث دقائق وأربعاً وخمسين ثانية، وهو مركوز في ثخن ثالث أفلاكه المسمّى بالحامل، المباعد مركزه عن مركز العالم بعشر درج، المتحرّك على التوالي كلّ يوم أربعاً وعشرين درجة، واثنتين وعشرين دقيقة، وثلاث وخمسين ثانية، وهو واقع في ثخن ثاني أفلاكه المسمّى بالمائل، الموافق مركزه مركز العالم، المماسّ مقعّره بمحدّب النار، الفاصل عن الحامل الموافق له في ميل منطقته عن منطقة البروج بمتمّمين متدرّجي الرقّة إلى نقطتي الأوج والحضيض المتحرّك على خلاف التوالي كلّ يوم إحدى عشرة درجة، وتسع دقائق، وسبع.

«آمنت بمن نوَّر بك الظلم وأوضح بك البُهم وجعلك آية من آيات ملكه وعلامة من علامات سلطانه» النور والضياء: مترادفان لغة وقد تسمى تلك الكيفية إن كانت من ذات الشيء: ضوءاً، وإن كانت مستفادة من غيره: نوراً وعليه جرى قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] والظلم: جمع ظلمة وتجمع على ظلمات أيضاً وهي: عدم الضوء عمَّا من شأنه أن يكون مضيئاً والبُهم كصرد جمع بُهمه (بالضم) وهي ما يصعب على الحاسَّة إدراكه إن كان محسوساً وعلى الفهم إن كان معقولاً، والآية: العلامة، والسلطان: مصدر بمعنى الغلبة والتسلّط، وقد يجيء بمعنى الحجّة والدليل لتسلّطه على القلب وأخذه بعنانه.

قال البهائيّ ﵀ لمّا افتتح ﵇ الدعاء بخطاب القمر وذكر أوصافه أراد أن يذكر جملاً أُخرى من أحواله، ناقلاً للكلام من أُسلوب إلى آخر كما هو دأب البلغاء من تلوين الكلام وجعل تلك الجمل مع تضمّنها لخطاب القمر وذكر أحواله موشّحة بذكر الله سبحانه والثناء عليه جلّ شأنه، تحاشياً عن أن يتمادى به الكلام، خالياً عن

ذكر المفضل المنعام[1]، معبّراً عن المنعم به جلّ شأنه بالموصول، ليجعل الصلة مشعرة ببعض أحوال القمر، ويعطف عليها الأحوال الأُخر، فتتلاءم جمل الكلام، ولا يخرج عن الغرض المسوق له من بيان تلك الأوصاف والأحوال، واللاّم في الظلم للاستغراق أعني العرفيّ منه لا الحقيقيّ، والمراد الظلم المتعارف تنويرها بالقمر من قبيل «جمع الأمير الصاغة» ويمكن جعله للعهد الخارجيّ، والحقّ أنّ لام الاستغراق العرفيّ ليست شيئاً وراء لام العهد الخارجيّ، فإنّ المعروف بها هو حصّة معيّنة من الجنس أيضاً، غايته أنّ التعيين فيها نشأ من العرف. والتنكير في قوله «آية» يمكن أن يكون للنوعيّة كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ [البقرة: ٧] والأظهر أن يجعل للتعظيم، واحتمال التحقير ضعيف كما لا يخفى ثمّ قال ﵀: الباء في قوله ﵇ «نوّر بك الظلم» إمّا للسببيّة أو للآلة، ثمّ إن جعلنا الضوء عرضاً قائماً بالجسم كما هو مذهب أكثر الحكماء ومختار سلطان المحققين ﵀ في التجريد فالتركيب من قبيل «سوّدت الشيء وبيّضته» أيّ صيّرته متّصفاً بالسواد والبياض وإن جعلناه جسماً كما هو مذهب القدماء من أنّه أجسام صغار شفّافة تنفصل عن المضيء وتتّصل بالمستضيء[2] فالتركيب من قبيل «لبّنته وتمّرته» أي صيّرته ذا لبن أو تمر، وهذا القول وإن كان مستبعداً بحسب الظاهر إلاّ أنّ إبطاله لا يخلو من إشكال كما أنّ إثباته كذلك، ولعلّه ﵇ أراد بالظلم في قوله «نوّر بك الظلم» الأهوية المظلمة لا الظلمات أنفسها، فإنّها لا تتّصف بالنور، وتجويز كونه ﵇ أراد ذلك مبنيّ على أنّ الهواء يتكيّف بالضوء وهو مختلف فيه، فالّذين جعلوا اللون شرطاً في التكيّف بالضوء منعوا منه، ويجوز أن يريد بالظلم الأجسام المظلمة سوى الهواء، وهذا

(١) المنعام: صيغة مبالغة من «النعم» على خلاف القياس.
(٢) وهو أيضاً مذهب علماء الفيزياء من أهل العصر.

أحسن لاستغنائه عن تجشّم الاستدلال على قبول الهواء للضوء، وسلامته عن شوب الخلاف، ويمكن أن يكون مراده ﷺ بتنوير الظلم إعدامها بإحداث الضوء في محالّها، وهذا يبتني على القول بأنّ الظلمة كيفيّة وجوديّة كما ذهب إليه جماعة، وهذا الرأي وإن كان الأكثر على بطلانه إلاّ أنّ دلائلهم على إبطاله ليست بتلك القوّة، فهو باق على أصل الإمكان، إلاّ أن يذود عنه قاطع البرهان فلو جوّز مجوّز احتمال كونه أحد محامل كلامه ﷺ لم يكن في ذلك حرج.

«وامتهنك بالزيادة والنقصان والطلوع والأفول والإنارة والكسوف» المهنة ـ بفتح الميم وكسرها وإسكان الهاء ـ: الخدمة والذلّ والمشقّة، والماهن: الخادم، وامتهنه: استعمله في المهنة، وطلوع الكوكب: ظهوره فوق الأفق أو من تحت شعاع الشمس، وأُفوله: غروبه تحته، والكسوف: زوال الضوء عن الشمس أو القمر للعارض المخصوص، وقد يفسّر الكسوف بحجب القمر ضوء الشمس عنّا أو حجب الأرض ضوء الشمس عنه، وهو تفسير للشيء بسببه. وقال جماعة من أهل اللغة: الأحسن أن يقال في زوال ضوء الشمس كسوف وفي زوال ضوء القمر خسوف فإن صحّ ما قالوه فلعلّه ﷺ أراد بالكسوف زوال الضوء المشترك بين الشمس والقمر لا المختصّ بالقمر وهو الخسوف ليكون خلاف الأحسن، ولا يخفى أنّ امتهان القمر حاصل بسبب كثف الشمس أيضاً، فإنّه هو الساتر لها. ولمّا كان شمول الكسوف للخسوف أشهر من العكس اختاره ﷺ ـ ثم قال ـ أراد ﷺ بالزّيادة والنقصان زيادة نور القمر ونقصانه بحسب ما يظهر للحسّ، لا أنّ الزّيادة والنقصان حاصلان له في الواقع، لأنّ الأزيد من نصفه منير دائماً كما بيّن في محلّه، وأمّا زيادته في الاجتماع ونقصانه في الاستقبال كما هو شأن الكرة الصغيرة المستنيرة من الكبيرة حالتي القرب والبعد فليس الكلام فيهما، إنّما الكلام في الزيادة والنقصان المسبّبين عن البعد والقرب المدركين

بالحسّ، وربما يتراءى لبعض الأفهام من ظاهر قوله ﷺ «وامتهنك بالزيادة والنقصان» أنّ زيادة نور القمر ونقصانه المحسوسين واقعان بحسب الحقيقة، وحاصلان في نفس الأمر كما هو معتقد كثير من الناس وهذا وإن كان ممكناً نظراً إلى قدرة الله تعالى على أن يحدث في جرمه أوّل الشهر شيئاً يسيراً من النور ويزيده على التدريج إلى أن يصير بدراً، ثمّ يسلبه عنه شيئاً فشيئاً إلى المحاق، إلاّ أنّ حمل كلامه ﷺ على ما هو متّفق عليه بين أساطين علماء الهيئة حتّى عدّ من الحدسيّات أليق وأولى، وهم مع قطع النظر عمّا أوجب تحدُّسهم بذلك إنّما اقتبسوا هذا العلم من أصحاب الوحي سلام الله عليهم كشيث ﷺ المدعوّ على لسانهم بهرمس، وقد نقل جماعة من المفسّرين منهم الشيخ الطبرسيّ ﵀ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ﴾ [مريم: ٥٦] الآية أنّ علم الهيئة كان معجزة له إلى آخر ما ذكره في ذلك[١]. ثمّ قال ﵀: لا يخفى أنّ حكمهم بأنّ نور القمر مستفاد من الشمس ليس مستنداً إلى مجرّد ما يشاهد من اختلاف تشكّلاته النوريّة بقربه وبعده عن الشمس، فإنّ هذا وحده لا يوجب ذلك الحكم قطعاً، بل لا بدّ مع ذلك من ضمّ أمور أُخر، كحصول الخسوف عند توسّط الأرض بينه وبين الشمس، إلى غير ذلك من الأمارات الّتي يوجب اجتماعها ذلك الحكم، لجواز أن يكون نصفه مضيئاً من ذاته ونصفه مظلماً، ويدور على نفسه كحركة فلكه، فإذا تحرّك بعد المحاق يسيراً رأيناه هلالاً، ويزداد فنراه بدراً ثمّ يميل نصفه المظلم شيئاً فشيئاً إلى أن يؤول إلى المحاق. ثمّ أفاد ﵀: لعلّك تقول عند ملاحظة قوله «وامتهنك بالزيادة والنقصان» أنّ حصول الامتهان للقمر بنقصان نوره ظاهر. فما معنى حصول الامتهان له بزيادة النور؟ قال المجلسي: فيه وجهان:

---

(١) مجمع البيان: ج٦، ص٥١٩.

الأول: إنّه كان أحد وجهيه مستنيراً بالشمس دائماً، وكانت زيادة نوره إنّما هي بحسب إحساسنا فقط، وقد سخّره الأمر الإلهيّ لأن يتحرّك في النصف الأوّل من الشهر على نهج لا يزيد به المنير منه في كلّ ليلة إلاّ شيئاً يسيراً لا يستطيع أن يتخطّاه ولا يقدر على أن يتعدّاه، أثبت ﷺ له الامتهان بسبب إذلاله، وتسخيره للزيادة على هذا الوجه المقرّر، والنهج الخاصّ، وقد شبّه بعضهم حال القمر في ظهور القدر المرئيّ منه شيئاً فشيئاً في النصف الأوّل من الشهر إلى أن يصير بدراً، ثمّ استتاره شيئاً فشيئاً في النصف الثاني إلى أن يختفي بما إذا أمر السيّد عبده بأن لا يكشف النقاب عن وجهه للناظرين إلاّ على التدريج شيئاً فشيئاً في مدّة معيّنة. وأنّه متى انكشف وجهه بأجمعه فليبادر في الحال إلى ستره وإرخاء النقاب عليه شيئاً فشيئاً إلى أن يختفي بأجمعه عن الابصار.

الوجه الثاني: أن يكون مراده ﷺ الامتهان بمجموع الزيادة والنقصان، أعني التغيّر من حال إلى حال، وعدم البقاء على شكل واحد ولعلّ هذا الوجه أقرب، وهو جاز فيما نسبه ﷺ إليه من الطلوع والأُفول والإنارة والكسوف، ويمكن أن يوجّه امتهانه بالإنارة بوجه آخر، وهو أن يراد بها إعطاؤه النور للغير كوجه الأرض مثلاً لا اتّصافه هو بالنّور، فإنّ الإنارة والإضاءة كما جاءا في اللغة لازمين جاءا متعدّيين أيضاً، فحينئذ ينبغي أن يراد بالكسوف كسفه للشمس لتتمّ المقابلة، ويصير المعنى: امتهنك بأن تفيض النور على الغير تارة وتسلبه عنه أُخرى، ولو أُريد المعنى الشامل للخسوف أو نفس الخسوف أيضاً لم يكن فيه بعد والله أعلم.

قال المجلسي: ثم اعلم أنّ الأحوال المشهورة الحاصلة للقمر كثيرة، فبعضها يشاركه فيه سائر الكواكب كالإنارة والطلوع والأُفول ونحوها، وهي كثيرة ولا حاجة داعية إلى ضبطها، وبعضها أُمور

تختصّ به ولا توجد في غيره من الكواكب، وقد اعتنى أهل الهيئة بالبحث عنها، وأشهرها ستّة: سرعة الحركة، واختلاف تشكّلاته النوريّة، واكتسابه النور من الشمس، وخسوفه بحيلولة الأرض بينهما، وحجبها لنورها بالكسف لها، وتفاوت أجزاء صفحته في النور وهو المسمّى بالمحو. وهذه الأحوال يمكن فهمها من كلامه ﷺ بعضها بالتصريح وبعضها بالتلويح أمّا سرعة حركته واختلاف تشكّلاته فظاهر، وأمّا كسفه الشمس وخسوفه فلما مرّ من حمل الكسوف في كلامه ﷺ على ما يشمل الأمرين معاً، وأمّا اكتسابه النور من الشمس فلدلالة اختلاف التشكّلات مع الخسوف عليه، فهذه الأمور الخمسة يفهم من كلامه ﷺ على هذا النهج، وبقي الأمر السادس أعني تفاوت أجزائه في النور، فإنّ في إشعار كلامه ﷺ به نوع خفاء، ويمكن أن يومىء إليه قوله ﷺ «وامتهنك بالزيادة والنقصان» فإنّ المراد زيادة النور ونقصانه، ولا معنى لتفاوت أجزائه في النور إلاّ زيادته في بعض ونقصانه في بعض آخر كما لا يخفى، فقد تضمّن كلامه ﷺ مجموع تلك الأحوال الستّة المختصّة بالقمر، وقد مرّ الكلام في الأربعة الأول منها، وبقي الكلام في الأخيرتين، فنقول: أمّا الكسوف فهو ذهاب الضوء عن جرم الشمس في الحسّ كلاً أو بعضاً، لستر القمر وجهها الموجّه لنا كلاً أو بعضاً، وذلك عند كونهما بحيث يمرّ خطّ خارج من البصر بهما، إمّا مع اتّحاد موضعيهما المرئيّين، أو كان البعد بينهما أقلّ من مجموع نصفي قطريما، فلو تساويا ماسّها ولا كسف، وإن زاد الأوّل فبالأولى، فإن وقع مركزاهما على الخطّ المذكور كسفها كلّها بلا مكث إن كان قطراهما متساويين حسّاً، ومع مكث إن كان قطرها أصغر، وبقي منها حلقة نورانيّة إن كان قطرها أعظم، وإن لم يقعا على ذلك الخطّ كسف منها بعضها أبداً، إلاّ إذا كان قطره أعظم حسّاً، فقد يكسفها حينئذ كلاً، وربما تبقى منها حلقة نورانيّة مختلفة الثخن أو

قطعة نعلية إن كان قطره أصغر. ولمّا كان الكسوف غير عارض للشمس لذاتها بل بالقياس إلى رؤيتها بحسب كيفيّة توسّط القمر بينها وبين الإبصار أمكن وقوعه في بقعة دون أخرى مع كون الشمس فوق أفقهما، وكونه في إحداهما كلّياً أو أكثر وفي أخرى جزئيّاً أو أقلّ، وابتداء الكسوف من غربيّ الشمس كما أنّ ابتداء الانجلاء كذلك.

ثمّ قال ﷺ: وأمّا محو القمر وهي الظلمة المحسوسة في صفحته فأمره ملتبس والآراء فيه متشعّبة، والأقوال متخالفة، وأذكر منها خمسة:

الأول: إنّها آثار وجهه المظلم تأدّت إلى وجهه المضيء. وأورد عليه أنّه لو كان كذلك لكانت أطرافه أشدّ ظلمة وأوساطه أشدّ ضوءاً.

الثاني: إنّها أجرام مختلفة مركوزة مع القمر في تدويره غير قابلة للإنارة بالتساوي، وهو مختار سلطان المحقّقين ﷺ في التذكرة وأورد عليه أنّ ما يتوسّط بينه وبين الشمس من تلك الأجرام وكذا بيننا وبينه في كلّ زمان ووضع شيء آخر لتحرّك التدوير على نفسه، فكيف يرى دائماً على نهج واحد غير مختلف؟ وقد يعتذر له بأنّ التفاوت المذكور لا يحسّ به في صفحة القمر لصغرها وبعد المسافة.

الثالث: إنّ الأشعّة تنعكس إليه من البحر المحيط أو كرة البخار لصقالتهما انعكاساً بيّناً، ولا تنعكس لذلك من سطح الربع المكشوف لخشونته، فيكون المستنير من وجهه بالأشعّة النافذة إليه على الاستقامة، والأشعّة المنعكسة تبعاً أضوأ من المستنير بالأشعّة المستقيمة والمنعكسة من الربع المكشوف وهذا مختار صاحب التحفة. وأورد عليه أنّ ثبات الانعكاس دائماً على نهج واحد مع اختلاف أوضاع الأشياء المنعكس عنها من البخار والجبال في جانبي المشرق والمغرب مستحيل. وأعتذر له بما اعتذر لأستاذه ﷺ.

الرابع: إنَّ سطح القمر لمّا كان صقيلاً كالمرآة والناظر يرى فيه صورة البحار، والقدر المكشوف من الأرض وفيه عمارات وغياض وجبال، وفي البحار مراكب وجزائر مختلفة الأشكال، وكلّها تظهر للناظر أشباحها في صفحة القمر، ولا يميّز بينها لبعدها، ولا يحسّ منها إلاّ بخيال، وكما لا يرى مواضع الأشباح في المرايا مضيئة فكذلك لا ترى تلك المواضع فيه برّاقة أو أنّه ترى صورة العمارات والغياض والجبال مظلمة كما هي عليه في الليل، وصورة البحار مضيئة، أو بالعكس، فإنّ صورتي الأرض والماء منطبعتان فيه، كما أنّ الأرض لكثافتها تقبل ضوء الشمس أكثر ممّا يقبله الماء للطافته. فكذا صورتاهما وهذا الوجه مختار الفاضل النيسابوريّ في شرح التذكرة. ومال إليه أُستاذنا المحقّق البرجنديّ في شرح التذكرة أيضاً، والإيراد والاعتذار كما سبق.

الخامس: إنَّ أجراماً صغيرة نيّرة مركوزة في جرم الشمس أو في فلكها الخارج المركز بحيث تكون متوسّطة دائماً بين الشمس والقمر، وهي مانعة من وقوع شعاع الشمس على مواضع المحو من القمر، وإنّما قلنا نيّرة لأنّها لو كانت مظلمة فيرى المحو على وجه الشمس، والمراد أنّها نيّرة نوراً أقلّ من نور بقيّة أجزاء الشمس، وهذا الوجه للمدقّق الخفريّ. وأقول: فيه نظر، فإنّ تلك الأجرام إن كانت صغيرة جداً تلاقت الخطوط الخارجة من حولها إلى القمر بالقرب منها، ولم يصل ظلّها إليه، وإن كان لها مقدار يعتدّ به بحيث يصل ظلّها إلى جرم القمر فوصوله إلى سطح الأرض في بعض الأوقات كوقت الاستقبال أولى، فكان ينبغي أن يظهر على سطح الأرض كما يظهر ظلّ الغيم ونحوه، وليس فليس والله أعلم بحقائق الأمور.

ثمّ قال ـ قدّس الله لطيفه ـ: ما مرّ من أنّ اكتساب النور من الشمس مختصّ بالقمر لا يشاركه فيه غيره من الكواكب هو المشهور،

وعليه الجمهور، فإنّهم مطبقون على أنّ أنوار ما عداه من الكواكب ذاتية غير مكتسبة من الشمس، واستدلّوا على ذلك بأنّها لو استفادت النور من الشمس لظهر فيه التشكّلات البدريّة والهلاليّة بالبعد والقرب منها كما في القمر، هكذا أورده صاحب التحفة فيها وفي نهاية الإدراك. وأقول: فيه نظر، فإنّ القائل باستفادتها النور من الشمس ليس عليه أن يقول بأنّ المستضيء منها إنّما هو وجهها المقابل للشمس فقط، ليلزمه اختلاف تشكّلاته كالقمر بل له أن يقول بنفوذ الضوء في أعماقها كالقطعة من البلّور مثلاً إذا وقع عليها ضوء الشمس، فإنّ الناظر إليها من جميع الجهات يبصرها مضيئة بأجمعها فتبصر.

ثمّ إنّ صاحب التحفة أورد على الدليل المذكور أنّ اختلاف التشكّلات إنّما يلزم في السفليّين لا في بقيّة الكواكب الّتي فوق الشمس، لكون وجهها المقابل لنا هو المقابل للشمس بخلاف القمر، فيمكن أن يستفيد النور منها ولا يظهر فيها التشكلات الهلاليّة بالقرب من الشمس، وما يقال من أنّه يلزم انخسافها في مقابلات الشمس مدفوع بأنّ ظلّ الأرض لا يصل إلى أفلاكها. ثمّ إنّه أجاب عن هذا إلا يراد بأنّ تلك الكواكب إذا كانت على سمت الرأس غير قابلة للشمس ولا مقارنة لها لم يكن وجهها المقابل لنا هو المقابل لها بل بعضه. ويلزم اختلاف التشكّلات الهلاليّة. ثمّ قال: فإن قيل: إنّما لا يرى شيء منها هلالياً لخفاء طرفيه لصغر حجم الكواكب في المنظر وهو ظهوره من البعد المتفاوت مستديراً. قلنا: لو كان كذلك لرؤي الكوكب في قرب الشمس أصغر منه في بعدها.

هذا كلامه، قال المجلسي: فيه نظر، لأنّ للخصم أن يقول: إنّما يلزم ذلك لو وقعت دائرة الرؤية فيها مقاطعة لدائرة النور، ولم لا يجوز أن لا يقع أبداً إلاّ داخلها، إمّا موازية لها إذا كان الكوكب على سمت الرأس في مقابلة الشمس، أو غير موازية إمّا مماسّة لها كما لعلّه يتّفق

في التربيع، أو غير مماسّة كما في غيره؟ ولا يندفع هذا إلاّ إذا ثبت تقاطع الدائرتين على سطح الكوكب كما في القمر ودون ثبوته خرط القتاد. ويمكن تقرير النظر بوجه آخر بأن يقال: قرب الكواكب من الشمس على نحوين: قرب كثير يوجب ظهور الصغر للحسّ، وقرب قليل لا يوجب ذلك، والأوّل لا يكون إلاّ إذا كانت الشمس تحت الأفق وكان الكوكب قريباً من الأفق، فلم لا يجوز أن يكون الكوكب حال القرب أصغر لكن تراكم البخار جبر ذلك الصغر فلم ير أصغر لذلك؟ ثمّ إنّ الّذي ما زال يختلج بخاطري أنّ القول بعدم الفرق بين القمر وسائر الكواكب في أنّ أنوار الجميع مستفادة من الشمس غير بعيد عن الصواب، وقد ذهب إلى هذا جماعة من أساطين الحكماء ووافقهم الشيخ السهرورديّ حيث قال في الهياكل: إنّ الشمس قاهر الغنق رئيس السماء، فاعل النهار، صاحب العجائب، عظيم الهيئة، الّذي يعطي جميع الأجرام ضوءها، ولا يأخذ منها هذا كلامه، وقد ذهب الشيخ العارف محيي الدّين أيضاً إلى هذا القول، وصرّح به في الفتوحات المكّيّة، ووافقه جمع من الصوفيّة والله أعلم بحقائق الأشياء (انتهى)[1].

«سبحانه ما أعجب ما دبّر في أمرك وألطف ما صنع في شأنك»
سبحان: مصدر كغفران بمعنى التنزيه عن النقائص، ولا يستعمل إلاّ

(١) القول بكون نور السيارات مكتسباً من الشمس موافق للفرضية المؤيدة في الهيئة الحديثة، وكذلك القول في سائر المنظومات الشمسية لكن القول بأنّ جميع الكواكب أعم من السيارات والثوابت تكتسب النُّور من هذه الشمس فبعيد عن الصواب، ومخالف لما عليه المتأخرون من الفلكيين، بل لما يدلُّ الأخبار على وجود شموس أُخرى غير شمسنا هذه، إلاّ أن يؤول كلامهم بإرادة الجنس من الشمس دون الشخص فتأمل وأمّا نور الشموس وحرارتها فمن القوّة الموجودة في ذرّاتها، ويحصلان بالتشعشع وانكسار الذرّات وتبدل المادة قوّة على اصطلاح علم الفيزياء، وعلى هذا يتناقص وزنها شيئاً فشيئاً بالتشعشع، وقالوا في شمس عالمنا إنّه ينقص من وزنها في كل ثانية أربعة ملايين طن والله العالم.

محذوف الفعل منصوباً على المصدريّة، فسبحان الله معناه تنزيه الله، كأنّه قيل: أُسبّحه سبحاناً وأُبرّئه عمّا لا يليق بعزّ جلاله براءةً. قال الشيخ الطبرسيّ ﷺ: إنّه صار في الشرع علماً لأعلى مراتب التعظيم الّتي لا يستحقّها إلاّ هو سبحانه، ولذلك لا يجوز أن يستعمل في غيره تعالى، وإن كان منزّهاً عن النقائص. وإلى كلامه هذا ينظر ما قاله بعض الأعلام من أنّ التنزيه المستفاد من سبحان الله ثلاثة أنواع: تنزيه الذات عن نقص الإمكان الّذي هو منبع السوء، وتنزيه الصفات عن وصمة الحدوث بل عن كونها مغايرة للذات المقدّسة وزائدة عليها، وتنزيه الأفعال عن القبح والعبث بل عن كونها جالبة إليه تعالى نفعاً أو دافعة عنه سبحانه ضرّاً كأفعال العباد. و «ما» في قوله ﷺ «ما أعجب» إمّا موصولة، أو موصوفة، أو استفهاميّة، على الخلاف المشهور في ما التعجّبيّة. وهي مبتدأة والماضي بعدها صلتها أو صفتها على الأوّلين والخبر محذوف أي الّذي أو شيء صيّره عجيباً أمر عظيم، أو كونها هو الخبر على الأخير، و«ما» في «ما دبّر» مفعول أعجب. وهي كالأولى على الأوّلين، والعائد المفعول محذوف، والأمر والشأن مترادفان.

«جعلك مفتاح شهر حادث لأمر حادث» فصل هذه الجملة عمّا قبلها للاختلاف خبراً وإنشاءً مع كون السابقة لا محلّ لها من الإعراب، والشهر مأخوذ من الشهرة يقال: شهرت الشيء شهراً أي أظهرته وكشفته، وشهرت السيف: أخرجته من الغلاف وتشبيه الشهر في النفس بالبيت المقفول استعارة بالكناية، وإثبات المفتاح له استعارة تخييليّة، ولا يخفى لطافة تشبيه الهلال بالمفتاح. والجارُ في قوله ﷺ «لأمر حادث» يتعلّق بحادث السابق، أي حدوث ذلك الشهر وتجدّده لأمر حادث مجدّد ويجوز تعلّقه بجعل، وتنكير «أمر» للإبهام وعدم التعيّن، أي أمر مبهم علينا حاله كما قالوه في قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩] إنّ المراد أرضاً منكورة مجهولة.

يحتمل أن يكون المراد بالأمر الحادث ما نيط بالشهور من المصالح الدينيّة، كالحجّ والصوم والعدد وسائر العبادات المتعلّقة بها؛ والدنيويّة كالمعاملات والديون وسائر الأُمور المربوطة بها. وقال الشيخ المتقدّم ﷺ: جعله ﷺ مدخول ما التعجبيّة فعلاً دالاً على التعجّب بجوهره، ينبىء عن شدّة تعجّبه ﷺ من حال القمر وما دبّره الله سبحانه فيه وفي أفلاكه بلطائف صنعه وحكمته، وهكذا كلّ من هو أشدّ اطّلاعاً على دقائق الحكم المودعة في مصنوعات الله سبحانه فهو أشدّ تعجباً منها، وأكثر استعظاماً لها، ومعلوم أنّ ما بلغ إليه علمه ﷺ من عجائب صنعه جلّ وعلا، ودقائق حكمته في خلق القمر، ونضد أفلاكه، وربطه ما ربطه به من مصالح العالم السفليّ، وغير ذلك فوق ما بلغ إليه [علم] أصحاب الأرصاد ومن يحذو حذوهم من الحكماء الراسخين بأضعاف مضاعفة، مع أن الّذي اطّلع عليه هؤلاء من أحواله وكيفيّة أفلاكه وما عرفوه ممّا يرتبط به من أُمور هذا العالم أُمور كثيرة يحار فيها ذو اللّب السليم قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]. وتلك الأُمور ثلاثة أنواع:

الأول: ما يتعلّق بكيفيّة أفلاكه وعددها ونضدها وما يلزمه من حركاتها من الخسوف واختلاف التشكّلات وتشابه حركة حامله حول مركز العالم لا حول مركزه، ومحاذاة قطر تدويره نقطة سوى مركز العالم، إلى غير ذلك ممّا هو مشروح في كتب الهيئة.

الثاني: ما يرتبط بنوره من التغيّرات في بعض الأجسام العنصريّة كزيادة الرطوبات في الأبدان بزيادته، ونقصانها بنقصانه، وحصول البحارين للأمراض، وزيادة مياه البحار والينابيع زيادة بيّنة في كلّ يوم من النصف الأوّل من الشهر، ثمّ أخذها في النقصان يوماً فيوماً في النصف الأخير منه، وزيادة أدمغة الحيوانات وألبانها بزيادة النور. ونقصانها بنقصانه، وكذلك زيادة البقول والثمار نموّاً أو نضجاً عند

زيادة نوره، حتّى أنّ المزاولين لها يسمعون صوتاً من القثّاء والقرع والبطّيخ عند تمدّده وقت زيادة النور، وكإبلاء نور القمر الكتّان، وصبغه بعض الثمار إلى غير ذلك من الأمور الّتي تشهد به التجربة. قالوا: وإنّما اختصّ القمر بزيادة ما نيط به من أمثال هذه الأمور بين سائر الكواكب لأنّه أقرب إلى عالم العناصر منها، ولأنّه مع قربه أسرع حركةً فيمتزج نوره بأنوار جميع الكواكب، ونوره أقوى من نورها فيشاركها شركة غالب عليها فيما نيط بنورها من المصالح بإذن خالقها ومبدعها جلّ شأنه. الثالث ما يتعلّق به من السعادة والنحوسة، وما يرتبط به من الأمور الّتي هو علامة على حصولها في هذا العالم...

الكسوف والخسوف لغة معناهما واحد وهو: الذهاب والغياب وكسوف الشمس هو ذهاب ضوئها بسبب حيلولة جرم القمر بينها وبين الأرض فيذهب (بسبب هذه الحيلولة) ضوء الشمس كله فيكون الكسوف كلياً أو بعضه فيكون جزئياً.

فيحدث كسوف الشمس عندما يمر القمر بين الأرض والشمس فيحجب ضوء الشمس عن بعض الأماكن على الأرض ويكون كسوف الشمس كلياً عندما يحجب القمر قرص الشمس كله، وبيان ذلك: أن القمر عند اجتماعه مع الشمس في وقت من الزمن بأن يكونا على خط واحد يكون القمر بيننا وبين الشمس لأنها أعلى منه فيكون نصفه المضيء جهة الشمس ونصفه المظلم مواجهاً لنا فلا نرى من ضوئه شيئاً وقد يكون الكسوف جزئياً عندما لا يحجب القمر إلا جزءاً من الشمس وذلك واضح فكسوف الشمس الكلي عند البعض من أهل الأرض هو جزئي عند البعض الآخر، وقد لا يرى عند البعض الآخر نهائياً.

وخسوف القمر: هو ذهاب نوره كلاً أو بعضاً بسبب حيلولة

الأرض، بينه وبين الشمس فينطمس (بسبب هذه الحيلولة) النور كله من جميع قرص القمر فيكون الخسوف كلياً أو من بعضه فيكون جزئياً وبيان ذلك: إن اعتراض الأرض أو القمر لمسار أشعة الشمس يؤدي إلى تكوين ظلال لهما بحيث يحيط بكل منهما منطقة شبه الظلّ وتحدث ظاهرة خسوف القمر وكلما اتخذت الأرض مكاناً وسطاً على خط مستقيم في السماء بين الشمس (التي هي مصدر الضوء) والقمر حيث يقع ظلّ الأرض على القمر كدائرة أو جزء من دائرة محدودة تحجب نوره تدريجياً حتى يختفي ثم تنقشع عنه تدريجياً حتى يعود منيراً كما كان، ويحتجب الضوء عن القمر نتيجة لمروره في مخروط ظل الأرض عند اعتراضها له ويسمى خسوفاً كلياً أما الخسوف الجزئي فإنه يكون عندما يدخل القمر في مخروط شبه الظل حيث يتسرب إليه بعض من ضوء الشمس ولا يكون ذلك إلا عند الاستقبال أي إذا كان القمر بدراً.

وبعد ذلك أقول: إن ظاهرة الكسوف والخسوف هي من أعظم العلامات والدلالات على وجود الله وعلى قدرته وحكمته وفي الحديث: «إن الله قد دلَّ الناس على ربوبيته بالأدلة» يعني بعد أن خلق العقل فيهم دلّهم على أن لهم خالقاً ومدبراً ولولا العقل لم يعرف الإنسان، أن الشمس والقمر والأرض وغيرها من الكواكب كلها تسبح وتتحرك في فضاء مطلق لا يمسكها شيء سوى يد الله تعالى.

آياته في النُّجوم

وفيها أبحاث:

البحث الأول

في تعريفها وما يتعلق به

وهي الكواكب ومنها: النجوم الثوابت، والسيارة، وحركاتها المختلفة ومنها الثريَّا وهي: مجموع كواكب عنق الثور. ومنها، الجَوْزَاءُ وهي: برج في السماء سميت بذلك لاعتراضها في جوز السماء أي وسطه ومنها، الشعريان وهي: تثنية الشِّعْرِيّ (بالكسر) وهو الكوكب الذي يطلع في الجَوْزَار وطلوعه في شدَّة الحرِّ.

ومنها، سُهَيْلٌ (بالتصغير) وهو نجم باهي، طلوعه على بلاد العرب في وسط الصيف، وقد أصبح من المسلَّم به أن النجوم معلَّقة في فضاء غير محدود وتتحرَّك تحت تأثير قانون الجذب والطرد في مسيرة معينة. وإن منظومتنا الشمسية ترتبط بـ «سكة التبانة» التي هي في الواقع إحدى المجرَّات، وقد توصل العلماء في بحوثهم إلى أنها تتألف من مائة مليارد نجمة إحداها شمسنا هذه والتي تعتبر أوسطها حجماً. وهي أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرَّة. ويبلغ قطر هذه المنظومة مائة ألف مليون سنة ضوئية.

وفي الموسوعة: تتواجد النجوم في مجموعات كبرى تُدعىٰ (مجرَّات) وقد تنشَّأت هذه المجموعات الهائلة كسُدُم ضخمة من الغاز مباشرة بعد نشأة الكون وعملت الجاذبية لاحقاً على تكتُّل الغاز في نجوم منفصلة، والمجرَّات شاسعة جدّاً بحيث إن الضوء من نجم في جانب من المجرَّة يستغرق مئات آلاف السنين ليبلغ الجانب الآخر منها، وتكسب المجرَّة شكلها المميَّز تبعاً لنسق تراتُب النجوم في داخلها فالشمس تقع في مجرّة حلزونيَّة الشكل تُدعىٰ (دَرب التَّبَّانة)، وقد ظلَّ الفلكيُّون حتى بداية هذا القرن يعتقدون أن درب التبَّانة هي المجرَّة الوحيدة في الكون، لكننا نعلم اليوم أنها في الواقع إحدىٰ ١٠٠٠٠٠ مليون مجرَّة فيه.

ودرب التبَّانة (أو الطريق اللَّبَني) مجرَّة حلزونيَّة تحشُدُ في وسطها النجوم فتكسبُها انتفاخاً مركزيّاً تتشعب منه أذرع من النجوم، تتواجد منظومتنا الشمسية في ذراع منها وهذا يعني أننا من نصف الكُرة الجنوبي للأرض، نواجه مركز المجرَّة في حين يُطالعنا طرفها من نصف الكُرة الشمالي. ودرب التَّبَّانة كسائر المجرّات مستمرَّة الحركة ليس فقط كمجرَّة سابحة بكاملها في الفضاء، بل إن النجوم في داخلها أيضاً تدور باستمرار حول مركز المجرة.

البحث الثاني

في إسرارها

وفي الموسوعة أيضاً: كل نجم من النجوم التي نراها في سماء الليل هو في الحقيقة كُرة هائلة مدوَّمة من الغاز المضيء الشديد الحرارة، وتتماسك غازات النجم بفعل الجاذبية كما إن مصدر النجوم هو «استعار» تلك الغازات في تفاعل لا يشبه استعار الفحم بل هو

تفاعل أشد فاعلية وكفاية يعرف بالإندماج النووي، وإنَّ كميَّة الغاز التي يتألف النجم منها مهمَّة جداً، إذ أنَّها تحدِّد جاذبية، ودرجة حرارته، وضغطه وكثافته وحجمه، وتتواجد النجوم في مجرَّات تحوي الواحدة منها آلاف ملايين النجوم من أصناف مختلفة، ولم يبدأ الفلكيُّون في تفهم طبيعة النجوم حقاً إلا خلال هذا القرن، وكان اهتمامهم قبلاً منصبّاً على مواقعها.

وفي الموسوعة أيضاً: لا شيء في الكون يبقى إلى الأبد على حاله، ولا تستثنى من ذلك النجوم، لكن لا يمكننا رؤية نجم يتغيَّر لأنه يعمّر بلايين وبلايين السنين، إن منشأ النجوم كلها هو سحب الغاز، والغبار التي كانت قد تكوَّنت ببطء من الذرَّات المتناثرة بضالة في الفضاء وهي تولد جماعات يتفرَّق معظمها، ويبقى بعضها الآخر متضامّاً بفعل الجاذبية، ويعتمد تالي حياة النجم على عظيم كتلته، فكلما ازدادت كتلتُه ازدادت سرعة استهلاكه لوقوده الهدروجيني وغُدَت حياته أقصر وأضعف. بعض النجوم تبلغ من عِظم الكتلة بحيث سرعان ما تنفجر لكن غالبيّتها، كما شمسنا، تنعم بفترة استقرار من حياتها تسطع فيها باطراد مستمر.

وعلى كل حال فالإنسان يحس أنه في كون فسيح عجيب يعج بالبدائع، ويزدحم بالمدهشات أقربه منه نفسه، وأبعده منه هذه العوالم المترامية التي يحيط بها هذا الفضاء العظيم، وإذا كانت شمسنا هذه بقدر الأرض مليون وثلاثمائة ألف مرَّة (كما يقول العلم) فما شأن النجوم الأخرى التي يقدر بعضها بقدر الشمس أربعمائة مرة كالشعرى اليمانية، ويقدر بعضها بقدر الشمس ألفي مرة كسهيل؟! ثم ما شأن المجرَّات التي ليست هذه النجوم الضخمة إلا نقطاً صغيرة في بناء هيكلها؟!! ثم ما شأن الفضاء الذي يعوم فيه مائة مليون مجرَّة وكل مجرة تحوي مائة مليون نجم (غير الكواكب والتوابع) وهي لا تشغل

من هذا الفضاء إلا كما تشغل السفن الصغيرة القليلة من المحيط اللجي العظيم على فارق كبير جواً بين المحيطين؟!!

البحث الثالث

في فوائد النجوم وفيه فروع

١ ـ إن النجوم هي من أعظم العلامات والدلالات على وجود الله سبحانه وتعالى وهي مصدر الهداية والأنس فيأنس بها الإنسان والحيوان في ظلام الليل وخصوصاً الليالي التي لا يوجد فيها القمر.

٢ ـ لقد كانت النجوم دائماً وعلى مدىٰ مراحل التاريخ من أهمّ وسائل إرشاد الإنسان في الليالي المظلمة حيث ينجو بمساعدتها في اسفاره البحرية والبريَّة (وعلى ما ينقل) حتى أن بعض العلماء يظنون أن الطيور المهاجرة أي الطيور التي تقطع آلاف الكيلومترات في السنة أحياناً، وبعضها يستمر في طيرانه ليلاً ونهاراً بلا توقف فهي تحدد طريقها نهاراً عن طريق الشمس وليلاً عن طريق نجوم السماء، ولهذا فإنها تتوقف مؤقتاً إذا كان الجوُّ غائماً تماماً حتَّى تنكشف الغيوم، وتظهر السَّماء والنُّجوم.

قيل: والعجب إمكانية تحديد فصول السنة أيضاً من خلال النجوم وأما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الانعام: ٩٧] فإن هذه الآية تُلفت نظر كل المفكرين إلى هذه المسألة وهي أن حركة النجوم في السماء واستقرارها في هذا الميدان العظيم تتمتع بنظام وحساب خاص وإلا لما استطاع أحد أن يعثر على طريقه في ظلمة الليل دونها. وهذا النظام يدل على أن الخالق جل وعلا والمدبِّر قد خطط له بكل حكمة.

٣ ـ وفي حديث المفضل قال الصادق ﷺ: «وجعل فيها جزءاً

يسيراً من الضوء ليسدّ مسدَّ الأضواء إذا لم يكن قمر، ويمكن فيه الحركة إذا حدثت ضرورة كما قد يحدث الحادث على المرء فيحتاج إلى التجافي (من تجافى إذا لم يلزم مكانه) في جوف الليل فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع أن يبرح مكانه فتأمَّل اللطف والحكمة في هذا التقدير حين جعل للظلمة دولة ومدَّة لحاجة إليها وجعل خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا» وقوله ﷺ: «للمآرب» يعني قضاء الحوائج والمنافع وقال ﷺ أرأيت لو كانت الشمس والقمر والنجوم بالقرب منا ألم تكن تستخطف الأبصار بوهجها وشعاعها كالذي يحدث أحياناً من البروق إذا توالت واضطربت في الجوّ!»

٤ ـ قولهم في علم الفلك: إنَّ علم الفلك يشير إلى أن لهذا الكون بداية قديمة، وأن الكون يسير إلى نهاية محتومة، وليس مما يتفق مع العلم أن نعتقد أن هذا الكون أزلي ليس له بداية أو أبدي ليس له نهاية فهو قائم على أساس التغيُّر، وفي هذا الرأي يلتقي الدين بالعلم.

والعلوم بحكم طبيعتها المادية أعجز من أن تبحث عن الله بطرقها المادية أو أن تُدرك كُنه ذاته تعالى، ولكن ملاحظة عجائب هذا الكون قد دعت كثيراً من علماء الفلك الأمناء إلى الإعتقاد بأنه لا بد أن يكون لهذا الكون (باتساعه الفسيح، ونظامه المعجز) مدبِّر لا نراه، ولا نستطيع أن نُدرك كنهه تعالى.

وقال بعضهم: «إنَّما يطلب إلى أي إنسان سواء أكان مؤمناً أم ملحداً هو أن يبيّن لنا كيف تستطيع المصادفة أن تخلق هذا الكون» ولا شك أن هذه طريقة من طرق التحدي الذي يقصد به الإستدلال على وجود الله تعالى.

٥ ـ قال بعضهم وهو عالم بيولوجي: إذا رفعنا أعيننا نحو

السماء فلا بد أن يستولي علينا العجب من كثرة ما نشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها والتي تتبع نظاماً دقيقاً لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرَّت بها الليالي وتعاقبت عليها الفصول والأعوام والقرون، إنَّها تدور في أفلاكها بنظام يمكننا من التنبُّؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة، فهل يظن أحد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى في الفضاء؟ وإذا لم يكن لها نظام ثابت ولم تكن تتبع قوانين معيَّنة، فهل كان من الممكن أن يثق الإنسان بها ويهتدي بهديها في خضم البحار السبعة، وفي متاهات الطرق الجويّة التي تتبعها الطائرات؟ قد يسلِّم بعض الناس بوجود الله سبحانه وبقدرته، ومع ذلك فإنهم يسلِّمون بأن هذه الأجرام السماوية تخضع لقوانين خاصَّة، وتتبع نظاماً معيَّناً، وأنها ليست حرَّة تتخبط في السماء كيف تشاء. الحق أنه من قطرة الماء التي رأيناها تحت المجهر إلى تلك النجوم التي شاهدناها خلال المنظار المكبِّر، لا يسع الإنسان إلا أن يمجِّد ذلك النظام الرائع، وتلك الدِّقة البالغة والقوانين التي تعبِّر عن تماثل السلوك وتجانسه[1].

وقال الرازيّ: اعلم أنَّ منافع النجوم كثيرة: منها أنّه زيّن الله السماء بها، ومنها أنّه يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء ولذلك فإنّه إذا تكاثفت السحاب في اللّيل عظمت الظلمة وذلك بسبب أنّ السحاب يحجب أنوارها، ومنها أنّه يحصل بسببها تفاوت في أحوال الفصول الأربعة فإنّها أجسام عظيمة نورانيّة فإذا قاربت[2] الشمس كوكباً مسخناً في الصيف صار أقوى حرّاً، وهي مثل نار تضمّ إلى نار أُخرى

(١) الله يتجلّى في عصر العلم.
(٢) مجمع البيان: ج١٠، ص٤٧٢.

فإنّه لا شكّ أنّه يكون الأثر الحاصل من المجموع أقوى ومنها أنّه تعالى جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر على ما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: ١٦]، ومنها أنّه تعالى جعلها رجوماً للشياطين الّذين يخرجون الناس من نور الإيمان إلى ظلمة[1] الكفر، يروى أنّ السبب في ذلك أنّ الجنّ كانت تسمع بخبر السماء، فلمّا بعث محمّدﷺ حرست السماء ورصدت الشياطين فمن جاء منهم مسترقاً للسّمع رمي بشهاب فأحرقه لئلاّ ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخلط على النبيّ أمره ويرتاب الناس بخبره، وهذا هو السبب في انقضاض الشهب. فهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥] ومن الناس من طعن في هذا من وجوه:

أحدها: إنَّ انقضاض الكواكب مذكور في كتب قدماء الفلاسفة، قالوا: إنّ الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس، فإذا بلغ النار الّتي دون الفلك احترق بها فتلك الشعلة هي الشهاب.

وثانيها: إنَّ هؤلاء الجنّ كيف يجوز أن يشاهدوا واحداً وألفاً من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون، ثمّ إنّ[2] مع ذلك يعودون لمثل صفتهم[3] فإنَّ العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرّة ومراراً امتنع أن يعود إليه من غير فائدة.

وثالثها: إنَّه يقال في ثخن السماء مسيرة خمسمائة عام، فهؤلاء الجنّ إن نفذوا في جرم السماء وخرقوا اتّصاله فهذا باطل، لأنّه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾

---

(١) في المصدر: قارنت.

(٢) الصحيح: إنّهم.

(٣) الصحيح: صنيعهم.

[الملك: ٣] وإن كانوا لا ينفذون في جرم السماء فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم؟ فلم لا يسمعون كلام الملائكة حال كونهم في الأرض؟.

ورابعها: إنَّ الملائكة إنّما اطّلعوا على الأحوال المستقبلة إمّا لأنّهم طالعوها من اللوح[1] المحفوظ، أو لأنّهم يتلقّونها من وحي الله تعالى إليهم، وعلى التقديرين فلم لا يمسكون عن ذكرها حتى لا يتمكّن الجنّ من الوقوف عليها؟.

وخامسها: إنَّ الشياطين مخلوقون من النّار، والنّار لا تحرق النار بل تقوّيها، فكيف يحتمل[2] أن يقال الشيطان زجر من استراق السمع بهذه الشهب.

وسادسها: إنَّه إن كان هذا القذف لأجل النبوّة فلم دام بعد وفاة الرسول ﷺ.

وسابعها: إنَّ هذه الرجوم، إنّما تحدث بالقرب من الأرض بدليل أنّا نشاهد حركاتها بالغة ولو كانت قريبة من الفلك لما شاهدنا حركاتها[3] كما لم نشاهد حركات الكواكب، وإذا ثبت أنّ هذه الشهب إنّما تحدث بالقرب من الأرض فكيف يقال إنّها تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك؟.

وثامنها: إنَّ هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفّار حتّى يتوسّل الكفّار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم؟.

---

(١) الصحيح: في اللوح.
(٢) الصحيح: فكيف يعقل أن يقال إنَّ الشياطين زجروا عن استراق.
(٣) الصحيح: حركتها بالعين.

وتاسعها: لِمَ لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتّى لا يحتاج في دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب؟.

والجواب عن السؤال الأول: إنّا لا ننكر أنّ هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبيّ ﷺ[1] وقد يوجد بسبب آخر وهو دفع الجنّ وزجرهم. يروى أنّه قيل للزهري: أكان يرمى في الجاهليّة؟ قال: نعم، قال: أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩] قال: غلظت وشدّد أمرها حين بعث النبيّ ﷺ.

والجواب عن السؤال الثاني: إنّه إذا جاء القدر عمي البصر، فإذا قضى الله على طائفة منهم الحرق لطغيانها وضلالها قيّض لها من الدواعي المطمعة في درك المقصود ما عندها يقدم على العمل المفضي إلى الهلاك والبوار.

والجواب عن السؤال الثالث: إنّ البعد بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام فأمّا ثخن الفلك فلعلّه لا يكون عظيماً.

والجواب عن السؤال الرابع: ما روى الزهريّ عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ﷺ عن ابن عبّاس قال: بينا رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: ما كنتم تقولون في الجاهليّة إذا حدث مثل هذا؟ قالوا كنّا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم. قال النبيّ ﷺ: فإنّها لا ترمى لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربّنا تعالى إذا قضى الأمر في السماء سبّحت حملة العرش، ثمّ سبّح أهل السماء وسبّح[2] كلّ سماء حتّى ينتهي التسبيح

---

(١) في المصدر: لأسباب أخر إلاّ أنّ ذلك لا ينافي أنّها بعد مبعث النبي عليه الصلاة والسلام قد توجد.

(٢) في المصدر: يسبح أهل كل سماء.

إلى هذه السماء، ويستخبر أهل السماء حملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ولا يزال ينتهي ذلك الخبر من سماء إلى سماء إلى أن ينتهي الخبر إلى هذه السماء، ويتخطّف الجنّ فيرمون، فما جاؤوا به فهو حقّ ولكنّهم يزيدون فيه.

والجواب عن السؤال الخامس: إنَّ النار قد تكون أقوى من نار أُخرى فالأقوى تبطل الأضعف.

والجواب عن السؤال السادس: إنَّه إنَّما دام لأنّه ﷺ أخبر ببطلان الكهانة، فلو لم يدم هذا القذف لعادات الكهانة، وذلك يقدح في خبر الرسول ﷺ عن بطلان الكهانة.

والجواب عن السؤال السابع: إنَّ البعد على مذهبنا غير مانع من السماع فلعلّه تعالى أجرى عادته بأنّهم إذا وقعوا[١] في تلك المواضع سمعوا كلام الملائكة[٢].

والجواب عن السؤال الثامن: لعلّه تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين[٣].

والجواب عن السؤال التاسع: إنَّه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فهذا ما يتعلّق بهذا الباب على سبيل الاختصار[٤] (انتهى).

---

(١) في المصدر: وقفوا.

(٢) هذا الجواب مبني على قول الأشاعرة بإنكار العلية والمعلولية وأنَّ الملازمة بين العلّة والمعلول ليس أمراً ذاتياً وإنَّما هو لجريان عادة الله تعالى على ذلك، فمن الممكن أن تكون عادته تعالى في بعض الموارد على خلافه.

(٣) والصواب أن يُقال: إن كان المراد بالكفار جميعهم فالملازمة ممنوعة لأنَّ المكالمة مع الجن تتوقف على مقدمات لا تحصل لجميعهم، وإن كان المراد كهنتهم فبطلان التالي غير مسلّم.

(٤) مفاتيح الغيب: ج٨، ص٢٤٦ ـ ٢٤٨.

قال المجلسي: الأصوب في الجواب عن الثالث أن يقال: قد ظهر أنَّ للسماء أبواباً يصعد منها الملائكة وصعد منها نبيُّنا ﷺ وعيسى وإدريس بل أجساد سائر الأنبياء والأوصياء بعد وفاتهم على قول. . . .

البحث الرابع
في معجزة الكواكب

والمعجزة في الكواكب هي: ١ ـ إنها تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها، فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها (على حياله) دلالات يعرفها الناس، ويهتدون بها لبعض أمورهم كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور، والجوزاء إذا طلعت واحتجابها إذا احتجبت، فصار ظهور كل واحد، واحتجابه في وقت غير الوقت الآخر لينتفع الناس بما يدل كل واحد منها على حده وكذلك جعلت بنات نعش الكبرى (هي سبعة كواكب) نشاهدها جهة القطب الشمالي، وبقربها سبعة أخرى تسمّىٰ بنات نعش الصغرىٰ، والنجمة التي رسمت كبيرة هي النجمة القطبية التي يستدل بها على نقطة «القطب الشمالي» فجعلت بنات نعش الكبرىٰ ظاهرة لا تغيب، لضرب آخر من المصلحة فإنَّها بمنزلة الأعلام، التي يهتدي بها الناس في البر والبحر للطرق المجهولة وكذلك إنَّها لا تغيب، ولا تتوارىٰ فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شاؤوا.

٢ ـ وفي احتجاب بعض النجوم، وبقاء بعضها لا يغيب أبداً فيهما مآرب ومنافع أخرى، وعلامات ودلالات على أوقات كثيرة من الأعمال كالزراعة، والغراس، والسفر في البر والبحر، وأشياء أخرىٰ أيضاً مما يحدث في الأزمنة من الأمطار والرياح، والحرّ والبرد. وبها يهتدي السائرون في ظلمة الليل لقطع القفار الموحشة، واللجج الهائلة.

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ [الواقعة: ٧٥] ومعناها: إن مواقع النجوم من الدقة بحيث استقام معها هذا النظام الكوني البديع. والنجوم وإن تحركت إلا أن حركتها تبقىٰ ضمن مسارها المقرر لها وموقعها الخاص، ولكل حركة حساباتها وموازينها وإن أي تغير مهم في مواقع هذه النجوم سيعرض نظام هذا الكون للإنهيار. فهذه كلها براهين قطعية ودلالات عقلية ضرورية يشهد بها العيان، ويحكم بها الوجدان على وجود الصانع وقدرته وحكمته.

٤ ـ وقال جان ألدر في كتابه (بداية ونهاية العالم):

لقد كشفت أحدث وأدقّ القياسات على طول مسيرة الأمواج التي تنبعث من النجوم، الستار عن وجه إحدىٰ الحقائق العجيبة والمدهشة، ذلك أنها بيَّنت على أن مجموعة النجوم التي تشكِّل هيئة العالم تبتعد بسرعة فائقة عن مركز العالم كلما زاد ذلك من سرعة سيرها، ويبدو أن النجوم بأكملها كانت مجتمعة في هذا المركز في يوم من الأيام ثم تشتَّت شملها بعد ذلك، وانفصلت عنها مجموعة من النجوم الكبيرة لتشق طريقها في مسالك الفضاء المختلفة، علاوة على أنَّ العلماء استفادوا من هذا الموضوع على أن للعالم نقطة شروع في بداية الأمر (ص ٧٤ ـ ٧٧) (مختصراً) ونقل في نفس المصدر عن (جورج كاموف) قوله في كتاب «خلق العالم»: «إن فضاء العالم المتكوّن من مليارات المجرّات، في حال اتّساع مطّرد وفي الحقيقة إن عالمنا ليس في حالة سكون، وإنما في حالة انبساط، والتوصل إلى الحقيقة القائلة بأن هذا العالم هو في حالة انبساط وتوسّع هو المفتاح الذهبي للتعرف على لغز هذا العالم لأن قولنا: إن العالم في حالة انبساط حالياً يستلزم منه أن العالم كان في حالة انقباض شديد في يوم من الأيام.

وفي كتاب حدود النجوم: «تصل أقوى درجات السرعة لتقهقر الكرات التي خضعت للقياس إلى وقتنا هذا إلى حدود ست وستين ألف كيلومتر في الثانية. إنّ نور المجرّات الأبعد يبدو ضعيفاً بنظرنا إلى درجة بحيث يتعسّر علينا قياس سرعتها نظراً لعدم وجود النور الكافي لقد بيَّنت الصور التي التقطت من السماء بوضوح من أن فاصلة هذه المجرّات أبعد بكثير من فاصلة المجرّات القريبة.

البحث الخامس

علوم عامة في النجوم

قد ذكر علماء الفلك أنّ لمعان النجم متوقّف على المسافة التي يبتعد النجم بها عنّا، وكمية الضوء المنبعثة منه، فبعض النجوم يبتعد عنّا مئات السنين الضوئية ولكنه ساطع يتلألأ لانبعاث الكميّات الهائلة من الضوء منه ولهذا استطاع الفلكيون رصدها للمعانها ونورها، أمّا النجوم التي لا ينبعث منها الضوء سواء كانت بعيدة أو قريبة عنّا لم ترصد بكاملها لعدم رؤية الإنسان لها، ولا يعلم حصرها إلاّ خالقها ومبدعها.

وإليك أسماء النجوم التي تمّ رصدها، ووضع الفلكيون أسماء لها مناسبة لأشكالها.

النجم المسمّى بآخر النهر يبعد عنّا سبعين سنة ضوئية[1]، وقال المنجّمون إنّه يعطي الملك والغلبة في البحار، فإن كان مع زحل كان أقوى تأثيراً، وإن كان مع المشتري فالملك يكون أعلى مرتبة ودرجة.

النجم المسمّى الدبران، ويسمّى عين الثور أو نير الثور، يبعد عنّا

---

(١) الضوء حين يسير في الفضاء يقطع ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية الواحدة من الزمن.

٥٧ سنة ضوئية، ومزاجه مزاج المريخ، فهو من نجوم العمر والزيادة في القوّة، وإن كان المريخ منه على ثلاث درجات من قبل أو بعد فيدلّ على الظّفر بالملوك والأموال والقتل، وإن كان مع زحل فإنّه يفيد الملك الحاكم والجبال والبحار، وإن كان مع المشتري في درجة واحدة أعطى الملك والتدبير بلا خوف ولا اضطراب بل مع الأمن والعدل، وإذا كانت الشمس منه على خمس عشرة درجة فإنّه يعطي ملك العالم كالإسكندر وأمثاله، وإذا كانت الزهرة هناك فالملك مع الحظوة بالنساء، وإذا كان القمر معه فالملك في العبيد والإماء.

النجم المسمّى العيوق وهو يبعد عنّا ٥٢ سنة ضوئية، مزاجه مزاج المريخ وعطارد وهو من نجوم الماء والاستكثار منه.

النجم المسمّى منكب الجوزاء يبعد عنّا ٢٠٠ سنة ضوئية، ومزاجه مزاج زحل وعطارد.

نجم سهيل ويسمّى أيضاً سهيل اليمن، ويبعد عنّا ٢٠٠ سنة ضوئية.

نجم الشعرى اليمانية، ويبعد عنّا ٨,٦ سنة ضوئية، وقد ذكر بعض المنجّمين أنّه نحس حارّ يكاد أن يلتهب العالم من حرارته، إلاّ أنّه ضعيف لأنّ حرارته موفقة للقوة والحياة مثل حرارة المشتري.

نجم الشعرى الشامية، ويبعد عنّا ١٠,٥ سنة ضوئية، مزاجه مزاج عطارد وهو تلو الشعرى اليمانية في القوة وإعطاء الملك، فإذا اقترنت به الكواكب السيارة أعطت بحسب ما يليق بتلك المقارنة.

قلب الأسد يبعد عنّا ٥٦ سنة ضوئية، مزاجه مزاج المريخ ويسير من المشتري.

السماك الرامح يبعد عنّا ٤١ سنة ضوئية مزاجه مزاج عطارد

وزحل، وهذا النجم يقال له الشمعي لأنّه في لون الشمع الأصفر وهو من كواكب الهواء.

نجم السماك الأعزل مزاجه مزاج الزهرة ويسير من عطارد، قالوا إنّه كوكب استخراج الضمير.

نجم النسر الواقع ويبعد عنّا ٢٦ سنة ضوئية.

نجم النسر الطائر ويبعد عنّا ١٦ سنة ضوئية.

نجم فم الحوت ويبعد عنّا ٢٤ سنة ضوئية مزاجه مزاج زحل وعطارد.

نجم قلب العقرب ويبعد عنّا ٣٨٠ سنة ضوئية.

نجم اقنطورس ويبعد عنّا ٤،٣ سنة ضوئية.

نجم رجل الجبار ضوؤه يفوق ضوء الشمس ثلاثة آلاف مرّة ويبعد عنّا ثلاثمائة سنة ضوئية.

نجم قنطورس ويبعد عنّا ٣٠٠ سنة ضوئية.

نجم الصليب ويبعد عنّا ٢٣٠ سنة ضوئية.

نجم التوأمين ويبعد عنّا ٢٨ سنة ضوئية.

نجم سنبل القمح ويبعد عنّا ٢٣٠ سنة ضوئية.

ذنب الطائر ويبعد عنّا ٤٦٥ سنة ضوئية، ونجم الفرس ونجم المراق في المرأة المسلسلة ونجم القطب ورأس التوأم المؤخر ونجم جنب برشاوش الأيمن وهو مرفق الثريا، ونجم نير فرش السفينة ويسمّى سهيل الوزن، ونجم سهيل حصار وسهيل رقاش، ونجوم الكرسي في صورة ذات الكرسي، ونجم الكف الخصيب، ونجم أخفى الفرقدين،

ونجم نير سعد السعود، ونجم فم الفرس، ونجم راعي النعايم ونجم الراعي الذي على رأس حواء وكبله الذي على منكب الحواء الأيمن ونجم نير الثريا، ونجم نير البطين ونجم أذن الكلب ونجم العذارى ونجم مقدم البطين وهو منشأ إليه الحمل وأول الثريا وسعد بلع، ونجم رأس الساكب.

وقد حسب عدد النجوم التي ترى بواسطة نظارة هرشل الكبيرة ما ينيف على عشرين مليون نجم.

تأمّل سطور الكائنات كأنها من الملأ الأعلى إليك دلائل
وقد خطّ فيها لو تأملت خطّها ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل

الرعد والبرق وفيهما بحثان:

البحث الأول

في تعريفهما وما يتعلق بهما

الرَّعْدُ: هو صوت الغيوم، وتستعمل كناية أيضاً عن تحطُّم وسقوط الشيء الثقيل المتزامن مع الصوت (الراغب)، وعن «مقاييس اللغة» أن معناها الحقيقي: هو الحركة، والإضطرابات.

والبَرْقُ: في الأصل هو النور الذي يظهر من الغيوم، ثم استعملت للتعبير عن كل شيء ساطع، فمثلاً يقال للسيف اللامع: (السيف البارق) (عن الراغب) ويعتقد العلماء المعاصرون (على ما ينقل): إنَّ بريق السماء يحدث من خلال تقارب قطعتين من الغيوم المحمَّلة بالشحنات الكهربائية المختلفة، واحدة موجبة، والأخرى سالبة فتحدثان بريقاً كما يحصل من اقتراب قُطْبَيْ الموصل الكهربائي تماماً، وحيث تتحمَّل قطع الغيوم بالشحنات الكهربائية العظيمة يكون بريقاً عظيماً أيضاً، ونحن نعلم أن لكل بريق صوتاً وكلما اشتدَّ البرق كلما تعاظم صوته.

ونظراً لتجمع الشحنات على الأجزاء المدبَّبة للأجسام ففي

الصحارى التي تحدث فيها الصواعق يظهر البرق في النقاط المرتفعة كرؤوس الأشجار، وحتى رأس الإنسان المار عبرها لذلك يعتبر التوقف في الصحارى أثناء الجوّ العاصف المليء بالرعد والبرق خطيراً للغاية وفي مثل هذه الحالات يمكن أن يزيل اللجوء إلى الوديان أو الإقتراب من الأشجار، وأسفل الجبال والتلال الخطر إلى حد ما (إن الإتكاء على الأشجار والشبابيك الحديدية لا يخلو من خطورة أيضاً).

وقال في نفحات القرآن: ونقرأ في الآية (١٢) من سورة الرعد: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرّعد: ١٢].

وفي الماضي لم يكن أحد يعرف بدقة منشأ (الرعد) و(البرق)، ولذا كان كل شخص يختلق لنفسه فرضية معينة، ويضفي عليها أحياناً طابع الأساطير والخرافات، أما اليوم فقد أضحى مسلّماً أن حدوث الرعد والبرق يرتبط بالتفريغ الكهربائي بين سحابتين لهما شحنتان كهربائيتان مختلفتان (إحداهما موجبة والأخرى سالبة).

وفي الواقع مثلما يتصل سلكان كهربائيان أحدهما بالآخر فتحدث شرارة كهربائية يصحبها الصوت والحرارة معاً، كذلك يحدث هذا الأمر بين السحب، (فالبرق) هو الشرارة الكهربائية الهائلة و(الرعد) هو صوت تلك الشرارة.

وقد يحدث هذا التفريغ الكهربائي بين قطع السحاب التي لها شحنات كهربائية موجبة وبين الأرض ولها شحنة كهربائية سالبة عادة. فتقذف شرارة نارية إلى سطحها يطلقون عليها اسم (الصاعقة) والتي تسبب الحرائق الكبيرة في الصحارى والغابات وحتى في المباني والعمارات في بعض الأحيان.

ويمكنها أن تحول قطيعاً كبيراً من الغنم إلى رماد في لحظة

واحدة وإذا ما ضربت جبلاً ما فسوف يتلاشىٰ وينهار، أو إذا اصابت سطح البحر قضت على كل ذي روح يعيش في ذلك الموضع منه؛ ويُعزىٰ ذلك كله إلى أنّ الحرارة الناجمة من تلك الشرارة النارية هائلة جداً، (تصل إلىٰ حدود خمسة عشر ألف سانتغراد، أي ضعف حرارة سطح الشمس تقريباً)، فتحيل كل الأشياء إلىٰ دخان ورماد.

وإذا ما كان البرق والرعد من المظاهر المرعبة لعالم الطبيعة إلاّ أنهما بالرغم من ذلك يشتملان علىٰ فوائد ومعطيات كثيرة أيضاً.

فمن إحدىٰ آثارهما المهمة هي نزول الأمطار الغزيرة، وذلك لأن الحرارة المتولدة من البرق، تُسخن مقادير كثيرة من الهواء المحيط بها، فيقلّ ضغطه، ومن المعلوم أنَّ السحب ستفرغ ما فيها من امطار على أثر قلة الضغط، ولهذا السبب ستظهر أمطار غزيرة بعد حصول الرعد والبرق.

ومما يجدر ذكره: عندما تقترب السحب المتراكمة من الأرض لتظللها ويصبح الجو مظلماً، ويسمع صوت الرعد المخيف وتتراءىٰ انوار البرق، في الوقت ذاته تؤثر العواصف العاتية على السحب فتجعلها محملة لقطرات كبيرة غزيرة وتؤدي إلى تزايد وزنها[1]، وهذا هو عين ما قرأناه في الآيات السابقة التي تحدثت عن السحب الثقيلة بعد أن اشارت إلى مسألة البرق، إضافة إلىٰ أن الحرارة الشديدة للبرق تؤدي إلىٰ أن تتركب قطرات المطر من مقادير أكثر من الأوكسجين، فينتج من ذلك ماء مؤكسد ويسمونه بالماء الثقيل أيضاً (H_2O_2)

ولهذا الماء الثقيل تأثير كبير في القضاء على كثير من الميكروبات والآفات النباتية، ولذا ذهب العلماء إلىٰ القول بتكاثر الآفات النباتية

(١) العواصف والأمطار: ص١٣٨.

في السنة التي يقل فيها الرعد والبرق (وهذا تفسير آخر في صدد السحب الثقيلة).

وإضافة إلى ذلك فإن قطرات المطر الممتزجة بكاربون الجو وبواسطة الحرارة الشديدة للبرق، تنتج حامض الكربونيك الذي ينتشر على الأرض ويتفاعل مع مواد أخرى لينتج مركبات تعد من أفضل الاسمدة لنمو الأعشاب، حتى ذهب العلماء إلى القول: إن مقدار الأسمدة الناشئة من الرعد والبرق في الكرة الأرضية تصل إلى حدود العشرة ملايين طن في جميع انحاء الكرة الأرضية، وهو رقم كبير جداً.

وتتوضح عظمة القرآن العلمية بالمقارنة بين هذه الاكتشافات والآيات الآنفة الذكر، خصوصاً إذا أخذ بنظر الاعتبار عدم وجود ادنىٰ أثر لهذه العلوم في ذلك العصر وفي بيئة الجزيرة العربية.

البحث الثاني

في فوائد الرعد والبرق وفيه فروع:

١ ـ (الرّيُّ): من المعروف أن البرق يولّد حرارة عالية جداً قد تبلغ ١٥ ألف درجة سانتغراد، وهذه الحرارة كافية لإحراق مقدار كبير من الهواء المحيط مما يؤدي إلى هبوط الضغط الجوّي مباشرة ونحن نعلم أن الغيوم تمطر أثناء هبوط الضغط، ولهذا فغالباً ما تبدأ الزوابع عقب حدوث البرق، وتنزل قطرات الأمطار الكبيرة في كثير من بقاع الأرض فترتوي بسبب ذلك ببركات البرق.

٢ ـ (رَشُّ السموم): عندما يظهر البرق بتلك الحرارة تتألف قطرات المطر بكمّيات إضافية من الأوكسجين فيحصل الماء الثقيل أي الماء المؤكسد (H_2O_2) ونعلم أن من آثار هذا الماء هو القضاء على

الجراثيم، ولهذا يستعمل طبيّاً في تنظيف الجروح، فهذه القطرات تقضي على بيوض الآفات المسببة لأمراض النباتات عندما تنزل إلى الأرض، وتقوم برَشِّ السموم على أحسن وجهٍ، لذلك فقد قالوا: في كل سنة يقلُّ فيها الرعد والبرق تزداد الآفات النباتية.

٣ ـ (التَّغْذِيَةُ والتَّسْمِيْدُ): إن قطرات المطر، وإثر حدوث البرق وحصول الحرارة الشديدة الناتجة عنه، وتركيبها الخاص تحصل على حالة من حامض الكاربونيك فتقوم بتكوين سماد نباتي مؤثر أثناء تناثرها على الأرض وتخللها فيها فتتغذّىٰ النباتات عن هذا الطريق ويقول بعض العلماء: إن كميَّة السماد الحاصل من حالات البرق في السماء خلال سنة واحدة يبلغ عشرات الملايين من الأطنان وهذا رقم مرتفع للغاية.

بناءً على ذلك نرىٰ أن هذه الظاهرة الطبيعية العاديَّة وغير المهمة إلى أيِّ حدّ مفيدة ومليئة بالبركة؟ فهي تسقي، وترش السموم أيضاً، وتقوم بالتغذية، وهذا نموذج صغير من الأسرار العجيبة لعالم الوجود حيث يصلح أن يكون دليلاً في الطريق لمعرفة الله.

(نفحات القرآن) وهذه منافع للبرق ما كانت تخطر على البال ولا يعلم الناس منها شيئاً.

٤ ـ والمُعْجِزَةُ فيه: هي المعروف أن الماء، والبخار، والغيوم موجودات لا تتوافق مع النار، ولكن بقدرة الخالق تنطلق منها نار هائلة أكثر إحراقاً من أنواع النيران على الأرض كافة، وكذلك البخار، وهو الجسم اللطيف جداً، ولكن ينطلق منه صوت لا ينطلق من سقوط أثقل وأقوىٰ الأجسام وهو (الرعد).

وقال الرازيّ: في كونهما خوفاً وطمعاً وجوه:

الأول: [ان] عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع في نزول الغيث.

الثاني: إنّه يخاف من المطر خوفاً من له فيه ضرر كالمسافر وكمن في جرابه التمر والزبيب ويطمع فيه من له نفع.

الثالث: إنّ كلّ شيء يحصل في الدنيا فهو خير بالنسبة إلى قوم وشرّ بالنسبة إلى آخرين، فكذلك المطر خير في حقّ من يحتاج إليه في أوانه، وشرّ في حقّ من يضرُّه ذلك، إمّا بحسب المكان أو بحسب الزمان.

ثمّ اعلم أنّ حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله سبحانه، وبيانه أنّ السحاب لا شكّ أنّه جسم مركّب من أجزاء مائيّة وأجزاء هوائيّة، ولا شكّ أنّ الغالب عليه الأجزاء المائيّة، والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حارّ يابس، فظهور الضدّ من الضدّ التامّ على خلاف العقل، فلا بدّ من صانع مختار يظهر الضدّ من الضدّ.

فان قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنّ الريح احتقنت في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه، ثمّ إنّ تلك الريح تمزّقه تمزيقاً عنيفاً فيتولّد من ذلك التمزيق الشديد حركة عنيفة، والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق؟

فالجواب: إنَّ كلّ ما ذكرتموه على خلاف المعقول [وبيانه] من وجوه:

الأول: إنَّه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال أينما يحصل البرق فلا بدّ وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزّق السحاب، ومعلوم أنّه ليس الأمر كذلك، فإنّه كثيراً ما يحدث البرق القويّ من غير حدوث الرعد.

الثاني: إنَّ السخونة الحاصلة بسبب قوّة الحركة مقابلة بالطبيعة المائيّة الموجبة للبرد وعند حصول هذا المعارض القويّ كيف تحدث

النارية؟ بل نقول: النيران العظيمة تنطفىء بصبّ الماء عليها، والسحاب كلّه ماء، فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية؟

الثالث: من مذهبكم أنّ النار الصرفة لا لون لها البتّة، فهب أنّه حصلت النارية بسبب قوّة المحاكّة الحاصلة في أجزاء السحاب، لكن من أين حدث ذلك اللون الأحمر؟ فثبت أنّ السبب الّذي ذكروه ضعيف، وأنّ حدوث النّار الخالصة في جرم السحاب مع كونه ماءً خالصاً لا يمكن إلاّ بقدرة القادر الحكيم.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢] السحاب اسم الجنس، والواحدة سحابة والثقال: جمع ثقيلة، أي الثقال بالماء واعلم أنّ هذا أيضاً من دلائل القدرة والحكمة، وذلك لأنّ هذه الأجزاء المائيّة إمّا يقال إنّها حدثت في جوّ الهواء، أو يقال إنّها تصاعدت من وجه الأرض، فإن كان الأوّل وجب أن يكون حدوثها بإحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب، وإن كان الثاني وهو أن يقال إنّ تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض فلمّا وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت ورجعت إلى الأرض فنقول: هذا باطل، وذلك لأنّ الأمطار مختلفة، فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة، وتارة تكون متقاربة وأخرى تكون متباعدة تارة تدوم مدّة نزول المطر زماناً طويلاً وتارة قليلاً، فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أنّ طبيعة الأرض واحدة وطبيعة الأشعّة المسخّنة للبخارات واحدة لا بدّ وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار. وأيضاً فالتجربة دلّت على أنّ للدعاء والتضرّع في نزول الغيث أثراً عظيماً، ولذلك شرّعت صلاة الاستسقاء، فعلمنا أنّ المؤثّر فيه هو قدرة الفاعل لا الطبيعة الخاصّة[١](انتهى).

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] قال الطبرسي ﷺ ـ: تسبيح

---

(١) مفاتيح الغيب: ج٥، ص٢٧٩.

الرعد دلالته على تنزيه الله تعالى ووجوب حمده، فكأنّه هو المسبّح، وقيل: إنّ الرعد هو الملك الّذي يسوق السحاب ويزجره بصوته، فهو يسبّح الله ويحمده. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: إنّ ربّكم سبحانه يقول: لو أنّ عبادي أطاعوني لأسقيتهم المطر باللّيل وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أُسمعهم صوت الرعد. وكانﷺ إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من يسبّح الرعد بحمده. وكان ابن عبّاس يقول: سبحان الّذي سبّحت له. وروى سالم بن عبد الله، عن أبيه، قال: كان رسول اللهﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: اللّهمّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك، قال ابن عبّاس: من سمع الرعد فقال «سبحان الّذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كلّ شيء قدير» فإن أصابته صاعقة فعليّ ذنبه[1].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] أي وتسبّح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته. قال ابن عبّاس: إنّهم خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، لا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء. «ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء» ويصرفها عمّن يشاء، إلاّ أنّه حذف، ورووا عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّ الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم، ولا تصيب ذاكراً (انتهى)[2].

وقال الرازيّ: في قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣] أقوال: الأوّل إنّ الرعد اسم ملك من الملائكة، والصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل. عن ابن عبّاس إنّ اليهود سألت النبيّ ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: ملك من الملائكة

---

(١) في المصدر: ذنبه.
(٢) مجمع البيان: ج٥، ص٢٨٣.

موكّل بالسحاب، معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث يشاء الله تعالى. قالوا: فالصوت الّذي يسمع؟ قال: زجرة السحاب. وعن الحسن أنّه خلق من الله ليس بملك، فعلى هذا القول الرعد اسم للملك الموكّل بالسحاب وصوته تسبيح للّه تعالى، وذلك الصوت أيضاً مسمّى بالرعد، ويؤكّد هذا ما روي عن ابن عبّاس: كان إذا سمع الرعد قال: سبحان الّذي سبّحت له. وعن النبيّ ﷺ إنّ الله ينشىء السحاب فينطق أحسن المنطق، ويضحك أحسن الضحك، فنطقه الرعد، وضحكه البرق. واعلم أنّ هذا القول غير مستبعد، وذلك لأنّ عند أهل السنّة البنية ليست شرطاً لحصول الحياة، فلا يبعد من الله تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلاً له فكيف يستبعد ذلك ونحن نرى أنّ السمندر يتولّد في النار، والضفادع تتولّد في السحاب[1] والدودة العظمية ربّما تولّدت في الثلوج القديمة؟ وأيضاً إذا لم يبعد تسبيح الجبال في زمن داود ﷺ ولا تسبيح الحصى في زمن محمّد ﷺ فكيف يبعد تسبيح السحاب؟

وعلى هذا القول فهذا الشيء المسمّى بالرعد ملك أو ليس بملك فيه قولان: أحدهما أنّه ليس بملك لأنّه عطف عليه الملائكة، والثاني أنّه لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة وأفرد بالذكر على سبيل التشريف.

القول الثاني: إنّ الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص، ومع ذلك فإنّ الرعد يسبّح لله تعالى، لأنّ التسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ليس إلاّ وجود لفظ يدلّ على حصول النزاهة والتقديس لله تعالى، فلمّا كان حدوث هذا الصوت دليلاً على وجود [موجود] متعال

(١) في المصدر: في الماء البارد.

عن النقص والإمكان كان ذلك في الحقيقة تسبيحاً وهو معنى قوله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

الثالث: إنَّ المراد من كون الرعد مسبّحاً أنّ من سمع الرعد فإنّه يسبّح الله تعالى، فلهذا المعنى أُضيف هذا التسبيح إليه.

الرابع: من كلمات الصوفيّة: الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم.

ثمّ قال: واعلم أنّ المحقّقين من الحكماء يذكرون أنّ هذه الآثار العلويّة إنّما تتمّ بقوى روحانيّة فلكيّة، فللسحاب روح معيّن من الأرواح الفلكيّة يدبّره وكذا القول في الرياح وسائر [الآثار] العلويّة. وهذا غير ما نقلنا أنّ الرعد اسم الملك.

ثم قال: أمر الصاعقة عجيب جدّاً، وذلك لأنّها نار تتولّد في السحاب. فإذا نزلت من السحاب فربّما غاصت البحر وأحرقت الحيتان تحت البحر! والحكماء بالغوا في وصف قوّتها. ووجه الاستدلال أنّ النار حارّة يابسة، وطبيعتها ضدُّ طبيعة السحاب، فوجب أن تكون طبيعتها في الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران...

﴿...يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الرعد: ١٢] مقدّر بأن، أو الفعل فيه منزّل منزلة المصدر كقولهم «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» أو صفة لمحذوف تقديره: آية يريكم بها البرق ﴿...خَوْفًا﴾ [الرعد: ١٢] من الصاعقة وللمسافر ﴿...وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢] في الغيث وللمقيم ﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾ [الروم: ٤٨] أي متّصلاً تارة في السماء أو في سمتها ﴿...كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨] سائراً وواقفاً، مطبقاً وغير مطبق، من جانب دون جانب إلى غير ذلك ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨] أي قطعاً تارة أخرى ﴿...فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ [الروم: ٤٨] أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨] في التارتين ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [الروم: ٤٨]

يعني بلادهم وأراضيهم ﴿...إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الرُّوم: ٤٨] بمجيء الخصب ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ [الرُّوم: ٤٩] أي المطر ﴿...مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [الرُّوم: ٤٩] تكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالبطر واستحكام يأسهم وقيل: الضمير للمطر أو السحاب أو الإرسال ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ [الرُّوم: ٤٩] أي لابسين قانطين. ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: ٥٠] أي أثر الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار، ولذلك جمعه ابن عامر وحمزة والكسائيّ وحفص ﴿...إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ [الرُّوم: ٥٠] يعني الّذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها ﴿...لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [الرُّوم: ٥٠] لقادر على إحيائهم ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ [الرُّوم: ٥١] أي فرأوا الأثر أو الزرع فإنّه مدلول عليه بما تقدّم، وقيل: السحاب، لأنّه إذا كان مصفراً لم يمطر، واللام موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط، وقوله ﴿لَّظَلُّواْ﴾ [الرُّوم: ٥١] [جواب] سدّ مسدّ الجزاء.

آياته في الغيوم

الغُيُومُ: وفيها بحثان :

البحث الأول

في تعريفها وما يتعلق به

الغُيُومُ: هي ذرَّات بخار الماء أو فقل هي ذرَّات الماء التي انفصلت جزئياتها عن بعضها وتحوَّلت إلى بخار، والغيوم أيضاً هي بخار من الماء معلقة بين السماء والأرض والغيوم هي التي تحمل الشحنات الكهربائية المختلفة حيث تؤدي إلى وقوع الرعد والبرق وإن أغلب السوائل لا تتبخر إذا لم تصل إلى درجة الغليان إلا الماء فإنه من السوائل المستثناة حيث يتبخر في أي درجة من الحرارة ولولا هذه الميزة في الماء لما تبخرت قطرة واحدة من ماء البحر، ولم تتكون الغيوم، ولم ينزل المطر واحترقت اليابسة من الجفاف، وفي الميزان: البخار المتراكم تسميه العرب (ضَباباً) بالفتح ما لم ينفصل من الأرض فإذا انفصل وعلا سمي (سحاباً وغيماً وغماماً) (ج ١ ص ٤١١) ونرىٰ القدرة العظيمة للخالق سبحانه بجلاء حيث ألقىٰ هذا التكليف المهم على عاتق أشعة الشمس لتشرق على المحيطات وتقوم بتبخير وتصفية مياهها فيظهر على هيئة قطع من الغيوم ثم تتجه به نحو المناطق الجافة بمساعدة الرياح وتنزله عليها بصورة قطرات لطيفة وصغيرة وبهدوء حيث

تدب الحياة في جميع أرجاء المعمورة وتنشر الإزدهار والإعمار والخضرة في كل مكان وهذا يأتي خلال نظام دقيق جداً وفي التنزيل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ [النبأ: ١٤] جمع مُعْصِر من مادة (عَصَرَ) وتعني الضغط، والمُعْصِرَاتُ يعني الضاغطات وفي معناها أقوال متعددة منها: إنَّ البعض اتخذها صفة للغيوم إذ اعتبرها إشارة إلى نظام خاص يتحكم بها عندما تتراكم على بعضها فكأنما تعصر نفسها كي تجري الأمطار منها واعتبر هذا التعبير من المعاجز العلمية للقرآن الكريم (الريح والمطر) ص ١٢٦.

ومنها: إنَّ البعض اتخذها صفة للرياح، واعتبرها إشارة إلى العواصف والزوابع الترابية حيث لها تأثير في تكوين الأمطار والرعد والبرق والإعصارُ يعني الزوابع الترابية.

وفي التنزيل أيضاً: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧] وهنا اعتبر الرياح مقدمة لرحمته ووصف الغيوم بـ «الثقال» أي (الأحمال الثقيلة) لأن الغيوم الممطرة أثقل من بقية الغيوم وتكون قريبة من الأرض.

و«أقلَّت» من مادة «إقلال» وتعني حمل شيء يكون خفيفاً بالنسبة لقدرة الحامل فهو يعتبره قليلاً ولا قيمة له ويظهر أن الآية تبرهن على أن الغيوم الثقيلة التي تحمل معها ملايين الأطنان من المياه لا تحمِّل الرياح ثقلاً كبيراً وهذا عرض لقدرة الله تعالىٰ.

البحث الثاني

في فوائد الغيوم والأمطار وفيه فروع

١ ـ إن أثناء عملية التبخر يتبخر الماء الصافي فقط وتبقىٰ الأملاح والذرّات الأخرىٰ التي فيه في مكانها أي أن هناك عملية

تصفية طبيعية كي ينال البشر المياه الصالحة. واعلم أنه لو أن ماء البحر يصطحب أثناء تبخُّره إلى السماء حبوب الأملاح الصغيرة، وتنزل المياه المالحة والمرَّة من الغيوم لتحوَّلت الأرض إلى مملحة فلا ينمو نبات أو شجر ولا يستطيع الإنسان أو الحيوان أن يعيش على شرب الماء المالح أبداً. وبذلك تتعذر الحياة على سطح هذه المعمورة.

٢ ـ لو لم تكن الطبقات العليا في الجوّ أكثر برودة من الطبقات السفلىٰ لما أمطرت الغيوم المضطربة في الجوّ أبداً، ولكن هذا الإختلاف في درجات الحرارة هو الذي يؤدي إلى نزول الأمطار، وكذلك لو كان قدرة إشباع ذرَّات البخار متساوية في الهواء البارد والحار لما نزلت الأمطار، ولكن بما أن الهواء البارد له قدرة إشباع ضعيفة والهواء الحار له قدرة إشباع للذرَّات أقوىٰ فإنه ينزل البخار الذي تحوَّل إلى ماء في جوّ السماء.

٣ ـ إن الأمطار إضافة إلى توفيرها للماء الضروري لنموّ النباتات، تقوم بغسل الأرض وتحمل الأوساخ معها نحو البحار وتنظف الجوَّ أيضاً وتقوم بإنزال التراب والغبار والذرَّات المعلَّقة في الجوّ (التي تذوب فيها) إلى الأرض، ولولا هطول الأمطار لتلوَّث الجوُّ بعد مدَّة قصيرة واستحال التنفُّس على الإنسان وغيره من الحيوانات.

٤ ـ إن الأمطار تغسل صخور الجبال شيئاً فشيئاً ليخرج منها التراب الذي يمكن استثماره فتمتدُّ السهول الواسعة على سطح الأرض والأمطار أيضاً تحمل معها الأتربة الغنية من المناطق البعيدة وتنشرها في المزارع لتقويتها كما يجلب جريان الماء معه أفضل الأسمدة الطبيعية للنباتات إلى بعض المناطق (كسواحل النيل وغيره).

٥ ـ إن الأمطار لا تهب الحياة في المناطق الجافة فحسب بل إن هطول الأمطار على البحار يعتبر مؤثراً للغاية أيضاً وذلك لأن سقوط

الأمطار في البحر يساعد على نموّ النباتات الصغيرة في وسط أمواج المياه حيث تكون طعاماً مناسباً جداً للأسماك والأحياء البحرية وفي السنة التي يقلُّ فيها نزول الأمطار يسوء فيها وضع الصيد.

٦ ـ ارتفاع الغيوم عن الأرض إلى هذه المسافة المعروفة مكَّن جميع نقاط الأرض من الاستفادة من ماء المطر وإن العديد من أشجار الغابات والأعشاب الطبيعية والغذائية تنمو على الجبال الشاهقة وهذا يدل على أن الأمطار تقوم بإيصال الكمية اللازمة من الماء إليها ولولا وصول الأمطار إليها لجفَّت جميعها.

٧ ـ وقد أثبت العلم الحديث أن السدود الضخمة التي أنشئت في عصرنا والتي تُؤمِّن جانباً مهمّاً من الطاقة الكهربائية في العالم وتقوم بتشغيل المعامل العملاقة هي من بركات هطول الأمطار على المناطق الجبلية.

٨ ـ إن بعض ترشحات الغيوم تنزل إلى الأرض على هيئة جليد فتُخزَّنُ في قمم الجبال كمصادر للمياه وتقوم بمساعدة خزّانات المياه الموجودة تحت الأرض أيضاً لأنها تذوب تدريجيّاً، وتنفذ داخل الأرض ولكن لو تساقط الجليد باستمرار بدلاً من المطر لأعدم الكثير من المنافع التي ذكرت أعلاه.

٩ ـ الغيوم هي بحار معلَّقة في السماء، وما أعظم الإلٰه الذي يرسل كل هذا الماء إلى السماء خلافاً لقانون الجاذبية، ويقوم بنقله بسهولة من نقطة إلى أخرىٰ.

١٠ ـ إن للغيوم تأثيراً ملموساً في خفض درجة البرودة شتاءً وخفض درجة الحرارة صيفاً، وأيضاً إن الغيوم تحمل الشحنات الكهربائية المختلفة حيث تؤدي إلى وقوع الرعد والبرق.

١١ ـ قال المكتشفون: (يجب توفُّر شرطين لتكوين الغيوم وهطول الأمطار) هما:

أ ـ وجود بخار الماء في الهواء. فبالرغم من أن الهواء لا يخلو على الإطلاق من بخار الماء، وتبلغ أدنى نسبة له نحو (٥٠) غراماً في المتر المكعب إلا أن هذا المقدار من الرطوبة لا يكفي لتكوين الغيوم، ونزول الأمطار بل يجب إمدادها باستمرار أي يجب أن يصل هواء جديد محمَّل ببخار الماء بعد تكوين الغيوم، ونزول الأمطار تباعاً. ويستمر هبوب الريح، ويكون انطلاقها أو مسيرتها من البحر أو الغابات الكثيفة كي يتزوَّدَ من الرطوبة بالمقدار اللازم.

ب ـ (تشبُّع الهواء بالبخار وتقطيره) وهو (تعرُّق الهواء وتحوُّل البخار إلى سائل) فهذا يستلزم برودة الهواء كما يحدث في الشتاء إذ يتعرَّق زجاج شبابيك الغرفة التي تحتوي على ما يكوِّن البخار كالسماور والقدر وغيرهما.

وقالوا أيضاً: إن قطرات الأمطار تسيل من الغيوم المتكوِّنة من عدة طبقات والتي ترتفع أكثر من عشرة كيلو مترات وهذه الغيوم العارية الصاخبة تظهر على هيئة جبال حيث يُغطّى القسم الأعلى منها بقضبان الثلج وقطع الجليد وقد تكون ممتلئة بالبَرَدِ ـ وحتى قبل الحرب العالمية الأولى حيث تمكنت الطائرات حينذاك من الإرتفاع فوق الغيوم وشاهد الطيارون الستائر المتكوِّنة من الجليد، والناشئة من الغيوم المتصاعدة، ولم يكن لأحد علم بوجود الجليد والبَرِدِ في غيوم السماء ومن يريد المزيد يراجع تفسير الأمثل ج١٤ ـ ص٥٠٢ وما بعدها ويراجع أيضاً نفحات القرآن ج٢.

١٢ ـ (البَرَدُ) في الموسوعة: البرد من المطر المتجمِّد تتكوَّن داخل سحابة مُزْنيَّة ركاميَّة شاهقة حيث الطبقات السفلىٰ أدفأ بشكل ملحوظ من درجة التجمّد في الطبقات العليا. هذا الفرق في درجة

الحرارة داخل السحاب يُحدثُ تيّارات هوائيَّة قويَّة تتقاذف قطرات المطر صعوداً إلى نُطُق التجمّد العليا وهبوطاً إلى النُّطُق الأدفأ، وكي تظلَّ حبَّةُ البَرَد في السحابة وقتاً كافياً لتصبح بحجم حبَّة البَسلَّىٰ ينبغي أن تتقاذفها التيارات صعوداً وهبوطاً بسُرعات تقارب ٣٠ م في الثانية (١٠٨كم/سا) وخلال حركة البرد هذه داخل السحابة ترتطِم حبَّاته بعضها ببعض مسبِّبة أحياناً كثيرة انفصال شحْنات كهربائية تُحدثُ البرق داخل السحابة نفسها أو بين السحاب والأرض أو بين سحابة وأخرىٰ.

وفي البحار، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٣-٤٤].

«ألم تر» بعين عقلك ولم تعلم «أن الله يزجي سحاباً» أي يسوقه، ومنه البضاعة المزجاة، فإنّها يزجيها كلّ أحد «ثمّ يؤلّف بينه» بأن يكون قزعاً فيضمّ بعضها إلى بعض، وبهذا الاعتبار صحّ «بينه» إذ المعنى: بين أجزائه. «ثمّ يجعله ركاماً» أي متراكماً بعضه على بعض «فترى الودق» أي المطر «يخرج من خلاله» أي من فتوقه جمع خلل كجبال في جبل «وينزل من السماء» قيل: أي من الغمام وكلّ ما علاك فهو سماؤك «من جبال فيها من برد» قيل: أي قطع عظام تشبه الجبال في عظمها أو جمودها «من برد» بيان للجبال والمفعول محذوف أي ينزل حينئذٍ ماءً من السماء من جبال، ويجوز أن تكون «من» الثانية والثالثة للتبعيض واقعة موقع المفعول، وقيل: المراد بالسماء المظلّة وفيها جبال من برد كما في الأرض جبال من حجر، وعليه ظواهر كثير من الأخبار ولم يدلّ دليل قاطع على نفيه.

قال الرازيّ: قال أهل الطبائع إنّ تكوّن السحاب والمطر والثلج

والبرد والطلّ والصقيع في أكثر الأمر يكون من تكاثف البخار، وفي الأقلّ من تكاثف الهواء، أمّا الأوّل فالبخار الصاعد إن كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلّل ذلك البخار فحينئذ ينحلّ وينقلب هواءً، وأمّا إن كان البخار كثيراً ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلّله فتلك الأبخرة المتصاعدة إمّا أن تبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ، فإن بلغت فإمّا أن يكون البرد قويّاً أو لا يكون، فإن لم يكن البرد هناك قويّاً تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر، فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر، والديمة والوابل إنّما يكون من أمثال هذه الغيوم، وأمّا أن كان البرد شديداً فلا يخلو إمّا أن يصل البرد إلى الأجزاء البخاريّة قبل اجتماعها وانحلالها أو بعد صيرورتها كذلك، فإن كان على الوجه الأوّل نزل ثلجاً، وإن كان على الوجه الثاني نزل برداً، وأمّا إذا لم تبلغ الأبخرة إلى الطبقة الباردة فهي إمّا أن تكون قليلة أو تكون كثيرة، فإن كانت كثيرة فهي تنعقد سحاباً ماطراً وقد لا تنعقد، أمّا الأوّل فذاك لأحد أسباب خاصّة: أولها إذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الأبخرة وثانيها أن تكون الرياح ضاغطة لها إلى اجتماع بسبب وقوف جبال قدّام الريح وثالثها أن تكون هناك رياح متقابلة متصادفة فتمنع صعود الأبخرة حينئذ ورابعها أن يعرض للجزء المتقدّم وقوف لثقله وبطء حركته ثمّ تلتصق به سائر الأجزاء الكثيرة المدد وخامسها لشدّة برد الهواء القريب من الأرض فقد يشاهد البخار يصعد في الجبال صعوداً يسيراً حتّى كأنّه مكبّة موضوعة على وهدة ويكون الناظر إليها فوق تلك الغمامة، والّذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والّذين يكونون فوقها يكونون في الشمس، أمّا إذا كانت الأبخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فإذا ضربها برد الليل وكثّفها وعقدها ما يكون محسوساً ونزل نزولاً متفرّقاً لا يحسّ به إلاّ عند اجتماع شيء يعتدّ به، فإن لم يجمد كان

طلاً وإن جمد كان صقيعاً، ونسبة الصقيع إلى الطلّ نسبة الثلج إلى المطر.

وإمّا أن يكون [السحاب] من انقباض الهواء، وذلك عندما يبرد الهواء وينقبض، وحينئذ تحصل منه الأقسام المذكورة.

قال المجلسي: والجواب: إنّا لمّا دلّلنا على حدوث الأجسام وتوسّلنا بذلك إلى كونه سبحانه قادراً مختاراً يمكنه إيجاد الأجسام لم يمكنّا القطع بما ذكرتموه، لاحتمال أنّه سبحانه خلق أجزاء السحاب، دفعة لا بالطريق الّذي ذكرتموه. وأيضاً فهب أنّ الأمر كما ذكرتم ولكنّ الأجسام بالاتّفاق ممكنة في ذواتها ولا بدّ لها من مؤثر ثمّ إنّها متماثلة فاختصاص كلّ واحد منها بصفته المعيّنة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بدّ له من مخصّص، فإذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع، وتلك الطبائع مؤثّرة في هذه الأحوال، وخالق السبب خالق المسبّب، فكان سبحانه هو الّذي يزجي سحاباً، لأنّه هو الّذي خلق تلك الطبائع المحرّكة لتلك الأبخرة من باطن الأرض إلى جوّ الهواء، ثمّ تلك الأبخرة ترادفت في صعودها والتصق بعضها بالبعض، فهو سبحانه هو الّذي جعله ركاماً، فثبت أنّه على جميع التقديرات وجه الاستدلال بهذه الأشياء على القدرة والحكمة ظاهر بيّن (انتهى).

التفسير الحديث للآية المتقدمة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣].

في هذه الآية تعابير مختلفة لم تتوضّح معانيها بدقّة في الماضي. «يزجي» مأخوذة من مادة (ازجاء) ومعناها في الأصل هو الدفع أو

التحريك الملائم الهادىء يقول الراغب في المفردات: «التزجية» معناها هو التحريك على سبيل الترتب والتسلسل. واستعمل القرآن الكريم هذه الكلمة لحركة السفن في سورة الإسراء، الآية ٦٦ على أثر هبوب الرياح في البحر.

«والرُكام» «على وزن غلام» وهي تعني: الأشياء المتراكمة فوق بعضها.

«ودق» (على وزن شرق) وهي حسب رأي بعض المفسرين بمعنى قطرات المطر، وحسب رأي بعضهم الآخر بمعنى: البرق.

«البَرَد» (على وزن سَبَد) وهوالقطعة المتجمِّدة للمطر وهي في الأصل مأخوذة من مادة (بَرْد) (على وزن سَرْد) وهي البرودة لأن قطع البرد ذات طبيعة باردة، وتبعث على برودة الأرض أيضاً أطلقت هذه الكلمة عليها.

«جبال» جمع جبل، جاء في (معجم مقاييس اللغة) هو بمعنى تجمُّع الشيء مصحوباً بالإرتفاع وورد هذا المعنى في «التحقيق» أيضاً وعليه فالجبل لا يراد منه جبال الحصىٰ والرمال فحسب بل إن كل مرتفع متراكم ومخزون يقال له في لغة العرب: جَبَل واستناداً إلى ما قيل في هذا المجال نعود إلى الآية الآنفة الذكر ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣] لم يدرك أحد في ذلك العصر بدقة أن السحب في السماء على هيئة جبال بارتفاعات متفاوتة نشاهد قاعدتها غالباً، لأننا نراها بصورة لوحة واسعة في السماء، لكن عندما نحلّق بالطائرة إلى أعلى السحب نشاهدها جبالاً ووديانا ومرتفعات ومنخفضات، كما نشاهد ذلك على سطح الأرض، وبعبارة أخرى: إن السطح الأعلى للسحب غير مستو وعلى غرار سطح الأرض يحتوي على تضاريس كثيرة وفي كثير من الأحيان يكون متراكماً على هيئة جبل.

ومن أجل أن يتضح مفهوم الجبال في الآية أكثر يمكن ان نضيف النكتة الدقيقة والتي ثبتت نتيجة لتطور العلوم وازدهارها وهي:

ذكر أحد العلماء في تحليله الشخصي ما خلاصته: إن السحب المرتفعة عُبّر عنها بجبال الثلج، في الآية التي قعت مورداً للبحث؛ لأن العلماء في تحليقاتهم الجوية اصطدموا بسحب متكونة من إبَرٍ ثلجية، يصدق عليها عنوان (جبال من الثلج) واقعاً، ومن الغريب هو ما ذكره بصددها أحد العلماء الروس أثناء شرحه لبعض (السحب المحملة بالأمطار) بأنها جبال من الثلج، أو جبال من السحب.

هذا كله من جهة ومن جهة أُخرى ذهب علماء معاصرون في صدد كيفية نشوء البَردَ في السماء إلى القول: بأن قطرات المطر تنفصل عن السحاب وتصطدم بالمناطق العليا الباردة للجو وتتجمد، ولكونه صغيرة جداً تقذفها إلى الأعلى من جديد تيارات هوائية شديدة مسلطة على تلك المنطقة فتنفذ تلك الحبيبات داخل السحب مرة أخرى لتستقر مقابلها صفحة جديدة من الماء، تتجمد مرة ثانية حينما تنفصل عن السحاب، ويحدث أحياناً أن يتكرر هذا الأمر عدة مرات حتى يصبح حجم البرد كبيراً، ولا تقوى التيارات الهوائية على دفعه إلى الأعلى أو أن تهدأ تلك التيارات بصورة مؤقتة، فحينئذٍ يشق طريقه إلى الأرض ويسقط باتجاهها بدون أي مانع، ويحدث أن يكون كبيراً ثقيلاً في بعض الأحيان فيلحق اضراراً بالمزارع والبساتين والحيوانات وحتى أفراد البشر أيضاً.

من هنا يتبين أن وجود برد كبير الحجم ثقيل الوزن ممكن عندما تتراكم الحبيبات المتجمدة فوق قمم السحب الجبلية إلى أن تظهر رياح شديدة فتقذفها وسط السحب، وتجمع مقداراً أكثر من الماء، فتصبح ثقيلة الوزن.

وعلى هذا الاساس تعتبر السحب الجبلية منبعاً مهماً لتكون بَرد كبير الحجم، سبقت الإشارة إليه في الآية.

آياته في الظلال

وفيه بحثان:

البحث الأول

في تعريفه وما يتعلق به

«ظلال» جمع ظل وقال الراغب في كتاب (المفردات): أيُّ مكان لا تشرق فيه الشمس يعتبر ظلاً سواء أشرقت عليه سابقاً أم لا، ولكن «الفيء» (على وزن شيء) يقال للمكان الذي أشرقت عليه الشمس سابقاً ثم غطاه الظلُّ وقيل: إن «الظلَّ» هي الظلال التي تنزل أثناء الصباح، و«الفيء» يطلق على الظلال التي تنزل عصراً.

ويطلق لفظ «الظل» كناية في مورد العزَّة، والمَنْعة، والرفاهية، لأن من المعروف أن هذه الأحوال تحصل في الظل ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ﴾ [المرسلات: ٤١] أي من عزّ ومناع، وظلَّلني الشجر أي حجب عني الشمس، وأظلَّني فلان: أي حرسني وجعلني في ظلِّه، وعزِّه، ومناعته.

و«الظلَّة» سحابة تُظِلُّ، وأكثر ما يقال فيما يستوخم، ويكره: ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

وقد قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ

سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦] وفي المقصود من (الظل) في هذه الآية ثلاثة أقوال:

١ ـ إن المقصود هو ظلُّ الليل حيث ينبسط على جميع سطح الأرض وينقبض بنحو متناوب، ويعتبر وجود الشمس دليلاً وإشارة عليه إذ «تُعرف الأشياء بأضدادها».

٢ ـ وقيل: هو إشارة إلى الظلِّ الذي يمتدُّ بين الطلوعين (بين طلوع الفجر وطلوع الشمس)، فيغطِّي وجه. الأرض، وهو أفضل الظلال والساعات.

٣ ـ وقيل: هو بمعنى الظلال التي تحصل أثناء النهار بسبب اصطدام ضوء الشمس بالجبال والأشجار وبقية الأجسام، ثم ينقل تدريجياً، ويمكن شمول الآية لهذه التفاسير الثلاثة كلها لأن هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض، وإن تعبير الآية مطلق وجامع.

البحث الثاني

في فوائده وفيه فروع

١ ـ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ [النحل: ٨١].

قيل: إن المقصود هنا الأشياء التي تتسبب في إيجاد الظلال كالجبال والغيوم والأشجار والسقوف والجدران وقد أشار في سياق الآية إلى سائر النعم التي هي في الواقع مكمّلة لوجود الظل﴿...وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

كالملاجىء المستحدثة في الجبال على هيئة مغارات وثغور، والتي تقي الإنسان من حرارة الشمس المحرقة كالدرع حين يحجب

ويصدّ طعنات العدو في ساحة الحرب و«سرابيل» جمع (سِربال) وهي تعني جميع أنواع الملابس.

٢ ـ من أجل إدراك أهمِّيَّة أيّ موجود لا بُدّ من احتمال زواله تماماً في لحظة أو يوم أو شهر ما، ثم الإلتفات إلى آثاره، والأمر كذلك في مسألة الظلال (كما قالوا) التي تبدو موضوعاً عادياً، وغير مهم للوهلة الأولى، إفرضوا أن كل أنواع الظلّ والمظلاّت، رفعت عن الكرة الأرضية لمدة أسبوع فلا جبال ولا أشجار، ولا حائط بيت. ولا سقف، واختفت كلها بصورة مفاجئة وتبدَّلت جميع الأجسام في هذا العالم إلى حالة كالبلّور، ونفذ ضوء الشمس من خلالها فكم ستصبح الحياة صعبة، ولا يمكن تحملها إذ يشع ضوء الشمس باستمرار، ويضغط على كل شيء، ويسلب كل أشكال الإستقرار، والإطمئنان والراحة من الإنسان وسائر الموجودات، ولو حدثت مثل هذه الفرضية في فصل الصيف فسوف تهلك جميع الكائنات الحيَّة خلال فترة قصيرة لكن الله سبحانه جعل الظلّ للإنسان كي ينال الراحة والإستقرار هو ومن يتعلّق به.

٣ ـ إن الليل في الواقع هو ظلٌّ نصف الكرة الأرضية الذي يقع إزاء الشمس، الظلُّ المخروطي الشكل الذي يمتدُّ من الفضاء في الجهة المقابلة، ويتحرَّك، باستمرار، ولولا ظلُّ الليل لاحترقت كافة الكائنات الحيَّة بفعل ضوء الشمس والحرارة الناتجة عنه، وهلك النسل البشري بسرعة وإذا فكَّر الإنسان قليلاً في هذا المجال فسيطَّلع على أهمية وعظمة هذه النعمة، ويتمكن من خلال ذلك الوصول إلى الخالق الحكيم.

٤ ـ إن وجود الظلال ضروريٌّ للغاية من أجل تخفيف ضوء وحرارة الشمس لأن الأشعة الحياتية للشمس لو لم تخفَّف بالظهور

المتناوب للظلال ستفني كل شيء، وتحرقه خلال فترة قصيرة، يقول الفخر الرازي في تفسيره (على ما ينقل):

إن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص، وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران، وهذه الحالة أطيب الحالات، لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع، وينفر عنها الحسُّ، وأما الضوء الخالص، وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوَّتها تبهر الحسّ البصري، وتفيد السخونة القويَّة، وهي مؤذية فإذن أطيب الأحوال هو الظل، ولذلك وصف الجنَّة به فقال: «وظلّ ممدود» (تفسير الفخر الرازي ج٢٤ ص٨٨).

٥ ـ يبدو أن دور الظلال لاسيَّما الظلال المتحرِّكة حيويٌّ جداً بالنسبة للمسافرين، وقاطعي الصحراء فهؤلاء يستطيعون الإستعانة بالخيام ووسائط النقل المسقَّفة لوقاية أنفسهم إزاء أخطار أشعة الشمس المباشرة.

٦ ـ قالوا: والمسألة الأخرى الجديرة بالاهتمام هي أنه خلافاً للتصور العام، فإن النور لا يكفي لوحده لرؤية الأشياء، بل يجب أن يكون متزامناً مع «الظلال» كي تتوفَّر إمكانية رؤية الأشياء.

وبعبارة أكثر وُضوحاً: لو أن النور يشع على موجود ما من أربع جهات بحيث لا يوجد أي شكل للظل أو بعضه فلا يمكن رؤية ذلك الشيء الذي يغرق في النور المتساوي من جميع الجهات، إذن فكما لا يستطيع الإنسان رؤية الأشياء في الظلام المطلق فهو غير قادر على رؤية الأشياء في النور المطلق أيضاً، بل يجب أن يتظافرا معاً كي تتيسّر رؤية الأشياء (تأمل جيداً) فالخالق الذي أناط هذه الأدوار المهمة والحيوية بموجودٍ عاديّ بهذا المستوى جدير بالعبودية والخضوع والسجود. (نفحات القرآن، ج٢ ص٣٢٠).

آياته في الليل والنهار

وفيهما بحثان:

البحث الأول
من تعريفهما وما يتعلق به

إن الليل والنهار من الظواهر التي تحصل نتيجة لضوء الشمس وحركة الأرض، وإن الله تعالى قد أولج كل واحد منهما في الآخر قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١] و«يولج» من مادة «إيلاج» وتعني: الإدخال أي يدخل الليل في النهار ويدخل النهار في الليل ومعنى الآية له قسمان:

١ ـ هو إشارة إلى طول وقصر الليل والنهار التدريجي، والمنظَّم على مدى فصول السنة المختلفة حيث ينقص أحدهما، ويضاف إلى الآخر، فهذا النظام التدريجي عامل مؤثر في نموِّ النباتات، وتكامل الكائنات الحيَّة فلو حدث هذا النقص من أحدهما فجأة لاختلَّ توازن هذه الموجودات فيكون مضراً لهذا فقد جعله الباري تعالى أمراً تدريجياً.

٢ ـ وقد يكون المعنى إشارة إلى مسألة شروق وغروب الشمس لأن الشمس حينما تقترب من الشروق يشعُّ نورها نحو الطرف الأعلى من الجوِّ، ويضيء الجوُّ قليلاً، وكلما ارتفعت الشمس من وراء الأفق

يزداد هذا الضياء، وعلى العكس أثناء الغروب فلا يحلُّ الليل دفعة واحدة بل تختفي أشعة الشمس رويداً رويداً من الطبقات السفلى من الجوِّ، ويحل الظلام محلّها فهذا الإنتقال التدريجي من النور إلى الظلام وبالعكس يؤدي إلى أن يتأقلم الإنسان معه من الناحية الجسدية والروحية ولو حلَّ الليل أو النهار بشكل مفاجيء لترك آثاراً سيئة على الإنسان والحيوان والنبات.

وقال الصادق ﷺ في المفضل: «فكِّر في دخول أحدهما (الليل والنهار) على الآخر بهذا التدريج، والترسُّل فإنك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة لأضرَّ ذلك بالأبدان وأسقمها، كما أن أحدكم لو خرج من حمَّام حار إلى موضع البرودة لضرَّه ذلك وأقسم بدنه، فلم يجعل الله عز وجل هذا الترسُّل في الحرِّ والبرد إلا للسَّلامة من ضرر المفاجأة.

البحث الثاني
في فوائد الليل والنهار

١ ـ إن النهار أكثر طولاً أثناء الصيف، والليل أكثر طولاً في الشتاء أي إن هذين الأمرين يسيران بشكل متزامن، زيادة طول النهار والإشعاع العمودي «أو المنحرف عمودياً» للشمس فيُكمِّل أحدهما أثر الآخر، ويؤديان إلى زيادة حرارة الجوّ فتثمر الفواكه والمحاصيل الزراعية، وفي الشتاء يؤدي إلى زيادة البرودة، وخمول الأشجار والنباتات، واللطيف أنه في المناطق الاستوائيَّة حيث يشع ضوء الشمس عموديّاً لا يطول النهار أبداً، وإلا لداهمها خطر السُّخونة واحترقت النباتات.

٢ ـ إن ضوء الشمس يسبب اليقظة، والحَذر والغليان، والحركة باستمرار، على العكس من الليل الذي يبعث على السكون والإستقرار والنوم، ويلاحظ هذا الأمر على وجه الخصوص في عالم الحيوانات، حيث تستيقظ الطيور مع بزوغ الصبح، وتتجه نحو الصحراء، وتعود وتستريح في أوكارها مع أفول الشمس، وفي الأرياف حيث إن لمعظم الناس حياة طبيعية، ويكون برنامج حياتهم كذلك أيضاً، ولكن نظراً لتطور الآلة، وصناعة النور الإصطناعي فإن الكثير من الأشخاص يسهرون جزءاً من الليل، وينامون بعض الليل، وهذا أحد الأسباب لبعض أنواع الأمراض وفي الحقيقة إن القرآن يحذِّر مثل هؤلاء الأفراد بأن ترك النوم ليلاً يؤدي إلى فقدان الإطمئنان الروحي وذلك من خلال عبارة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] (١).

وقال الصادق عليه السلام للمفضل: «فكّر يا مفضل في مقادير النهار والليل كيف وقعت على ما فيه صلاح هذا الخلق، فصار منتهى كل واحد منهما (إذا امتدَّ) إلى خمس عشرة ساعة لا يجاوز ذلك أفرأيت لو كل النهار مقداره مائة ساعة أو مائتي ساعة؟ ألم يكن في ذلك بَوَارُ كل ما في الأرض من حيوان ونبات أما الحيوان فكان لا يهدأ ولا يقرُّ طول هذه المدَّة ولا البهائم كانت تمسك عن الرعي لو دام لها ضوء النهار، ولا الإنسان كان يفتر عن العمل والحركة، وكان ذلك ينهكها أجمع، ويؤديها إلى التلف، وأما النبات فكان يطول عليه حرُّ النهار ووهج الشمس حتى يجفّ ويحترق. وكذلك الليل لو امتدَّ مقدار هذه المدَّة كان يعوق أصناف الحيوان عن الحركة، والتصرف في طلب المعاش حتى تموت جوعاً، وتخمد الحرارة الطبيعية عن النبات حتى

(١) نفحات القرآن.

يعفّن ويفسد كالذي تراه يحدث على النبات إذا كان في موضع لا تطلع عليه الشمس».

ومما يخص الليل والنهار قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: ٣٧].

الليل والنهار يحدثان بحسب الحس من حركة الشمس حول الأرض، وبحسب الواقع من الحركة الوضعية للأرض حول نفسها وهما يحدثان خلال فترة زمنية تمتد أربعاً وعشرين ساعة: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧] الآية: هي العلامة والدلالة على وجود الله وقدرته وعظمته تعالى ومعناها: إذا جاء الليل ساد الظلام فالله جل وعلا جاء بالليل وذهب بالنهار ليعمَّ الأمن والسكينة الكائنات الحية فتخلد إلى الراحة والهدوء بفضل ظلمة الليل فالليل هو من آيات الله العظام.

«نسلخ منه النهار» قال بعض المفسرين إن كلمة «نسلخ» تعني «نخرج» لأن كلمة «منه» جاءت بعدها ولو كانت (نسلخ) بمعنى "ننزع" لوجب أن تأتي بعدها (عن) فنسلخ إذاً تعني نخرج منه النهار أي: نأخذ الضياء، ونأتي بالظلام أي أخذنا نورانية الجو فحلّت الظلمة.

«فإذا هم مظلمون» لو أن تلك القدرة القاهرة لم تحرك الكرة الأرضية أي لو كان النهار مثلاً دائم الوجود لما أمكن الحصول على منافع الليل أو لو أن الشمس بقيت أربعاً وعشرين ساعة تصب أشعتها على نقطة واحدة لأحرقتها بدون شك.

ومما يخص الليل والنهار أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] وهذه إشارة إلى آية أخرى، إذ الليل والنهار مسخران لإرادة الله سبحانه ولا يمكن لأحدهما أن يسبق الآخر إلا بالشكل الذي قدَّره الله، وفق نظام محدَّد فيلج الليل في النهار، والنهار في الليل، وفي بداية الربيع والخريف يتساوى الليل والنهار، فابتداءً من

أول الربيع، وحتى أول الصيف يأخذ النهار بالطول والليل بالقصر تدريجياً ثم بعد ذلك يؤخذ من طول النهار، ويزاد على الليل تدريجياً حتى يتساوى الليل والنهار للمرَّة الثانية في أول الخريف ثم بعد ذلك يقصر النهار، ويطول الليل وحتى ليلة الميلاد بداية الشتاء حينها يطول النهار، ويقصر الليل حتى آخر الشتاء وأول الربيع وهكذا، إن هذا النظام المحدَّد الناتج عن حركة الأرض شمالاً وجنوباً وبالعكس هي بحق آية كبرى على علم الخالق وقدرته وحكمته سبحانه.

ومما يخص الليل والنهار أيضاً: الجاذبية الكلية سَبَبُ حفظ الكائنات ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠].

قال في جنة الخلد (رض): دقِّق في نظام الليل والنهار طول خمسين سنة من عمرك هل لحظت أي تبدّل في نظام الليل والنهار؟ هل خرجا عن نظامهما لدقيقة واحدة زيادة أو نقصاناً عما هو مقرَّر فالشمس لا ينبغي لها أن تتجاوز القمر، ولا للقمر أن يتجاوز الشمس.

الجاذبية العظيمة للشمس تشدُّ إليها الكرة الأرضية وغيرها عن بُعد ملايين الفراسخ والقمر مقهور وتابع لكوكب الأرض مع وجود التوازن في هذا الكوكب وفي مداره، فلماذا؟

ومما يخص الليل والنهار أيضاً قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ [يس: ٤٠].

إن من جملة آيات الله تعالى النهار والليل وطلوع الشمس والقمر وغروبهما، لقد جعل الله الليل سكناً وسبيلاً للراحة والسكينة والنهار ضياء يتناسب وأعمال القدرات الإنسانية، والسعي وراء الرزق وأجرى الشمس وسائر الكواكب لمستقرها مع منظومتها نحو (نجم النسر الواقع) في الفضاء المترامي الأطرف، وجعل القمر يتخذ أشكالاً من هلال إلى بدر إلى محاق وفق نظام محدَّد ومعيَّن حتى يعرف منها حساب الشهر

القمري، كما يعرف وقت الليل والنهار من طريقة الشروق والغروب ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

وإليك بعض التحقيق فيما مضى:

نقول: إن الشمس والقمر والليل والنهار كلها خاضعة لتفاعلات دقيقة وحركات منظمة وقوانين ثابتة لا يحصيها عدٌ ولا حصر لهذا الكون ولا شك أنه بأدنى تأمل يدرك الإنسان أنَّ هذه الأمور كلها تعتبر دليلاً واضحاً وكاشفاً وشاهداً على وجود الخالق المدبر (عز وجل) الذي قدَّر كل شيء فأحسن تقديره وهو الذي ظهرت آياته للناس في ثنايا ما تكشف عنه العلوم قديماً وحديثاً قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] والإستدلال على وجود الخالق سبحانه هو طريق إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه استدل بالأفول الذي هو الغيبة المستلزمة للحركة المستلزمة للحدوث المستلزم للصانع تعالى. قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٦].

الصحيفة السجادية صلوات الله على من أُلهمها: الحمد لله الّذي خلق الليل والنهار بقوّته، وميّز بينهما بقدرته، وجعل لكلّ واحد منهما حدّاً محدوداً وأمداً ممدوداً، يولج كلّ واحد منهما في صاحبه، ويولج صاحبه فيه بتقدير منه للعباد فيما يغذوهم به وينشئهم عليه، فخلق لهم الليل ليسكنوا فيه من حركات التعب، ونهضات النصب، وجعله لباساً ليلبسوا من راحته ومنامه، فيكون ذلك لهم جماماً وقوّة ولينالوا به لذّة وشهوة، وخلق لهم النهار مبصراً ليبتغوا فيه من فضله، وليتسبّبوا إلى رزقه، ويسرحوا في أرضه، طلباً لما فيه نيل العاجل من دنياهم، ودرك الآجل في أُخراهم، بكلّ ذلك يصلح شأنهم، ويبلو أخبارهم، وينظر كيف هم في أوقات طاعته، ومنازل فروضه، ومواقع أحكامه، ليجزي

الّذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى. اللّهمَّ فلك الحمد على ما فلقت لنا من الإصباح، ومتّعتنا [به] من ضوء النهار، وبصَّرتنا [به] من مطالب الأقوات، ووقيتنا [فيه] من طوارق الآفات ـ إلى آخر الدعاء ـ.

بيان: «خلق الليل والنهار بقوّته» الخلق يكون بمعنى الإيجاد، وبمعنى التقدير، وكلّ منهما هنا مناسب، والجمع بينهما أيضاً ممكن، وخلقه تعالى الليل والنهار بخلقه الشمس مضيئة غاية الإضاءة بحيث يغلب نورها نور سائر الكواكب وبخلق الهواء مظلماً في نفسه قابلاً للإضاءة. وبخلق الأرض كثيفة قابلة للإضاءة بحيث تنعكس منها الأشعَّة، وجعل الشمس متحرِّكة حول الأرض، فبطلوعها أو ظهور علامتها البيِّنة يحصل النهار، وبغروبها أو ذهاب حمرتها المشرقيَّة يحصل الليل وتقديم الليل لتقدُّمه شرعاً وعرفاً كما عرفت، أو لتقدّم الظلمة على النور لكونها عدميَّة أو شبيهة بالعدم، أو للتأسّي بالقرآن في أكثر مواضعه «وميَّز بينهما بقدرته» أي جعل كلّ واحد منهما ممتازاً عن الآخر من حيث الصورة ومن حيث الخواصّ والآثار، وقيل: معناه أنّ الله تعالى لمّا قدّر لكلّ يوم وليلة من أيّام السنة الشمسيّة ولياليها في كلّ بقعة من بقاع الأرض زماناً معيّناً لا يزيد ولا ينقص أبداً فلا يدخل أحدهما في الآخر، بأن يدخل الليل في النهار قبل تمامه وبالعكس، فيمتاز كلّ واحد منهما عن الآخر، أي لا يختلط أحدهما بالآخر. لكن يمكن استفادة هذا المعنى من الفقرة الآتية، والقدرة صفة نفسانيَّة من شأنها الإيجاد والإحداث بها على وجه يتصوّر ممَّن قامت به الفعل بدلاً عن الترك، والترك بدلاً عن الفعل والقوّة تطلق على القدرة، وعلى حالة يصحّ أن تصدر عن صاحبها أفعال شاقّة وقد تطلق على حالة تكون مصدراً لحدوث أمر أو سبباً له كالقوى الناطقة والنامية والباصرة والسامعة وأمثالها. والباء في الموضعين للاستعانة، أو

للملابسة «وجعل لكلّ واحد منهما حدّاً محدوداً وأمداً ممدوداً» حدّ الشيء منقطعه ومنتهاه، والحدّ الحاجز بين الشيئين، والمحدود المعيَّن أو المميَّز عن غيره، والأمد يطلق على الغاية وعلى الزمان الممتدّ، والممدود المبسوط الممتدّ. وفي بعض النسخ «موقوتاً» وهو قريب من المحدود، والأظهر «ممدوداً» وجعل الأمد بمعنى الامتداد ليكون تأسيساً.

«يولج كلّ واحد منهما في صاحبه ويولج صاحبه فيه» الإيلاج: الإدخال وقد عرفت أنَّ لإيلاج كلّ واحد منهما في الآخر معنيين: أحدهما يرجع إلى مجيء اللّيل بعد النهار ومجيء النهار بعد الليل، وثانيهما يرجع إلى زيادة كلّ منهما ونقصان الآخر، ويرد في خصوص هذه العبارة إشكال، وهو أنّ الزيادة والنقص في كلّ منهما يستفاد من الفقرة الأولى، فأيّ فائدة في الفقرة الثانية؟ وأُجيب عنه بوجوه:

الأول: ما ذكره الشيخ البهائيّ ﵀: حيث قال: مراده التنبيه على أمر مستغرب، وهو حصول الزيادة والنقصان معاً في كلّ من الليل والنهار في وقت واحد، وذلك بحسب اختلاف البقاع كالشماليّة عن خطّ الاستواء والجنوبيّة عنه سواء كانت مسكونة أو لا، فإنّ صيف الشماليّة شتاء الجنوبيّة وبالعكس، فزيادة النهار ونقصانه واقعان في وقت واحد، لكن في بقعتين، وكذا زيادة الليل ونقصانه ولو لم يصرّح ﷺ بقوله: «ويولج صاحبه فيه» لم يحصل التنبيه على ذلك، بل كان الظاهر من كلامه ﷺ وقوع زيادة النهار في وقت ونقصانه في آخر، وكذا الليل كما هو محسوس معروف بين الخاصّ والعامّ، فالواو في قوله «ويولج صاحبه فيه» واو الحال بإضمار مبتدأ كما هو المشهور بين النحاة (انتهى).

وقال المجلسي: إنّما قدَّر المبتدأ لأنّ الجملة الحاليّة إذا كانت

مضارعاً مثبتاً يكون بالضمير وحده. فإذا أُضمر المبتدأ تصير جملة اسميّة والاسميّة الحاليّة تكون بالواو والضمير أو بالواو وحدها، وقيل: لا حاجة إلى تكلّف الحاليَّة بل مع العطف أيضاً يستقيم هذا المعنى، فكأنّه قال: كما يولج نهار النصف الأوّل من السنة في لياليها وليالي النصف الثاني في نهارها يولج أيضاً ليالي النص الأوّل في نهارها ونهار النصف الثاني في لياليها، وذلك في الأُفق المقابل، لأنّه يصير ثمّة قوس الليل قوس النهار وبالعكس، فالليل الّذي يلج عندنا في النهار هو بعينه نهار ثمّة يلج في الليل، وهذا الاعتبار أغرب وأبعد مما اعتبر أوّلاً، وهو أنَّ البقاع الجنوبيّة أمرها على العكس باعتبار النصفين مطلقاً من غير اعتبار كلّ يوم وليل بعينه (انتهى).

وأقول: هذا المعنى إلى الحاليّة أحوج من الأوّل وإن كان يستقيم المعنيان بدونهما.

الثاني ما قيل: إنَّ الجملة الأُولى تدلّ على أنّ كلاً منهما مولج في صاحبه، والثانية على أنّ كلاً منهما مولج فيه صاحبه، وهذا معنى آخر غير الأوّل، وهو وإن كان لازماً للأوّل إلاّ أنّ التصريح بما علم ضمناً للاهتمام والمبالغة أمر شائع ذائع، خصوصاً فيما كان أمراً عظيماً فيه قوام العالم ونظامه، فإنّ الليل والنهار من ضروريّات مصالح هذا العالم، وآيتان دالّتان على وحدة الله سبحانه وكمال قدرته، ولهذا كرّر الله هذا المعنى في كتابه العزيز بلفظ الإيلاج وغيره.

الثالث: أن يكون التكرار للإشعار بتكرّر هذا الأمر واستمراره، كما يقال لهذا المعنى «يفعل فلان ويفعل، ويعطي ويعطي» وهذا وجه وجيه.

الرابع ما قيل: إنّ دلالة إيلاج كلّ منهما في صاحبه على إيلاج صاحبه فيه من الخارج لا من اللفظ فإنّا إذا علمنا في الخارج أن ليس

للّيل صاحب إلاّ النهار ولا للنهار صاحب إلاّ الليل علمنا من قوله «يولج كلّ واحد منهما في صاحبه» إيلاج الصاحب أيضاً فيه، وأمّا بالنسبة إلى اللفظ فلا دلالة له أصلاً، فإنّا إذا قلنا يولج الليل في صاحبه ويولج النهار في صاحبه ولم يعلم من الخارج أنّ صاحبهما ماذا فلا يعلم إيلاج صاحبه فيه البتّة ونحتاج إلى ذكره وترك العطف للاستئناف، أو الحاليّة المقدّرة، والعدول إلى المضارع للدلالة على الاستمرار التجدديّ.

«بتقدير منه للعباد» الباء للسببيّة أو الملابسة والأوّل أظهر، والتنكير للتفخيم. «فيما يغذوهم به» الظرف متعلّق بتقدير، أي جعل الله الخلق والتميز والإيلاج لتقدير عظيم في الشيء الّذي يغذوهم به، كما مرّ أنّ تعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول ممّا له مدخل عظيم في حصول الأغذية للعباد «وينشئهم عليه» عطف على «يغذوهم» أي له مدخل في نشوئهم ونموّهم كما مرّ ذكره «فخلق لهم الليل» الفاء للترتيب الذكريّ، وهو عطف المفصَّل على المجمل «ليسكنوا فيه من حركات التعب ونهضات النصب» الإضافتان من إضافة السبب إلى المسبَّب، أي من فوائد الليل أن يسكنوا أي يستقرّوا ويستريحوا من الحركات الواقعة في النهار لتحصيل المعاش وغيره الموجبة للتعب، والنهضات ـ بالتحريك ـ: جمع نهضة ـ بسكون الهاء ـ وهي المرّة من «نهض ينهض نهضاً ونهوضاً» أي قام، أي القيامات للأمور الشاقّة، والتردّدات البدنيّة، والأشغال القلبيّة الواقعة في النهار الّتي هي سبب النصب ـ بالتحريك ـ أي الإعياء والعجز، ويروى «بهظات» بالباء الموحَّدة والظاء المعجمة «من بهظه الأمر أو الحمل» كمنع أي غلبه وثقل عليه، ولعلّهما إشارتان إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام: ٩٦].

«وجعله لباساً ليلبسوا من راحته ومنامه» إشارة إلى قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ [النبأ: ١٠]، وقد مرّ تفسيره، وقال الزمخشريّ، أي يستركم عن العيون إذا أردتم هرباً من عدوّ، أو بياتاً له، أو إخفاء ما لا تحبّون الاطّلاع عليه من كثير من الأمور ويفهم منه معنى آخر وهو أنّه تعالى لمّا جعل الليل سبباً لأن يلبس العباد لباس الراحة والنوم فكأنّه لباس. وشبّه الراحة والمنام ـ وهو مصدر ميميّ بمعنى النوم ـ باللباس، من حيث إنّ كلّ واحد منهما يغشاهم ويشتمل عليهم كاللباس كما قال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢] وإضافة الراحة والمنام إلى ضمير الليل للاختصاص بمعنى اللام، أي الراحة والمنام المختصّين بالليل، ويظهر من كلام ابن الحاجب أنّه بمعنى «في» وأنكره أكثر المحقّقين. والظاهر أنّ من «في» قوله «من راحته» للتبعيض، لبيان أنّه لم يخلق الليل ليصرفوا جميعه في الاستراحة والمنام بل ليستريحوا في بعضه ويعبدوه في بعضه، وقيل «من» للابتداء، لأنّ اللبس يبتدىء من جهة الراحة كما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١] بأن يكون «من راحته» صفة لموصوف محذوف يدلّ عليه «يلبسوا» أي ليلبسوا ثوباً من راحته أي الثوب الّذي هو راحته، ولا يخفى أنّ ما ذكرنا أظهر، فيكون عطف على «يلبسوا» والتفريع بالفاء لبيان أنّ لبس الراحة والمنام سبب للجمام والقوّة، والجمام ـ بالفتح ـ، الراحة بعد التعب، يقال: جمّ الفرس جماماً أي ذهب إعياؤه.

«ولينالوا به أي يصيبوا بلبس لباس الراحة «لذّة» وهي إدراك الملائم من حيث إنّه ملائم «وشهوة» وهي مصدر شهية كرضي أي أحبّه ورغب فيه كاشتهاه وتشهّاه والحاصل: ليصيبوا بسبب ذلك ما يلتذّون به ويشتهونه، أو المراد بهما الحاصل بالمصدر، ولا يبعد أن يكون المراد لذّة النوم وشهوة الجماع، ويحتمل التعميم فيهما. «وخلق لهم النهار» عطف على «خلق لهم الليل مبصراً» إسناد للفعل إلى الظرف «ليبتغوا» أي ليطلبوا فيه شيئاً «من

فضل الله» والمراد به نعم الله مطلقاً لا الرزق فقط، وإن فسّر به قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠] لأنّ طلب الرزق مذكور بعد ذلك في قوله ﷺ: «وليتسبّبوا إلى رزقه» فذكره بعده من باب ذكر الخاصّ بعد العامّ للاهتمام بشأنه، أي ليتوصّلوا ويطلبوا سبباً من الأسباب المعهودة المشروعة إلى تحصيل رزقه، أو ليصيروا سبباً وواسطةً في تحصيله كما قال في مقام آخر «تسبّبت بلطفك الأسباب».

«ويسرحوا في أرضه» يقال: سرحت الدابّة ـ كمنع ـ سروحاً: سامت وسرحتها سرحاً: أسمتها ورعيتها، يتعدّى ولا يتعدّى، والمراد هنا الأوّل. شبّه ﷺ سيرهم في الأرض سفراً وحضراً بلا عائق كيف شاؤوا آكلين ما اشتهوا وشاربين ما شاؤوا بسير الدابّة في الأرض وسومها «طلباً» مفعول له لقوله «يسرحوا» وما قبله من الفعلين، وما قيل من أنّه متعلّق بخلق الليل وخلق النهار أي طلب الله تعالى من خلقهما فوائد لعباده فلا يخفى بعده «لما فيه نيل العاجل» أي وصولهم إلى النفع العاجل أي الحاضر «من دنياهم» بيان للعاجل، وفي بعض النسخ «في دنياهم» فهو متعلّق بالنيل. والدرك: اللحوق والوصول، والآجل: خلاف العاجل «في أُخراهم» متعلّق بالدرك أو صفة للآجل، أي النفع الآجل الكائن في أُخراهم، والأُخرى: تأنيث الآخر، أي الدار الأُخرى غير الدنيا أو الأخيرة «بكلّ ذلك» متعلّق بـ«يصلح» وهو حال، أي يصلح الله بكلّ من الليل والنهار وسائر الأُمور المذكورة «شأنهم» هو بالهمز وقد يخفّف: الأمر والحال، أي أُمورهم بحسب العاجل والآجل «ويبلو أخبارهم» قال الزمخشريّ في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾ [محمّد: ٣١] أي ما يحكى عنكم وما يخبر به من أعمالكم لنعلم حسنها من قبيحها، لأنّ الخبر على حسب المخبر عنه إن حسناً فحسن وإن قبيحاً فقبيح (انتهى) ومعنى «يبلو» يختبر أي يعاملهم معاملة المختبر.

«وينظر كيف هم في أوقات طاعته» أي كيف يصنعون في الأوقات الّتي وقّتها لطاعتهم هل يطيعون أو يعصون «ومنازل فروضه» أي أوقات فروض الله تعالى الّتي فرضها على العباد، فالمراد المنازل الّتي ينزل فيها الفروض، أو منازل المكلّف، وهي منسوبة إلى الفروض لحصول الفرض عندها، أو هو من إضافة المشبّه به إلى المشبّه كلجين الماء تشبيهاً للفروض بالمنازل الّتي ينزلها المسافر، حيث إنّ المسافر في سفره ينتظر المنزل قبل وصوله إليه ويتشوّق له، وإذا وصل إليه يفرح به ويفعل فيه ما ينبغي أن يفعل ويأنس به، فينبغي للمكلّف أن يكون بالنسبة إلى ما فرض الله عليه كذلك، وعلى التقادير من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ للاهتمام، إذ الطاعة أعمّ من الفرض بمعانيه. ويحتمل أن يراد بأوقات الطّاعة العبادات الموقّتة، وبمنازل الفروض غير الموقّتة، أو بالعكس، والأحكام: أعمّ منهما لشمولها للخمسة، وإن كان شمولها للمباح لا يخلو من تكلّف، بأن يقال: ينظر كيف هم فيه هل يعتقدونه مباحاً أم يبتدعون تحريمه أو غير ذلك، مع أنّه يمكن جعل المباحات طاعات بالنيّات كما سيأتي بيانه في محلّه. والمراد بمواقع الأحكام الأمور الّتي تتعلّق بها وهي أفعال المكلّفين، أو الأزمنة والأحوال الّتي تعرض فيها «ليجزي الّذين أساؤوا» متعلّق بما قبله من الأفعال الثلاثة، أي إنّما فعل تلك الأُمور ليجزي الّذين أساؤوا أي عملوا السّيئة «بما عملوا» أي بعقاب ما عملوا، أو بمثل ما عملوا، أو بسببه «ويجزي الّذين أحسنوا» أي فعلوا الأعمال الحسنة «بالحسنى» أي بالمثوبة الحسنى، أو بأحسن من أعمالهم وجزائها، أو بسبب الفعلة الحسنى، فالباء في الموضعين إمّا للصّلة أو للسببيّة فالظرفان متعلّقان بالجزاء، وتعلّقهما بأساؤوا وأحسنوا كما توهّم بعيد وأوسط التقادير الثلاثة المتقدّمة أظهر، لدلالته على جزاء السيّئة بالمثل والحسنة بأضعافها.

«اللهمّ» أصله يا الله، حذف حرف النداء وعوّض عنه الميم المشدّدة «فلك الحمد» لمّا حمده سبحانه على خلق مطلق الليل والنهار حمده تعالى على خصوص اليوم الّذي هو فيه والنعم الّتي اشتمل عليها، وتقديم الظرف للحصر «على ما فلقت» أي شققت «لنا» أي لانتفاعنا «من الإصباح» وهو في الأصل مصدر «أصبح» أي دخل في الصباح، سمّي به الصبح «ومتّعتنا به» أي على ما صيّرتنا ذوي تمتّع وانتفاع بسببه «من ضوء النهار» الإضافة بتقدير اللام أو بيانيّة «وبصّرتنا» أي على ما جعلتنا مبصرين له وبصراء به بسبب النهار «من مطالب الأقوات» بالإضافة البيانيّة أو اللاميّة، أي المواضع الّتي يطلب منها القوت، والأعمال الّتي هي مظنّة حصوله والقوت: ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام «ووقيتنا» أي وعلى ما وقيتنا وحفظتنا منه في ذلك الصبح «من طوارق الآفات» بالإضافة البيانيّة أو إضافة الصفة إلى الموصوف، والطارق في الأصل من يأتي بالليل لاحتياجه إلى طرق الباب غالباً، ويستعمل غالباً في الشرور الواقعة بالليل وقد يعمّ بما يشمل ما يقع بالنهار أيضاً، فالمراد هنا آفات البارحة أو مطلقاً. ثمّ اعلم أنّ لفظة «ما» الظاهرة في الفقرة الأُولى والمقدّرة فيما بعدها من الجمل الثلاث موصولة، وضمير «به» المذكور في الجملتين والمقدّر في غيرهما عائد إليها، و«من» في المواضع الأربعة لبيان الموصول، ويمكن أن تكون «ما» مصدريّة في الجميع أو في سوى الأُولى، والضمائر راجعة إلى الإصباح أو فلقه فيكون «من» في قوله «من مطالب» بمعنى الباء كما في قوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥] ثمّ الحمد في الفقرة الثانية يشمل العميان أيضاً فإنّهم يتمتّعون بضياء النهار لاشتغال الأبصار بالمهمّات والحوائج من جملتها حوائج الأضرّاء وأما الثالثة فإن كان التبصير فيها من إبصار العين فهو لغيرهم وإن كان من البصيرة فيشملهم وهذا يُؤيِّد حمله على الأخير.

آياته في الرياح

وفيها بحثان:

البحث الأول

في تعريفها وما يتعلق به

والرِّياح: وهي جمع والمفرد: ريح والرِّيحُ: الهواء المتحرِّك المسخَّر بين السماء والأرض ولله عز وجل رياح رحمة ورياح تُهيِّج السحاب فتسوق السحاب، ورياح تحبس السحاب بين السماء والأرض، ورياح تعصره فتمطره بإذن الله تعالى، ورياح تفرِّق السحاب إلى غير ذلك وفي الدعاء: «اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً» وعُلِّل ذلك: بأن الرياح إذا كثرت جلبت السحاب فكثر المطر والخير، والزرع والثمار، وإذا جعلها ريحاً واحدة فإنها ربما تكونَ عقيماً أو صرصراً فلا تلقح. والرياح أربع:

١ ـ **ريح الصَّبا**: وهي التي تهب من مطلع الشمس، وقيل الصَّبا: هي التي تجيء من ظهرك إذا استقبلتَ القبلة.

٢ ـ **الدَّبُورُ**: وهي عكس الصبا أي تأتيك من الأمام إذا استقبلت القبلة وتزعم العرب أن الدَّبُور تزعج السحاب وتَشْخِصُهُ في الهواء ثم تسوقه فإذا علا كشفت عنه، واستقبلته الصبا فوزَّعت بعضه على بعض حتى يصير كسفاً واحداً.

٣ ـ **الجنوب**: وهي الريح التي تلحق روادف السحاب به وتمدّه.

٤ ـ **الشمال**: وهي الريح التي تمزق السحاب على ما تزعم العرب وقد نقل في مجمع البحرين عن بعض أهل التحقيق: إنّ الصبا محلها ما بين مطلع الشمس والجدي في الإعتدال، والشمال محلها من الجدي إلى مغرب الشمس في الإعتدال والدَّبُورُ من سُهَيْل إلى المغرب والجنوب من مطلع الشمس إليه.

وقال المتخصِّصون: إن مصدر حصول الريح هو الإختلاف في درجة الحرارة بين منطقتين مختلفتين من الأرض قالوا: ويمكن تجربة هذا أثناء فصل الشتاء حيث يكون هواء الغرفة حاراً وفي خارجها بارداً، فلو وضعنا شمعتين للإضاءة عند طرفي الباب العلوي والسفلي وفتحنا الباب قليلاً سيتَّضح هذا الأمر جيداً إذ أن الهواء البارد وبسبب ثقله يدخل من الأسفل والهواء الحار يخرج من الأعلى لخفَّته، ويجر شعلة الشمعة معه وقالوا: إن الهواء الحار يكون ممتدّاً وخفيفاً، والهواء البارد ثقيلاً، ولو لم تكن هذه الصفة وتتوقف الرياح فأيُّ عظيم ينزل على الإنسان؟!

وقالوا أيضاً: إن ماء المحيطات لا يكون حارّاً كحرارة السواحل أثناء شروق الشمس إضافة إلى أن ماء البحر يفقد حرارته ليلاً أسرع مما يفقده الساحل، وهذا الإختلاف في درجات الحرارة بين ماء البحر والساحل يتسبب أيضاً في هبوب الرياح باستمرار من البرّ إلى البحر ومن البحر إلى البرّ أيضاً.

وقالوا: والعامل الوحيد المؤثّر في برودة الهواء، ويوصله إلى مرحلة تكوين الغيوم والتقطير هو ارتفاع الهواء وعلوّه، ويحدث ارتفاع الهواء في ثلاث حالات، وينزل في حالة منها مطر خاص وهي:

١ ـ اصطدام الهواء بالأجزاء البارزة من الأرض، والصعود من وسط الجبال حيث تنتج عنه الأمطار الجبلية.

٢ ـ حرارة وخفَّة الهواء وصعوده السريع أثر أشعة الشمس، وملامسة المناطق الحارة وتنتج عنه (أمطار العواصف).

٣ ـ اصطدام جناحي الهواء الحار والبارد، وتقلبهما وتنتج عنه (الأمطار الغزيرة) وأنّ الغيوم والأمطار كافة تنشأ عن أحد هذه الوقائع الثلاث وأهمها النوع الأخير.

(الطَّقسُ) في الموسوعة: حياة الناس جميعاً تتأثَّر بالطقس ـ ماذا يأكلون ويشربون وماذا يلبسون، وكيف يتصرَّفون، وما أنواع بيئاتهم وأشكال منازلهم؟ حتى طبيعة الأرض تتأثَّر وتتشكَّلُ بعوامل الطقس، فالريح والمطر والثلج، والجَليد كلُّها عوامل تحتُّ الصخور والجبال. الطقس جزء من عالمنا ـ إنه حالة الهواء في أي مكان وزمان، وقد يكون حارّاً أو بارداً، عاصفاً أو ساكناً، رطْباً أو جافّاً في بعض المناطق يتغيَّر الطقس بين يوم وآخر وفي مناطق أخرى قلَّما يتغيَّر على مدار عام.

وجملة أحوال الطقس لمنطقة بين عام وآخر تسمَّى المُناخ، ويعتمد المُناخ أساساً على بُعدِ الموقع شَمالاً أو جُنوباً عن خطّ الإستواء، وبالتالي على كميَّة الطاقة الشمسية التي يتلقاها.

المبحث الثاني

في دلالة بعض الآيات

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٨].

«الرياح» في الأصل جمع «ريح» وتعني الهواء المتحرِّك وأصلها

«رَوْحٌ» وغالباً ما تعتبر مؤنثاً لفظياً والجدير بالذكر أنها تستخدم بصيغة الجمع دائماً في الآيات التي تتعلق بحركة الغيوم ونزول الأمطار في القرآن الكريم ذكر البعض دليلاً على ذلك: بأن الرياح إذا تحرَّكت بشكل جماعي فإنها تنشر الغيوم، وتكوّن أمطاراً غزيرة ومليئة بالبركة، وإذا تحرّكت على هيئة أجزاء متفرّقة فإنها تكون عقيمة وغير مفيدة بل مضرة عندئذ لذلك ورد في الدعاء (اللهم اجعله رياحاً ولا تجعلها ريحاً) (مجمع البحرين).

يقول «الراغب في المفردات»: في جميع الموارد التي ذكرها الله تعالى لفظة «الريح» بصيغة مفردة (في القرآن) فهي تحكي عن «العذاب» وأينما ذكرت بصورة الجمع فهي تحكي عن الرحمة، قيل: وقول الراغب صائب في ما يخصُّ «الرياح» في صيغة الجمع، ولكن ليس هناك تعميم في مورد «الريح» بصيغة المفرد لأن «الريح» استخدمت من القرآن بصيغة المفرد في مورد النعمة أيضاً كما في ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢] ونقرأ أيضاً بخصوص سليمان ﷺ: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ﴾ [سبأ: ١٢].

والكلمة الثانية في الآية: «فتثير» أي أن الرياح تثير السحب وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى تكوُّن الغيوم بسبب هبوب رياح المناطق الحارَّة على سطح المحيطات حيث تؤدي إلى حصول الغيوم لأن مسألة حركة الغيوم أُخِذَتْ بالإعتبار من آية ثانية وهي كلمة: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [فاطر: ٩] وعليه فإن الرياح لها أثر مهمّ في حصول الغيوم وكذلك في تحريكها نحو المناطق الجافة، ورفعها إلى أعالي الجوّ وتهيئة الظروف لهطول الأمطار.

وقال في النفحات: وذكر هذه العبارة بصيغة الفعل المضارع «تثير» إشارة إلى عمل السحب الدائم والمستمرّ أيضاً وعلى أية حال

فإن هذه المسألة تعتبر برهاناً على علم وقدرة الخالق جلّ وعلا، وكذلك دليلاً على قدرته في المعاد.

والكلمة الثالثة من الآية المتقدمة: «السَّحاب» من مادة «سَحْب» على وزن «مَحْو» وتعني في الأصل: الجرّ، حيث تُسحبُ الغيوم بواسطة الرياح أو أن الغيوم تَسحبُ المياهَ نحو أيِّ اتجاهٍ فيطلق اسم «السحاب» عليها، وقد يستخدم هذا المفهوم بمعنى الظلّ أو الظلام من باب التشبيه واللطيف انه قد تمَّ التعبير في الآيات أعلاه بـ«سُقناه» من مادة «سوق» أي «الدفع» وقد استعمل هذا التعبير لأن الله تبارك وتعالى يدفعها نحو اتِّجاه معيَّن (بالرغم من أن السحاب يتحرَّك طبيعياً)[1].

ثم كلمة «فيبسطه» أي فينشره في السماء أي ينشر الغيوم ثم يركُمها على بعضها في السماء، وتتعهد بتبريد أطراف الغيوم وإعدادها لإنزال المطر ثم كلمة «كسفاً» وهي تعني هنا تراكم قطع الغيوم حيث تستعد لنزول المطر ثم كلمة «وَدَقْ» (على وزن خلَقْ) تطلق على الرذاذ الذي يشبه الماء وفسَّرها البعض بأنها: قطرات المطر.

ثم كلمة «بُشر» (على وزن عُشر) وحسب ما جاء في (مصباح اللغة) فهي مأخوذة من (بَشْرْ) على وزن (سَفَرْ) أي السرور والفرح والسبب في تسمية القرآن الكريم للغيوم بـ«بُشر» و«مُبشِّرات» لأنها غالباً ما تكون مبشِّرات بهطول المطر الذي يَهبُ الحياة.

وفي الميزان: الإثارة: التحريك والنشر، والسحاب: الغمام، والسماء: جهة العلو فكل ما علاك وأظلَّك فهو سماء والكسف بالكسر فالفتح: جمع كسفة وهي القطعة. والوَدَقُ: القطر من المطر والخلال: جمع خلَّة وهي الفرجة. والمعنى: الله الذي يرسل الرياح فتحرّك وتنشر سحاباً، ويبسط ذلك السحاب في جهة العلو من الجوّ كيف يشاء

---

(١) مفردات الراغب.

سبحانه، ويجعله قطعات متراكبة متراكمة فترى قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لأنه مادة حياتهم وحياة الحيوان والنبات. انتهى.

ولا يعتبر نزول المطر مبشّراً للناس لأنه أساس الإعمار والإزدهار فقط بل إنه يصفّي ويلطّف الجو ويبعث على النشاط واللطيف أنه يقول في سياق هذه الآية من سورة الروم: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الرّوم: ٥٠]؟! ومن أجل إدراك مفهوم هذه الآية يكفينا مشاهدة صور من بعض الصحارى ومزارع بعض المناطق في أفريقيا كيف خيّم عليها شَبَحُ الموت إثر التصحر المستمر ورَحَلَ عنها ملَكُ الحياة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ [الاعراف: ٥٧] قال في البحار: منهم من قرأ «نشراً» بضم النون والشين جمع نشور مثل رسل ورسول، أي رياحاً منشرة مفرّقة من كلّ جانب، وقرأ ابن عامر بضمّ النون وإسكان الشين بتخفيف العين، وقرأ حمزة بفتح النون وإسكان الشين مصدر نشرت الثوب ضدّ طويته، وهنا بمعنى المفعول، أو بمعنى الحياة فهو بمعنى الفاعل، وقرأ عاصم بالباء جمع بشير أي مبشّرات بالمطر أو الرحمة «حتّى إذا أقلّت سحاباً ثقالاً» قال الرازيّ: يقال أقلّ فلان الشيء إذا حمله، أي حتّى إذا حملت هذه الرياح سحاباً ثقالاً بما فيها من الماء، والمعنى أنّ السحاب المسيطر بالمياه العظيمة إنّما يبقى معلّقاً في الهواء لأنّه تعالى دبّر بحكمته أن يحرّك الرياح تحريكاً شديداً، فيحصل منها فوائد:

أولها: إنّ أجزاء السحاب ينضمّ بعضها إلى بعض ويتراكم وينعقد السحاب الكثيف الماطر.

وثانيها: إنّ بسبب تلك الحركات الشديدة الّتي في تلك الرياح

يمنة ويسرة يمتنع على تلك الأجزاء المائيّة النزول، فلا جرم يبقى معلّقاً في الهواء.

وثالثها: إنّ بسبب حركات تلك الرياح ينساق السحاب من موضع إلى موضع آخر، وهو الموضع الّذي علم الله تعالى احتياجهم إلى نزول الأمطار وانتفاعهم بها.

ورابعها: إنّ حركة الرياح تارة تكون مفرّقة لأجزاء السحاب مبطلة لها.

وخامسها: إنّ هذه الرياح تارة تكون مقوّية للزرع والأشجار مكملة لما فيها من النشوء والنماء، وهي الرياح اللواقح، وتارة تكون مبطلة لها كما تكون في الخريف.

وسادسها: إنّ هذه الرياح تارة تكون طيّبة لذيذة موافقة للأبدان، وتارة تكون مهلكة إمّا بسبب ما فيها من الحرارة الشديدة كما في السموم أو بسبب ما فيها من البرد الشديد كما في الرياح المهلكة جدّاً.

وسابعها: إنّ تلك الرياح تارة تكون شرقيّة، وتارة تكون غربيّة وشماليّة وجنوبيّة، وهذا ضبط ذكره بعض الناس، وإلاّ فالرياح تهبّ من كلّ جانب من جوانب العالم، ولا ضبط لها، ولا اختصاص لجانب من جوانب العالم بها.

وثامنها: إنّ هذه الرياح تارة تصعد من قعر الأرض، فإنّ من ركب البحر يشاهد أنّ البحر يحصل له غليان شديد فيه بسبب تولّد الرياح في قعر البحر إلى ما فوق البحر، وحينئذ يعظمَ هبوب الرياح.

وإليك ما أوضحه الإمام من أنواع الرياح وما يتعلّق بها:

سُئل أبو جعفر عليه السلام عن الرّياح الأربع الشمال والجنوب والصبا

والدبور، قيل له إنّ النّاس يذكرون أنّ الشمال من الجنّة والجنوب من النّار، فقال: إنّ لله عزّ وجلّ جنوداً من رياح يعذّب بها من يشاء ممّن عصاه فلكلّ ريح منها ملك موكل بها، فإذا أراد الله عزّ ذكره أن يعذّب قوماً بنوع من العذاب أوحى إلى الملك الموكّل بذلك النوع من الريح التي يريد أن يعذّبهم بها قال فيأمرها الملك فتهيج كما يهيج الأسد المغضب، وقال ولكلّ ريح منهنّ اسم أما تسمع قوله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾ [القمر: ١٨-١٩]، وقال الرّيح العقيم، وقال ريح فيها عذاب أليم، وقال فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت، وما ذكر من الرّياح التي يعذّب الله بها من عصاه، وقال ولله عزّ ذكره رياح رحمة لواقح وغير ذلك ينشرها بين يدي رحمته منها ما يهيج السّحاب للمطر، ومنها رياح تحبس السّحاب بين السماء والأرض، ورياح تعصر السّحاب فتمطره بإذن الله، ومنها رياح تفرق السّحاب، ومنها رياح ممّا عدّ الله في الكتاب، فأمّا الرياح الأربع الشمال والجنوب والصبا والدبور فإنّما هي أسماء الملائكة الموكلين بها، فإذا أراد الله أن يهبّ شمالاً أمر الملك الذي اسمه الشمال فيهبط على البيت الحرام فقام على الركن الشامي فضرب بجناحيه فتفرّقت ريح الشمال حيث يريد الله من البرّ والبحر، فإذا أراد الله أن يبعث جنوباً أمر الملك الذي اسمه الجنوب فهبط على البيت الحرام فقام على الركن الشامي فضرب بجناحيه فتفرّقت ريح الجنوب في البر والبحر حيث يريد الله، وإذا أراد الله أن يبعث الصبا أمر الملك الذي اسمه الصبا فهبط على البيت الحرام فقام على الركن الشامي فضرب بجناحيه فتفرّقت ريح الصبا حيث يريد الله عزّ وجلّ في البرّ والبحر، وإذا أراد الله أن يبعث دبوراً أمر الملك الذي اسمه الدبور فهبط على البيت الحرام فقام على الركن الشامي فضرب بجناحيه فتفرّقت ريح الدبور حيث يريد الله من البرّ والبحر ثم قال أبو جعفر عليه السلام: أما تسمع لقوله ريح الشمال وريح الجنوب وريح الدبور وريح الصبا إنما تضاف إلى الملائكة.

وعن السّديّ أنّه تعالى يرسل الرياح فيأتي بالسحاب، ثمّ إنّه تعالى يبسطه في السماء كيف يشاء، ثمّ يفتح أبواب السماء فيسيل الماء على السحاب، ثمّ يمطر السحاب بعد ذلك، ورحمته هو المطر.

إذا عرفت هذا فنقول: اختلاف الرياح في الصفات المذكورة مع أنّ طبيعة الهواء واحدة وتأثيرات الطبائع والأنجم والأفلاك واحدة تدلّ على أنّ هذه الأحوال لم تحصل إلاّ بتدبير الفاعل المختار سبحانه وتعالى. ثمّ قال تعالى ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧] والمعنى أنّا نسوق ذلك السحاب إلى بلد ميّت لم ينزل فيه غيث ولا تنبت فيه خضرة، والسحاب لفظه مذكّر، وهو جمع «سحابة» فيجوز فيه التذكير والتأنيث، فلذا أتى بهما في الآية، واللام في قوله «لبلد» إمّا بمعنى إلى، أو المعنى سقناه لأجل بلد ميّت ليس فيه حبّ نسقيه، والضمير في قوله «به» إمّا راجع إلى البلد، أو إلى السحاب، وفي قوله «أخرجنا به» عائد إلى الماء، وقيل: إلى البلد وعلى القول الأوّل فالله تعالى إنّما يخلق الثمرات بواسطة الماء.

وقال أكثر المتكلّمين: إنّ الثمار غير متولّدة من الماء، بل الله تعالى أجرى عادته بخلق النبات ابتداء عقيب اختلاط الماء بالتراب. وقال جمهور الحكماء: لا يمتنع أن يقال: إنّه تعالى أودع في الماء قوّة وطبيعة، ثمّ إنّ تلك القوّة والطبيعة توجبان حدوث الأحوال المخصوصة. والمتكلّمون احتجّوا على فساد هذا القول بأنّ طبيعة الماء والتراب واحدة، ثمّ إنّا نرى أنّه يتولّد في النبات الواحد الأحوال المختلفة مثل العنب، فإنّ قشره بارد يابس، ولحمه وماؤه حارّ رطب، وعجمه بارد يابس، فتولّد الأجسام الموصوفة بالصفات المختلفة من الماء والتراب يدلّ على أنّها إنّما حدثت بإحداث الفاعل المختار لا بالطبع والخاصيّة (انتهى).

البحث الثالث

في فوائد الرياح

وفيه فروع:

١ ـ للرياح نصيب مهم في تكوين الغيوم بسبب هبوبها على المحيطات كما تقدم.

٢ ـ إن الرياح تصطحب معها الغيوم إلى المناطق الجافة واليابسة ولولاها لاحترق جانب كبير من الكرة الأرضية بسبب الجفاف.

٣ ـ إن الرياح تلطِّف الجوّ، وتجلب الأوكسجين الضروري من المناطق البعيدة.

٤ ـ إن الرياح تأخذ معها التلوُّث حيث تساعد في تنقية الجوّ عن هذا الطريق.

٥ ـ إن الرياح تقلل من ضغط حرارة الشمس على أوراق النباتات وتمنع الاحتراق، وبصورة عامة فإنها وسيلة مهمَّة لاعتدال الجوّ في بقاع الأرض.

٦ ـ إن الرياح تعصر الغيوم وتعدُّها لإنزال المطر.

٧ ـ إن الرياح تسوق الغيوم نحو طبقات الجوّ العليا وبسبب البرودة فقدان قدرة التشبُّع تتحوَّل إلى قطرات مطر تهب الحياة.

٨ ـ إن الرياح تحرِّك السفن الشراعية في المحيطات كما أنها تعتبر أحد المصادر المهمة للطاقة.

٩ ـ إن الرياح تعمل على زجّ مياه البحر فتحصل الأمواج، وهذه الأمواج تؤدي بدورها إلى اختلاط الهواء مع الماء فيكون أساساً لحياة الحيوانات الموجودة في البحر ولولا الرياح والأمواج لتبدَّل البحر إلى مستنقع ميِّت.

١٠ ـ تستخدم الرياح لتشغيل الطاحونات الهوائية.

١١ ـ إنَّ الرياح تعتبر وسيلة مهمَّة جداً للمزارعين في تصفية الحنطة وغيرها وعزلها عن التبن.

وفي توحيد المفضل قال الصادق ﷺ: انبهك يا مفضل على الريح وما فيها ألست ترى ركودها إذا ركدت كيف يحدث الكرب الذي يكاد يأتي على النفوس، ويحرّض الأصحّاء، وينهك المرضى، ويفسد الثمار، ويعفّن البقول، ويعقّب الوباء في الأبدان والآفة في الغلاّت؟ ففي هذا بيان أنّ هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق. وأُنبّئك عن الهواء بخلّة أخرى، فإنَّ الصوت أثر يؤثّره اصطكاك الأجسام في الهواء، والهواء يؤدّيه إلى المسامع، والناس يتكلّمون في حوائجهم ومعاملاتهم طول نهارهم وبعض ليلهم، فلو كان أثر هذا الكلام يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتلأ العالم منه، فكان يكربهم ويفدحهم، وكانوا يحتاجون في تجديده والاستبدال به أكثر ممّا يحتاج إليه في تجديد القراطيس، لأنّ ما يلقى من الكلام أكثر ممّا يكتب، فجعل الخلاّق الحكيم ـ جلّ قدسه ـ هذا الهواء قرطاساً خفيفاً يحمل الكلام ريثما يبلغ العالم حاجتهم، ثمّ يمحى فيعود جديداً نقيّاً ويحمل ما حمل أبداً بلا انقطاع، وحسبك بهذا النسيم المسمّى هواء عبرة وما فيه من المصالح، فإنّه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما يستنشق منه، ومن خارج بما يباشر من روحه، وفيه تطّرد هذه الأصوات فيؤدّي بها من البعيد، وهو الحامل لهذه الأراييح ينقلها من موضع إلى موضع. ألا ترى كيف تأتيك الرائحة من حيث تهبّ الريح؟ فكذلك الصوت، وهو القابل لهذا الحرّ والبرد اللّذين يعتقبان على العالم لصلاحه، ومنه هذه الريح الهابّة، فالريح تروّح عن الأجسام، وتزجي السحاب من موضع إلى موضع ليعمّ نفعه حتّى يستكثف فيمطر وتفضّه حتّى يستخفّ فيتفشّى وتلقح

الشجر، وتسيّر السفن، وترخي الأطعمة، وتبرّد الماء، وتشب النار، وتجفّف الأشياء النديّة، وبالجملة إنّها تحيي كلّ ما في الأرض، فلولا الريح لذرى النبات، ومات الحيوان، وحمت الأشياء وفسدت.

بيان: ركود الريح سكونها، والتحريض إفساد البدن، ونهكته الحمّى أي أضنته وهزلته، وقوله «والهواء يؤدّيه» يدلّ على ما هو المذهب المنصور من تكيّف الهواء بكيفيّة الصوت كما فصّل في محلّه. ويقال: كربه الأمر أي شقّ عليه، وفدحه الدَّين أي أثقله، وريث ما فعل كذا أي قدر ما فعله. و«يبلغ» إمّا على بناء المجرّد فالعالم فاعله، أو على التفعيل فالهواء فاعله، والروح ـ بالفتح ـ الراحة ونسيم الريح. واطّرد الشيء: تبع بعضه بعضاً وجرى. والأراييح: جمع جمع للريح. وتزجي السحاب ـ على بناء الإفعال ـ أي تسوقه، ونفضه أي تفرّقه، والتفشّي: الانتشار، وترخي الأطعمة ـ على [بناء] التفعيل أو الإفعال ـ أي تصيّرها رخوة لطيفة، وتشب النار أي توقدها.

٧ ـ **العلل**: عن أبيه، عن محمّد بن يحيى، عن الحسين بن إسحاق التاجر، عن عليّ بن مهزيار، عن الحسن بن الحسين، عن محمّد بن فضيل، عن العرزميّ، قال: كنت مع أبي عبد الله عليه السلام جالساً في الحجر تحت الميزاب ورجل يخاصم رجلاً وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما تدري من أين تهبّ الريح، فلمّا أكثر عليه فقال له أبو عبد الله عليه السلام: هل تدري أنت من أين تهبّ الريح[١]؟ فقال: لا، ولكنّي أسمع الناس يقولون، فقلت أنا لأبي عبد الله عليه السلام: من أين تهبّ الريح[٢]؟ فقال: إنّ الريح مسجونة تحت الركن[٣] الشاميّ، فإذا

---

(١) في الكافي: هل تدري أنت فقال لا.
(٢) في معاني الأخبار: من أين تهب الريح جعلت فداك.
(٣) في الكافي والمعاني: تحت هذا الركن.

آياته في النار

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠﴾ [يس: ٨٠] أي جعل لكم من الشجر الرطب المطفىء للناس ناراً محرقة. يعني بذلك: المرخ والعفار، وهما شجران تتخذ الأعراب زنودها (يأتيك معناه قريباً) منهما، فبيَّن سبحانه أن من قدر على أن يجعل في الشجر (الأخضر) الذي هو في غاية الرطوبة ناراً حامية مع مضادة النار للرطوبة حتى إذا احتاج الإنسان حكَّ بعضه ببعض فخرج منه النار وينقدح قدر على الإعادة، وتقول العرب: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار وقال الكلبي: كل شجر تنقدح منه النار إلا العنَّاب[1].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ۝٧٣﴾ [الواقعة: ٧١-٧٣].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١﴾ [الواقعة: ٧١] أي تقدحونها بزنادكم من الشجر ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ [الواقعة: ٧٢] التي تنقدح النار منها ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] لها فلا يمكن لأحد أن يقول: إنه أنشأ تلك الشجرة غير الله تعالى والعرب تقدح بالزند والزندة وهو: خشب يحكُّ بعضه ببعض فتخرج منه النار ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: ٧٣] أي نحن

(١) مجمع البيان ج٨ ص٤٣٥.

جعلنا هذه النار تذكرة للنار الكبرى، فإذا رآها الرائي ذكر جهنم، واستعاذ بالله منها وقيل: تذكرة لقدرة الله تعالى على المعاد ﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣] أي بلغة ومنفعة للمسافرين يعني الذين نزلوا الأرض القيّ وهو العفر وقيل: للمستمتعين بها من الناس أجمعين المسافرين والحاضرين والمعنى: أن جميعهم يستضيئون بها في الظلمة، ويصطلون في البرد، وينتفعون بها في الطبخ والخبز وعلى هذا فيكون المقوي من الأضداد أي الذي صار ذا قوة من المال والنعمة، والذاهب ماله النار بالقواء من الأرض، أي متاعاً للأغنياء والفقراء[١].

قال الرازي: في شجرة النار وجوه:

أحدها: إنَّها الشجرة التي تورى النار منها: بالزند والزندة.

وثانيها: الشجرة التي تصلح لإيقاد النار كالحطب، فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار لأن النار لا تتعلَّق بكل شيء كما تتعلَّق بالحطب.

وثالثها: أصول شعلها وفروعها شجرتها، ولولا كونها ذات شعل لما صلحت لإنضاج الأشياء (مفاتيح الغيب).

وقال البيضاوي: «نحن جعلناها تذكرة» أي تبصرة في أمر البعث أو في الظلام «أو تذكيراً» أو أنموذجاً لنار جهنم «ومتاعاً» أي منفعة «للمقوين» للذين ينزلون القوى وهي القفراء، وللذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام. من أَقْوَتْ الدار: إذا خلت من ساكنيها[٢].

وقال الجوهري: في المثل: في كل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار أي استكثرا منها كأنهما أخذا من النار ما هو جسمهما، ويقال: لأنهما يسرعان الوري فشبِّها بمن يكثر من العطاء للمجد.

---

(١) مجمع البيان ج١ ص٢٢٤.
(٢) أنوار التنزيل.

وقال: المرخ شجر سريع الوري، والعفار الزند وهو الأعلى والمرخ الزندة وهي الأسفل.

وفي الخصال عن المفضل قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن النيران، فقال: «نار تأكل وتشرب، ونار تأكل ولا تشرب، ونار تشرب ولا تأكل، ونار لا تأكل ولا تشرب، فالنار التي تأكل وتشرب، فنار ابن آدم وجميع الحيوان، والتي تأكل ولا تشرب، فنار الوقود، والتي تشرب ولا تأكل فنار الشجر، والتي لا تأكل ولا تشرب فنار القداح والحباحب.

بيان: «فنار ابن آدم» أي الحرارة الغريزية في بدن الحيوان. فإنها تحلّل الرطوبات، وتخرج الحيوان إلى الماء والغذاء معاً، ونار الوقود: النار التي تُتَّقد في الحطب، وتشتعل فإنَّها تأكل الحطب مجازاً أي تكسِّره وتفنيه، وتقلبه. ولا تشرب ماء بل هو مضاد لها ونار الشجر وهي الكامنة مادَّتها أو أصلها في الشجر الأخضر كما مرَّ فإنها تشرب الماء ظاهراً وتصير سبباً لنموّ شجرتها، ولا تأكل ظاهراً وإن كان للتراب أيضاً مدخل في نموها أو المعنى: إنَّ عند احتكاك الغصنين الرطبين يظهر الماء فكان النار الظاهر منها يشربها والقداحة والقداح: الحجر الذي يوري النار ذكره الجوهري وقال: الحُباحب (بالضم) اسم رجل بخيل كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان، فضربوا بها المثال حتى قالوا: نار الحُباحب لما تقدحه الخيل بحوافرها وربما قالوا: نار أبي حباحب وهو ذباب يطير بالليل كأنه نار، ورُبَّما جعلوا الحُباحب اسماً لتلك النار.

وقال الفيروزآبادي: «الحُباحب (بالضم): ذباب يطير بالليل له شعاع كالسراج ومنه: نار الحُباحب، أو هي ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة أو كان أبو حباحب من محارب وكان لا

يوقد ناره إلا بالحطب الشخت لئلاً ترى أوهى من الحبحبة الضعف أو هي الشرر يسقط من الزناد» والمراد بهذه النار: ما كمن منها أو من مادَّتها في الحجر والحديد فإنها لا يصل إليها ماء ولا غذاء أو عند قدحها قبل اتّقادها من قطن أو حطب لا تصادف ماء ولا شيئاً آخر[1].

وفي الإحتجاج عن هشام بن الحكم عن أبي عبد الله عليه السلام:

قال: قال الزنديق له: أخبرني عن السراج إذا انطفى أين يذهب نوره؟ قال عليه السلام: يذهب ولا يعود، قال: فما أنكرت أن يكون الإنسان مثل ذلك إذا مات وفارق الروح البدن لم يرجع إليه أبداً كما لا يرجع ضوء السراج إليه أبداً إذا انطفى؟ قال عليه السلام: لم تصب القياس، إن النار في الأجسام كامنة والأجسام قائمة بأعيانها كالحجر والحديد، فإذا ضرب أحدهما بالآخر سقطت من بينهما نار تقتبس منها سراج له ضوء فالنار ثابتة في أجسامها والضوء ذاهب[2].

وفي البحار: ثم المشهور بينهم أن النار التي تسطع عند ملاقاة الحجر والحديد أو عند احتكاك الخشبتين الرطبتين أو اليابستين إنما هي بانقلاب الهواء الذي بينهما ناراً بسبب حرارة حدثت فيه من الإصطكاك والإحتكاك، لا بأن يخرج من الحجر أو الحديد أو الشجر نار وظواهر الآيات والأخبار المتقدمة لا ينافي ذلك.

وأما قوله عليه السلام في حديث هشام: «إن النار في الأجسام كامنة» فالمراد بها: إما النار التي تركَّب الجسم منها ومن سائر العناصر أو المعنى أن ما هو سبب لإحداث النار حاصل في الأجسام، وإن انطفت النيران المتولِّدة منها وانقلبت هواء، والأوَّل أظهر، والحاصل أن

---

(١) بحار الأنور ج٥٩ ص٣٢٩ ـ ٣٣٠.
(٢) الاحتجاج: ص١١٩.

قياسك الروح على نار الفتيلة وغيرها حيث لم يكن إعادتها إلى الأجسام قياس مع الفارق فإن الروح إما جسم أو جوهر مجرَّد ثابت محفوظ يمكن إعادته.

والنار التي ذكرت انقلبت هواء فعلى تقدير استحالة إعادتها لا توجب إعادة الروح بل ما يشبه الروح هو النار الكامن في الجسم الموجود فيه لا هذا الضوء الذاهب، وأما نار الشجرة فذات احتمالات أومأنا إليها سابقاً.

وقال الإمام في توحيد المفضل: والنار أيضاً كذلك فإنها لو كانت مبثوثة كالنسيم والماء كانت تحرق العالم وما فيه ولم يكن بدٌّ من ظهورها في الأحايين لغنائها في كثير من المصالح فجعلت كالمخزونة من الأخشاب تلتمس عند الحاجة إليها وتمسك بالمادَّة والحطب ما احتيج إلى بقائها لئلا تخبو، فلا هي تمسك بالمادَّة والحطب فتعظم المؤونة في ذلك، ولا هي تظهر مبثوثة فتحرق كلما هي فيه بل هي على تهيئة وتقدير اجتمع فيها الاستمتاع بمنافعها والسلامة من ضررها. ثمّ فيها خلّة أُخرى وهي أنّها ممّا خصّ به الإنسان دون جميع الحيوان لما له فيها من المصلحة، فإنّه لو فقد النار لعظم ما يدخل عليه من الضرر في معاشه، فأمّا البهائم فلا تستعمل النار ولا تستمتع بها، ولمّا قدر الله عزّ وجلّ أن يكون هذا هكذا خلق للإنسان كفّاً وأصابع مهيَّأة لقدح النار واستعمالها، ولم يعط البهائم مثل ذلك، لكنَّها أُغنيت بالصبر على الجفاء والخلل في المعاش لكيلا ينالها في فقد النار ما ينال الإنسان. وأنبّئك من منافع النار على خلّة صغيرة عظيم موقعها، وهي هذا المصباح الّذي يتّخذه الناس فيقضون به حوائجهم ما شاؤوا من ليلهم، ولولا هذه الخلّة لكان الناس تصرف أعمارهم بمنزلة من في القبور، فمن كان يستطيع أن يكتب أو يحفظ أو ينسج في ظلمة الليل؟ وكيف كانت حال من عرض له وجع في وقت من أوقات الليل فاحتاج

آياته في الحرّ والبرد

قال عليه السلام في توحيد المفضل:

اعتبر بهذا الحرّ والبرد كيف يتعاوران العالم، ويتصرّفان فإن هذا التصرّف من الزيادة والنقصان والاعتدال لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما فيهما من المصالح، ثمّ هما بعد دباغ الأبدان الّتي عليها بقاؤها وفيها صلاحها، فإنّه لولا الحرّ والبرد وتداولهما الأبدان لفسدت وأخوت وانتكثت. فكّر في دخول أحدهما على الآخر بهذا التدريج والترسّل، فإنّك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك حتّى ينتهي كلّ واحد منهما منتهاه في الزّيادة والنقصان، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة لأضرّ ذلك بالأبدان وأسقمها كما أن أحدكم لو خرج من حمّام حارّ إلى موضع البرودة لضرّه ذلك وأسقم بدنه، فلم جعل الله عزّ وجلّ هذا الرّسل[1] في الحرّ والبرد إلاّ للسلامة من ضرر المفاجأة؟ ولم جرى الأمر على ما فيه السلامة من ضر[2] المفاجأة لولا التدبير في ذلك؟ فإن زعم زاعم أنّ هذا الترسّل في دخول الحرّ والبرد إنّما يكون لإبطاء مسير الشمس في الارتفاع والانحطاط سئل عن العلّة في إبطاء مسير الشمس في ارتفاعها وانحطاطها، فإن اعتلّ في الإبطاء ببعد ما بين المشرقين سئل عن العلّة

(١) الترسل (خ).

(٢) ضرر (خ).

في ذلك، فلا تزال هذه المسألة ترقى معه إلى حيث رقى من هذا القول حتّى استقرّ على العمد والتدبير. لولا الحرّ لما كانت الثمار الجاسية المرّة تنضج فتلين وتعذب حتّى يتفكّه بها رطبة ويابسة، ولولا البرد لما كان الزرع يفرخ هكذا ويريع الريع الكثير الذي يتسع للقوت وما يرد في الأرض للبذر، أفلا ترى ما في الحرّ والبرد من عظيم الغناء والمنفعة، وكلاهما مع غنائه والمنفعة فيه يؤلم الأبدان ويمضّها وفي ذلك عبرة لمن فكّر، ودلالة على أنّه من تدبير الحكيم في مصلحة العالم وما فيه.

توضيح: قوله ﷺ «لا يجاوز ذلك» أي في معظم المعمورة، وفي المصباح: خوت الدار: خلت من أهلها، وخوّت الإبل تخوية: خمصت بطونها، وقال الفيروز آباديّ: خوّت الدار تهدّمت، والنجوم خيّاً أمحلت فلم تمطر كأخوت وخوّت وقال: المنتكث المهزول، وقال: الترسّل الرفق والتؤدة (انتهى). قوله ﷺ: «ببعد ما بين المشرقين» أي المشرق والمغرب كناية عن عظم الدائرة الّتي يقطع عليها البروج، أو مشرق الصيف والشتاء، والأوّل أظهر. قوله ﷺ: «الجاسية» أي الصلبة «حتّى يتفكّه بها» أي يتمتّع بها، والريع: النماء والزّيادة، وقال الجوهريّ: أمضّني الجرح إمضاضاً إذا أوجعني، وفيه لغة أُخرى: مضّني الجرح ولم يعرفها الأصمعيّ.

آياته في الماء

وهو الجوهر السائل المسبب لحياة الجسم النامي ويكفي القول فيه: إنَّ الحياة باقية ما بقي الماء وتذهب الحياة بذهابه ما في ذلك ريب بل هو مصدر الكون وعنصره الوحيد أو هو من عناصر الكون ومقوّماته على قول، ويغطي الماء أكثر من ثلاثة أرباع سطح الأرض، ويوجد أيضاً في جوفها وفي الجوّ على هيئة سحاب وضباب ويوجد أيضاً على رؤوس الجبال طوال أيام السنة ثلجاً وجليداً ويتبخر الماء من النبات والأشجار ومن هنا تكثر الأمطار في الأرض ذات الغابات الكثيفة، والأشجار الضخمة.

وفيه أبحاث الأول:

البحث الأول

في المطر

وهو الماء النازل من السماء فيقال: يوم مطير وماطر وممطور ويقال: واد مطير أي ممطور، ومطرتنا السماء. ومن أسرار المطر وفوائده ما بينه الإمام في توحيد المفضل قال ﷺ: فكّر يا مفضل في الصحو والمطر كيف يتعاقبان على هذا العالم لما فيه من صلاحه، ولو دام واحد منهما عليه كان في ذلك فساده ألا ترى أن الأمطار إذا توالت عفّنت البقول والخضر، واسترخت أبدان الحيوان، وحصر الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض، وفسدت الطرق والمسالك، وأن الصحو إذا دام جفّت

الأرض، واحترق النبات، وغيض ماء العيون والأودية فأضر ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروباً أخرى من الأمراض فإذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الأشياء واستقامت.

وقال ﷺ: تأمّل نزوله على الأرض والتدبير في ذلك، فإنه جعل ينحدر عليها من علوّ ليغشى ما غلظ وارتفع منها فيرويه، ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها فيقل ما يزرع في الأرض، ألا ترى أنّ الذي يسقي سيحاً[1] أقلّ من ذلك، فالأمطار هي التي تطبق الأرض وربما تزرع هذه البراري الواسعة وسفوح الجبال، وذراها فتغل الغلّة الكثيرة وبها يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤونة سياق الماء من موضع إلى موضع، وما يجري في ذلك بينهم في التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذو العزّة والقوّة ويحرمه الضعفاء، ثمّ إنّه حيث قدر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرشّ ليغور في قعر الأرض فيرويها، ولو كان يسكبه انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها ثم كان يحطّم الزروع القائمة إذا اندفق عليها فصار ينزل نزولاً رقيقاً فينبت الحبّ المزروع ويحيي الأرض والزرع القائم، وفي نزوله أيضاً مصالح أخرى، فإنّه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك، ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء المسمّى باليرقان إلى أشباه هذا من المنافع.

فإن قال قائل: أوليس قد يكون منه في بعض السنين الضرر العظيم الكثير لشدّة ما يقع منه، أو من برد يكون فيه تحطم الغلاّت، وبخورة يحدثها في الهواء فتولّد كثيراً من الأمراض في الأبدان والآفات في الغلاّت.

---

(١) السيح: هي الزراعة التي تحصل عن طريق الأنهر والمياه الجارية.

قيل له: بلى قد يكون ذلك لفرط ما فيه من صلاح الإنسان وكفّه عن ركوب المعاصي والتمادي فيها فتكون المنفعة فيما يصلح له من دينه أرجح ممّا عسى أن يرزأ في ماله[1].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال كان عليّ عليه السلام يقوم في المطر، أول ما تمطر حتى يبتلّ رأسه ولحيته وثيابه، فيقال له يا أمير المؤمنين الكِنّ الكِنّ فيقول إنّ هذا ماء قريب العهد بالعرش، ثم أنشأ يحدث، فقال إنّ تحت العرش بحراً فيه ماء ينبت به أرزاق الحيوان، وإذا أراد الله تعالى أن ينبت به ما يشاء لهم رحمة منه أوحى الله عزّ وجلّ فمطر منه ما شاء من سماء إلى سماء حتى يصير إلى السماء الدنيا فتلقيه إلى السحاب والسحاب بمنزلة الغربال، ثم يوحي الله عزّ وجلّ إلى السحاب أن اطحنيه وأذيبيه ذوبان الملح في الماء ثم انطلقي به إلى موضع كذا وكذا وعباباً وغير عباب فتقطر عليهم على النحو الذي يأمرها به، فليس من قطرة تقطر إلاّ ومعها ملك حتى يضعها موضعها، ولم تنزل من السماء قطرة من مطر إلاّ بقدر معدود ووزن معلوم، إلاّ ما كان يوم الطوفان على عهد نوح فإنّه نزل منها ماء منهمر بلا عدد ولا وزن[2].

وعن علي بن إبراهيم قال: في البرّ فساد الحيوان إذا لم تمطر وكذلك هلاك دواب البحر بذلك قال وقال الصادق عليه السلام حياة دواب البحر بالمطر فإذا كفّ المطر ظهر الفساد في البرّ والبحر، وكذلك إذا كثرت الذُّنوب بالمعاصي[3].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: إنّ ربّكم سبحانه يقول لو أنّ عبادي

---

(١) بحار الأنوار.
(٢) البرهان في تفسير القرآن.
(٣) تفسير القمي.

أطاعوني لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد[1].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: ليس من سنة أقلّ مطراً من سنة، ولكنّ الله يضعه حيث يشاء، إنَّ الله إذا عمل قوم بالمعاصي صرف عنهم ما كان قدّر لهم من المطر في تلك السنة إلى غيرهم وإلى الفيافي والبحار والجبال[2].

البحث الثاني

في معنى قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد: ١٧].

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] أنزل: فعل ماض وفاعله هو الله سبحانه لم يذكره لوضوحه.

وتنكير (ماء) للدلالة على نوع الماء وهو الماء الخالص الصافي يعني نفس الماء من غير أن يختلط بشيء أو يشوبه تغير.

والوادي: هو سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر قال في المجمع: ومنه اشتقاق الدية لأنه جمع المال العظيم الذي يؤدى عن القتيل، انتهى. وتنكير (أودية) للدلالة على اختلافها في الكبر والصغر والطول والقصر وتغايرها في السعة ونسبة السيلان إلى الأودية نسبة مجازية نظير قولنا: جرى الميزاب.

---

(١) بحار الأنوار.

(٢) روضة الواعظين.

والمراد من قوله: «بقدرها» أي كل وادٍ بقدره الخاص به فالكبير بقدره والصغير بقدره.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: ١٧] الإحتمال: هو رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له ويقال: علا صوته على فلان فاحتمله ولم يغضبه والزبد: هو وضر الغليان وهو خبث الغليان، ومنه زبد القدر، وزبد السيل.

والمعنى: أنزل الله من السماء (وهي جهة العلو) ماءً بالإمطار فسالت الأودية الواقعة في محل الإمطار وهي الأودية المختلفة في السعة والضيق والكبر والصغر بقدرها أي كل واد بقدره الخاص به من الكبر وغيره، فاحتمل السيل (الواقع في كل واحد من الأودية المختلفة) زبداً (رابياً) يعني طافياً عالياً هو الظاهر على الحس يستر الماء ستراً.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ [الرعد: ١٧] الإيقاد: هو إلقاء الحطب في النار. والمتاع: هو ما تمتعت به من نشوية، وما يوقدون عليه أنواع الفلزّات، والمواد الأرضية القابلة للإذابة المصوغ منها آلات الزينة، وأمتعة الحياة التي يتمتع بها الناس، والمعنى: ويخرج من الفلزات والمواد الأرضية التي يُوقدون عليها في النار طلباً للزينة (كالذهب والفضة) أو طلباً لمتاع غير الزينة كالحديد وغيره يتخذ منه آلات وأدوات زبد مثله أي هذه الأمور كلها يخرج منها زبد مثل الزبد الذي يخرج من السيل ويطفو على المادة المذابة ويعلوه مثل ما يطفو زبد السيل.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد: ١٧] والضرب: هو نوع من التثبيت من قبيل قولنا: ضربتُ الخيمة أي نصبتها، وضُربت عليهم الذلّة والمسكنة أي رقعت وأثبتت، وضرب بينهم بسور أي بُني. وإلى هذا

المعنى يعود ضرب المثل لأنه تثبيت لما يماثل المثل حتى يتبيَّن به حاله قال في الميزان: والجميع في الحقيقة من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللازم فإن الضرب وهو إيقاع شيء على شيء بقوة وعنف لا ينفك عادة عن تثبيت أمر في ما وقع عليه الضرب كثبوت الوتد في الأرض بضرب المطرقة، وحلول الألم في جسم الحيوان بضربه فقد أطلق الضرب وهو الملزوم، وأريد التثبيت وهو اللازم.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] الجفاءُ: هو ممدود مثل الغثاء وأصله الهمز يقال جفأ الوادي وأجفأتُ القدر بزبدها: إذا ألقيت زبدها عنها وجفأت الرجل: إذا صرعته.

والمكث: هو السكون في المكان على مرور الزمان والمعنى: فأما الزبد الذي كان يطفو على السيل، ويعلوه أو الزبد الذي يخرج مما يوقدون عليه في النار فإنه يذهب جفاءً ويصير باطلاً متلاشياً وأما الماء الخالص أو العين الأرضية المصوغة اللذين فيهما إنتفاع الناس وتمتع الناس في معاشهم فإنه يمكث في الأرض ويبقى فيها حتى ينتفع به الناس.

واعلم أنَّ هذه الأصول كما تجري في الأمور العينية والحقائق الخارجية كذلك تجري في العلوم والإعتقادات فمثل الإعتقادات الحق في نفس المؤمن: مثل الماء النازل من السماء الجاري في الأودية على اختلاف سعتها، وينتفع به الناس، وتحيى قلوبهم، ويمكث فيهم الخير والبركة، ومثل الإعتقادات الباطلة في نفس الكافر: كمثل الزبد الذي يطفو على السيل لا يلبث دون أن يذهب جفاءً ويصير سُدى قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقد لاحظ العلماء أن الماء يمتاز بأربع خواص هامة تعمل على صيانة الحياة في المحيطات والبحار والأنهار وخاصة حينما يكون الشتاء قارصاً وطويلاً فالماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة وتبلغ كثافة الماء أقصاها مما يجعل الجليد المتكوّن في البحيرات والأنهار يطفو على سطح الماء لخفته النسبية فيُهيّىء بذلك الفرصة لاستمرار حياة الكائنات التي تعيش في مياه المناطق الباردة وعندما يتجمّد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة الأحياء التي تعيش في البحار. أنظر يا أخي إلى هذه الظواهر وإلى هذا النظام الدقيق فهل يمكن أن يكون قد نشأ من تلقاء نفسه قال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٨] قال الرازي: من قال إن المراد بالسماء: السحاب قال: إن الله تعالى أصعد الأجزاء المائية من قعر الأرض، ومن البحار إلى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد، ثم إن تلك الذرّات تأتلف وتتكوّن، ثم ينزلها الله على قدر الحاجة إليها. ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها في قعر الأرض، ولا بماء البحر لملوحته، ولأنه لا حيلة في إجراء مياه البحار على وجه الأرض، لأن البحار هي الغاية في العمق. وهذه الوجوه إنّما يتمحّلها من ينكر الفاعل المختار، وأما من أقرَّ به فلا حاجة له إلى شيء منها «بقدر» أي بتقدير يَسْلَمون معه من المضرَّة، ويصلون به إلى المنفعة في الزرع والغرس والشرب، وبمقدار ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨] قيل: جعلناه ثابتاً في الأرض قال ابن عباس: «أنزل الله تعالى من الجنة خمسة أنهار: سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل، ثم يرفعها عند خروج يأجوج ومأجوج، ويرفع أيضاً القرآن: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ

﴿ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨] أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على رفعه وإزالته، ولمَّا نبَّه سبحانه على عظم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ [المؤمنون: ١٩] قال في البحار: وإنما خصَّهما لكثرة منافعهما فإنهما يقومان مقام الطعام ومقام الإدام ومقام الفاكهة رطباً ويابساً.

وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ١٩] أي في جنات فكما أن فيها النخيل والأعناب فيها الفواكه الكثيرة وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩] قال الزمخشري: يجوز أن يكون هذا من قولهم: فلان يأكل من حرفة يحترفها، ومن صنعة فعلها يعنون أنها طعمته وجهته التي يحصل منها رزقه كأنه قال: وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعاشكم منها تتعيشون[١].

وممَّا يخص الموضوع قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩] وهذا القول يستند إلى مسألة مياه شرب الإنسان ويذكر موضوعاً جديداً ثم يضيف تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠﴾ [الواقعة: ٧٠].

فلو أن ماء البحر يصطحب أثناء تبخره إلى السماء حبوب الأملاح الصغيرة وتنزل المياه المالحة والمرَّة من الغيوم لتحوَّلت الأرض إلى مملحةٍ فلا ينمو نبات أو شجر، وإذا أراد الإنسان أن يدفع الموت عنه إثر العطش لم يستطع أن يتجرع منه أبداً. هذا الأمر الموجَّه إلى المياه بالتبخر، والأملاح الموجودة في مياه البحر بالبقاء في مكانها، قد أضفى طابعاً آخر على حياة الإنسان، بل كل الأحياء

(١) مفاتيح الغيب ج٥ ص٢٧٨.

على سطح الأرض، فهل يستطيع شخص أن يودي شكر هذه النعمة مدى حياته؟!

و«المزن» تعني الغيوم الممطرة و«الأجاج» تعني المياه الشديد الملوحة أو المرارة.

وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢] يشير سبحانه في ختام هذه الآية إلى خزانات المياه المغطاة تحت الأرض، والتي هي من الذخائر الإلهية للناس ﴿وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢] فنحن الذين أمرنا طبقات الأرض أن تحتفظ بمياه الأمطار الصافية في داخلها، وقد تكون الآبار والقنوات التي تستخدمونها اليوم هي من احتياطي المياه التي ذخرت لكم منذ آلاف السنين في باطن الأرض من غير أن تتلوَّث أو تتعفَّن، وقد نقوم بخزنها عن طريق تجميدها في قمم الجبال على هيئة بَرَدٍ وثلج كي تصبح ماء بشكل تدريجي، ونسقيكم أنتم وحيواناتكم ومزارعكم، وربَّما تكون المياه التي تنحدر من القمَّة الفلانية اليوم مخزونة منذ آلاف السنين.

وقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] يشير سبحانه في هذه الآية إلى نزول الأمطار من السماء ويشير إلى مسألة تكوّن «الينابيع» وهي جمع والمفرد «ينبوع» وتعني: العَيْن وهي في الأصل مأخوذة من مادة (نَبْعْ) وتعني انبثاق الماء من الأرض ومن الطبيعي أنَّ تكوُّن الينابيع في الأرض (الذي يجعل الإنسان يستفيد من الماء الجاري بدون الحاجة إلى قوّة أخرى) يتبع ظروفاً خاصَّة.

أوَّلها: أن تكون طبقة الأرض قابلة للإختراق كي يتغلغل الماء خلالها ثم يجب أن يكون ما تحت هذه الطبقة صلداً كي يتوقف الماء

ويختزن هناك، وأن يكون هناك فارق في المستوى بين خزانات المياه والمناطق الأُخرى حتى ينساب الماء من هناك إلى بقية النقاط ومن المسلَّم به استحالة تناسق هذه الأمور لولا تخطيط مُبدىء العلم والقدرة سبحانه وتعالى ويضيف سبحانه في سياق الآية المتقدمة ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزمر: ٢١] فيمكن أن يكون اختلاف الألوان هذا إشارة إلى ألوان النباتات المختلفة تماماً أو إشارة إلى أنواع النباتات، وأزهار الزينة والطب والغذاء والصناعة التي لها أنواع لا تحصى في الواقع.

أجل... إن الله تعالى يستخرج من هذا الماء الذي لا لون له مئات الآلاف من ألوان الورود والنباتات الموجودة في هذه الروضة. قاله في (النفحات).

وقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] وهذا موضع جديد حيث يستند إليه في هذه الآية.

و«الطَّهور» صيغة مبالغة من «الطهارة» والتفاوت حيث تفيد طهارة الماء وكذلك كونه مطهِّراً ولو لم تكن للماء صفة التطهير لتلوَّثت كلُّ مقوِّمات حياتنا، وأجسامنا وأرواحنا خلال يوم واحد، ويمكن أن نلمس حقيقة هذا الكلام إذا ما ابتلينا تارة بفقدان ماء للتنظيف، حينها يصعب توفير الغذاء، وسنفقد نظافة الجسم والنشاط والطهارة، والصحة والسلامة، صحيح أن الماء لا يقتل الجراثيم. ولكن لكونه «محلِّلاً» جيِّداً فهو يقوم بتحليل أنواع الجراثيم، ويزيلها ولذا فهو عامل مؤثِّر من أجل تأمين السلامة ويطهِّر، روح الإنسان من الأدران عن طريق الوضوء والغسل أيضاً وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧] ونواجه في هذه الآية مسألة جديدة أيضاً

وهي أن الله تعالى يسوق الماء إلى الأرض «الجرز» أي الجافة اليابسة الخالية من الكلأ ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٧] فيأكلون الحبوب وتأكل بهائمهم السيقان والأوراق والجذور ويستفاد من كلام أرباب اللغة: أن «الجَرُز» مأخوذة في الأصل من مادة «جَرَزْ» (على وزن مَرَضْ) وتعني: «الإنقطاع» أي انقطاع الماء والنبات والإعمار والطراوة. ولذا يقال للناقة التي تأكل وتقطع كل شيء بـ«ناقة جروز» ولمن يأكل كل ما هو موجود على خوان الطعام ويفرغها تماماً بـ«رجل جروز».

البحث الثالث

قال أمير المؤمنين عليه السلام في (نهج البلاغة):

أولاً: «ثم انشأ سبحانه فتق الأجواء وشقّ الأرجاء وسكائك الهواء» هذه الكلمات الثلاث كلّها تشير إلى شيء واحد. وهو:

الفضاء والفراغ اللانهائي، وأيضاً تشير إلى أنّ لهذا الفراغ أبعاداً ثلاثة:

الأول: الأجواء والمراد به العلو.

والثاني: الأرجاء. والمراد به الأطراف.

والثالث: السكائك. والمراد به: الطبقات.

وطبقات الفضاء الكوني قد اكتشفت بالحسّ والتجربة بعد غزو الفضاء، وصعود الإنسان إلى القمر، ويطلق علماء الفلك على كل مجرّة يعرفونها أي المجموعة النجمية يطلقون عليها سكة بإضافة كلمة أخرى تميزها عن غيرها من المجرّات، واسم مجرّتنا التي نرى كواكبها تسمى: سكة التبانة.

والفتق يقابله الرتق كما في الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] معنى ذلك ـ قال ابن عباس ـ: كانتا ملتزقتين منسدّتين ففصلنا بينهما بالهواء، والمروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله ﷺ: كانت السماء رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتقنا السماء بالمطر والأرض بالنبات.

ثانياً: قوله ﷺ: «فأجرى فيها ماءً متلاطماً تياره، متراكماً زخاره». ضمير (فيها) يعود على الكلمات الثلاث المتقدمة وهي: الأجواء، الأرجاء، السكائك. ومعنى (متلاطماً) و(متراكماً) كناية عن كثرة الماء وعظمته، وامتداده وارتفاعه، ويدل هذا على أنّ المخلوق الأول لله تعالى هو الماء كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. ومعنى ذلك: وأحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كل شيء حيّ.

وقال أبو عبد الله ﷺ معناه: وجعلنا من الماء حياة كل ذي روح، ونماء كل نام، فيدخل فيه الحيوان والنبات والأشجار(١).

وقد اكتشف أنَّ القطرة الواحدة من الماء الذي نشربه فيها عجائب، وغرائب من المخلوقات والكائنات الحية التي أشار إليها الإمام أمير المؤمنين ﷺ بقوله ـ قبل أكثر من ألف عام ـ: «لا تَبُلْ في الماء فإنّ للماء أهلاً».

ومثله قول الصادق الأمين ﷺ: «إنّ الهواء فيه خلق كثير».

والعلم الحديث اكتشف بعض ما قاله الإمام والنبي ﷺ.

وقد أوجد سبحانه هذا الماء في الجوّ محمولاً على ريح كثيفة

---

(١) عن أبي مسلم.

وقوية للغاية كما قال ﷺ: «حمله على متن الريح العاصف، والزعزع القاصف». الضمير في حمله يعود إلى الماء والعاصف: الشديدة الهبوب، والزعزع: التحريك.

وقال ﷺ: «فأمرها برده وسلطها على شده وقرنها على حده» والمعنى: إن الله سبحانه بعد أن خلق الماء فوق الريح على قدرها أعطاها قوة عظيمة، وجاذبية تستطيع معها أن تشد الماء إليها على ضخامته بحيث لا يسقط منه قطرة واحدة لا من أطرافه ولا من خلاله.

البحث الرابع
دورة المياه في الطبيعة
التي كثيراً ما نشاهدها في حياتنا الاعتيادية

حيث إنَّ ماء البحار والأنهار، وغيرها يتبخَّر بسبب حرارة الجوّ فيصير بخاراً ثم يرتفع البخار إلى أعالي الجوّ حيث تنخفض درجة الحرارة تدريجياً هناك إلى أن يتحوّل البخار إلى قطرات صغيرة جداً بسبب البرودة، فلا يقوى الهواء على حمل أكثره فيسقط على شكل أمطار تتحول إلى سيول تصبّ في الأنهار والبحار وهكذا تتكرر هذه العملية ما دام النظام الكوني موجوداً.

والمعجزة فيه هي:

١ ـ إن هذا التبخّر لو لم يكن تدريجياً، وكان فجائياً لتعرضت الكائنات الحية جميعها إلى الهلاك، لأن ذلك يؤدِّي إلى نقص في الماء كثيراً، وهو عماد وجودها.

٢ ـ إن قدرة الهواء المسخَّرة لحمل الماء تسمح بنزوله إلى الأرض بشكل أمطار للإستفادة منه، وإن قدرة الهواء لو لم تسمح بنزوله على هذا الشكل لأعدم الماء في الأرض. لأن ما يتبخر فيها لا

يرجع إليها مع أنَّ الكائنات الحية تحتاج إليه دائماً، ولو أعدم الماء في الأرض لأدّى انعدامه حتماً إلى تعذر الحياة على وجه الأرض.

٣ ـ إنَّ قدرة الهواء تسمح بنزوله على شكل قطرات صغيرة شبيهاً بالرش ليستوعب المناطق التي ينزل فيها من مرتفعات وغيرها ليرويها وتكون الفائدة عامة لجميع المخلوقات.

ولو نزل من الهواء منسكباً على وجه الأرض لحطم الزرع القائم وأحدث أضراراً جسيمة بممتلكات الناس.

وقال الإمام السجاد عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿...أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: ٩٩] يعني المطر ينزله من أعلى ليبلغ قلل جبالكم، وتلالكم، وهضابكم وأوهادكم ثم فرَّقه رذاذاً، ووابلاً وهَطْلاً لتنشّفه أرضكم، ولم يجعل ذلك المطر نازلاً عليكم قطعة واحدة فيفسد أرضكم، وأشجاركم وزروعكم وثماركم» (نور الثقلين).

البحث الخامس

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الأنعام: ٩٩]

قال الرازيّ: اختلف الناس فيه، فقال الجبّائي: إنّه تعالى ينزّل الماء من السماء إلى السحاب ومن السحاب إلى الأرض قال: لأنّ ظاهر النصّ يقتضي نزول المطر من السماء، والعدول عن الظاهر إلى التأويل إنّما يحتاج إليه عند قيام الدليل على أنّ إجراء اللفظ على ظاهره غير ممكن وفي هذا الموضع لم يقم دليل على امتناع نزول المطر من السماء، فوجب إجراء اللفظ على ظاهره. وأمّا قول من يقول: «إنّ البخارات الكثيرة تجتمع في باطن الأرض ثمّ تصعد وترتفع إلى الهواء فينعقد الغيم منها ويتقاطر وذلك هو المطر فقد احتجّ الجبائيّ على فساده بوجوه:

الأول: إنَّ البرد قد يوجد في وقت الحرّ [بل] في صميم الصيف، ونجد المطر في أبرد وقت ينزل غير جامد، وذلك يبطل قولهم.

الثاني: إنَّ البخارات إذا ارتفعت وتصاعدت وتفرّقت لم يتولّد منها قطرات الماء.

الثالث: لو كان تولّد المطر من صعود البخارات فالبخارات دائمة الارتفاع من البحار، فوجب أن يدوم هناك نزول المطر، وحيث لم يكن الأمر كذلك علمنا فساد قولهم. قال: فثبت بهذه الوجوه أنّه ليس تولّد المطر من بخار الأرض.

ثمّ قال: والقوم إنّما احتاجوا إلى هذا القول لأنّهم اعتقدوا أنّ الأجسام قديمة، وإذا كان الأمر كذلك امتنع دخول الزيادة والنقصان فيها، وحينئذ لا معنى لحدوث الحوادث إلاّ اتّصاف تلك الذوات[1] بصفة بعد أن كانت موصوفة بصفات أُخرى فلهذا السبب احتالوا في تكوين كلّ شيء عن مادّة معيّنة. وأمّا المسلمون فلمّا اعتقدوا أنّ الأجسام محدثة وأنّ خالق العالم فاعل مختار قادر على خلق الأجسام كيف شاء وأراد فعند هذا لا حاجة إلى استخراج هذه التكلّفات فثبت أنّ ظاهر القرآن يدلّ على أنّ الماء إنّما ينزل من السماء، ولا دليل على امتناع هذا الظاهر، فوجب القول بحمله على ظاهره فثبت أنّ الحقّ سبحانه ينزل المطر من السماء بمعنى أنّه يخلق هذه الأجسام في السماء، ثمّ ينزلها إلى السحاب ثمّ من السحاب إلى الأرض.

والقول الثاني: المراد: أنزل من جانب السماء ماءً.

القول الثالث: أنزل من السحاب ماء، وسمّى الله السحاب سماء لأنّ العرب تسمّي كلّ ما فوقك سماء، كسماء البيت.

---

(١) الذرّات.

ثمّ قال: نقل الواحدي في البسيط عن ابن عبّاس: يريد بالماء ههنا المطر[1].

ثمّ قال: ورجّح في موضع آخر نزول المطر من السحاب، قال لأن الإنسان ربما كان واقفاً على قلّة جبل عال ويرى الغيم أسفل، فإذا نزل من ذلك الجبل يرى ذلك الغيم ماطراً عليهم. وإذا كان هذا الأمر مشاهداً بالبصر كان النزاع فيه باطلاً، ولا تنزل نقطة من المطر إلاّ ومعها ملك. والفلاسفة يحملون ذلك الملك على الطبيعة الحالّة في تلك الجسميّة الموجبة لذلك النزول[2] (انتهى).

البحث السادس

في فوائد الماء المطلقة وما فيها من إعجاز

١ ـ إن الماء يغطي ثلاثة أرباع سطح الأرض تقريباً وهو بذلك يؤثّر تأثيراً بالغاً على الجوّ السائد ودرجة الحرارة، ولولا تجرّد الماء من بعض خواصّه لظهرت على سطح الأرض تغيرات من درجة الحرارة تؤدي إلى حدوث الكوارث علماً بأن للماء درجة ذوبان مرتفعة، وهو يبقى سائلاً فترة طويلة من الزمن، وله حرارة تصعيد بالغة الإرتفاع، وهو بذلك يساعد على بقاء درجة الحرارة فوق سطح الأرض عند معدل ثابت، ويصونها من التقلّبات العنيفة، ولولا كل ذلك لتضاءلت صلاحيَّة الأرض للحياة إلى حد كبير، ولقلَّت متعةُ النشاط الإنساني على سطح الأرض بدرجة عظيمة.

٢ ـ إن الماء هو المادة الوحيدة المعروفة التي تقلُّ كثافتها عندما تتجمَّد ولهذه الخاصية أهميَّتها الكبيرة بالنسبة للحياة إذ بسببها يطفو

(١) مفاتيح الغيب: ج٤، ص١٥٣.
(٢) مفاتيح الغيب: ج٤، ص١٥٤.

الجليد على سطح الماء عندما يشتدّ البرد بدلاً من أن يغوص إلى قاع المحيطات والبحيرات والأنهار، ويكون تدريجاً كُتلة صلبة لا سبيل إلى إخراجها وإذابتها. ويكون الجليد الذي يطفو على سطح البحر طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة فوق درجة التجمّد، وبذلك تبقى الأسماك وغيرها من الحيوانات المائية الحية وتسلم من الهلاك وعندما يأتي الربيع يذوب الجليد بسرعة.

٣ ـ للماء (مثلاً) توتر سطحي مرتفع يساعد على نموّ النبات بما ينقله إليه من المواد الغذائية التي في التربة، والماء أكثر السوائل (المعروفة) إذابة لغيره من الأجسام، وهو بذلك يلعب دوراً كبيراً في العمليات الحيويَّة داخل أجسامنا بوصفه مركّباً أساسياً من مركبات الدم.

٤ ـ للماء ضغط بخار مرتفع على مدى واسع من درجات الحرارة ومع ذلك فإنه يبقى سائلاً على طول هذا المدى المتسع اللازم للحياة واعلم أن المعجزة الكبيرة للماء (وهي دورة المياه في الطبيعة) قد تقدمت في الرقم الخامس من فوائد السماء فراجع واعلم أن معاجز الماء كثيرة جداً ويكفي أنه سبب وجود كل شيء حي في هذا الكون.

٥ ـ قال عالم بيولوجي: عندما نذهب إلى العمل، ونفحص قطرة من ماء المستنقع تحت المجهر لكي نشاهد سكانها، فإننا نرى إحدى عجائب هذا الكَوْن: فتلك الأميبا تتحرَّك في بطء وتتَّجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها، فإذا به داخلها، وإذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق، بل إننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأميبا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر، فإذا ما لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول، فإننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين، ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكون حيواناً جديداً كاملاً. تلك خليَّة واحدة تقوم بجميع وظائف الحياة التي تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى في أدائها

إلى آلاف الخلايا أو ملايينها. لا شك أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذي بلغ من الصغر حدَّ النهاية تحتاج إلى أكثر من المصادفة ثم قال: ولقد كشفت قوانين الكيمياء الحيويَّة من أسرار الحياة وظواهرها ما لم تكشفه القوانين في أي ميدان آخر من ميادين الدراسات العلمية، وبالجملة لو نظرت بعين العبرة في ذرَّات الوجود لا تجد ذرَّة من ملكوت السماوات والأرض إلا وفيها غرائب حكمة يكلُّ البيان عن وصفها واعلم أن وجود الله تعالى أجل من أن يحتاج إلى بيان، وأوضح من أن يتوقف على دليل وبرهان فإن العيان يغني عن البيان والوجدان يكفي عن الشاهد والبرهان.

وفي (جامع الأخبار) سئل أمير المؤمنين ﷺ عن إثبات الصانع فقال: «البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة كيف لا يدلان على اللطيف الخبير».

البحث السابع

وهو خاص بشرح ما قاله الصادق عليه السلام في فوائد الماء

قال الإمام الصادق ﷺ في حديث المفضل وفيه منافع أُخر أنت بها عارف، وعن عظيم موقعها غافل، فإنّه سوى الأمر الجليل المعروف من عظيم غنائه في إحياء جميع ما في الأرض من الحيوان والنبات يمزج الأشربة فتلذ وتطيب لشاربها، وبه تنظف الأبدان والأمتعة من الدرن الذي يغشاها، وبه يبل التراب فيصلح للأعمال، وبه يكف عادية النّار إذا أضرمت وأشرف الناس على المكروه، وبه يستحمّ المتعب الكالّ فيجد الراحة من أوصابه، إلى أشباه هذا من المآرب التي تعرف عظم موقعها في وقت الحاجة.

لا يمكن حصر فوائد الماء الجمّة والكثيرة على التحقيق، وأنّ الكثير منها واضح وخفي كما قال الإمام بمعنى أننا نستعملها ونستفيد منها ولكنّا غافلون عن ضرورتها للعيش ولزوم الحياة بها، لأنّ الاستمرار على استعمال الماء في كلّ شيء وعادتنا عليه تجعلنا غافلين عن التفكّر فيما يحدثه من مآرب ومصالح ومنافع، فهو الذي يعطي الحياة لجميع ما على وجه الأرض من حيوان ونبات وربما غيرها من المخلوقات، كما ذكر القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وهذه الفائدة قد أخذت مكانها بالتفصيل والبيان في كتب الطب. أمّا الفوائد التي ذكرها الإمام ﷺ فمنها أنّه يُمزج مع بعض الأشربة فيحسن طعمها ويلذ ذوقها ويُطَيِّب لشاربها، ومنها أنّه ينظف الأبدان والأمتعة والثياب والأواني وأمثالها من الأدران والأوساخ والكثافات التي تغشاها، ومنها أنّه يبل به التراب فيكون طيناً يصلح للبناء وتبليط السطوح وقد يعمل قوالباً تطبخ في النار لتكون أحجاراً صلبة، لإقامة بناء البيوت والقصور وتبليط الأرض والدور وغيرها أمثالاً، ومنها أنّه يطفيء النّار إذا شبّت بكثرة واضطرمت وخافت النّاس من أضرارها وإحراقها، وذلك بإلقاء سوائل تحت مسمّى الماء بكثرة وعنف، ومنها أنّ المتعب الكالّ من السير أو العمل المجهد إذا استحمّ به واغتسل، استراح وزالت أوصابه وأتعابه ببرودته ونظافة جلده، حيث تنفتح مسامات جلده فتستنشق النسيم فيحصل له الارتياح الكامل.

هذا ما ذكره الإمام ﷺ للتنبيه والعظة والاعتبار، وما ذكرته كتب الطبّ، فمنها أنّه يدخل مقدار عظيم منه في الأغذية المختلفة التي لولاه لما أمكن أكلها كاللحم وكثير من النباتات والنشويات، ومنها أنّه يخرج فضلات الأبدان ويفرز السموم الكربونية المحترقة فيها ويطرح بعض المواد الجامدة المضرّة في البدن إلى الخارج بواسطة شربه ومروره عليها وامتزاجه معها، ومنها إعانته لعملية الجهاز الهضمي فإنّه

إذا لم يوجد ماء في المعدة لا يكون كيلوس ولا يتولّد دم ولا يحصل تنفّس بل ولا تكمل الدورة الدموية صغراها وكبراها ولا تحصل الإفرازات اللازمة لإصلاح البدن كالعرق والبول والبراز.

ومنها أنّه يهدىء الحرارة المرتفعة والعطش الشديد، ومنها أنّه تتولد حياة كل خلية من خلايا بدن الحيوان وأجسام النباتات على وجود الماء فيها بحيث إذا جفّت تماماً فقدت الحياة، ومنها أن البروتوبلازما وهو سائل داخل الخلية، لا بدّ أن يستمدّ غذاءه من المركبات الذائبة في المحاليل المائية التي تغمرها، فإذا فقد عنها الماء فقدت الغذاء وإذا انقطع منها الغذاء ذهبت حياة وانعدمت وظائف السائل المهمة في الجسم، ومنها أنّ جميع الخلايا تستمد الأوكسجين اللازم لبقائها من الماء لأنّ الأوكسجين لا يمكن أن يصل إلى الأجزاء الداخلية من الخلايا إلّا إذا ذاب في الماء، أو السوائل التي تمتصها الخلية، ومنها أنّ الإنسان لا يستطيع أن يستغني عن شرب الماء أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة لأنّ السموم الناتجة عن عمليات الهضم والتحليلات داخل البدن لا يمكن طردها إلى الخارج إلاّ بامتزاجها مع الماء الخارج بالعرق أو البول وما إلى ذلك.

وغيرها من المنافع الكثيرة التي لا تُعرف إلاّ إذا مسّت الحاجة إلى معرفتها، ولذا اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون الماء متوفّراً كثيراً على سطح الأرض حتى صار يشغل ثلاثة أرباع سطح الأرض.

وفي توزيع المياه على سطح الأرض، عنه ﷺ: ومن تدبير الحكيم جلّ وعلا في خلقة الأرض أن مهبّ الشمال أرفع من مهبّ الجنوب، فَلِم جعل الله عزّ وجلّ كذلك إلاّ لتنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها ثم تفيض آخر ذلك إلى البحر، فكما يرفع أحد جانبي السطح ويخفض الآخر لينحدر الماء منه ولا يقوم عليه كذلك جعل مهبّ الشمال أرفع من مهبّ الجنوب لهذه العلّة بعينها، ولولا

ذلك لبقي الماء متحيراً على وجه الأرض فكان يمتنع الناس من أعمالها وتقطع الطرق والمسالك، ثم الماء لولا كثرته وتدفقه في العيون والأنهار والأودية لضاق عمّا يحتاج إليه الناس لشربهم وشرب أنعامهم ومواشيهم وسقي زروعهم وأشجارهم وأصناف غلاّتهم وشرب ما يرده من الوحوش والطير والسباع، وتتقلّب فيه الحيتان ودواب الماء[1].

فإن شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار وقلت: ما الإرب فيه؟ فاعلم أنّه مكتنف ومضطرب ما لا يحصى من أصناف السمك ودوابّ البحر ومعدن اللؤلؤ والياقوت والعنبر وأصناف شتّى تستخرج من البحر وفي سواحله منابت العود اليلنجوج وضروب من الطيب والعقاقير، ثمّ هو بعد مركب الناس ومحمل لهذه التجارات الّتي تجلب من البلدان البعيدة، كمثل ما يجلب من الصين إلى العراق، ومن العراق إلى العراق، فإنّ هذه التجارات لو لم يكن لها محمل إلاّ على الظهر لبارت وبقيت في بلدانها وأيدي أهلها، لأنّ أجر حملها كان يجاوز أثمانها فلا يتعرّض أحد لحملها، وكان يجتمع في ذلك أمران: أحدهما فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها، والآخر: انقطاع معاش من يحملها ويتعيّش بفضلها. وهكذا الهواء لولا كثرته وسعته لاختنق هذا الأنام من الدخان والبخار الّذي يتحيّر فيه ويعجز عمّا يحول إلى السحاب والضباب أوّلاً أوّلاً، وقد تقدّم من صفته ما فيه كفاية.

ومن فوائد الماء أيضاً: تطهير الأشياء من النجاسة الخبيثة فالماء يطهر كل شيء نجس حتى بعض الأعيان النجسة. كالإنسان الميت إذا كان مسلماً وغسل الغسل الشرعي الصحيح.

---

(١) بحار الأنوار.

والماء يطهر كل نجاسة ونريد بها: الخبث الذي أوجب الشارع على كل مسلم أن يتنزه عنه ويغسله عن البدن واللباس لكل فعل مشروط بالطهارة كالصلاة والطواف وغيرهما.

ونريد بالنجاسات: عدد من الأجسام المعينة قد حكمت الشريعة بأنها قذرة ونجسة من طبيعتها أي لم تكتسِبْ هذه النجاسة من الملاقاة لشيء آخر قذر كالمتنجسات.

فالماء المطلق هو الذي يزيل هذه النجاسة عن كل شيء وهذه تسمى النجاسة الظاهرية.

البحث الثامن

في الاستعمال الشرعي للماء وهو

المطلق والمضاف، والمطلق: هو الماء الخالي من القيد والذي يفهمه كل الناس وهو الذي يجري في الأنابيب إلى البيوت وغيرها ويشربه الإنسان والحيوان، ويحيا به الشجر والنبات أو فقل المطلق: هو الجوهر السائل المسبب لحياة الجسم النامي فيدخل فيه حياة كل ذي روح ونماء كل نام، ومن حيث الحكم:

هو الذي يرفع به الحدث الأكبر والأصغر، ويرفع به الخبث النجس لأنه طاهر ومطهر.

والماء المضاف: هو المطلق الذي أضيف له شيء آخر فغيره.

وأقسامه هي:

١ ـ ماء مطلق خالطه عصير جسم آخر فأخرجه عن وضعه الطبيعي وسلب منه اسم الماء كالشاي.

آياته في الأنهار

ذكر العلماء أنّ الأمطار والثلوج إذا وقعت على الجبال تنصب إلى مغارات بها، وتبقى مخزونة فيها في الشتاء، فإن كان في أسافل الجبال منافذ ينزل الماء من تلك المنافذ فيحصل منها الجداول وينضمّ بعضها إلى بعض فتحدث منها الأنهار والغدران والأودية، فإن كانت المغارات، التي هي الخزانات لهذه المياه في أعالي الجبل استمرّ جريانه أبداً من غير انقطاع لأنّ المياه تنصب إلى سفح الجبل ولا تنقطع لاتّصال الإمداد من الأمطار والثلوج، وإن انقطعت لانقطاع المدد بقيت المياه واقفة، كما نرى في الأودية من الغدران التي تجري في وقت وتنقطع في وقت.

وقال بطليموس: إنّ بهذا الربع المسكون مائة نهر، وقيل: مائتان وتسعون نهراً طول كلّ نهر منها خمسون فرسخاً إلى ألف فرسخ، فمنها ما يجري من المشرق إلى المغرب، ومنها ما يجري بالعكس، ومنها ما يجري من الشمال إلى الجنوب، ومنها ما يجري بالعكس، وكلّها تبتدىء من الجبال وتصبّ في البحار بعد انتفاع العالم بها، وفي ضمن ممرّها تتصوّر بطائح وبحيرات، فإذا صبّت في البحر المالح وأشرقت الشمس على البحار فتصعد إلى الجو بخاراً ثم ينعقد غيوماً وأندية، كالدولاب الدائر، فلا يزال الأمر كذلك إلى أن يبلغ الكتاب أجله، فسبحان المدبّر لمملكته ببدائع حكمته.

وقد جعل الله الخواص المحمودة في بعضها، والبعض منها ذمّها ولعنها وذلك لعلل قدَّرها الله تعالى في سابق أمره منها نوحاً عليه السلام لما كان أيام الطوفان دعا المياه كلها فأجابته إلا ماء الكبريت والماء المرّ فلعنهما[1].

وقالت الحكماء في سبب انفجار العيون من الأرض: إنّ البخار إذا احتبس في داخل من الأرض لما فيها من ثقب وفرج يميل إلى جهة فيبرد بها فينقلب مياهاً مختلطة بأجزاء بخاريّة، فإذا كثر لوصول مدد متدافع إليه بحيث لا تسعه الأرض أوجب انشقاق الأرض وانفجرت منها العيون، أمّا الجارية على الولاء فهي إمّا لدفع تاليها سابقها، أو لانجذابه إليه لضرورة عدم الخلاء بأن يكون البخار الّذي انصب ماء وفاض إلى وجه الأرض ينجذب إلى مكانه ما يقوم مقامه لئلا يكون خلاء فينقلب هو أيضاً ماءً ويفيض وهكذا استتبع كلّ جزء منه جزءاً آخر. وأمّا العيون الراكدة فهي حادثة من أبخرة لم تبلغ من كثرة موادّها وقوّتها أن يحصل منها معاونة شديدة، أو يدفع اللاحق السابق. وأمّا مياه القنى[2] والآبار فهي متولّدة من أبخرة ناقصة القوّة عن أن تشقّ الأرض، فإذا أُزيل ثقل الأرض عن وجهها صادفت منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة، فإن لم يجعل هناك مسيل فهو البئر، وإن جعل فهو القناة، ونسبة القنى إلى الآبار كنسبة العيون السيَّالة إلى الراكدة، ويمكن أن تكون هذه المياه متولّدة ـ كما قاله أبو البركات البغداديّ ـ من أجزاء مائيّة متولّدة من أجزاء متفرّقة في ثقب أعماق الأرض ومنافذها إذا اجتمعت، بل هذا أولى لكون مياه العيون والآبار والقنوات تزيد بزيادة الثلوج والأمطار. قال الشيخ في النجاة: وهذه

---

(١) وسائل الشيعة.

(٢) القنى والقناء ـ بكسر القاف فيهما ـ: جمع القناة، وهي ما يحفر من الأرض لجري فيها الماء.

الأبخرة إذا انبعثت عيوناً أمدّت البحار بصبّ الأنهار إليها، ثمّ ارتفع من البحار والبطائح والأنهار وبطون الجبال خاصّة أبخرة أُخرى ثمّ قطرت ثانياً إليها فقامت بدل ما يتحلّل منها على الدور دائماً.

وقال البيضاوي: خروج الثمار بقدرة الله ومشيئته ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سبباً في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان بأن أجرى عادته بإفاضة صورها وكيفيّاتها على المادة الممزوجة منهما أو أبدع في الماء قوّة فاعلة وفي الأرض قوّة قابلة تتولّد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب ومواد، كما أبدع نفوس الأسباب والموادّ ولكن له في إنشائها مدرجاً من حال إلى حال صنعاً وحكماً يجدد فيها لأولي الأبصار عبراً وسكوناً إلى عظم قدرته ليس في إيجادها دفعة.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿...لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]: يتفكرون فيها، وينظرون إليها بعيون عقولهم ثم قال: والكلام المجمل في دلالة هذه الآيات على وجود الإله ووحدته أنها أمور ممكنة وجد كل منها بوجه مخصوص من وجوه محتملة وأنحاء مختلفة. إذ كان من الجائز مثلاً أن لا تتحرَّك السماوات أو بعضها كالأرض وأن تتحرَّك بعكس حركتها، وبحيث تصير المنطقة دائرة مارَّة بالقطبين وأن لا يكون لها أوج وحضيض أصلاً أو على هذا الوجه لبساطتها وتساوي أجزائها فلا بد لها من موجد قادر حكيم يوجدها على ما تستدعيه حكمته، وتقتضيه مشيئته متعالياً عن معارضة غيره إذ لو كان معه إلَه يقدر على ما يقدر عليه (الآخر) فإن توافقت إرادتهما فالفعل إن كان لهما لزم اجتماع مؤثّرين على أثر واحد وإن كان لأحدهما لزم ترجيح الفاعل بلا مرجّح وعجز الآخر النافي لإلهيّته وإن اختلفت لزم التمانع والتطارد كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

آيات أربع

أقوال الفلاسفة في الآيات الأربع،

اعلم أنَّ الفلاسفة أثبتوا الآيات الأربع: النار، الهواء، الماء والأرض وقالوا: النار حار يابس. والهواء حارّ رطب والماء بارد رطب والأرض بارد يابس وكرة النار عندهم ملاصقة لكرة فلك القمر متحرّكة بحركتها بالتبع لها كرة واحدة، وتحتها الهواء وله أربع طبقات:

الأولى: ما يمتزج منه مع النار وهي الّتي تتلاشى فيها الأدخنة المرتفعة من السفل، وتتكوّن فيها الكواكب ذوات الأذناب وما يشبهها من النيازك والأعمدة وغيرها.

الثانية: الهواء الصرفة أو القريب من الصرافة، وتضمحلّ فيها الأدخنة اللطيفة، ويحصل منها الشهب.

الثالثة: الهواء الباردة بما يخالطه من الأبخرة الباقي على برودته لعدم وصول أثر الشعاع المنعكس من وجه الأرض إليه.

الرابعة: الهواء الكثيف المجاور للأرض والماء غير الباقي على صرافة برودته المكتسبة لمكان الأشعّة المنعكسة.

ثمّ كرة الماء، وهي غير تامّة، محيطة بثلاثة أرباع الأرض تقريباً. ثمّ الأرض وهي كرة مصمتة وقد أحاط بقريب من ثلاثة أرباعها الماء،

فالماء على هيئة كرة مجوّفة غير تامّة قد قطع بعض جوانبها وملئت من الأرض. فالآن مجموع الماء والأرض بمنزلة كرة واحدة تامّة الهيئة. وللماء طبقة واحدة هي البحر المحيط بالأرض، ولم يبق على صرافته لنفوذ آثار الأشعّة فيه ومخالطته بالأجزاء الأرضيّة وليس له ما يميّز بين أبعاضه بحيث تختلف في الأحكام اختلافاً يعتدّ به، والأرض ساكنة في الوسط بحيث ينطبق مركز حجمها على مركز العالم هذا هو المشهور بينهم وزعم بعض الأوائل منهم أنّ الأرض متحرّكة حركة وضعيّة دوريّة من المغرب إلى المشرق وأنّ شروق الكواكب وغروبها بسبب ذلك لا بسبب حركة الفلك وهذا قول ضعيف متروك عندهم.

وللأرض ثلاث طبقات:

الأولى: الأرض الصرفة المحيطة بالمركز.

الثانية: الطبقة الطينيّة وهي المجاورة للماء.

الثالثة: الطبقة المنكشفة من الماء، وهي الّتي تحتبس فيها الأبخرة والأدخنة، وتتولّد فيها المعادن والنباتات والحيوانات، وتنقسم إلى البراري والجبال، وهي المعروفة بالربع المسكون المنقسم إلى الأقاليم السبعة. وأمّا السبب في انكشافها فقد قيل: هو انجذاب الماء إلى ناحية الجنوب لغلبة الحرارة فيها بسبب قرب الشمس، لكون حضيض الشمس في البروج الجنوبيّة، وكونها في القرب أشدّ شعاعاً من كونها في البعد، وكون الحرارة اللازمة من الشعاع الأشدّ أقوى لا محالة، وشأن الحرارة جذب الرطوبات، وعلى هذا يمكن أن تنتقل العمارة من الشمال إلى الجنوب ثمّ من الجنوب إلى الشمال وهكذا بسبب انتقال الأوج من أحدهما إلى الآخر، وتكون العمارة دائماً [إلى] حيث أوج الشمس لئلاّ يجتمع في الصيف قرب الشمس من سمت الرأس وقربها من الأرض فتبلغ الحرارة إلى حدّ النكاية والإحراق، ولا

البعدان في الشتاء فيبلغ البرد إلى حدّ النكاية والتفجيع، وقيل: سببه كثرة الوهاد والأغوار في ناحية الشمال باتّفاق من الأسباب الخارجة، فتنحدر المياه إليها بالطبع وتبقى المواضع المرتفعة مكشوفة، وقيل: ليس له سبب معلوم غير العناية الإلهيّة ليصير مستقرّاً للإنسان وغيره من الحيوانات ومادّة لما يحتاج إليه من المعادن والنباتات.

ثمّ إنّهم يقولون بأنّ كلّاً من تلك العناصر الأربعة قابل للكون والفساد أي ينقلب بعضها إلى بعض بلا توسّط أو بتوسّط واحد أو أكثر، كالماء ينقلب حجر المرمر، فإنّه يحصل من مياه صافية جارية مشوبة تجتمع في وهاد تتحجّر حجراً قريب الحجم من حجمها في زمان قليل كما ينقل من بعض محالّ مراغة من بلاد أذربيجان، وقيل: الحقّ أنّ ذلك إنّما هو بخاصيّة في بعض المواضع من الأرض خلق الله فيها قوّة معدنيّة شديدة التأثير في التحجير إذا صادفتها المياه تحجّرت، وربّما كانت في باطن الأرض فظهرت بالزلازل. ومن هذا القبيل ما نقل من انقلاب بعض الناس حجراً، وقد شوهدت في بعض البلاد أشباح حجريّة على هيئة أشخاص إنسيّة من رجال ونساء وولدان لا يعوزها من التشكيل والتخطيط شيء، وأشخاص بهيميّة وسائر أُمور تتعلّق بالإنسان على حالات مخصوصة وأوضاع يغلب على الظنّ أنّها كانت قوالب إنسيّة وما يتعلّق بها، فلا يبعد ظهور [مثل] هذه القوّة على قوم غضب الله عليهم.

وقالوا: الحجر ينحلّ بالحيل الإكسيريّة ماءً سيّالاً، والهواء ينقلب ماءً كما يشاهد في قلل الجبال وغيرها أنّ الهواء بسبب البرد يغلظ ويصير سحاباً متقاطراً وكما يشاهد من ركوب القطرات على الطاس المكبوب على الجمد، والماء ينقلب هواءً بالحرّ الحاصل من تسخين الشمس أو النار كما يشاهد من البخار الصاعد من الماء المسخّن. فإنّ البخار أجزاء هوائيّة متكوّنة من الماء مستصحبة لأجزاء مائيّة لطيفة

مختلطة بها، والهواء ينقلب ناراً كما في كور الحدّادين إذا أُلحّ النفخ عليها وسدّ الطرق الّتي يدخل منها الهواء الجديد يحدث فيه نار من انقلاب الهواء إليها، ومن هذا القبيل الهواء الحارّ الّذي منه السموم المحرقة، والنار أيضاً تنقلب هواءً كما يشاهد في شعلة المصباح، فإنّها لو بقيت على الناريّة لتحرّكت إلى مكانها الطبيعيّ على خطّ مستقيم فاحترقت ما حاذاها وليس كذلك.

ثمّ إنّهم قالوا: إذا تصغّرت تلك العناصر وامتزجت وتماسّت وفعل بعضها في بعض بقواها المتضادّة تحصّل منها كيفيّة متوسّطة هي المزاج، والتركيب قد يكون تامّاً يحصل به مزاج ويستعدّ بذلك لإفاضة صورة نوعيّة تحفظ التركيب زماناً طويلاً، وقد يكون ناقصاً لا يبقى مدّة مديدة بل تنحلّ بأدنى سبب مثل كائنات الجوّ.

قال صاحب المقاصد: المركّبات الّتي لا مزاج لها ثلاثة أنواع، لأنّ حدوثها إمّا فوق الأرض أعني في الهواء، وإمّا على وجه الأرض، وإمّا في الأرض. فالنوع الأوّل منه ما يتكوّن من البخار، ومنه ما يتكوّن من الدخان وكلاهما بالحرارة فإنّها تحلّل من الرطب أجزاءً هوائيّة ومائيّة وهي البخار، ومن اليابس أجزاء أرضيّة تخالطها أجزاء ناريّة وقلّما يخلو عن هوائيّة وهي الدخان، فالبخار المتصاعد قد يلطف بتحليل الحرارة أجزاؤه المائيّة فيصير هواءً، وقد يبلغ الطبقة الزمهريريّة فيتكاثف فيجتمع سحاباً ويتقاطر قطراً إن لم يكن البرد شديداً، وإن أصابه برد شديد يجمد السحاب قبل تشكّله بشكل القطرات نزل ثلجاً، أو بعد تشكّله بذلك نزل برداً صغيراً مستديراً إن كان من سحاب بعيد لذوبان الزوايا بالحركة والاصطكاك، وإلاّ فكبيراً غير مستدير في الغالب، وإنّما يكون البرد في هواء ربيعيّ أو خريفيّ لفرط التحليل في الصيفيّ والجمود في الشتويّ، وقد لا يبلغ البخار المتصاعد الطبقة الزمهريريّة، فإن كثر صار ضباباً، وإن قلّ وتكاثف

الليل فإن انجمد نزل صقيعاً، وإلاّ فطلاًّ، فنسبة الصقيع إلى الطلّ نسبة الثلج إلى المطر. وقد يكون السحاب الماطر من بخار كثير تكاثف بالبرد من غير أن يتصعَّد إلى الزمهريريّة لمانع مثل هبوب الرياح المانعة للأبخرة من التصاعد، أو الضاغطة إيّاها إلى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدّام الريح وثقل الجزء المتقدّم وبطء حركته.

وقد يكون مع البخار المتصاعد دخان، فإذا ارتفعا معاً إلى الهواء البارد وقد انعقد البخار سحاباً واحتبس الدخان فيه فإن بقي الدخان على حرارته قصد الصعود، وإن برد قصد النزول، وكيف كان فإنّه يمزّق السحاب تمزيقاً عنيفاً فيحدث من تمزيقه ومصاكّته صوت هو الرعد، وناريّة لطيفة هي البرق، أو كثيفة هي الصاعقة.

وقد يشتعل الدخان الغليظ بالوصول إلى كرة النار كما يشاهد عند وصول دخان سراج منطفىء إلى سراج مشتعل فيرى فيه الاشتعال فيرى كأنّه كوكب انقضّ وهو الشهاب، وقد يكون لغلظه لا يشتعل بل يحترق ويدوم فيه الاحتراق فيبقى على هيئة ذؤابة أو ذنب أو حيّة أو حيوان له قرون، وربّما يقف تحت كوكب ويدور مع النار بدوران الفلك إيّاها، وربما تظهر فيه علامات هائلة حمر وسود بحسب زيادة غلظ الدخان، وإذا لم ينقطع اتّصال الدخان من الأرض ونزل اشتعاله إلى الأرض يرى كأنّ تنّيناً ينزل من السماء إلى الأرض وهو الحريق.

وقال في المواقف: وأمّا الدخان فربما يخالط السحاب فيحرقه، إمّا في صعوده بالطبع أو عند هبوطه للتكاثف بالبرد، فيحدث من خرقه له ومصاكّته إيّاه صوت هو الرعد، وقد يشتعل بقوّة التسخين الحاصل من الحركة والمصاكّة فلطيفه ينطفىء سريعاً وهو البرق، وكثيفه لا ينطفىء حتّى يصل إلى الأرض وهي الصاعقة.

وقال شارحه: وإذا وصل إليها فربما صار لطيفاً ينفذ في

المتخلخل ولا يحرقه ويذيب الأجسام المندمجة، فيذيب الذهب والفضّة في الصرّة مثلاً ولا يحرقها إلاّ ما احترق من الذوب، وقد أخبرنا أهل التواتر بأنّ الصاعقة وقعت بشيراز على قبّة الشيخ الكبير أبي عبدالله بن حفيف، فأذاب قنديلاً فيها ولم يحرق شيئاً منها. وربما كان كثيفاً غليظاً جدّاً فيحرق كلّ شيء أصابه، وكثيراً ما تقع على الجبل فتدكّه دكّاً. ويحكى أنّ صبيّاً كان في صحراء فأصاب ساقيه صاعقة فسقط رجلاه ولم يخرج منه دم لحصول الكيّ بحرارتها.

وقال الرازيّ في المباحث المشرقيّة: إذا ارتفع بخار دخانيّ لزج دهنيّ وتصاعد حتّى وصل إلى حيّز النار من غير أن ينقطع اتّصاله عن الأرض اشتعلت النار فيه نازلة، فيرى كأنّ تنّيناً ينزل من السماء إلى الأرض، فإذا وصلت إلى الأرض احترقت تلك المادّة بالكلّيّة وما يقرب منها، وسبيل ذلك سبيل السراج المنطفىء إذا وضع تحت السراج المشتعل فاتّصل الدخان من الأوّل إلى الثاني فانحدر اللهب إلى فتيله.

وقال في شرح المواقف في سبب الهالة والقوس: وقد تحدث في الجوّ أجزاء رطبة رشّيّة صقيلة كدائرة تحيط تلك الأجزاء بغيم رقيق لطيف لا تحجب ما وراءه عن الأبصار، فينعكس منها أي من تلك الأجزاء الواقعة على ذلك الوضع ضوء البصر لصقالتها إلى القمر، فيرى في تلك الأجزاء ضوؤه دون شكله. فإنّ الصقيل الّذي ينعكس منه شعاع البصر إذا صغر جدّاً بحيث لا ينقسم في الحسّ أدّى[1] الضوء واللون دون الشكل والتخطيط كما في المرآة الصغيرة. وتلك الأجزاء الرشّيّة مرايا صغار متراصّة على هيئة الدائرة، فيرى جميع تلك الدائرة كأنّها منوّرة بنور ضعيف وتسمّى الهالة، وإنّا لا نرى الجزء الأوّل الّذي يقابل القمر من ذلك الغيم، لأنّ قوّة الشعاع تخفي حجم السحاب

(١) في المخطوطة: أرى.

الذي لا يستره، فلا يرى فيه خيال القمر، كيف والشيء إنّما يرى على الاستقامة نفسه لا شبحه بخلاف أجزائه الّتي لا تقابله فإنّها تؤدّي خيال ضوئه كما عرفت. قيل: وأكثر ما تتولّد الهالة عند عدم الريح، فإن تمزّقت من جميع الجهات دلّت على الصحو. وإن ثخن السحاب حتّى بطلت دلّت على المطر، لأنّ الأجزاء المائيّة قد كثرت، وإن انخرقت من جهة دلّت على ريح تأتي من تلك الجهة، و[إن] اتّفق أن توجد سحابتان على الصفة المذكورة إحداهما تحت الأخرى حدثت هناك هالة تحت هالة، وتكون التحتانيّة أعظم لأنّها أقرب إلينا. وزعم بعضهم أنّه رأى سبع هالات معاً.

واعلم أنّ هالة الشمس وتسمّى «الطُفاوة» نادرة جدّاً، لأنّ الشمس تحلّل السحب الرقيقة، ومع ذلك فقد زعم ابن سينا أنّه رأى حول الشمس هالة تامّة في ألوان قوس قزح، ورأى بعد ذلك هالة فيها قوسيّة قليلة، وإنّما تنفرج هالة الشمس إذا كثف السحاب وأظلم. وحكى أيضاً أنّه رأى حول القمر هالة قوسيّة اللون، لأنّ السحاب كان غليظاً فشوّش في أداء الضوء وعرض ما يعرض للقوس، وقد يحدث مثل ذلك الّذي ذكرناه من الأجزاء الرشيّة الصقيلة على هيئة الاستدارة في جهة خلاف الشمس وهي قوس قزح.

وتفصيله: أنّه إذا وجد في خلاف جهة الشمس أجزاء رشيّة لطيفة صافية على تلك الهيئة وكان وراءها جسم كثيف إمّا جبل أو سحاب كدر وكانت الشمس قريبة من الأفق فإذا أدبر على الشمس ونظر إلى تلك الأجزاء انعكس شعاع البصر عنها إلى الشمس، ولمّا كانت صغيرة جدّاً لم يؤدّ الشكل بل اللون الّذي يكون مركّباً من ضوء الشمس في لون المرآة، وتختلف ألوانها بحسب اختلاف أجزاء السحاب في ألوانها، وبحسب ألوان ما وراءها من الجبال، وألوان ما ينعكس منها الضوء من الأجرام الكثيفة.

وفي المباحث المشرقيّة: زعم بعضهم أنّ السبب في حدوث أمثال هذه الحوادث اتّصالات فلكيّة وقوى روحانيّة اقتضت وجودها، وحينئذ لا تكون من قبيل الخيالات، وهو أن يرى صورة شيء [مع صورة شيء] آخر مظهر له كالمرآة، فيظنّ أنّ الصورة الأُولى حاصلة في الشيء الثاني ولا يكون فيه بحسب نفس الأمر.

قال الإمام: هذا الّذي ذكره لا ينافي ما ذكرناه، فإنّ الصحّة والمرض قد يستندان إلى أسباب عنصريّة تارة، وإلى اتّصالات فلكيّة وتأثيرات نفسانيّة أُخرى، لكن هذا الوجه يؤيّده أنّ أصحاب التجارب شهدوا بأنّ أمثال هذه الحوادث في الجوّ تدلّ على حدوث حوادث في الأرض، فلولا أنّها موجودات مستندة إلى تلك الاتّصالات والأوضاع لم يستمرّ هذا الاستدلال (انتهى).

وقال بعضهم: إنّ الله سبحانه إذا إراد أن يلطف بقوم أو يغضب عليهم بإحداث حدث في الأرض وتكوين كائن من إمطار مطر أو إرسال ريح وما أشبههما أمر الملائكة السماويّة خصوصاً الملكين الموكّلين بالشمس أن يفعلوا في الأرض بتوسّط الملائكة الموكّلين بها، أفاعيل الملائكة أن يحرّكوا شيئاً منها ويخلطوه حتّى يحصل من اختلاطه ما يشاء، فإنّ كلّ ما يتكوّن في الجوّ والأرض إنّما يحدث من اختلاط العناصر والأرضيّات، فأوّل ما يحدث من ذلك قبل أن يمتزج امتزاجاً تامّاً يحصل بسبب الكيفيّة الوحدانيّة المسمّاة بالمزاج هو البخار والدخان، وذلك لأنّ الملائكة إذا هيّجوا بإسخان السماويّات الحرارة بخّروا من الأجسام المائيّة ودخّنوا من الأجسام الأرضيّة، وأثاروا أجزاء إمّا هوائيّة ومائيّة مختلطين وهو البخار، وإمّا ناريّة وأرضيّة كذلك وهو الدخان، ثمّ حصل بتوسّطهما موجودات شتّى غير تامّة المزاج من الغيم والمطر والثلج والبرد والضباب والطلّ والصقيع والرعد والبرق والصاعقة والقوس والهالات والشهب والرياح والزلازل وانفجارات

العيون والقنوات والآبار والنزوز، كلّ ذلك بإذن الله سبحانه وتوسّط ملائكته، كما قال سبحانه إشارة إلى بعض ذلك ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣] ـ الآية ـ، والتأمّل في بناء الحمّام وعوارضه نعم العون على إدراك ماهيّة الجوّ وكثير من حوادثه. بل التدبّر في ما يرتفع من أرض معدة الإنسان إلى زمهرير دماغه ثمّ ينزل منه في ثقب وجهه يعين على ذلك كسائر الأمور الأنفسيّة على الأحكام الآفاقيّة (انتهى).

وقال بعض المحقّقين في تحقيق ألوان القوس: توضيح المقام يستدعي مقدّمتين:

الأولى: إنّ سائر الألوان المتوسّطة بين الأسود والأبيض إنّما تحدث عن اختلاط هذين اللونين، وبالجملة الأبيض إذا رؤي بتوسّط الأسود أو بمخالطة الأسود حدثت عن ذلك الألوان الأُخر، فإن كان النيّر هو الغالب رؤي الأحمر وإن لم يكن غالباً رؤي الكراثيّ والأرجوانيّ، وغلبته في الكراثيّ أكثر وفي الأرجوانيّ أقلّ.

الثانية: إنّ اللون الأسود هو بمنزلة عدم الإبصار، لأنّا إذا لم نر الشمس والمضيء ظننا أنّا نرى شيئاً أسود، فالمكان من الغمام الّذي يكون الأبيض فيه غالباً على الأسود نراه أحمر، والمكان الّذي يكون فيه الأسود غالباً نراه أرجوانيّاً، والمكان الّذي فيه الأسود بين الغالب والمغلوب نراه كراثيّاً.

فإذا تمهّد هذا فنقول: إذا رأى البصر النيّر بتوسّط الغمام على تلك الشرائط رأى القوس على الأكثر ذات ألوان ثلاثة:

الأوّل: منها وهو الدور الخارج الّذي يلي السماء أحمر لقلّة سواده وكثرة بياضه، والثاني وهو الّذي دونه كراثيّ لتوسّطه بين الأوّل والثالث في قلّة السواد وكثرته وقلّة البياض وكثرته، والدور الثالث ممّا يلي الأرض أرجوانيّ لكثرة سواده وقلّة بياضه، فأمّا الدور الأصفر

الّذي قد يرى أحياناً بين الدور الأحمر والكراثيّ فإنّه ليس يحدث بنحو الانعكاس فإنّما يرى بمجاورة الأحمر اللون الكراثيّ، والعلّة في ذلك أنّ الأبيض إذا وقع على جنب الأسود رؤي أكثر بياضاً، ولمّا كان الدور الأحمر فيه بياضاً والكراثيّ مائلاً إلى السواد رؤي طرف الأحمر لقربه من الكراثيّ أكثر بياضاً من الأحمر [وما هو أكثر بياضاً من الأحمر] هو الأصفر، فلهذا يرى طرف الدور الأحمر القريب من الكراثيّ أصفر. وقد يظهر أحياناً قوسان معاً كلّ واحدة منهما ذات ثلاثة ألوان على النحو الّذي ذكرناه في الواحدة، لكن وضع ألوان القوس الخارجة بالعكس من الداخلة، يعني دورها الخارج الّذي يلي السماء أرجوانيّ، والّذي يليه كراثيّ، والّذي يتلو هذا أحمر، ولا يبعد أن يكون أحد القوسين عكساً للآخر.

وقال الشيخ المجلس: هذه الأقوال كلّها مخالفة لما ورد في لسان الشريعة، ولم يكلّف الإنسان الخوض فيها والتفكّر في حقائقها، ولو كان ممّا ينفع المكلّف لم يهمل صاحب الشرع بيانها، وقد ورد في كثير من الأخبار النهي عن تكلّف ما لم يؤمر المرء بعلمه. قال صاحب المواقف وشارحه بعد إيراد هذه المباحث: ما ذكرناه كلّه آراء الفلاسفة حيث نفوا القادر المختار، فأحالوا اختلاف الأجسام بالصور إلى استعداد في موادّها، وأحالوا اختلاف آثارها إلى صورها المتباينة وأمزجتها المتخالفة، وكلّ ذلك إلى حركات الأفلاك وأوضاعها. وأمّا المتكلّمون فقالوا: الأجسام متجانسة بالذات لتركّبها من الجواهر الفردة، وأنّها متماثلة لا اختلاف فيها، وإنّما يعرض الاختلاف للأجسام لا في ذاتها بل بما يحصل فيها من الأعراض بفعل القادر المختار (انتهى).

ثمّ اعلم أنّ ما يشاهد من انعقاد السحب في قُلل الجبال وتقاطرها مع أنّ الواقف على قلّة الجبل لا يرى سحاباً ولا مطراً ولا

ماءً، والّذين تحت السحاب ينزل عليهم المطر لا ينافي الظواهر الدالّة على أنّ المطر من السماء بوجهين:

أوّلهما: إنَّه يمكن أن ينزل عليهم المطر من السماء إلى السحاب رشحاً ضعيفاً لا يحسّ به أو قبل انعقاد السحاب على الوضع الّذي يرتفع منه.

وثانيهما: أن نقول بحصول الوجهين معاً وانقسام المطر إلى القسمين، فمنه ما ينزل من السماء، ومنه ما يرتفع من بخار البحار والأراضي النديّة. ويؤيّده ما رواه شيخنا البهائيّ ـ قدّس الله روحه ـ في كتاب «مفتاح الفلاح» حيث قال: نقل الخاصّ والعامّ أنّ المأمون ركب يوماً للصيد فمرّ ببعض أزقّة بغداد على جماعة من الأطفال، فخافوا وهربوا وتفرّقوا، وبقي واحد منهم في مكانه، فتقدّم إليه المأمون وقال له: كيف لم تهرب كما هرب أصحابك؟ فقال: لأنّ الطريق ليس ضيّقاً فيتّسع بذهابي، ولا بي عندك ذنب فأخافك لأجله، فلأيّ شيء أهرب؟! فأعجب كلامه المأمون فلمّا خرج إلى خارج بغداد أرسل صقره فارتفع في الهواء ولم يسقط على وجه الأرض حتّى رجع وفي منقاره سمكة صغيرة، فتعجّب المأمون من ذلك، فلمّا رجع تفرّق الأطفال وهربوا إلاّ ذلك الطفل فإنّه بقي في مكانه كما في المرّة الأُولى، فتقدّم إليه المأمون وهو ضامّ كفّه على السمكة وقال له: قل أيّ شيء في يدي؟ فقال: إنّ الغيم حين أخذ من ماء البحر تداخله سمك صغار فتسقط منه فيصطادها الملوك فيمتحنون بها سلالة النبوة فأدهش ذلك المأمون فقال له: من أنت؟ قال: أنا محمد بن علي الرضا. (وكان ذلك بعد واقعة الرضا عليه السلام وكان عمره عليه السلام في ذلك الوقت إحدى عشرة سنة وقيل عشر) فنزل المأمون عن فرسه. وقبَّل رأسه وتذلَّل له ثم زوَّجه بابنته.

آياته في الأرض

وفيها أبحاث:

البحث الأول

في تعريفها وما يتفرع عليه

إن الأرض كُرة صغيرة سابحة في فضاء مطلق لا تستند إلى شيء تمسكها يدُ الله عز وجل، وتلفها قشرة من صخر، وتلف أكثر الصخر طبقة من ماء، وتلف الصخر والماء جميعاً طبقة من الهواء، وهي طبقة من غاز سميكة لها أعماق كالبحر.

والإنسان والحيوان والنبات يعيشون في هذه الأعماق هانئين بالذي فيها والأرض أيضاً: كرة معلّقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار وهي تسبح حول الشمس مرة واحدة في كل عام، فيكون في ذلك تتابع الفصول الأربعة الذي يؤدي بدوره إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا ويزيد من اختلاف أنواع النبات أكثر مما لو كانت الأرض ساكنة.

وحركة الأرض هي من الأسرار التي كشف عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣] تأمل كيف تشير الآية إلى حركة الأرض إشارة جميلة لم تتضح إلا بعد قرون عديدة، وتأمل

كيف تستعير للأرض لفظ المهد الذي يعمل للرضيع يهتزُّ بنعومة لينام فيه مستريحاً هادئاً؟ وكذلك الأرض مهد للبشر، وملائمة لهم من جهة حركتها الوضعية، والإنتقالية، وكما أن تحرك المهد لغاية تربية الطفل، واستراحته فكذلك الأرض، فإن حركتها اليومية والسنوية لغاية تربية الإنسان بل لتربية جميع ما عليها من الحيوان والنبات والجماد، والآية الكريمة تشير إلى حركة الأرض إشارة جميلة، ولم تصرح بها، لأنها نزلت في زمان أجمعت عقول البشرية فيه على سكون الأرض حتى إنه كان يعدُّ من الضروريات التي لا تقبل الشك.

والأرض أيضاً: هي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الأرضية، وتربتُها تحتوي على العناصر التي يمتصها النبات، ويمثلها ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام يفتقر إليها الحيوان. ويوجد كثير من المعادن قريباً من سطح الأرض مما هيَّأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة ونشأة كثير من الصناعات والفنون وعلى ذلك فإن الأرض مهيَّأة على أحسن صورة للحياة. ولا شك أن هذا من تيسير حكيم خبير، وليس من المعقول أن يكون مجرّد مصادفة أو خبط عشواء كما ذهب إليه الملحدون خذلهم الله تعالى.

البحث الثاني

في الكلام عن بعض المعجزات من الأرض

وتكون على ثلاثة أقسام:

١ ـ قال العلماء: لو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر أو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجويّ والمائي اللذين يحيطان بها ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حدَّ الموت، أما لو كان قُطر الأرض ضعف قطرها الحالي لتضاعفت

مساحة سطحها أربعة أضعاف وأصبحت جاذبيَّتُها للأجسام ضعف ما هي عليه، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي، وزاد الضغط الجويّ من كيلوغرام واحد إلى كيلوغرامين على السنتمتر المربع، ويُؤثِّر كل ذلك أبلغ الأثر في الحياة على سطح الأرض فتتّسع مساحة المناطق الباردة اتّساعاً كبيراً وتنقص مساحة الأراضي الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً، وبذلك تعيش الجماعات الإنسانية منفصلة أو في أماكن متنائية فتزداد العزلة بينها، ويتعذر السفر والاتصال، بل قد يصير ضرباً من ضروب الخيال.

٢ ـ ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها (١٥٠) ضعفاً، ولنقص ارتفاع الغلاف الجويّ إلى أربعة أميال، ولأصبح تبخّر الماء مستحيلاً، ولارتفع الضغط الجوّي إلى ما يزيد على (١٥٠) كيلوغراماً على السنتيمتر المربع، ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاً إلى (١٥٠) رطلاً، ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار في حجم ابن عرس أو السنجاب ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

٣ ـ ولو أُزيحَتْ الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كميَّةُ الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميَّتها الحالية، وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتجمَّدت الكائنات الحية على سطح الأرض. ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال، ولو تضاعفت سرعتُها المدارية حول الشمس، لآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي إذا كانت هنالك فصول مطلقاً، ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها تُهَيِّىء للإنسان أسباب الحياة والإستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا.

البحث الثالث

فيما يخص الأرض وفيه فروع

الأول: قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرَّحمٰن: ١٠]:

ومعناها: إن الله تعالى جعل الأرض صالحة لحياة المخلوقين الذين أوجدهم ليعيشوا على تلك الأرض و(الأنام) جمع لا مفرد له ويعني: الخلائق وقد أزاح الله تعالى جميع الحوائل والموانع التي تعيق حياة الموجودات في كوكب الأرض بجعلها ممهدة لسكّانها وعمّارها كما يؤكده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ [النَّبَإ: ٦] فكوكب الأرض هو أحد الكواكب والأجرام التي لا تحصى عدداً في هذا الكون الرحب الفسيح ويؤلّف الماء ثلاثة أرباع سطحها حسب رأي العلماء قديماً وحديثاً، وقد كتب صاحب كتاب أنيس الأعلام المرحوم فخر الإسلام عن مساحات البحار قائلاً، إنَّ مساحة المياه التي تغطي سطح الأرض تصل إلى أربعة وأربعين مليون وسبعمائة وخمسين ألف ميل مربع، في حين تتفاوت أعماق المحيطات بحيث يبلغ أبعدها عمقاً ستة آلاف قامة (أي ما يعادل عشرة آلاف متر تقريباً).

الثاني: تأثير المد والجزر على الظروف الحياتية:

إن المراقب لحركة كوكب الأرض المذهلة ليعجب كيف أن المياه الموجودة على سطحه لا تغرق سطح الأرض، ومن يراقب حالة المد

والجزر البحري كيف تنتظم حركته بنظم معين فيدفع البحر الرمال والحصى إلى سواحل البحار وشطآنه فيصنع منها تلالاً وسدوداً وجدراناً، ليدرك بلا أدنى شك أنَّ ما يصنعه البحر لم يكن بوازع من وعي وحس وشعور أبداً، وإنما يتم ذلك من خلال الوحي التكويني الإلهي المستودع في البحر المنشىء لحالة المد والجزر، إذاً أحد أهم المهام التي تصدى لها المد والجزر البحري هو صنع الحواجز وإنشاء السدود المحيطة بسواحل البحار لكي تتمكن مخلوقات اليابسة من العيش بهدوء وهناء مضافاً إلى أن حالة المد والجزر تحول دون تعفّن ونتن ماء البحار في حالة سكونه وركوده مع كون وجود الأملاح في مياه البحار يعد عاملاً أساسياً آخر في عدم السماح للبحر بتعفّن مياهه، وبذلك سلمت الحياة على اليابسة من الزوال والعدم.

الثالث: الحركة المذهلة غير المحسوسة للكرة الأرضية:

جاء في كتاب دائرة المعارف من الحركة المحورية للأرض حول نفسها، أنَّ بعض المكتشفين يعتقدون بأن الأرض تتحرك بسرعة ثلاثين كيلومتر في الثانية الواحدة، أي ما يعادل ألفاً وثمانمائة كيلومتر في الدقيقة (وهي المسافة الممتدة من مدينة مشهد في أقصى الشمال الشرقي من إيران إلى مدينة شيراز في الجنوب الغربي مروراً بمدينة طهران العاصمة، حيث تقطع الأرض في حركتها المحورية هذه تلك المسافة الشاسعة بدقيقة واحدة من الزمن!)، وبذلك تكون المسافة التي تقطعها الأرض في هذه الحركة حوالى خمسمائة ألف فرسخ في اليوم الواحد ـ وطبقاً لهذه الحركة المذهلة، ووفقاً للمألوف فإنَّ المخلوقات الأرضية يفترض بها والحال تلك التزلزل والفناء، ولكن الواقع يحكي باللمس والإحساس أن أي مخلوق لم يشعر بهذه الحركة مطلقاً، ومثل هذه الحال، لربما وجد الكثيرون منا ما يشابهها (مع الفارق) في

ركوب البواخر العملاقة وشاهد بنفسه كيف أن الباخرة تمخر عباب البحر في حركتها السريعة نسبياً دون أن يشعر المسافرون وهم على متنها بحركتها، فهم ينعمون بالهدوء والسكينة، ويتحركون على ظهرها وبين أقبيتها ويأكلون وينامون بشكل عادي للغاية (باستثناء الحالات التي يهيج فيها البحر وتنشأ فيها الزوابع البحرية عندما تتلاطم أمواجه بعنف).

إذاً معنى قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: ١٠] هو أن الله (عز وجل) جعل في الأرض من مستلزمات الراحة والاستقرار ما يمكن المخلوقات من العيش بهناء وهدوء على سطحها، مع تزيين هذا الكوكب بالثمار والأشجار وغير ذلك من الأشياء التي ستأتي الآيات اللاحقة لتحدثنا به، لكي يلفت المولى (جل جلاله) نظر عباده إلى عظمة هذه الآيات الأرضية.

حركة الأرض في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨﴾ [النمل: ٨٨].

تتجلّى في هذه الآية عدّة نكات:

١ ـ إن الجبال التي تبدو ساكنة في نظركم، هي في حركة سريعة كسرعة حركة السحب (وينبغي الإلتفات إلى أن السرعة الفائقة تُشبَّهُ عادة بسرعة السحب إضافة إلى خلوّ الحركة السريعة للسحب من التزلزل والصخب).

٢ ـ إن هذا هو صنع الله الذي خلق كل شيء بميزان معين.

٣ ـ إنه عز وجل مطلع على أعمالكم.

والذي يتضح لنا من مفهوم الآية الكريمة أن حركة الجبال لا تنفصل عن حركة الأرض بل هما مترابطتان مع بعض كوحدة واحدة، فإذا تحرّكت الجبال فإن معناه الحركة الدائبة للأرض إلا أنه ينقدح في الذهن هذا السؤال: لماذا اقتصر الله تعالى على ذكر الجبال ولم يقل إنك ترى الأرض فتحسبها ساكنة في حين أنها متحرّكة؟

والجواب عن هذا السؤال واضح، لأن الجبال من أعظم الموجودات على وجه الأرض، وهي مظهر من مظاهر الصلابة والصمود، والإستحكام ولذا نضرب المثل المعروف «إن الشخص الفلاني منيع وصامد كالجبل»، ولذلك يمكن اعتبار حركة الجبال على عظمتها وصلابتها وثباتها على أنها أحد العلائم على القدرة اللامتناهية للحق تعالى لكن مما لا جدال فيه أن حركة الجبال هي إحدى التجلّيات الواضحة لحركة الأرض وفي كل الأحوال تعتبر الآية المزبورة أحد المعاجز العلمية المهمَّة للقرآن إذ من المعلوم أن العقيدة الرائجة والحاكمة على كافة المحافل العلمية الدولية في عصر نزول القرآن وزهاء الألف سنة بعد ذلك هي نظرية ثبات الأرض، ودوران الكرات حولها، والتي نشأت من هيئة «بطليموس».

ومن العلماء الأوائل الذين اكتشفوا حركة الأرض هم كل من «غاليلو» الإيطالي و«كبرنيك» البولندي، وذلك بعد مرور ما يقارب ألف سنة إذ أعلنوا عقيدتهم في أواخر القرن السادس عشر، وأوائل القرن السابع عشر الميلادي، مما أثار على الفور حفيظة أرباب الكنيسة بشدَّة بحيث هددوهما بالقتل. في حين أن القرآن الكريم كشف الستار عن هذه الحقيقة بعشرة قرون قبلها، وطرح بعباراته البديعة المتقدِّمة حركة الأرض باعتبارها إحدى علائم التوحيد والعظمة الإلهية.

وعلى كل حال مما لا شك فيه أن هذه الآية تتحدَّث عن حركة

الجبال (وبتعبير آخر حركة الأرض) في هذه الدنيا ذلك أن حركة الجبال على أعتاب يوم القيامة تحدث زلزالاً قويّاً في الكرة الأرضية بحيث تضع كل ذات حمل حملها، وتذهل كل مرضعة عن مرضعها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى. قال في نفحات القرآن: وهذا الكلام لا ينسجم مع جملة ﴿تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ [النمل: ٨٨] إضافة إلى أنه لا يبقى مجال لأعمال الخير والشر في تلك اللحظات الحرجة حتى يتأتى القول بأن الله تعالى مطلع على الأعمال التي نقوم بها والقول بأن الآيات التي تسبق الآية المتقدّمة أو ما بعدها ترتبط بالقيامة لا يمكن إعتباره دليلاً قطعيّاً على أن مفهوم هذه الآية يرتبط بالقيامة لأن هذا ليس أحد المصاديق النادرة في القرآن فَرُبَّ آية تتحدَّث في مسألة معيَّنة وتتحدَّث التي قبلها أو بعدها عن مسألة أخرى، وبعبارة أخرى فالإطلاع على محتوى الآية نفسها والقرائن الموجودة فيها أهمُّ وأفضل من الملاحظات الأخرى.

ثم قال: وهذه النكتة تستحق الإهتمام أيضاً وهي أن التشبيه بحركة السحب بالإضافة إلى أنه إشارة إلى السرعة الفائقة لها، يعتبر جواباً قاطعاً على هذا السؤال، وهو فيما لو كانت الأرض متحركة فلماذا لا نستشعر بها؟ فيأتي الجواب على أنها تتحرَّك ببطءٍ ومرونة وهدوء بحيث لا يمكن تشخيص ذلك كما لو صعد أحد على السحاب مثلاً فإنه لم يكن يُشخِّص حركتها أيضاً.

ومما يدعو إلى الاهتمام هذه النكتة أيضاً وهي أن القرآن يقول في الآيتين(٢٥ و٢٦) من سورة المرسلات: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦] نشاهد في منابع اللغة التي من جملتها «المفردات» للراغب وكتاب «العين» أنه قد ذكر معنيان للفظة «كفات» المأخوذة من مادة «كَفْت» وهما: الجمع والطيران السريع، فإذا كان المعنى الأول هو المقصود، يكون مفهوم الآية على أنا جعلنا

الأرض محطّاً لاجتماع بني البشر في حياتهم وما تحت الأرض مقراً لاجتماعهم بعد مماتهم.

وإذا كان المقصود المعنى الثاني، يكون مفهومها الطيران السريع للأرض وهذا يتناسب مع الحركة الانتقالية للأرض حول الشمس التي تسير بسرعة فائقة (تقدر بـ(٢٠) كيلومتر في كل ثانية و(١٢٠٠) كيلومتر في كل دقيقة) ثم إنها تحمل الأموات والأحياء معها، وتدور بهم حول الشمس، (نفحات القرآن ج٨ ابتداء من ص١٣١).

الرابع، الجبال أوتاد الأرض، وخزائن فيها نفائس الله:

وفي جملة تركيبات الأرض الديمغرافية وجود الجبال التي تعتبر الباعث الهام على ثبات الأرض وتماسك وحدتها، فرسوخ الجبال الرواسي فيها بشكل متين جعلها وكأنَّها ملتحمة بالأرض من حيث إنَّها قد مدت عروقها إلى داخل عمق القشرة الأرضية، وفي أعماق البحار والمحيطات لكي تعطي لسطح الأرض وجوداً رصيناً متماسكاً يحول دون تمزق الأرض عند تفجر البراكين الناشئة عن الانفجارات الهائلة في باطن الأرض. وفوق ذلك تكمن أهمية الجبال في كونها خزائن لثروات الأرض ونفائسها، فكما أن المرء يبحث عن أكثر المواضع استحكاماً ليودع فيها كنوزه وثرواته، جعل الله تعالى الجبال خزائن ثروات الأرض ومعادنها (كالذهب والفضة والنحاس والعقيق والفيروزج والمرمر وسائر المعادن والفلزات)، كما يؤكد ذلك النص الوارد في دعاء الجوشن الكبير «يا من في الجبال خزائنه»، مضافاً إلى كل ما سبق فإن الجبال تعد منازل آمنة ومساكن طبيعية محكمة لكثير من الحيوانات.

الخامس، سطح الأرض، ليس بالرخو اللّين ولا بالصلد الشديد:

وقد جعل الله سطح الأرض على نحو يمكن فيه إعمار الأرض

وزراعتها والعيش عليها، فلا هي بالرخوة اللينة التي تغور بواطئيها، ولا هي بالصلبة الصلدة بحيث يتعذّر شقها وزراعتها أو بناء المساكن عليها، وهنا ألفت نظركم إلى هذه العبارة (تعرف الأشياء بأضدادها) أي أن انعدام وجود الليل يؤدي إلى عدم معرفة نور النهار وضيائه، ولولا المرض والسقم لم تعرف نعمة العافية والصحة (كما في الريح التي تضرب ظهر الإنسان فتسلبه القدرة على الجلوس والقيام)، وهكذا أيضاً في سطح الأرض فهو يشتمل على وجود الأضداد لو التفتنا إليها لعرفنا واستيقنّا عظمة نعمة إمكانية الحياة على وجه الأرض المألوف، ففي الأرض توجد مناطق البحيرات الملحية، والصحارى الرملية، وأراضي الرمال المتحركة (وتلك المناطق لا تصلح للحياة تماماً) وكذلك توجد في الأرض مناطق الأهوار والمستنقعات، والمناطق الجبلية البركانية المشتملة على البراكين النشطة، ومناطق الغابات، ومناطق الوديان السحيقة، وغيرها من المناطق كما يذهب إلى تأكيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤]، فلو نظرنا إلى تلك المناطق ثم نظرنا ثانية إلى سطح الأرض المألوف من حيث استوائه وسهولته حفراً وشقاً وإعماراً واستثماراً وزراعة لوجدنا كيف أن الله عز وجل جعل الأرض مهاداً للأنام يمكنهم الإقامة عليها والحياة فيها، إذاً التوجه إلى الأضداد يؤدي إلى تيسير إدراك عظم النعم.

وما لم يصلح في الأرض للحياة، يصلح للعبرة والموعظة:

ففي الأرض مناطق تشبه إلى حد كبير (كورة الحداد)، في شدة حرارتها كما في صحراء برهوت إذ أن فصولها الأربع صيف قائظ يشتعل ناراً، حتى أن الطيور لا تستطيع من اجتياز هذه المنطقة طيراناً، وهناك مناطق أخرى تشبه البرادات الضخمة من حيث درجة الحرارة المنخفضة وشدة البرودة بحيث لو مر بها حيوان ما لانشلّت حركته

وتجمدت دماؤه ولنفق ميتاً، كما في مناطق القطب الجنوبي من الأرض.

«نسأله تعالى أن يجعلنا ممن عرف آلاءه فشكر، ونظر إلى آياته فاعتبر».

البحث الرابع
استقامة النظام الكوني في الأرض

لقد اكتشف علماء الطبيعة أنّ الأرض والمحيطات تحتجز ـ على شكل مركبات ـ الجزء الأعظم من الأوكسجين، حتى أنَّه يكون ثمانية من عشرة من جميع المياه في هذا العالم، وعلى الرغم من ذلك، ومن شدّة تجاوب الأوكسجين، من الناحية الكيماوية، للإندماج على هذا النحو، فقد ظل جزء محدود منه طليقاً يساهم في تكوين الهواء، وهذا الجزء يحقق شرطاً ضرورياً من شروط الحياة لأنّ الكائنات الحية من إنسان وحيوان بحاجة ضرورية إلى أوكسجين لكي تتنفس. ولو قدّر له أن يحتجز كله ضمن مركبات خاصة لما أمكن للحياة أن توجد.

وقد لاحظ العلماء أنَّ نسبة ما هو طليق من هذا العنصر تتطابق تماماً مع حاجة الإنسان، وتيسير حياته العملية. فالهواء يشتمل على (٢١٪) من الأوكسجين، ولو كان يشتمل على نسبة أكبر من هذه النسبة، لتعرضت البيئة إلى حرائق شاملة باستمرار. ولو كان يشتمل على نسبة أصغر من هذه النسبة، لتعذرت الحياة أو أصبحت صعبة، ولما توفرت النار بالدرجة الكافية لتيسير مهماتها.

وقد اكتشف العلماء أيضاً في هذه الأرض ظاهرة أخرى وهي:

إنّ الأرض اليابسة هي بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الأرضية

فالتربة تحتوي العناصر التي يمتصها النبات، ويحولها إلى أنواع مختلفة من الأطعمة التي يفتقر إليها الحيوان. وتوجد كميّات من المعادن قريبة من سطح الأرض مما هيّأ السبيل لقيام الحضارة الراهنة وأنشأ كثيراً من الصناعات والفنون، وعلى ذلك فإنّ الأرض مهيّأة على أحسن صورة للحياة.

ولاحظوا أنَّ الماء يمتاز بأربع خواص هامة تعمل على صيانة الحياة والمحيطات، والبحار، والأنهار، وخاصة حينما يكون الشتاء قارساً، وطويلاً فالماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة وتبلغ كثافة الماء أقصاها مما يجعل الجليد المتكوّن في البحيرات والأنهار يطفو على سطح الماء لخفته النسبية فيهيّىء بذلك الفرصة لاستمرار حياة الكائنات التي تعيش في مياه المناطق الباردة وعندما يتجمّد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة الأحياء التي تعيش في البحار.

أنظر إلى هذه الظواهر، وإلى هذا النظام الدقيق. فهل يمكن أن يكون قد نشأ من تلقاء نفسه قال سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

البحث الخامس

أيضاً استقامة النظام الكوني في الأرض

لا زلنا نتمشى في دراسة ظاهر نظام هذا الكون، والإكتشافات التي توصل إليها العلماء، والتي كشفت عن وجود يد غيبية عاقلة تدير هذا العالم وهنا ظاهرة من الظواهر التي اكتشفها العلماء في هذه الأرض وهي:

إنّ هذه الظاهرة الطبيعية تتكرر باستمرار ملايين المرات على مرّ

الزمن تنتج الحفاظ على قدر معين من الأوكسجين باستمرار، وهي إنّ الإنسان ـ والحيوان عموماً ـ حينما يتنفس الهواء، ويستنشق الأوكسجين يتلقاه الدم، ويوزع في جميع أرجاء الجسم، ويباشر هذا الأوكسجين في حرق الطعام، وبهذا يتولد ثاني أوكسيد الكربون الذي يتسلل إلى الرئتين ثم يلفظه الإنسان.

وبهذا ينتج الإنسان وغيره من الحيوانات هذا الغاز باستمرار، وهذا الغاز ـ الذي هو ثاني أوكسيد الكربون ـ بنفسه شرط ضروري لحياة كل نبات. والنبات بدوره حيث يستمد ثاني أوكسيد الكربون يفصل الأوكسجين منه، ويلفظه ليعود نقياً صالحاً للإستنشاق من جديد.

وبهذا التبادل في الإنتاج بين النبات، والحيوان، أمكن الإحتفاظ بكمية من الأوكسجين، ولولا ذلك لتعذّر هذا العنصر، وتعذّرت الحياة على الإنسان وغيره من الحيوانات.

ولاحظ العلماء: إنّ النتروجين بوصفه غازاً ثقيلاً أقرب إلى الجمود يقوم عند انضمامه إلى الأوكسجين في الهواء بتخفيفه بالصورة المطلوبة للإستفادة منه.

ولاحظوا هنا أنَّ كمية الأوكسجين التي ظلّت طليقة في الفضاء، وكمية النيتروجين التي ظلّت كذلك منسجمتان تماماً بمعنى أنّ الكمية الأولى هي التي يمكن للكمية الثانية أن تحققها. فلو زاد الأوكسجين أو قلّ النيتروجين لما تمت عملية التخفيف المطلوبة التي تتوقف عليها حياة كل إنسان وكل حيوان. إذا عرفنا هذا فهل يوجد شك في وجود الله سبحانه.

والغلاف الجوي يتألف من مجموعة من الغازات وهو أعلاها نسبة ٧٨,٩٪ والنيتروجين عنصر أساسي في بناء «تركيب» المادة الحية ودورته على مسارين:

المسار الأول: تمثل في أنّ بعض الكائنات الحية لها القدرة على تثبيت نيتروجين الجو في التربة، وتحويله إلى أملاح، ومن ثم يمتصه النبات ليكون غذاءً للحيوان والإنسان.

المسار الثاني: ناشىء من التفاعل الذي يحدثه البرق بين النيتروجين والأوكسجين في الجوّ، حيث يذوب غاز النيتروجين في مياه الأمطار ليصل إلى النّبات.

وهذا الإستهلاك الضخم لغاز النيتروجين يقابله ولادة نيتروجين جديد، حيث تقوم البكتيريا بتحليل المواد العضوية، والأجسام الميتة، إلى نيتروجين يصعد للجو، وبذلك يحدث توازن في نسبة النيتروجين.

وهذه أيات ثلاث

١ ـ الأوكسجين:

إنَّ الأوكسجين أكثرُ العناصر وَفْرة في الطبيعة، وهو غاز عديم اللون والطعم والرائحة، وبدونه لا بقاءَ للكائنات الحيَّة على الأرض. فنحن نستنشقه دَوماً مع الهواء الذي يُؤَلِّف الأوكسجين خُمْسُ مَزيجه، كما إنه موجود في العديد من الأشياء. ففي البحار يتواجد الأوكسجين مُذاباً في الماء، كما يشكِّل جُزءاً رئيسياً من تركيبه، وفي الصخر يؤلِّف الأوكسجين جُزءاً رئيسيّاً من معظم معادنه. يتألَّف الأوكسجين العاديّ من جُزَيْئات ثُنائيَّة الذرَّات (فرمزه أ٢) أما معظم الأوكسجين في أعالي الجوّ فشكلٌ آخر منه يتألَّف جزيئه من ثلاث ذرَّات ويُعرف بالأُوزون (أ٣) وهو يشكّل طبقة واقية حول الأرض تحجُبُ الأشعة الفضائية المُؤذِيَة. والأوكسجين شديد الفاعلية الكيماويَّة، فما الاحتراق والتأكسد والصدأ والتنفُّس إلا بعض التفاعُلات الكيماويَّة التي تحدث باتِّحاد موادّ معيَّنة مع الأوكسجين في الهواء.

٢ ـ الكِبْريت:

الكِبْرِيتُ عنصر لا فلزيٌّ أصفر اللَّون زاهٍ يتواجد في الطبيعة على شكل كبريتيدات (كالغالينا ـ كبريتيد الرصاص والپايرايت ـ كبريتيد الحديد) أو كبريتات (كالجبس ـ كبريتات الكالسيوم المائيَّة). وهو من العناصر الأكثر فاعليَّة، واستعمالاتُه ومشتقاتُه في مجالات الصناعة بالغة الأهميَّة ـ من صناعة الدهان والمُنظِّفات إلى فَلْكَنَة ـ المطَّاط وصنع البارود ـ حتى ليقاس مدى النشاط الصناعي في بلد ما بمقدار ما يستهلكه من الكِبْريت أو من حامض الكبريتيك، أحد مشتقاته، ويعتبر أوكسيد الكبريت (بخاصة، الذي تُطلِقهُ محطات توليد القُدرة الأحفُوريَّة الوُقُدِ ذات المحتوى الكبريتي) من ملوِّثات الجوّ ومسبِّبات المطر الحامضي.

٣ ـ الهِدْروجين:

الهِدْروجين غاز عديم اللَّون والطعم والرائحة، ورغم أنه أخفُّ العناصر فهو أكثرها توافُراً في الكون (إذ يؤلِّف حوالى ٧٥٪ من مادَّته). استخدامات الهِدْروجين متعدِّدة ـ مثلاً في هَدْرجة الزيوت النباتية وتحويلها إلى سُمون كالمَرْغَرِين، وفي نزع الكبريت من منتجات النفط وزيادة كميَّة البنزين المستخلص منه. لكن الإستخدام الأكثر للهدروجين هو في صنع الأمونيا ـ المهمَّة في إنتاج الأسمدة وكيماويَّات أخرى. كيماويّاً، قد يتفاعل الهدروجين مع الفِلزَّات أو مع اللافلزَّات (مكوِّناً أحياناً أيونات الهِدْروجين). وتُعزى حامضيَّة الحوامض كلِّها إلى أيونات الهِدروجين في تراكيبها.

الكيمياء العضويَّة

قال في الموسوعة: الكربون بالغ الأهميَّة حتى لقد بلغ من أهميَّته

أن أُفرد لدراسته عِلمٍ قائم بذاته هو الكيمياء العُضوية، ووُصِفَتْ هذه الكيمياء بالعضوية لأنَّها كانت سابقاً تقتصر على دراسة الكائنات الحيَّة (وهي كما نعلم تتألف من مركَّبات الكربون) أما اليوم، فالكيمياء العضوية تُعنى بدراسة جميع مركَّبات الكربون ـ عدا «اللَّاعضويَّات». كالكربونات وثاني أوكسيد الكربون ويتميز الكربون عن سائر العناصر بقُدرة ذرَّاته الفريدة على الترابط فيما بينها بروابط مستقرَّة جداً. لذا يمكنها تأليف سلاسل طويلة تضم مئات الألوف من ذرَّات الكربون. تقسَّم المركَّبات العضويَّة إلى طوائف أهمُّها البروتينات والدهْون والسكريَّات (الكربوهدرات).

النِّتْرُوجِين:

النتروجين عنصر حيوي أساسي كأحد المُكوِّنات الرئيسية لجِبْلَة (بروتوبلازم) الخلايا الحيَّة في النبات والحيوان، وهو يشكِّل حوالى ٨٠ بالمائة من الهواء الجوِّي والنتروجين غاز عديم اللون والطعم والرائحة، ويمرُّ النتروجين دوماً بمراحل دوريَّة تحفظه في الطبيعة حولنا فيما يعرف بدَورة النتروجين، فالنباتات تأخذه من التُّربة والحيوانات تحصل عليه من أكل النباتات أو الحيوانات الأخرى وعندما تموت النباتات والحيوانات وتتحَلَّل، يعود النتروجين ثانية إلى التُّربة وفي الطبيعة يتواجد النتروجين مركَّباً في خامات معدنية كنِتْرات الصوديوم. يتألَّف جُزَيْءُ النتروجين في الهواء، كما الأوكسجين، من ذرَّتين، ورَمْزه (ن٢). ويكوِّن النتروجين مع الأوكسجين عدَّة أكاسيد، من ضمنها بعض مكوِّنات الغازات المُنْفَلِتَة من عوادم السيارات والملوِّثة للبيئة.

الفُـقـوُر

بعض المشروبات المرطِّبة كالكُولا ذاتُ طعم حادّ وذلك عائد

لاحتوائها قليلاً من حامض الفُسفُوريك ـ الذي هو أحد مركَّبات الفُسْفُور في شكله المألوف، جامد ضارب إلى الصفرة، شمعيُّ القوام ذو شَفَافيَّة طفيفة. والفُسفُور الأصفر هذا يتوَهَّجُ في الظلام، وتعرف هذه الخاصة بالتَّفسْفُر. وهو لشدَّة فاعليته يحترق تلقائياً في الهواء لذا يُحفظ تحت الماء. والفُسْفُور أساسيُّ الأهمية للكائنات الحيَّة، تستخرجه النباتات من التربة، وتحصل عليه الحيوانات من النباتات. والفُسفور لا يوجد في الطبيعة منفرداً بل متَّحداً في مركَّبات الفُسفات المعدنية، كفُسْفات الكالسيوم، التي يستخدم معظمها في المخصّبات الزراعية.

المادة

١ ـ كل ما يخطر ببالك يتألَّف من المادة، إن كان الكتاب الذي تقرأه، أو الكرسيّ الذي تجلس عليه، أو الماء الذي تشربه. غير أن المادة ليست فقط تلك الأشياء التي تستطيع لمسَها. فهي أيضاً تشمل الهواء الذي تستنشق، والكواكب والنجوم في فضاء الكون الرحيب، كما كلّ الكائنات من حيوان ونبات وجماد. تتألَّف المادَّة بمختلف أنواعها وأشكالها من جُسَيْمات دقيقة تُدعى ذرَّات وهذه تتألَّف بدورها من جُسَيْمات دون الذرّيَّة أصغر بكثير من الذرَّات، علم الكيمياء يدرس تركيب المادَّة وكيفية ترابط الذرَّات بعضها مع بعض لتكوّن الموادَّ المختلفة.

٢ ـ حالات المادة: الجبال والبحار والهواء الذي يكتنفها تُمثّل الحالات الطبيعية الثلاث للمادَّة فالجبل يتألف من صخر جامد، والبُحيرة تتألف من سائل هو الماء، والهواء الذي تستنشق غاز القِوام. معظم الجوامد صلبة ذات شكل وحجم محدّدين (رغم أن بعضها كالمطَّاط ذو شكل يمكن تغييره) والسوائل ذات حجم محدَّدٍ أيضاً لكن

لا شكل ثابتاً لها وهي سيَّالة. أما الغازات فليس لها حجم ولا شكل محدَّدان، وهي أيضاً سيَّالة، ومعظمها عادم اللون لا يرى وتُدعى السوائل والغازات مجتمعة بالموانع لأنها تسيل أو تنساب. ويختلف سلوك الحالات الثلاث للمادَّة لأن جُسَيماتها تتحرَّك بأشكال مختلفة.

٣ ـ خصائص المادَّة: يصنع الكثير من أواني المطبخ كالكَفْتِ والغلَّايات ذوات المقابض من الفولاذ واللَّدائن (الجسم من الفولاذ) والمقبض لدائنيّ. والسبب البسيط هو أن الفولاذ مُوَصِّلٌ جيِّد للحرارة، فيسمح بانتقالها إلى الماء كي يغلي أو إلى الطعام كي ينضج. أما اللَّدائن الجيِّدَة العزل فتمنع وصول الحرارة إلى أيدينا. فالعزل الجيِّد أو المُوَصِّليَّة الجيِّدة مَثَلٌ على خاصة معيَّنة من خصائص المادَّة. بعض هذه الخصائص كالمُوَصِّليَّة يمكننا قياسه أما بعضها الآخر، كالرائحة مثلاً، فمبقدورنا وصفه فقط. يقيس العلماء خصائص العديد من الموادّ المختلفة على درجة الحرارة والضغط العاديين كي يستطيعوا المقارنة فيما بينها بدقَّة.

العناصر

١ ـ تتألَّف السبيكة الذهبيَّة من نوع واحد من الذرَّات هي ذرَّات الذهب وهذا يعني أن الذهب عنصر. والمعروف أن معظم الأشياء في الكَوْن تتألف من مجموعات مؤتلِفة من الذرَّات المختلفة تُدعى مركَّبات، قِلَّةٌ من العناصر فقط يمكن أن تتواجد في حالة نقيَّة كالذهب والنحاس والفضَّة. لقد تمَّ حتى اليوم التعرُّفُ على ١٠٩ عناصر يتواجد منها طبيعياً ٨٩ وكان تمَّ اكتشاف عشرة عناصر قبل القرن الثامن عشر، واكتُشف معظم الباقي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حين بدأ الكيميائيّون جديّاً بتقصّي العناصر، والمركَّبات الكيماويَّة وقد أصبح الجدول الدوريُّ اليوم يضم ٣٠ عنصراً اصطناعيّاً لا تتواجد في

الطبيعة، جميعها ذو فاعلية إشعاعيَّة، وبقاء بعضها لا يتجاوز بضعة أجزاء المليون من الثانية.

٢ ـ العناصر الشائعة: العنصران الأكثر شيوعاً في الكَون كمجموع وبقدرٍ كبيرٍ، هي الهِدْروجين والهِلْيوم فهما العنصران الأساسيَّان في النجوم إذ يُشكِّلان ٩٨ في المائة من مادَّتها. أما في القشرة الأرضية، فعنصر الأوكسجين هو الأكثر وَفْرَةً بين جميع العناصر، ويليه السِّليكون حيث يشكِّلان معاً حوالى ثلاثة أرباع مقوّمات القِشْرة. والمعلوم أن العناصر الأكثر تواجداً في جسم الإنسان هي الكربون والهدروجين والأوكسجين لأنها تؤلِّف معظم المركَّبات في جميع خلايا الجسم.

٣ ـ العناصر القديمة: خلال القرن الرابع ق.م كان فلاسفة الإغريق بمن فيهم أرسطو يعتقدون أنَّ جميع أشكال المادَّة مُكَوَّن من أربعة عناصر فقط هي النار، والهواء والماء والتراب متناسِقة بِنِسَب مختلفة، فالعَظْم مثلاً، كان في زعمهم يتألَّف من أربعة أجزاء ناراً، وجُزأين ماء وجزأين من التراب.

الكربون: لا بقاءَ لكائن حيّ نباتاً كان أم حيواناً بدون الكربون. فالكربون في أجسادنا وفي طعامنا وفي الهواء من حولنا كيميائيّاً، تستطيع ذرَّة الكربون الترابط مع ما قد يبلغ أربع ذرَّات من عناصر أخرى أو مع ذرَّات أخرى من الكربون بحيث يتواجد في الطبيعة من مركَّبات الكربون أكثر مما يوجد من مركَّبات كافَّة العناصر مجتمعة، والكربون عنصر، لا فلزيّ يوجد نقيّاً في الطبيعة على شكل ألماس وغرافيت أو مركَّباً كما في الصخور الكربونية كالطباشير والوُقُد الأُحْفُوريَّة كالفحم وثاني أوكسيد الكربون في الهواء عند احتراق الوُقُد يتَّحد مُحْتواها من الكربون مع أوكسجين الهواء لكنّ فرطَ كميَّة ثاني

أوكسيد الكربون في الجوِّ يحتجز حرارة الأرض فيُسخِّنها كمثل زجاج المستنبتات الزجاجيَّة فيما يعرف بظاهرة الدَّفيئات.

البحث السادس

أيضاً استقامة النظام الكوني في الأرض

من الأسرار التي كشف عنها القرآن الكريم، قبل أربعة عشر قرناً، وجود قارة أخرى للأرض فقد قال سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ [الرَّحمٰن: ١٧].

وقد وقع الخلاف في تفسيرها بين المتقدمين فقال بعض المراد مشرق الشمس ومشرق القمر ومغرباهما، وحمله بعضهم على مشرقي الشمس والقمر في الصيف والشتاء ومغربيهما.

وقال المتأخرون: الظاهر أنّ المراد بها الإشارة إلى وجود قارة أخرى تكون على السطح الآخر للأرض يلازم شروق الشمس عليها غروبها عنا، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

فإنّ الظاهر من هذه الآية أنّ البعد بين المشرقين هو أطول مسافة محسوسة فلا يمكن حملها على مشرقي الشمس والقمر، ولا على مشرقي الصيف والشتاء، لأنّ المسافة بين ذلك ليست أطول مسافة محسوسة، فلا بد من أن يراد بها المسافة التي بين المشرق والمغرب.

ومعنى ذلك أن يكون المغرب مشرقاً لجزء آخر من الكرة الأرضية ليصح هذا التعبير في الآية فالآية تدل على وجود هذا الجزء الذي لم يكتشف إلاّ بعد مئات السنين من نزول القرآن.

والآيات التي ذكرت المشرق والمغرب بلفظ المفرد يراد منها نوع

المغرب، ونوع المشرق، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

والآيات التي ذكرت ذلك بلفظ التثنية يراد منها الإشارة إلى القارة الموجودة على السطح الآخر من الأرض كما تقدم.

والآيات التي ذكرت ذلك بلفظ الجمع يراد منها المشارق والمغارب باعتبار أجزاء الكرة الأرضية كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾ [الصافات: ٥]. ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [المعارج: ٤٠].

والتفسير الأخير الذي توصّلوا إليه بالنسبة لهذه الآيات هو:

إنّ هذه الآيات فيها دلالة على تعدد مطالع الشمس، ومغاربها وفيها إشارة إلى كروية الأرض. فإنّ طلوع الشمس على أيّ جزء من أجزاء الكرة الأرضية يلازم غروبها عن جزء آخر، فيكون تعدد المشارق والمغارب واضحاً، لا تكلف فيه ولا تعسف.

وهكذا نجد دورته من الهواء، إلى التربة، فالماء، إلى النبات فالحيوان، ثم إلى الهواء مرة أخرى.

ويمكن القول: إنّ سلامة الحياة على الأرض بفضل النيتروجين الذي سخّره الله تعالى ليحفظ الأرض من الإشعاعات الشمسية «الفوق بنفسجية»، ومن خصائصها أنّ طاقة إشعاعها تفوق طاقة الترابط لجزئيات الخلية الحية الموجودة في أجسام الكائنات الحية، وهذا يعني أنّه في حالة تعرض أي كائن حي لهذه الأشعة سوف تتحطم طاقة الترابط للجزئيات الخلوية ويتسبب عند ذلك هلاك الكائن الحيّ.

لكن لما كان إيمان الإنسان بالله ـ كما تدلّ عليه هذه الظواهر

الطبيعية والسنن الكونية ـ لا يزال محدوداً للغاية فسوف تزيل الكشوف العلمية جميع الحجب، وتنير الطريق لمن أراد الهداية وقد قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن لاكها بين لحييه ثم لم يتدبرها!».

فقد ذمّ كل إنسان يقرأ هذه الآية ولم يتفكر ويتدبّر بما فيها من الآثار التي تدلّ على وجود الله تعالى، وبتعبير آخر لم يستدل بها على وجود الله عز وجل لأنّ الآية ذكرت ضمناً الأجرام السماوية والأرضية، بما فيها من آثار الصنع، والقدرة، والعلم بهذه الموجودات التي تدلّ على وجود صانعها، وعلى قدرته وعلمه، وهذا يعني أنّ الاستدلال على وجود الله تعالى واجب.

البحث السابع
فناء الأرض

قلنا إنَّ الله (عزَّ وجلَّ) جعل الأرض مكاناً ملائماً لحياة المخلوقات من حيث إمكانية العيش والراحة فليست هي بالصلبة القاسية التي يستحيل معها العمران والزراعة، ولا هي بالرخوة اللينة التي يستحيل بها الثبات والاستقرار، بل كانت الأرض بين بين تلائم طبيعة حياة المخلوقات.
ولما كان «كل حادث فان»، فنستفيد من كلمة (وضع) الواردة في آية: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ [الرحمن: ١٠] أن الأرض حادثة ومخلوقة، وأن مصيرها إلى الزوال والفناء كما تشير إلى هذه الحقيقة سورة الفجر في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١]، وقد ذكر علماء الهيئة (الفلك) أن للأرض أجل محدود إذا ما حل بها يحل

حينذاك الموت والفناء. وقد أورد أولئك العلماء عدة احتمالات لكيفية وشكل الفلك للأرض نستعرض أهمها:

١ ـ الانخفاض الحاد في درجة الحررة، أو إصطدامها بجرم آخر، أو تلاشي جاذبية الشمس بالنسبة لأبدان الحيوانات عندما يدركها الموت، فالحرارة الكامنة في باطن الأرض والتي تصهر المعادن في جوفها سيأتي عليها يوم تنتهي فاعليتها وقابليتها على الإذابة والصهر لبرودتها، ولعل ذلك سيتزامن مع قيام الساعة وحصول الانفجارات الداخلية الرهيبة في باطن الأرض واشتعال البحار والمحيطات[1]، ممَّا يؤدِّي ذلك إلى انجماد الأرض وموتها.

٢ ـ الاحتمال الثاني: اصطدام الأرض بجرم سماوي آخر يهيّىء أسباب فنائها.

٣ ـ الاحتمال الثالث: إنتقال الشمس إلى مرحلة الشيخوخة والهرم بحيث تصل إلى اليوم الذي تتلاشى فيها حرارتها العالية، وينعدم ضياؤها، مما يؤدي ذلك إلى تلاشي جاذبيتها، فتتلاشى الأرض وسائر أجرام المجموعة الشمسية لارتباطها الوثيق بنظام المجموعة.

تلك الاحتمالات أوردها علماء الفلك إلى جانب احتمالات أخرى عزفنا عن التطرق إليها، وما يهمّنا هو ما تطرق إلى ذكره القرآن الكريم عن موضوع تبدّل الأرض في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] وهو ما أشار إليه مولى الموحدين الإمام علي عليه السلام في قوله: (إن الله يبدّل هذه الأرض بأخرى غيرها لم يعص الله فيها)[2]. فكما أن بدن الإنسان يفنى ولا يبقى، فإن محل استقراره

(١) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير: ٦].
(٢) بحار الأنوار: ج٣.

ومكان نشأته وترعرعه الذي شغل فيه حيّزاً من وجوده وتعلّق به قلبه، سيفنى ويزول هو الآخر أيضاً.

البحث الثامن

في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ...﴾

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

في أول هذه الآية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] قيل: إنه تعالى عدد في هذا المقام عليهم خمسة دلائل اثنين من الأنفس، وهما خلقهم وخلق أصولهم. وثلاثة من الآفاق: بجعل الأرض فراشاً، والسماء بناءً، والأمور الحاصلة من مجموعهما، وهي إنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات بسببه. وسبب هذا الترتيب ظاهر، لأنّ أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، ثمّ مأمنه ومنشأه وأصله، ثمّ الأرض الّتي هي مكانه ومستقرُّه يقعدون عليها وينامون ويتقلّبون كما يتقلّب أحدهم على فراشه، ثمّ السماء الّتي كالقبّة المضروبة والخيمة المبنيّة على هذا القرار، ثمّ ما يحصل من شبه الازدواج بين المقلّة والمظلّة من إنزال الماء عليها والإخراج به من بطنها أشباه النسل من الحيوان ألوان الغذاء وأنواع الثمار رزقاً لبني آدم. وأيضاً خلق المكلّفين أحياءً قادرين أصل لجميع النعم، وأمّا خلق الأرض والسماء فذاك إنّما ينتفع به بشرط حصول الخلق والحياة والقدرة والشهوة، وذكر الأصول مقدّم على ذكر الفروع. وأيضاً كلّ ما كان في السماء والأرض من الدلائل على وجود الصانع فهو حاصل في الإنسان بزيادة الحياة والقدرة

والشهوة والعقل، ولمّا كانت وجوه الدلالة فيه أتمّ كان تقديمه في الذكر أهمّ.

والفراش: اسم لما يفرش كالبساط لما يبسط، وليس من ضرورات الافتراش أن يكون سطحاً مستوياً كالفراش على ما ظنّ، فسواء كانت كذلك وعلى شكل الكرة فالافتراش غير مستنكر ولا مدفوع لعظم جرمها وتباعد أطرافها، ولكنّه لا يتمّ الافتراش عليها ما لم تكن ساكنة في حيّزها الطبيعيّ وهو وسط الأفلاك، لأنّ الأثقال بالطبع تميل إلى تحت كما أنّ الخفاف بالطبع تميل إلى فوق، والفوق من جميع الجوانب ما يلي السماء، والتحت ما يلي المركز، فكما أنّه يستبعد حركة الأرض في ما يلينا إلى جهة السماء فكذلك يستبعد هبوطها في مقابلة ذلك، لأنّ ذلك الهبوط صعود أيضاً إلى السماء فإذن لا حاجة في سكون الأرض وقرارها في حيّزها إلى علاقة من فوقها ولا إلى دعامة من تحتها، بل يكفي في ذلك ما أعطاها خالقها، وركز فيها من الميل الطبيعيّ إلى الوسط الحقيقي بقدرته واختياره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ﴾ [فاطر: ٤١].

وممّا منّ الله على عباده في خلق الأرض أن لم تجعل في غاية الصلابة كالحجر ولا في غاية اللين والانغمار كالماء، ليسهل النوم والمشي عليها، وأمكنت الزراعة واتّخاذ الأبنية منها، ويتأتى حفر الآبار وإجراء الأنهار. ومنها أن لم تخلق في نهاية اللطافة والشفيف لتستقرّ الأنوار عليها وتتسخّن منها فيمكن جوازها(١). ومنها أن جعلت بارزة بعضها من الماء مع أنّ طبعها الغوص فيه لتصلح لتعيّش الحيوانات البرّيّة عليها، وسبب انكشاف ما برز منها ـ وهو قريب من ربعها ـ أن

(١) جوارها (خ).

لم تخلق صحيحة الاستدارة، بل خلقت هي والماء بمنزلة كرة واحدة، يدلّ على ذلك في ما بين الخافقين تقدّم طلوع الكواكب وغروبها للمشرقيّين على طلوعها وغروبها للمغربيين، وفي ما بين الشمال والجنوب ازدياد ارتفاع القطب الظاهر وانحطاط الخفيّ للواغلين في الشمال، وبالعكس للواغلين في الجنوب، وتركّب الاختلافين لمن يسير على سمت بين السمتين، إلى غير ذلك من الأعراض الخاصّة بالاستدارة يستوي في ذلك راكب البرّ وراكب البحر، وهذه الجبال وإن شمخت لا تخرجها عن أصل الاستدارة، لأنّها بمنزلة الخشونة القادحة في ملاسة الكرة لا في استدارتها.

ومنها الأشياء المتولّدة فيها من المعادن والنبات والحيوان والآثار العلويّة والسفليّة، ولا يعلم تفاصيلها إلاّ موجدها، ومنها اختلاف بقاعها في الرخاوة والصلابة والدماثة والوعورة بحسب اختلاف الحاجات والأغراض ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤] ومنها اختلاف ألوانها ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]. ومنها انصداعها بالنبات ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق: ١٢]. ومنها جذبها للماء المنزل من السماء ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. ومنها العيون والأنهار العظام الّتي فيها ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩] ومنها أنّ لها طبع الكرم والسماحة، تأخذ واحدة وتردّ سبعمائة ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١] ومنها حياتها وموتها ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣] ومنها الدوابّ المختلفة ﴿...وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤] ومنها النباتات المتنوّعة ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧] فاختلاف ألوانها دلالة، واختلاف طعومها دلالة، واختلاف روائحها دلالة، فمنها قوت البشر ومنها قوت البهائم ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ﴾ [طه: ٥٤] ومنها الطعام، ومنها الإدام، ومنها الدواء

ومنها الفواكه، ومنها كسوة البشر نباتيّة كالقطن والكتان، وحيوانيّة كالشعر والصوف والإبريسم والجلود، ومنها الأحجار المختلفة بعضها للزينة وبعضها للأبنية، فانظر إلى الحجر الّذي تستخرج منه النار مع كثرته، وانظر إلى الياقوت الأحمر مع عزّته وانظر إلى كثرة النفع بذلك الحقير، وقلّة النفع بهذا الخطير، ومنها ما أودع الله تعالى فيها من المعادن الشريفة كالذهب والفضّة.

البحث التاسع

عن يونس بن ظبيان قال: «قلت لأبي عبدالله ﷺ ما لكم من هذه الأرض فتبسم وقال إن الله تعالى بعث جبرئيل وأمره أن يخرق بإبهامه ثمانية أنهار في الأرض منها: سيحان، وجيحان وهو نهر بلخ، والخشوع، وهو نهر الشاش، ومهران وهو نهر الهند، ونيل مصر، ودجلة، والفرات فما سقت أو أسقت فهو لنا، وما كان لنا فهو لشيعتنا، وليس لعدونا منه شيء إلا ما غصب عليه، وإن وليّنا لفي أوسع مما بين ذه إلى ذه ـ يعني بين السماء والأرض ـ ثم تلا هذه الآية: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ـ المغصوبين عليها خالصة ـ خَالِصَةً ـ لهم ـ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] «بلا غصب».

قال المجلسي ﷬: لعل التبسم لأجل «من» التبعيضية «يخرق» كينصر ويضرب أي يشقّ ويحفر، ومنهم من حمل الكلام على الاستعارة التمثيليّة لبيان أنّ حدوث الأنهار ونحوها مستندة إلى قدرة الله تعالى ردّاً على الفلاسفة الّذين يسندونها إلى الطبائع، وفي أكثر النسخ هنا «جيحان» بالألف وفي بعضها بالواو، وهو أصوب لما عرفت أنّ نهر بلخ بالواو، وعلى الأوّل إن كان التفسير من بعض الرواة فيمكن أن يكون اشتباهاً منه، ولو كان من الإمام ﷺ وصحّ الضبط كان الاشتباه من اللغويّن. و«الشاش» بلد بما وراء النهر كما في القاموس

ونهره على ما ذكره البرجنديّ بقدر ثلثي الجيحون، ومنبعه من بلاد الترك من موضع عرضه اثنتان وأربعون درجة وطوله إحدى وسبعون درجة ويمرّ إلى المغرب مائلاً إلى الجنوب إلى خجند ثمّ إلى فاراب ثمّ ينصبّ في بحيرة خوارزم، وتسميته بالخشوع غير مذكورة فيما رأينا من كتب اللغة وغيرها «فما سقت» أي سقته من الأشجار والأراضي والزروع «أو استقت» أي منه، أي أخذت الأنهار منه وهو بحر المطيف بالدنيا أو بحر السماء، فالمقصود أنّ أصلها وفرعها لنا، أو ضمير «استقت» راجع إلى «ما» باعتبار تأنيث معناه، والتقدير: استقت منها، وضمير «منها» المقدّر للأنهار، فالمراد بما سقت ما جرت عليها من غير عمل، وبما استقت ما شرب منها بعمل كالدولاب وشبهه، ونسبة الاستسقاء[1] إليها على المجاز، كذا خطر بالبال وهو أظهر. وقيل: ضمير «استقت» راجع إلى الأنهار على الإسناد المجازيّ لأنّ الاستقاء فعل لمن يخرج الماء منها بالحفر والدولاب. يقال: استقيت من البئر أي أخرجت الماء منها. وبالجملة يعتبر في الاستقاء ما لا يعتبر في السقي من الكسب والمبالغة في الاعتمال «إلاّ ما غصب عليه» على بناء المعلوم والضمير للعدوّ أي غصبنا عليه أو على بناء المجهول أي إلاّ شيء صار مغصوباً عليه، يقال غصبه على الشيء أي قهره، والاستثناء منقطع إن كان اللام للاستحقاق، وإن كان للانتفاع فالاستثناء متّصل و«ذه» إشارة إلى المؤنّث أصلها ذي قلبت الياء هاء «المغصوبين عليها» الحاصل أنّ «خالصة» حال مقدّرة من قبيل قولهم: جاءني زيد صائداً صقره غداً. قال في مجمع البيان: قال ابن عبّاس يعني أنّ المؤمنين يشاركون المشركين في الطيّبات في الدنيا ثمّ يخلص الله الطيّبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء.

---

(١) الاستقاء (ظ).

توحيد المفضل: قال: قال الصادق عليه السلام: فكّر يا مفضّل فيما خلق الله عزّ وجلّ عليه هذه الجواهر الأربعة ليتّسع ما يحتاج إليه منها فمن ذلك سعة هذه الأرض وامتدادها، فلولا ذلك كيف كانت تتّسع لمساكن الناس ومزارعهم ومراعيهم ومنابت أخشابهم وأحطابهم والعقاقير العظيمة والمعادن الجسيمة غناؤها، ولعلّ من ينكر هذه الفلوات الخالية[1] والقفار الموحشة يقول: ما المنفعة فيها؟ فهي مأوى هذه الوحوش ومحالها ومرعاها، ثمّ فيها بعد متنفّس ومضطرب للناس إذا احتاجوا إلى الاستبدال بأوطانهم، وكم بيداؤكم فدفد حالت قصوراً وجناناً بانتقال الناس إليها وحلولهم فيها، ولولا سعة الأرض وفسحتها لكان الناس كمن هو في حصار ضيّق لا يجد مندوحة عن وطنه إذا أحزنه[2] أمر يضطرّه إلى الانتقال عنه. ثمّ فكّر في خلق هذه الأرض على ما هي عليه حين خلقت راتبة راكنة، فيكون موطناً مستقرّاً للأشياء فيتمكّن الناس من السعي عليها في مآربهم، والجلوس عليها لراحتهم، والنوم لهدوئهم، والإتقان لأعمالهم، فإنّها لو كانت رجراجة متكفّئة لم يكونوا يستطيعون أن يتقنوا البناء والتجارة والصناعة وما أشبه ذلك، بل كانوا لا يتهنّأون بالعيش والأرض ترتجّ من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيب الناس حين الزلازل على قلّة مكثها حتّى يصيروا إلى ترك منازلهم والهرب عنها. فإن قال قائل: فلم صارت هذه الأرض تزلزل؟ قيل له: إن الزلزلة وما أشبهها موعظة وترهيب يرهّب بها الناس ليرعوا عن المعاصي، وكذلك ما ينزل بهم من البلاء في أبدانهم وأموالهم يجري في التدبير على ما فيه صلاحهم واستقامتهم ويدّخر لهم إن صلحوا من الثواب والعوض في الآخرة ما لا يعدله شيء من أمور الدنيا، وربما عجّل ذلك في الدنيا إذا كان ذلك في الدنيا صلاحاً للعامّة والخاصّة.

---

(١) في بعض النسخ «الخاوية».
(٢) في بعض النسخ «حزبه».

ثمّ إنّ الأرض في طباعها الّذي طبعها الله عليه باردة يابسة وكذلك الحجارة وإنّما الفرق بينها وبين الحجارة فضل يبس في الحجارة، أفرأيت لو أنّ اليبس أفرط على الأرض قليلاً حتّى تكون حجراً صلداً أكانت تنبت هذا النبات الّذي به حياة الحيوان وكان يمكن بها حرث أو بناء؟ أفلا ترى كيف نقصت عن[1] يبس الحجارة وجعلت على ما هي عليه من اللين والرخاوة لتتهيأ للاعتماد، ومن تدبير الحكيم جلّ وعلا في خلقة الأرض أنّ مهبّ الشمال أرفع من مهبّ الجنوب، فلم يجعل الله عزّ وجل كذلك إلاّ لتنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها ثمّ يفيض آخر ذلك إلى البحر، فكما يرفع أحد جانبي السطح ويخفض[2] الآخر لينحدر الماء عنه ولا تقوم عليه كذلك جعل مهبّ الشمال أرفع من مهبّ الجنوب لهذه العلّة بعينها، ولولا ذلك لبقي الماء متحيّراً على وجه الأرض فكان يمنع الناس من أعمالها ويقطع الطرق والمسالك ثمّ الماء لولا كثرته وتدفّقه في العيون والأودية والأنهار لضاق عمّا يحتاج الناس إليه.

(١) من (خ).
(٢) ينخفض (خ).

آياته في الجبال

وفيه بحثان:

البحث الأول
في تعريفها وما يتعلّق به

وهو جمع والمفرد (جَبَلٌ) على وزن (عَسَلٌ) وهو النقطة التي تعاكس الأراضي المنبسطة أو هو الأجزاء المرتفعة من الأرض حيث تكون عالية وطويلة.

وقال العلم الحديث: إن الجبال تكوّنت نتيجة لعوامل معينة: فقد يكون بسبب تعرُّج الأرض، وأحياناً بسبب البراكين أو نتيجة الترسُّبات الناتجة عن الأمطار التي تغسل الأرض، وتجرف بعضها معها، ويبقى الجزءُ القويُّ والصُّلب ثابتاً في مكانه.

وفي أعماق البحار تكوّن الكثير من الجبال نتيجة الترسُّبات الحيوانية كالمرجانات حيث يطلق عليها الجبال أو الجزر المرجانية.

وإليك بعض الجبال التي اشتهرت ببعض المنافع:

١ ـ جبل النور: وهو الكائن قرب مكة كان رسول الله ﷺ يخرج إلى غار حراء الذي يكون في جبل النور يعبد الله على دين جده إبراهيم الخليل ﷺ على الحنيفية البيضاء تاركاً أصنام العرب وراءه لعلمه أنها

لا تنفع ولا تضر. وهو الموضع الذي نزل عليه الأمين جبرئيل عليه السلام بالنبوة فيه وكان معه ابن عمّه علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢ ـ جبل أبي قبيس: وهو كائن بمكة يقرب من الكعبة سمي باسم رجل من مذحج لأنه أول من بنى فيه، وكان يسمّى الأمين لأن الركن مستودع فيه (مجمع البحرين) وفي رواية: ان آدم عليه السلام هبط من الجنة على هذا الجبل.

٣ ـ جبل ثور: وهو بمكة فيه الغار الذي بات فيه النبي صلى الله عليه وآله لما هاجر.

٤ ـ جبل عرفات: وهو الكائن في عرفات نفسها والمعروف بين الناس بجبل الرحمة.

٥ ـ جبل السلام: وهو ما جاء في النور المبين ص٤٩: فرفع قواعد البيت بحجر من الصفا وحجر من المروة، وحجر من طور سيناء، وحجر من جبل السلام وهو ظهر الكعبة.

٦ ـ جبل أحد: وموضعه قرب المدينة المنورة وأُحُد: اسم منطقة بالقرب من المدينة في سفح الجبل وفيها وقعت واقعة أحد.

٧ ـ جبل سرنديب: هو جزيرة عظيمة في بحر هركند بأقصى بلاد الهند فيها الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام يقال له: الرهون وهو ذاهب في السماء يراه البحريون من مسافة أيام كثيرة، وفيه أثر آدم وقبره وهي قدم واحدة مغموسة في الحجر طولها نحو سبعين ذراعاً (عن مراصد الإطلاع) ونقل أن الياقوت الأحمر موجود في هذا الجبل تحدره السيول والأمطار من ذروته إلى الحضيض ويوجد به الماس أيضاً وبه يوجد العود...[(١)].

(١) مجمع البحرين.

البحث الثاني

في فوائد الجبال والمعاجز فيها

١ ـ قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النحل: ٨١] وهي جمع (كَنّ) على وزن (جَنّ) قيل المراد هو كل نوع من اللباس حتى أنهم اعتبروا «الرِّداء» «كنّاً» للإنسان وفي مجمع البيان: هو المكان الذي يضم الإنسان بداخله. والمقصود بـ«أكنان الجبال» هذه المغارات والكهوف التي يستطيع الإنسان أن يستخدمها كملجأ له وقيل: قد تكون أهميَّة الملاجىء الجبلية والمغارات مجهولة بالنسبة لأهل المدن الآمنين غير أنها ذات أهميَّة حسَّاسة جداً للمسافرين العُزَّل وقاطعي الصحراء أو الرعاة، والسائرين ليلاً، وغالباً ما تنقذهم من الموت المحتَّم، ولاسيما وأن هذه الملاجىء دافئة في الشتاء وباردة في الصيف.

٢ ـ إن بعض الناس منذ غابر الأزمان وحتى يومنا هذا ينحتون بيوتهم في بطن الجبال، وهي محكمة جداً وآمنة تماماً في مواجهة الحوادث الطبيعية كما قال تعالى حول قوم (ثمود): ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحجر: ٨٢].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] (جدد) جمع (جُدَّة) كغُدَد وغُدَّة بمعنى الطريق والجادَّة و(بيض) جمع (أبيض) و(حُمْر) جمع (أحمر)، و(غرابيب) جمع (غربيب) وتعني شديد السواد. فطُرُق الجبال المختلفة بألوانها المتباينة تماماً لها أهميَّة كبيرة حيث تساعد المسافرين في العثور على مقاصدهم وتنقذهم من الضياع وقيل: إن تعدد الألوان يدل على اختلاف مركبات الصخور، وقد تكون دليلاً على وجود المعادن المختلفة التي تختفي في الجبال.

٤ ـ ليس للجبال أثر حسّاس في حفظ استقرار الأرض فحسب، بل تساهم في استقرار الجوّ المحيط بالأرض أيضاً فالكل يعلم بصعوبة الحياة في الصحراء الشاسعة، لأن الهواء هناك يكون عاصفة ومليئاً بالغبار والتراب على الدوام، وليس انعدام الإستقرار هناك فحسب، وإنما يضيّق التنفّس، ويصبح متعباً أيضاً. نعم... هذا الإرتفاع الشاهق للجبال هو الذي يقف أمام هذه العواصف ويصدّها أو يرسلها إلى طبقات الجوّ العليا.

٥ ـ قد ورد في القرآن الكريم عبارات مختلفة وغنيّة في معانيها في مجال خلق الجبال وفيها دلالات واضحات على تأثير وجود الجبال في الحفاظ على استقرار الأرض والتي عبَّر عنها تارة بـ«الأوتاد» كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞﴾ [النبأ: ٦-٧] و«الأوتاد» تستخدم عادة في إقفال أقسام مختلفة من الأبواب والصناديق والسفن وما شابه ذلك أو صيانة المخيّمات وتقويتها في مقابل هبوب الرياح.

وتارة عبَّر عنها بـ«أن تميد بكم» كما في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [لقمان: ١٠] وهي مأخوذة من مادة «ميدان» بمعنى الإهتزاز والإضطراب، ومعنى ذلك: أن الجبال تمنع اضطراب الأرض واهتزازها ولم يطلع أحد على هذا المطلب في ذلك العصر ونحن في هذا الوقت نعلم جيّداً مدى دور الجبال على هذا الصعيد. وسيأتيك قريباً معنى «أكناناً» و«رواسي».

٦ ـ إن في واقع الأمر هي في قوّة أحد الدروع الفولاذية التي تحيط بالأرض من كل جوانبها. ونظراً لقوّة ارتباطها واتصالها بأعماق الأرض تشكّل بدورها أحد الشبكات القويّة الشاملة، وإذا لم يكن كذلك وكانت الرمال الناعمة تغطي صعيد الأرض، لوقعت تحت تأثير

الجاذبية القويَّة للقمر بكل سهولة ولهزَّ الجزرُ والمدُّ كلَّ شيء على اليابسة نظير المدِّ والجزرِ في البحار، واستولى الإضطراب والإهتزاز والحركة على وجه الأرض في الليل والنهار وهذا يسبب انهدام وسقوط كل مبنى من المباني وعند ذلك تتعذّر الحياة على وجه الأرض وزيادة على ذلك: إن وجود هذا الحصن المنيع في الأرض ينزل بالمد والجزر إلى أدنى مستوى، وحالياً تأخذ القشرة السميكة للأرض بالإرتفاع والإنخفاض بمقدار ثلاثين سنتيمتراً في كل يوم وليلة أيضاً وهذا بعكس البحار التي ترتفع وتنخفض على أثر الجزر والمدّ أمتاراً متعددة أحياناً هذا ما قاله في (نفحات القرآن) وقال أيضاً: وتُوجِدُ جاذبيةُ الشمس الجزرَ والمدَّ أيضاً وإن كان ضعيفاً ولو وقع مسير الشمس والقمر في خط واحد واتصلت الجاذبيَّتان في جانب واحد لاشتدَّت قوَّة هذه الحركات واحتدَّت. إلا أن القرآن يذهب بالقول إلى أن الجبال التي هي أوتاد الأرض تصونها من الإهتزاز.

٧ ـ إن الضغط الداخلي للأرض بواسطة حرارتها المركزية الهائلة يؤثّر على قشرة الأرض بصورة دائمة ولولا وجود الجبال لأصبح مصدراً من مصادر الإضطراب المستمر للأرض، والآن تدبَّروا لو اشتدَّ الإضطراب لحركة المدّ والجزر والضغط الداخلي على أثر مرونة قشرة الأرض وطراوتها، هل كان للهدوء والإستقرار الذي نستشعره في وقتنا الحاضر معنى يذكر على الإطلاق؟ وهل نجد بيتاً وملجأً ومأوى نلجأ إليه؟

٨ ـ لقد ثبت في وقتنا الحاضر أن الجبال بأعمدتها القويَّة تُحرِّك معها الهواء الحاصل في أطراف الأرض، والآن لو فرضنا أن الأرض تتحرَّك في دورانها حول نفسها بسرعتها الذاتية المعهودة «أي ما يقارب الثلاثين كيلومتراً في الدقيقة» وبناء على عدم وجود الجبال، لما تحقق مثل هذا الدوران للهواء المتناثر في أطرافها، ولثارت ثائرة العواصف، والأعاصير والرياح الشديدة على أثر اصطدام جزيئات الهواء بوجه

الأرض فضلاً عمَّا يولِّد ذلك من حرارة هائلة تحرق الأخضر واليابس كما أن الطائرات السريعة لو سارت في الطبقات السفلى للجوّ لاجتمعت أجنحتها من الحرارة بحيث قد يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة. لهذا تضطر إلى الصعود في الطبقات العليا للجوّ لتتحرك في وسط الهواء الرقيق جداً حتى يقلّ احتكاكها بالهواء الذي هو المنشأ لإيجاد الحرارة.

٩ ـ وقال في النفحات: لقد أزالت منخفضات ومرتفعات وجبال الأرض هذه الأزمة وحرّكت الطبقة السميكة للجو مضافاً إلى حركة الأرض تماماً كدوران أسنان الدواليب ذات المقود التي تدور مع دورانها بقيَّة الأشياء الأخرى فبناء على ذلك تعتبر الجبال وسيلة من وسائل استقرار الأرض واستقرار ساكنيها سواء في مقابل جاذبية القمر والشمس، أو في مقابل الضغط الداخلي أو في مقابل العواصف الشديدة والمستمرة أو في مقابل تولّد الحرارة الشاقة، من جهة أخرى تقدمت الإشارة في الآيات السابقة إلى وجود العلاقة بين الجبال وبين نزول المطر وارتواء الأراضي والحصول على ماء الفرات وهو الماء العذب يقول عز من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾ [المرسلات: ٢٧].

١٠ ـ إن الجبال تعتبر عندهم في مقابل تحولات الضغط الأرضي في قوّة «الدوَّار الثابت» الذي يحول دون تبدل السرعة.

قال في النفحات:

توضيح ذلك: إنَّ المقصود من «الدوار الثابت» هو نفس الشيء الموجود في كافة الوسائل التي لها حركة دورية مشابهة وذلك في صورة دوَّار ثقيل يُدعى بالدوَّار الطيار أو الدوار الثابت يُنصبُ في محورها حتى ينظم سرعتها. وعلى سبيل المثال: لو ورد ضغط من

الخارج على هذه الوسيلة ذات الحركة الدوريَّة ثم انقطع الضغط فجأة لقفزت إلى الأمام ووجَّهت صدمة إلى ذلك الجهاز، أما إذا نصب الدوار الثابت عليها لاحتفظت بهذا الضغط في داخلها، ثم تدفعه بالتدريج بدون أن تتوجَّه أي صدمة إلى ذلك الجهاز (تأمل جيداً).

هذا من جهة ومن جهة أخرى: بإمكان العواصف الهائجة التي تهبُّ أحياناً في الجهة المخالفة أو الموافقة للأرض أن تؤثّر على حركتها... وحينما تهدأ فورة العاصفة تتحوَّل الأرض إلى حالة من الإندفاع العشوائي الذي يوجِّه ضربة قاصمة إلى جميع الموجودات الأرضية بحيث يولِّد الإضطراب في كل شيء إلا أن لوجود الجبال التي هي بمثابة «الدوار الثابت» دوراً في الاحتفاظ بكل هذه الضغوط المثبتة فيها والمنفية فتحدُّ دون حدوث الصدمات، وتحافظ على الحركة المتوازنة للأرض، وعلى حدِّ تعبير القرآن تقف مانعاً دون حدوث الإهتزازات وزعزعة الإستقرار...

١١ ـ والنكتة الأخرى هي أن القرآن في صدد إيجاد الجبال يقول: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ [النحل: ١٥].

ويقول في مكان آخر: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ﴾ [النمل: ٦١] هذه التعابير ونظائرها التي تكررت في القرآن تُبيِّن بوضوح على أن الجبال خلقت بعد خلق الأرض، وأثبت العلم الحديث هذا المعنى بوضوح أيضاً وذهب إلى القول بأن الكثير من الجبال حدث على أثر تعوجات الأرض، والبعض حدث على أثر المواد الذائبة المحرقة، والبعض الآخر حدث بسبب تنقية المواد الرخوة من أطراف المواد الصلبة للأرض الذي يحصل على أثر نزول المطر، وكل ذلك تحقق بعد خلق الأرض، وإيجادها... ومما لا ريب فيه أن هذه المسائل لم يتأنَّ معرفتها حين نزول هذه الآيات من القرآن.

١٢ ـ إن الجبال هي سبب من أسباب تجمع بخار الماء بمعنى تراكم، السحب.

١٣ ـ إنها سبب من أسباب برودة طبقة الهواء المجاور لها.

١٤ ـ إنها تحتفظ بالقسم الأكبر من الأمطار على شكل ثلج، كما أنها منبع من المنابع المستمرة لجريان المياه على سطح الأرض، ومن ثم صيانة المياه من الهدر والضياع بالإضافة إلى أن الإمتداد الواسع للجبال وقشرتها المتعكرة تقلب أمواج المياه، وتعرضها للهواء النقي فيصفو الماء ويتحوَّل إلى «ماء الفرات» وهو (الماء العذب)[1].

١٥ ـ إضافة إلى ما تقدم، فإن للجبال تأثيراً بالغاً في نزول الثلوج وهطول الأمطار لأنها تقف في طريق الغيوم، والرطوبة الصاعدة من البحر، فتوقفها وتدفعها إلى الهطول، فينحدر بعض هذه الأمطار من أطرافها، وتحتفظ بالقسم الآخر في وسطها أو تحتفظ بها على هيئة ثلج وجليد في قمّتها.

١٦ ـ إن للجبال دوراً مهماً في تعديل حرارة الجوّ لاسيما في المناطق الإستوائية لأن ارتفاع الجبال يؤدي إلى ابتعاد المناطق المجاورة لها عن سطح الأرض، ونحن نعلم أننا كلما ابتعدنا عن سطح الأرض تزداد برودة الجوّ.

١٧ ـ إن الجبال مصدرٌ مهمٌّ لأنواع المعادن والثروات الهائلة التي تختفي فيها، ومن أجل أن يظفر الناس بهذه الثروات فهم يهرعون إلى الجبال دائماً للبحث عنها.

١٨ ـ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

(١) نفحات القرآن.

الرَّوَاسِيْ: جمع (رَاسِيَة) وهي الجبال الصلدة الرَّاسخة وهي في الأصل من (الرَّسْو) وهي مأخوذة من الثبات والرسوخ وقد ثبت في هذا الزمان بأن الجبال لها جذور عظيمة في أعماق الأرض وهذه الجذور متشابكة معاً وتُمْسِك بقشرة الأرض كالدرع، وتحفظها في مواجهة الضغوط الناشئة عن الحرارة الداخلية، ولولاها لما كان لسطح الأرض من قرار، وفضلاً عن ذلك فكما أن جاذبية القمر والشمس تترك تأثيراتها على المحيطات، وتسبب الجزْرَ والمدَّ فإنَّ اليابسة لها تأثيرها أيضاً فيمنح درع الجبال قِشْرَةَ الأرض قدرة المقاومة أمام هذا الضغط الهائل.

١٩ ـ إن الجبال تصون بقاع الأرض المختلفة من العواصف والسيول وتقف أمامها كالسور العالي بحيث لو كان وجه الأرض كله على هيئة صحراء لتعسَّرت حياة الإنسان على سطحها أمام هذه السيول العارمة.

٢٠ ـ والذي هو أهم من كل ما مضى فإن الجبال تعتبر بمنزلة الأوتاد القوية لنظام حياة البشر لكونها مركزاً لذخائر المياه وأن الأوتاد جمع وتَد وهو المسمار إلا أنه أغلظ منه (كما في الميزان وغيره). قيل: ولعل عدُّ الجبال أوتاداً مبني على أن عمدة جبال الأرض من عمل البراكين بشق الأرض فتخرج منه مواد أرضية مذابة تستقر على فم الشق متراكمة كهيئة الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فورة البركان التي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الإضطراب والمَيَدان.

٢١ ـ إن لتكوين الأنهار علاقة بوجود الجبال وهو الصحيح فالأنهار الكبيرة التي تجري على مدى السنة وتسقي الأراضي اليابسة هي من بركات المياه التي تجمعت في أعماق الجبال أو قممها على هيئة جليد أو بَرَد ولهذا تعتبر الجبال العملاقة في العالم ينابيع لأنهار العالم العظيمة.

٢٢ ـ لقد كان يوجد على الدوام في أعماق الجبال العظيمة الشاهقة ممرات وطرق تمنح الناس فرصة المرور والعبور، وإنها في ذات الوقت الذي تشكل سدّاً قوياً أمام السيول، فهي لا تمنع عبور ومرور الناس، ونادراً ما تقوم هذه الجبال بعزل أجزاء من الأرض بشكل كامل.

٢٣ ـ إن سطح الأرض لو كان مسطّحاً لأصبح حاراً جداً، واحترق بحيث تتعسَّر الحياة عليه بسبب حركة الأرض السريعة حول نفسها، وحركة الهواء السريعة على سطح الأرض. لكن الباري سبحانه الذي جعل الأرض مهداً لراحة الإنسان أمر الجبال أن تنقي بقبضتها في طبقات الجوّ وتديرها معها حول الأرض كي تمنع اهتزاز الجوّ، وحصول الحرارة.

٢٤ ـ إن الجبال توجدُ مساحات مسطَّحة شاسعة بسبب التعرجات، والإنكسارات، تؤدي إلى مضاعفة الجزء الذي يمكن استغلاله من الأرض لعدَّة مرات، وفي نفس الوقت فإن أغلبها يعتبر مكاناً لنموِّ أشجار الغابات الكثيفة، وأنواع النباتات الطبية والغذائية والمراتع.

٢٥ ـ قيل: إن العلامة المجلسي(رض) ذكر في تفسير الآية: وجعل الجبال أوتاداً سبعة تفاسير ثالثها ما يلي: (ما يخطر بالبال وهو أن يكون مدخلية الجبال لتعدم اضطراب الأرض بسبب اشتباكها واتصال بعضها ببعض في أعماق الأرض بحيث تمنعها عن تفتّت أجزائها وتفرّقها فهي بمنزلة الأوتاد المغروزة المثبتة في الأبواب المركبة من قطع الخشب الكثيرة بحيث تصير سبباً لالتصاق بعضها ببعض وعدم تفرّقها وهذا معلوم ظاهر لمن حفر الآبار في الأرض فإنها تنتهي عند المبالغة في حفرها إلى الأحجار الصلبة، وأنت ترى أكثر قطع الأرض

واقعة بين الجبال محيطة بها فكأنها مع ما يتصل بها من القطعة الحجرية المتصلة بها من تحت تلك القطعات كالطرف لها تمنعها عن التفتّت والتفرُّق والإضطراب عن عروض الأسباب الداعية إلى ذلك[1].

٢٦ ـ حديث الإمام الصادق عليه السلام حول الجبال قال في كتاب توحيد المفضَّل: «أنظر يا مفضَّل إلى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة التي يحسبها الغافلون فضلاً لا حاجة إليها والمنافع فيها كثيرة: فمن ذلك أن تسقط عليها الثلوج فتبقى في قلالها[2] لمن يحتاج إليها، ويذوب ما ذاب منها فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظام وينبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل ويكون فيها كهوف ومقايل للوحوش من السباع العادية، ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرز من الأعداء، وينحت منها الحجارة للبناء والأرحاء[3]، ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر، وفيها خلال أخرى لا يعرفها إلا المقدّر لها في سابق علمه» وهو حديث مليء بالمعاني وكاشف لأسرار الخلق في مختلف الجوانب لمعرفة الله تعالى. وقد تكون العبارة الأخيرة في ختام حديث الإمام عليه السلام: إشارة إلى الفوائد المهمّة الأخرى التي اكتشفت تدريجياً مع تطوّر العلوم وتمت الإشارة إليها في البحوث الماضية أو المنافع التي لا زالت خافية عن أنظار العلم البشري.

٢٧ ـ قال في نفحات القرآن: «الكل يعرف بشكل عام أن الأرياف وأغلب المدن المهمَّة تتوسط الجبال الشامخة أو تقع في أعماقها وأن الأنهار الكبيرة التي هي عماد ازدهار المدن تنبع من

---

(١) بحار الأنوار ج٣ ـ ص١٢٧.

(٢) القِلال: جمع قُلَّة وهي أعلى الرأس وأعلى الجبال وكل شيء.

(٣) الأرحاء: جمع رَحى وهي الطاحونة.

الجبال الشاهقة إلا أن دور الجبال في حياة الإنسان لا ينحصر بذلك فقط على الرغم من أنه مهمّ بدوره أيضاً.

فالجبال لها دور مهمّ جداً في حياة الإنسان بل جميع الموجودات التي تعيش على الأرض، وفوائدها وبركاتها عديدة جداً، ولا مبالغة إذا قلنا باستحالة الحياة على الأرض بدون وجود الجبال.

ولهذا فإن القرآن الكريم أشار في آيات كثيرة إلى مسألة خلق الجبال كإحدى آيات التوحيد، وبراهين على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا».

وفي الموسوعة: تشيخ الجبال كما يشيخ الإنسان لكن ليس سريعاً جدّاً مثله فسلسلة جبال الهملايا في آسيا بدأت بالنشوء منذ ٥٠ مليون سنة، ولا تزال شابَّة في دور التكوُّن. تتكوَّن الجبال نتيجة لتكتونيَّات (حركات وقُوَى تشكّل) الصفائح القاريَّة (وهي التكتونيَّات التي تحدث في قشرة الأرض، ضاغطة وعاصرة حوافَّ القارَّات هذه القُوَى ترفع الجبال من الأرض قَسْراً، وتحدِّد بعض سلاسل الجبال القديمة كجبال الأورال في روسيا والمرتفعات الإسكتلندية مواقع تصادم الصفائح القاريَّة في أزمان غابرة. نشوءُ الجبال ينطوي على إجهادات عظيمة بسبب التواءات وانقطاعات تشكيلية في الصخور يمكنك تقصِّيها في المناطق الجبلية.

آياته في البحر

وفيه أبحاث:

البحث الأول

في تعريفه وما يتعلق به

البَحْر: هو المكان الواسع الذي يجتمع فيه ماء كثير كما يطلق على كل شيء واسع (عن الراغب) وقد يسأل من أين جاءت مياه البحار؟

قيل: إنها تكوّنت نتيجة لتفاعل الأوكسجين والهدروجين، الموجودين في أعماق الأرض وانبثقت كالينابيع التي تتدفق حالياً وملأت منخفضات الأرض تدريجياً.

وقيل الأشهر هو: إنَّ السماء غطَّت جوانب الكرة الأرضية بالغيوم المتراكمة، وحينما انخفضت حرارتها سالت على هيئة أمطار غزيرة وهطل المطر لآلاف السنين، وغمرت السيول كافة أنحاء الكرة الأرضية بنحو لا يمكن تصوّره، وحصلت البحار، وحتى أمدٍ طويل كانت أمواجه تغسل أعماقه، وكذلك الصخور والسواحل ثم هدأت تدريجياً، واستقرت على هيئتها الحالية.

وقد قالوا: إنَّ الماء يغطي ثلاثة أرباع سطح الأرض، وإن

المحيطات والبحار ترتبط مع بعضها، ومع أن أكثر مياه البحار على سطح الأرض مالحة إلا أن بحار وبحيرات المياه العذبة ليست قليلة أيضاً حيث تشاهد نماذج عديدة منها في الولايات المتحدة، وكثيراً ما يستفاد منها إضافة إلى الأنهار الكبيرة التي تصب في البحار المالحة، وتتوغل فيها فتدفع المياه المالحة إلى الخلف ولا تختلط معها لفترة طويلة فتشكُلُ بحراً من الماء العذب حيث يسقي كثيراً من السواحل أثناء المدّ والجزر مما يؤدي إلى ازدهار البساتين والمزارع الواسعة.

لأن مصبات الأنهار التي تصب في البحار تمثّل بحراً من الماء العذب فيندفع ماء الساحل العذب إلى الخلف، ويغطي كثيراً من الأراضي لذلك سخّر البشر منذ القِدَم أراضي واسعة من خلال شق الأنهار في مثل هذه المناطق.

البحث الثاني

في منافع البحر

إن البحر له تاريخ قديم جداً ومليء بالأسرار ولكن الأهم من ذلك هي البركات والمنافع التي ينالها الإنسان من البحر حيث بإمكاننا أن ندرج قسماً منها ولا يتسع هذا البحث المختصر لبيانها كلها:

١ ـ إن البحر له أهميّة بالغة في الإيجار وحمل ونقل الناس. والسلع التجارية قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ...﴾ [البقرة: ١٦٤].

الفُلْكُ: هي السفن ويستوي فيها المفرد والجمع والمذكر والمؤنث ومن أجل أن تتمكن السفن من الإبحار في المحيطات والبحار، واستخدامها كأفضل وسيلة لحمل ونقل السلع التجارية ونقل البشر لا بد من تظافر عدّة عوامل: نوعية القوانين التي تسود المواد

الثقيلة والخفيفة التي تصونها على سطح الماء وارتجاج الماء وهبوب الرياح المنظم على سطح المحيطات والعمق اللازم للبحار فتتظافر كلها كي تتحرَّك السفن العملاقة على سطح المحيطات أما السفن التي تعمل بقوّة البخار فهي أعظم ما صنعه الإنسان وقد يكون حجم أحدها بقدر مدينة وتستطيع إنجاز ما يعادل عمل عشرات الآلاف من السيارات لوحدها... ولهذا فلو كان للرياح هبوب شديد أو تكون منقطعة فإنها تجعل السفن تواجه حركات واضطرابات قوية، وقد تتوقف وتضيع في وسط البحر أيضاً قال تعالى: ﴿رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الإسراء: ٦٦] ولفظ (يزجي) وهو من مادة (إزجاء) وهي تعني «تسيير الشيء بمداراة ورقّة».

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢] المراد بالفلك: السفن، وإنما نسبه إليه سبحانه (مع أنه من أعمال وصنع البشر) لأنه تعالى هو الذي خلق الأشجار الصلبة التي منها ما يمكن صنع السفن وتركيبها، ولأنه هو الذي خلق الحديد وسائر ما تحتاج له السفن من آلات وغيرها، ولأنه تعالى هو الذي علم العباد كيف يتخذونها ويجرونها على سطح الماء، ولأنه تعالى خلق الماء وجعل فيه قابلية على صفة السلاسة التي باعتبارها يصح جري السفن فيه ولأنه تعالى خلق الرياح وخلق الحركات القوية فيها لأجل تحريك السفن وجريها، ولأنه تعالى وسَّع الأنهار، وجعل لها من العمق ما يجوز جري السفن فيها فلولا خلق الله هذه الأمور لما أمكن الإنتفاع بالسفن في البحر «بأمره» أي بقدرته وإرادته. «وسخر لكم الأنهار» أي لما كان ماء البحر قلما ينتفع به في الزراعات وغيرها ذكر سبحانه إنعامه على عباده بتفجير الأنهار والعيون حتى ينبعث الماء الصالح منها إلى مواضع الزروع والنبات ويشرب منه الإنسان والحيوان.

٢ ـ المواد الغذائية وهي من أهم الفوائد الأخرى التي يحصل عليها الإنسان من البحر قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤] قال في الميزان: «والطري من الطراوة وهو الغضّ الجديد من الشيء على ما ذكره في المفردات» والمواد الغذائية الكامنة في البحر كثيرة جداً حتى قال في نفحات القرآن: يكفينا العلم بأنه يتمّ صيد ستة وعشرين مليون طن من الأسماك سنوياً علماً أن هذا الإحصاء يتعلق بثلاثين عاماً مضت ومن المسلّم به أن هذا الرقم قد تضاعف كثيراً في الوقت الحاضر.

وليس الإنسان وحده بل إن الكثير من الطيور تحصل على طعامها من البحار أيضاً فيقول بعض العلماء من خلال الإحصاءات التي قاموا بها: إن الطيور البحرية التي تعيش على الجبال الساحلية والجزر الصخرية تستهلك لوحدها مليونين وخمسمائة ألف طن من الأسماك سنوياً! وقال: ونعلم أيضاً أن جانباً مهمّاً من علف الدواجن يتمّ تأمينه من عظام أسماك البحر (نفس هذه الأسماك المصطادة) أي أنها تتدخل بصورة غير مباشرة في تغذية الإنسان:

وأحسن الأسماك المشهورة عندنا في البحرين ما يلي:

١ ـ الصافي وهو أنواع منه الثمين اللذيذ ومنه دون ذلك. ٢ ـ الكنعد. ٣ ـ الهوامير. ٤ ـ البدج. ٥ ـ الربيب. ٦ ـ السبيطي. ٧ ـ الإربيان (وهو الربيان). ٨ ـ السّلْسُ. ٩ ـ الحاقول. ١٠ ـ الحمام. وغير ذلك وقد سمعنا أن نيل مصر فيه (٥٠) نوعاً من الأسماك وأعظم وأثمن سمك البحر هو (سمك الكِفيار).

٣ ـ (الأعشاب والأدوية) وقد قال المتخصصون: إنه يحصل من كل هكتار من البحر خمسمائة طن من العلف الأخضر في حين أن أفضل مزارعنا لا تنتج أكثر من أربعة أطنان، وفي بعض البلدان يستغل

هذا العلف لتغذية المواشي، ويستعمل رماده سماداً للمزارع أيضاً، ويستخرجون من الأعلاف البحرية مختلف المواد كالكحول الجامدة، والسلولوز، والنشاء والمواد الجلاتينية حيث تستثمر في الصناعات الكيماوية، وإعداد الطعام وبعض الأدوية.

٤ ـ المعادن التي تستخرج من البحر وهي على قسمين:

الأول: المعادن التي في أعماق البحر والثاني: المعادن التي تعوم على سطح البحر ومن أمثلة ذلك: الفلزات التي يمكن استخلاصها من ماء البحر «كالمغنيسيوم» الذي يستعمل في الصناعات وكذلك «البوتاسيوم» و«البروم» و«سلفات الصوديوم» وغيرها وقال بعض العلماء (على ما ينقل): إن أكثر من أربعين عنصراً من المعادن (عدا ما ذكر) موجود في ماء البحر لها قيمة صناعية جديرة بالاهتمام كما ويعثر على الذهب في ماء البحر أيضاً.

غير أن استخراج الكثير من الغازات ما زال يحتاج إلى ميزانية هائلة لا يمكن مقارنتها بالإستهلاك، وقد يأتي اليوم الذي يتمكن فيه الإنسان من أن ينالها من خلال طرق أكثر يسراً.

قالوا: وتقوم بعض الشركات العملاقة بتصنيع أكثر من خمسمائة مادة مختلفة من معادن البحر حيث هناك مليارات الأطنان من المعادن.

والملح هو أحد المواد المعدنية التي تستخرج من البحر وله دور مهمٌ في حياة الإنسان وقد ذكروا في السابق أن الملح بلغ من الأهمية بحيث إنَّ جنود الروم كانوا يتقاضون رواتبهم على هيئة ملح وحتى في روسيا فقد اندلعت (ثورة الملح)! بسبب ارتفاع سعره.

إن أهم مصادر استخراج الملح هو البحر وحتى أن بعض المناطق الملْحية الموجودة على اليابسة والتي يبلغ قطرها (٨٠٠م) هي

من آثار البحار عندما كانت تغمر جميع بقاع الأرض. لقد قدَّروا الإستهلاك العالمي للملح بـ(٢٢) مليون طن سنوياً بحيث لو أراد الإنسان استهلاك مخزون الملح الموجود على اليابسة لنفذ عاجلاً أم آجلاً في حين أن البحر مصدر لا ينفذ للملح فيمكن أن تؤمّن أملاح البحر ما يحتاجه البشر لمدَّة مليون وسبعمائة ألف سنة (نفحات القرآن).

٥ ـ (النفط) وهو من أثمن المستخلَصات من هدايا البحر، لأن المليارات من الموجودات البحرية ترقُد في أحضان البحار العظيمة، وبما أن القارات ارتفعت فيما بعد فقد دُفِنَتْ هذه الموجودات تحت الرمال التي تحوَّلت إلى صخور بعد ذلك وبقي النفط الناتج عنها في أعماق الأرض (نفحات القرآن) وفي الموسوعة (العلمية): تُرى ماذا حدث للنباتات والحيوانات البالغة الصِّغر التي ماتت في البحر منذ ملايين السنين؟ العلماء يعتقدون أنها تحوَّلت إلى نِفْط وهو الوقود الذي يستخدم اليوم في تسيير السيارات، وتشغيل المصانع، وتصنيع الكثير من الكيماويَّات المفيدة، فالمادة الحيوانية التي تتجمَّع في قاع البحر تَنْحَلُّ ببطء بفعل البَكتِريا وعمليَّة التحلُّل هذه تطلق الميثان أو الغاز الطبيعيّ. وإذا سخُنَتِ المادة المتبقية فإنها تتفكَّك إلى جُزَيئات خفيفة تسمّى هيدروكربونات تتسَرِبُ عبر الصخور مكوّنة تجمُّعات نِفْطيَّة، ومع أن الغاز الطبيعيَّ هو ناتج ثانوي هنا، فإن الغاز الطبيعيّ المستخرج من الصخور في أمكنة في بحر الشمال هو في الواقع ناتج من انحلال الفحم.

٦ ـ (إنتاج الطاقة) قالوا: لقد انتبه الإنسان منذ القِدَم إلى هذا الأمر وهو إمكانية إنتاج الطاقة من خلال السيطرة على المياه المتراكمة بسبب المدّ وتنسحب أثناء حدوث الجزر فتستغل لتشغيل وتحريك المطاحن وغيرها.

وتفيد بحوث العلماء المعاصرين أنه يمكن إنتاج الكهرباء بكمية كبيرة من هذه البحار، وأن يستعان بها بصفتها أهم مصدر لإنتاج الطاقة، فالجزر والمد الذي يحدث مرتين ليلاً ونهاراً بتأثير جاذبية القمر يقوم برفع وخفض ماء البحار بمقدار كبير.

٧ ـ (وسائل الزينة المختلفة) فقد قال الله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤] يريد ما يستخرج من البحر كاللؤلؤ الذي ينمو في نوع خاص من الصدف والمرجان الذي هو نوع من الأحياء البحرية، ولكن على هيئة أغصان أشجار لها منظر جميل ومرغوب إضافة إلى الزينة فهو يستعمل في الطيب أيضاً (النفحات) وهما من الأمور التي تتحلّى وتتزيَّن بها النساء.

٨ ـ (تلطيف الجوّ عن طريق البحار) قالوا: ليست الرياح التي تهبُّ من البحار نحو اليابسة هي التي ترطب وتلطف الجو فقط بل هناك أنهار عظيمة متحرِّكة في قلب محيطات العالم تتحرَّك من المناطق الحارة إلى المناطق الباردة وبالعكس وبصورة عامة لها أثر بالغ في تلطيف الجوّ والهواء على الكرة الأرضية.

٩ ـ (الإستفادة من ماء البحر للطِّبّ) إن ماء البحر له آثار مفيدة لجسم وأعصاب الإنسان ولهذا ينتشر اليوم وفي معظم مناطق العالم استثمار ماء البحر لعلاج بعض الأمراض الجلدية والعصبية أو لحفظ الصحة والسلامة. قالوا: ولو تمَّ القضاء على التلوّث الأخلاقي في هذا المجال لأصبح استثمار ماء البحر مصدراً لسلامة ونشاط الناس.

١٠ ـ (المصدر الرئيس للحياة الجوفية) قالوا: إن أهمّ وأعظم وأكثر فوائد البحر هي الأبخرة التي تتصاعد منه ثم تؤلّف الغيوم وتساق هذه الغيوم نحو المناطق اليابسة والجافة فتحييها، وقد ذكرنا ذلك في فصل الريح والأمطار بشكل مفصّل فراجع.

١١ ـ (توفير الماء العذب) يتم في كثير من المناطق التي يصعب الحصول على الماء العذب تأمين هذه المادة الحياتية من خلال تقطير ماء البحر فتصبح المناطق المهجورة مسكونة بسبب ذلك.

هذا جانب من منافع وبركات البحار التي وقف عليها الإنسان حتى هذا اليوم وليس معلوماً ما حجم المنافع التي سينالها الإنسان في المستقبل، وهنا نقف على عظمة هذا التعبير القرآني: ﴿...سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [الجاثية: ١٢][1].

البحث الثالث

في عجائب البحر

نأتي للحديث عنها على أقسام:

١ ـ قال بعض العلماء: إنَّ عدد أنواع الأحياء التي تمت معرفتها مائة وأربعون ألف نوع، علماً أن عدد هذه الأنواع كثير للغاية على سطح المحيطات، ولكن كلما نفذنا في الأعماق فإنها تقلُّ أو على الأقل تقل معلوماتنا عنها.

٢ ـ قالوا: إن المسألة المهمَّة التي تخصُّ البحار هي أن التصور كان ينصبُّ على عدم وجود أيّ كائن حيّ في أعماق البحار، لأن أشعة الشمس تنفذ إلى عمق (٦٠٠) متر في الماء فقط وتختفي نهاية الأشعة في مثل هذا العمق فيغطّ كل شيء في «ظلام دامس» بالإضافة إلى ذلك إن ماء البحر يكون بارداً جداً في ذلك العمق من البحر.

٣ ـ والأهم من ذلك الضغط الذي يولده الماء على موجودات تلك المنطقة لأن ضغط الماء في عمق كيلومتر واحد يكون في نحو من

---

(١) راجع: (نفحات القرآن)، (البحر دار العجائب)، (أسرار البحر)، (عجائب البحر).

مائة كيلوغرام لكل سنتمتر مربع واحد ومن المسلم به لو كان الإنسان هناك مجرداً من ملابس الوقاية لتحطمت وسحقت عظامه وإن الغواصين يغوصون إلى عمق ٣٠ متراً فقط بدون ملابس الغوص وإلى عمق (١٥٠) متراً بملابس الغوص، في حين أن ضغط الماء يبلغ (٧) أطنان لكل (إنج) مربع في أعمق نقاط البحر[١].

٤ ـ قد أثبتت بحوث العلماء فيما بعد أن هنالك في أعماق البحر موجودات حيَّة كثيرة وعجيبة حيث تقوم بإبطال مفعول الضغط العجيب للماء من خلال الضغط الداخلي الموجود فيها.

ولا تنمو الحشائش هناك كي تستفيد منها الأحياء الموجودة في قاع البحر لكن يد القدرة الإلهية تقوم بتهيئة الغذاء اللازم لها والذي هو عبارة عن المواد النباتية المختلفة على سطح المحيط وتحت ضوء الشمس وبعد إعداده ينزل إلى سكان أعماق البحر على هيئة مائدة سماوية وتترسب هناك بالإضافة إلى الأحياء الموجودة على سطح الماء التي تموت حيث تعدُّ جثثها طعاماً لذيذاً للموجودات الحيّة في قاع البحر.

٥ ـ كيفية حلّ مشكلة الظلام الدامس في عمق البحر: فقد وفَّرت القدرة التي خلقت هذه الموجودات للعيش في هذه المنطقة والنور اللازم لها، لأن أغلب هذه الأحياء تقوم بإشعاع النور منها فإنه يخرج منها نور كنور ليلة مقمرة من ليالي الصيف فتضيء ذلك المحيط، وينطلق نور أحمر من رأس نوع من الأسماك، ومن ذيل أخرى نور أزرق، وينشر بعض الأسماك نوراً باللون الأحمر والأبيض والأزرق.

٦ ـ يقول أحد العلماء: إن أكثر المناطق عجباً في البحر ليست

(١) البحر دار العجائب ص٨٩.

قرب سطح الماء ولا قاع المحيط بل هي المنطقة التي تتوسطهما فليس لها سماء فوقها ولا أرض تحتها، وإنما يحيط الماء بكل شيء ولا بيت للموجودات التي تحيى هناك فهي في حركة مستمرة وهناك الأسماك التي تحيّر العقول فأسنان بعضها طويل بالقدر الذي لا تتمكن من أن تغلق فمها أبداً، ونوع من الأسماك يتسع بطنه بحيث يتمكن من ابتلاع سمكة تعادل حجمه ثلاث مرات، وقد أطلق على هذه الأسماك أسماء عجيبة وغريبة مثل «البالع الأسود» و«الأفعى البحرية» و«ثعبان السمك» هذا ما يكون في قعر البحر.

٧ ـ الأحياء التي تكون على سطح ماء البحر: فهناك عجائب أيضاً. وهنالك أسماء كل منها أعجب من الآخر، منها الأسماك ذوات الشحنة الكهربائية حيث تستطيع انتاج كميّات كبيرة من الكهرباء بإيعاز من الدماغ إذ تصيب العدو أو الفريسة بالشلل تلك الشحنات الخطيرة حتى على الإنسان أيضاً.

ومنها: «الأسماك الطائرة» التي تخرج من الماء وتطير إلى مسافة ستين متراً، وتقفز أحياناً أعلى من الأشجار.

ومنها: «السمك ذو الدواة» الذي يفرز مادة سوداء اللون في ماء البحر للإختفاء عن العدوّ والإفلات منه، كما يصنع اليوم في الحروب التقليدية حين يملأ ميدان المعركة بالدخان كي يتوارى الأشخاص عن العدو. ومنها: «مائدة السمك» وهي أحد الأنواع العجيبة للسمك حيث تكون عريضة وكبيرة جداً إذ تبسط نفسها على سطح المحيط فتشكل مائدة، وبمجرد وقوع الفريسة على هذه المائدة تجمع أطرافها المبسوطة عليها وتنشغل بأكلها.

ومنها: إنّه يعيش في البحر أصغر الأحياء وأكبرها أيضاً إذ يبلغ طول بعض الحيتان الموجودة في البحر ثلاثين متراً، وقطرها أكثر من أربعة

عشر متراً، ويبلغ فكُّها أكثر من سبعة أمتار، ووزن لسانها ثلاثة أطنان، ووزن قلبها نصف طن، ووزن كبدها طنّاً واحداً، ويبلغ طول ولدها سبعة أمتار أحياناً[1].

وكان طول أحد الحيتان الذين تمَّ اصطياده في جزائر «نيوجورجيا» ثلاثة وثلاثين متراً ووزنه مائة وخمسة وعشرين ألف كيلو غرام[2].

٨ ـ وفي البحر نباتات مجهرية، ونباتات يبلغ طولها خمسين متراً، ففي البحر وموجوداته ونباتاته وغيرها منافع وبركات ينكشف عنها المزيد من الأسرار في كل يوم يمرُّ من حياة البشر، وتظهر له فوائد جديدة بحيث نجبر الإنسان على الخضوع إلى خالق هذه النعم سبحانه.

وقد قال الإمام الصادق عليه السلام في حديث توحيد المفضل: «فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق، وقصر علم المخلوقين، فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك، ودواب الماء، والأصداف والأصناف التي لا تحصى ولا تعرف منافعها إلا الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث مثل القرمز فإنه إنما عرف الناس صبغه بأنَّ كلبة تجول على شاطىء البحر فوجدت شيئاً من الصنف الذي يسمى «الحلزون» فأكلته فاختضب خطمها بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً...».

ومنها: إنَّه يوجد في البحر حيوان له قرنان مثل غزال البر لكن في قرنيه فروع وفي الفروع أوراق لها ألوان مختلفة كالشجر وإذا مشى كأنه شجرة تمشي في الماء وقد شوهد هذا الحيوان في التلفاز وفمه كفم غزال البر.

---

(١) نقلاً عن (عجائب البحر) و(رسالة الثقافة).

(٢) عن البحر دار العجائب ص١٢١.

بيان حقيقة الملائكة وأحوالهم

أفادت أخبار أهل بيت العصمة عليهم السلام بما يلي:

١ ـ إن الملائكة لم يسكنوا الأصلاب، ولم تضمَّهم الأرحام ولم يُخلقوا من ماء مهين بل خلقهم الله من نور من بحور عذبة وهي بحر الرحمة وأنشأهم إنشاءً فأسكنهم سماواته وأكرمهم بجوده، وائتمنهم على وحيه وجنَّبهم الآفات.

٢ ـ إنهم معصومون من الخطأ فليس فيهم فترة ولا غفلة عندهم ولا فيهم معصية، وهم أعلم خلق الله، وأخوفهم من الله، وأعملهم بطاعته، فلا يغشاهم نوم العيون، ولا فترة الأبدان.

٣ ـ إن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، وإنما يتعايشون بنسيم العرش وقسم طعامهم التسبيح وشرابهم التهليل وأنهم ينامون لكن أنفاسهم لا تنقطع من التسبيح وذلك قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ٢٠] والعلة في نومهم: للفرق بينهم وبين الله عز وجل لأنه ما من حي إلا وينام ما خلا الله وحده.

٤ ـ إن عدد الملائكة في السماوات أكثر من عدد التراب في الأرض، وما في السماء موضع قدم إلا وفيه ملك يسبّح الله ويقدّسه، ولا في الأرض شجرة ولا مدَرَة إلا وفيها مَلَك موكل بها يأتي الله كل يوم بعملها، وما منهم أحد إلا ويتقرَّب كل يوم إلى الله بولايتنا أهل

البيت، ويستغفر لمحبّينا. ويلعن أعداءنا. ويسأل الله أن يرسل عليهم العذاب إرسالاً.

وما تقدم هو القسم الأول.

والقسم الثاني: الملائكة الموكلون بالإنسان وفيه فروع:

١ ـ مع كل إنسان ملكان ملك عن يمينه، وملك عن شماله، فالذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات، ومقعدهما على الكتفين، وقلمهما لسانه، ودواتهما فمه، ومدادهما ريقه ولوحهما فؤاده يكتبان أعماله إلى مماته وأنهما لا يفارقان الإنسان إلا عند الغائط والجنابة والغسل. ويكتبان عليه أيضاً ما ينوي في نفسه وما يلفظ من أقوال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] وإن عمل سيئة أجِّل سبع ساعات لعله يستغفر أو يعمل حسنة تمحو تلك السيئة ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

٢ ـ الكرام الكاتبون: هم الذين يحفظون الإنسان من الآفات ومردة الشياطين وهوام الأرض وذلك للمؤمن والكافر: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الانفطار: ٩-١١] وإذا مرض المؤمن أوحى الله عز وجل إلى صاحب الشمال لا تكتب على عبدي ما دام في حبسي ووثاقي ذنباً، ويوحي إلى صاحب اليمين أن أكتب لعبدي ما كنت تكتب له في صحته من الحسنات.

٣ ـ إذا وضعت المائدة حفظها أربعة أملاك، فإذا قال العبد: بسم الله قالت الملائكة: بارك الله لكم في طعامكم، ثم يقولون للشيطان: أُخرج يا فاسق لا سلطان لك عليهم فإذا فرغوا قالوا: الحمد لله رب العالمين قالت الملائكة: قوم أنعم الله عليهم فأدَّوا شكر ربِّهم فإذا لم يسمِّ قالت الملائكة للشيطان: أدن يا فاسق فكُلْ معهم، وإذا رفعت المائدة ولم يذكر الله، قالت الملائكة: قوم أنعم الله عليهم

فنسوا ربَّهم. ومن أكل الحلال قام على رأسه ملك يستغفر له حتى يفرغ من أكله.

٤ ـ إذا مات المؤمن شيَّعه سبعون ألف ملك إلى قبره، فإذا حلَّ بقبره أتاه منكر ونكير فيقصدانه، ويقولان: من ربُّك وما دينك، ومن نبيّك؟ فيقول: ربي الله ومحمد نبيّي، والإسلام ديني، فيفسحان له في قبره مدَّ بصره، ويأتيانه بالطعام من الجنة، ويدخلان عليه الرَّوْح والريحان ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ...﴾ [الواقعة: ٨٨-٨٩] يعني في قبره.

وإذا مات الكافر شيَّعه سبعون ألفاً من الزبانية إلى قبره، وإنه ليناشد حامليه بصوت يسمعه كل شيء إلا الثقلان الجن والإنس، ويقول: لو أن لي كرَّة فأكون من المؤمنين، ويقول: رب ارجعوني لعلي اعمل صالحاً فيما تركت فتجيبه الزبانية: كلا إنها كلمة هو قائلها...

٥ ـ إن لله ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعة آل محمد ﷺ كما تسقط الريح الورق في أوان سقوطه ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ [غافر: ٧] والله ما أراد غيركم بعني بذلك الشيعة.

٦ ـ ما من عبد إلا ولقلبه أذنان في جوفه أذن ينفث فيها الوسواس الخناس، وأذن ينفث فيها ملك فيؤيد الله المؤمن بالملك فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وإن الإنسان له معقِّبات من بين يديه يحفظونه بأمر الله من أن يقع في ركي (مثل البئر أو غيره) أو يقع عليه حائط أو يصيبه شيء مكروه حتى إذا جاء القدر خَلَّوْا بينه وبين المقادير وهما ملكان يحفظانه بالليل، وملكان يحفظانه بالنهار يتعاقبان.

٧ ـ إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً نكت في قلبه نكتة من نور وفتح مسامع قلبه، ووكَّل به ملكاً يسدِّده، وإذا أراد بعبد سوءاً نكت في قلبه نكتة سوداء، وسدَّ مسامع قلبه، ووكَّل به شيطاناً يضلُّه ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

٨ ـ إذا أحب الله عبداً بعث إليه ملكاً فيقول: اسقمه وشدِّد البلاء، فإذا برىء من شيء فابتله بما هو أشدُّ منه وقوِّ عليه حتى يذكرني، فإني أشتهي أن أسمع كلامه، فإذا أبغض عبداً أوكل به ملكاً فقال: صحّحه واعطه كيلا يذكرني فإني لا أشتهي أن أسمع صوته.

٩ ـ ما من إنسان إلا ومعه مَلك وشيطان، فإذا دنا منه الملَك فرح وإن لم يكن سبب ظاهر لفرحه وإذا دنا منه الشيطان حزن وإن لم يكن سبب ظاهر لحزنه وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٦٨].

١٠ ـ إنه ليس في الأرض آدمي إلا ومعه ملكان موكَّلان به فإذا دخل الإنسان إلى بيت الخلاء وصار على تلك الحال تراه لا يصبر حتى ينظر إلى ما يخرج منه وذلك لأن الملكين اللذين معه يثنيان برقبته ثم يقولان: «يابن آدم أنظر إلى ما كنت تكدح له في الدنيا إلى ما هو صائر».

١١ ـ المؤمن إذا توضأ وسوَّك ثم قام وصلَّى، وضع الملك فاه على فيه فلم يلفظ شيئاً إلا التقمه، وإن لم يستك قام الملك جانباً يستمع إلى قراءته، وإذا قام العبد المؤمن إلى صلاته نظر الله إليه حتى ينصرف وأظلت الرحمة رأسه إلى أفق السماء، والملائكة تحفُّه من

حوله إلى أفق السماء، ووكّل الله به ملكاً قائماً على رأسه، يقول: أيها المصلي لو تعلم من ينظر إليك ومن تناجي ما التفتّ ولا زلت من موضعك أبداً. ومن جلس في مصلّاه ثانياً رجله يذكر الله، وكّل الله به ملكاً فقال له: ازدد شرفاً تزدد لك الحسنات وتمحَ عنك السيئات، وتُبنَ لك الدرجات حتى تنصرف.

١٢ ـ إن الصلاة قد وكّل الله بها ملكاً ليس له عمل غيرها فإذا فرغ منها العبد قبضها الملك وصعد بها، فإن كانت مما تقبل قبلت، وإن كانت مما لا تقبل قيل له: ردها على عبدي فينزل بها حتى يضرب بها وجهه ثم يقول: أفّ لك لا يزال لك عمل يعييني.

١٣ ـ إذا جامع المؤمن أهله بسط عليه سبعون ألف ملك جناحه وتنزل بالرحمة، فإذا اغتسل بنى الله له بكل قطرة بيتاً في الجنة وهو سرٌّ بين الله وبين خلقه.

١٤ ـ إنَّ الحاج حملانه وضمانه على الله فإذا دخل المسجد الحرام وكّل به ملكان يحفظان عليه طوافه وسعيه ضربا على منكبه الأيمن ثم يقولان: أما ما مضى فقد كفيته فانظر كيف تكون فيما تستقبل. ومن صام لله عز وجل يوماً شديد الحر فأصابه ظمأ وكّل به ألف ملك يمسحون وجهه ويبشرونه.

١٥ ـ من شيّع جنازة مؤمن حتى يدفن في قبره وَكّل الله عز وجل به سبعين ألف ملك من المشيّعين يشيّعونه ويستغفرون له.

١٦ ـ المؤمن إذا قرأ القرآن فتح الله عليه باب الرحمة وخلق الله بكل حرف يخرج من فمه ملكاً يسبح له إلى يوم القيامة.

القسم الثالث: عمل الملائكة مع محمد وأهل بيتهﷺ وفيه فروع:

١ ـ إذا كانت عشيَّة الخميس ليلة الجمعة نزلت الملائكة من السماء معها أقلام الذهب وصحف الفضة لا يكتبون عشية الخميس وليلة الجمعة ويوم الجمعة إلى أن تغيب الشمس إلا الصلاة على محمد وآل محمد ﷺ.

٢ ـ ما من قوم اجتمعوا يذكرون فضل محمد وعلي بن أبي طالب وأهل بيته إلا هبطت ملائكة من السماء يحفُّون بهم فإذا تفرقوا عرجت الملائكة إلى السماء فيقول الملائكة: إنا نشم منكم رائحة ما شممناها ولا رائحة أطيب منها، فيقولون إنا كنا قعوداً عند قوم يذكرون فضل محمد وآل محمد ﷺ فعبق بنا من ريحهم، فيقولون: إهبطوا بنا إلى المكان الذي كانوا فيه فيقولون: إنهم تفرقوا.

٣ ـ قال ﷺ: إن الله اختار لي ولأهل بيتي سبعين ألف ملك من الملائكة الكروبيين يطوفون بقبري وقبر أهل بيتي ويعرجون إلى السماء بأعمال زوَّارنا، ويصلون علينا وعلى زوَّارنا.

٤ ـ من زار أمير المؤمنين عليه السلام عارفاً بحقه غير متجبّر، ولا متكبر كتب الله له أجر مائة ألف شهيد إلى أن قال: واستقبلته الملائكة، فإذا انصرف شيّعوه إلى منزله، فإن مرض عادوه وإن مات تبعوه بالاستغفار إلى قبره.

٥ ـ إن الرجل إذا خرج من منزله يريد زيارة الحسين عليه السلام شيعه سبعمائة ملك من فوق رأسه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله ومن بين يديه ومن خلفه حتى يبلِّغوه مأمنه، فإذا زار الحسين عليه السلام ناداه مناد قد غفر الله لك فاستأنف العمل ثم يرجعون معه مشيعين له إلى منزله فإذا صاروا إلى منزله قالوا: نستودعك الله، فلا يزالون يزورونه إلى يوم مماته ثم يزورون قبر الحسين عليه السلام في كل يوم وثواب ذلك للرجل.

اعلم أنه أجمعت الإمامية بل جميع المسلمين (إلا من شذَّ منهم

من المتفلسفين الّذين أدخلوا أنفسهم بين المسلمين لتخريب أصولهم وتضييع عقائدهم) على وجود الملائكة، وأنّهم أجسام لطيفة نورانيّة أُولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع وأكثر، قادرون على التشكّل بالأشكال المختلفة، وأنّه سبحانه يورد عليهم بقدرته ما يشاء من الأشكال والصور على حسب الحكم والمصالح، ولهم حركات صعوداً وهبوطاً، وكانوا يراهم الأنبياء والأوصياء ﷺ والقول بتجرّدهم وتأويلهم بالعقول والنفوس الفلكيّة والقوى والطبائع وتأويل الآيات المتظافرة والأخبار المتواترة تعويلاً على شبهات واهية واستبعادات وهميّة زيغ عن سبيل الهدى، واتّباع لأهل الجهل والعمى.

قال المحقّق الدوانيّ في شرح العقائد: الملائكة أجسام لطيفة قادرة على التشكّلات المختلفة، وقال شارح المقاصد: ظاهر الكتاب والسنّة وهو قول أكثر الأُمّة أنّ الملائكة أجسام لطيفة نورانيّة قادرة على التشكّلات بأشكال مختلفة كاملة في العلم والقدرة على الأفعال الشاقّة. شأنها الطاعة، ومسكنها السماوات، هم رسل الله تعالى إلى أنبيائه وأُمنائه على وحيه، يسبّحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

وقال: الملائكة عند الفلاسفة هم العقول المجرّدة والنفوس الفلكيّة، ويخصّ باسم الكرّوبيّين ما لا تكون له علاقة مع الأجسام ولو بالتأثير، وذهب أصحاب الطلسمات إلى أنّ لكلّ فلك روحاً كلّيّاً يدبّر أمره، ويتشعّب منه أرواح كثيرة مثلاً للعرش أعني الفلك الأعظم روح يرى أثره في جميع ما في جوفه يسمّى بالنفس الكلّية والروح الأعظم، ويتشعّب منه أرواح كثيرة متعلّقة بأجزاء العرش وأطرافه كما أنّ النفس الناطقة تدبّر أمر بدن الإنسان ولها قوّة طبيعيّة وحيوانيّة ونفسانيّة بحسب كلّ عضو، وعلى هذا يحمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥] وهكذا سائر الأفلاك، وأثبتوا لكلّ درجة روحاً يظهر أثره عند حلول الشمس تلك الدرجة، وكذا لكلّ من الأيّام والساعات والبحار والجبال والمفاوز والعمران وأنواع النبات والحيوانات وغير ذلك، على ما ورد في لسان الشرع من ملك الأرزاق، وملك البحار، وملك الأمطار، وملك الموت، ونحو ذلك. وبالجملة فكما ثبت لكلّ من الأبدان البشريّة نفس مدبّرة فقد أثبتوا لكل نوع من الأنواع بل لكلّ صنف روحاً يدبّره يسمّى بالطبائع التامّ لذلك النوع تحفظه عن الآفات والمخافات، ويظهر أثره في النوع ظهور أثر النفس الإنسانيّة[1].

ومن أراد أن يزيد علمه عن حقيقة الملائكة وصفاتهم وشؤونهم وأطوارهم فليراجع هذا المصدر نفسه في البحار.

(١) بحار الأنوار ج٥٩ ص٢٠٣.

آياته في الجِنّ

والجِنُّ: جمع والمفرد جِنِّيٌ سمي بذلك لتواريه واستتاره عن أعين النّاس لأن معنى الجانّ في اللغة: الساتر من قولك: جَنَّ الشيء إذا ستره فسمي الجن جناً لهذا السبب كما يقال للذي خلق في البطن: جنيناً لاستتاره في بطن أمه وفي التنزيل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] أي غطّى عليه وستره بظلامه وفي الحديث: «الصوم جُنَّةٌ من النار» أي يتستر به من دخول النار ومن المعاصي لأنه يكسر الشهوة، ويضعف القوة. وإن لفظ الجنّ مشتق من الإجتنان وهو الإستتار فكل من كان كذلك كان من الجنّ فيشمل هذا اللفظ الملائكة أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] أراد بالجن الملائكة حيث جعلوهم أنداداً وعلى كل حال فالجن الذين هم خلاف الإنس وقيل: إنَّ الجنَّ أجسام هوائية قادرة على التشكل بأشكال مختلفة لها عقول وأفهام وقدرة على الأعمال الشاقة.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٥] الجَانُّ: هو أبو الجن، وقيل هو إبليس وقيل: إنَّه مسخ الجن كما أنَّ القردة والخنازير مسخ الإنس أيضاً والجَانُّ أيضاً: ضرب من الحيات قيل: هي حية كحلاء العين لا تؤذي كثيرة في الدور وفي الحديث: «خلق الله الجن خمسة أصناف: صنف حيّات وعقارب، وصنف حشرات الأرض، وصنف كالريح في الهواء، وصنف كبني آدم عليهم الحساب

والعقاب» وليلة الجنّ: هي الليلة التي جاء الجن رسول الله ﷺ وذهبوا به إلى قومهم ليتعلموا منه الدين، وفي الخبر عن ابن مسعود في قصّة ليلة الجن ومشاهدته لهم كالزّط وفي غير ذلك من معجزات الرسول ﷺ فإن الجن يظهرون التعجب من جميع ذلك ويتضاحكون عند سماع الخبر به والإحتجاج بصحته، ويستهزؤون ويلغطون فيما يسرفون به من سبّ الإسلام وأهله، ونسبتهم إياهم إلى العجز والجهل ووضع الأباطيل إلى آخر ما أفاده قدس سره واللغط: هو صوت وضجّة لا يفهم معناه. وقال في النهاية في صفة الجن: فإذا نحن برجال طوال كأنهم الرماح مستفرين ثيابهم هو: أن يدخل الرجل ثوبه بين رجليه كما يفعل الكلب بذنبه. وقال في حديث عمر أنه: سأل رجلاً استهوته الجنّ فقال: ما كان طعامهم؟ قال: الفول (البقليّ) وما لم يذكر اسم الله عليه، قال: وما كان شرابهم؟ قال: الجَذَفُ بالتحريك وهو: نبات يكون باليمن لا يحتاج آكله معه إلى شرب ماء (البحار).

١ ـ المادة التي خلق الله تعالى منها الجان وهو أبو الجن: هي مارج من نار أي لا حرَّ لها والخالصة من الدخان، وهذه النار التي ذكرها الله تعالى، إنها من الشجر الأخضر كما قال الصادق ﵇: كذب إبليس ما خلقه الله إلا من طين قال الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠] قد خلقه الله من تلك النار ومن تلك الشجرة والشجرة أصلها من طين. فالشجر الأخضر خلق من فاضل التراب الذي خلق منه الإنسان يعني بعد أن صفّى التراب سبعين مرّة جمع ثفله بعد سبعين نخلة فخلق من تلك النخالة الشجر الأخضر.

فالجن خلق من فاضل فضلة الإنس، ولهذا كان الإنس أفضل وأعلى مرتبة وأكمل. (عجائب الملكوت).

٢ ـ إن سماع أصوات الجن ومقالاتهم، وكذا مشاهدتهم في بعض

الأوقات بأمور خاصة ترفع الحجاب عنهم، مما لا شكَّ في إمكانه، وهو من الأمور القطعية المستفادة من الأخبار المتظافرة الخارجة عن حدّ الإحصاء ومنها الأخبار المتضمنة لجملة من معجزات النبي ﷺ وأمير المؤمنين وسائر الأئمة ﷺ وقد أفادت الأخبار بأن للجن القدرة على أن يظهروا بصورة الإنسان من غير فرق بين صورهم الأصلية وبين ما يتشكلون به من صور. وفي الخبر أن سليمان ﷺ جمعهم من المفازات ومن الجبال والآجام والأودية والفلوات والآكام وهم بيض وسود، وشقر، وبلق على صور الخيل والبغال والسباع ولها خراطيم وأذناب وحوافر وقرون.

ومنهم من كانت وجوههم إلى أقفيتهم وتخرج النار من أفواههم ومنهم من كان يمشي على أربع ومنهم من كان له رأسان ومنهم من كانت رؤوسهم رؤوس الأسد ومنهم من كان نصفه صورة كلب ونصفه صورة سنور. وله خرطوم طويل.

٣ ـ طعام الجن فيه قولان:

١ ـ حكى في مجمع البحرين عن ابن الأعرابي: إجماع المسلمين على أنهم يأكلون ويشربون وينكحون، ثم قال: خلافاً للفلاسفة النافين لوجودهم. وفي الحديث: «ان وفد الجان جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله : متعنا فأعطاهم الروث والعظم».

وفي آخر: «نهى ﷺ أن يستنجى بالعظم والروث وقال: إنه زاد إخوانكم من الجن».

٢ ـ في الحديث عن أبي عبدالله ﷺ في وصف الجن قال: «هم خلق رقيق غذاؤهم التنسُّم» فالجن تتغذّى على الطعام بالتشمُّم والتنسُّم والإسترواح لا بالمضغ والبلع والأكل وهي تتغذّى بالغذاء الملائم لطبيعتها ودينها.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من أهل بيت من المسلمين إلا وفي سقف بيتهم من الجن المسلمين إذا وضع غداءهم نزلوا فتغدَّوا معهم وإذا وضع عشاءهم نزلوا فتعشوا معهم يدفع الله بهم عنهم».

وفي آخر عن وهب أنه سئل عن الجن: «هل يأكلون ويشربون ويموتون ويتناكحون؟ فقال ﷺ: هم أجناس، أما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون، ولا يموتون ولا يتوالدون».

ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون وهي هذه التي منها السعالي والغول وأشباه ذلك».

٤ ـ في الحديث عن ابن عباس قال: «كانت الجن قبل أن يبعث النبي ﷺ يستمعون من السماء فلمَّا بُعث حُرست فلم يستطيعوا أن يستمعوا فجاؤوا إلى قومهم يقولون لم يسمعوا فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا ـ وهم الملائكة ـ وَشُهُبًا ـ وهي الكواكب ـ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ـ يقول: نجماً قد أرصد له يُرمى به قال: لمَّا رُموا بالنجوم قالوا لقومهم: ـ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ٨-١٠].

٥ ـ عدم دخولهم الجنة: (العلل) لمحمد بن علي بن إبراهيم: «العلة في الجن أنهم لا يدخلون الجنة أنهم خلقوا من النار، والجنة هي نور فلا تجتمع النار والنور. وسئل العالم ﷺ فقيل له: فإذا لم يدخلوا الجنة فأين يكونون؟ فقال: إن الله جعل حظائر بين الجنة والنار يكون فيها مؤمنو الجن. وفسّاق الشيعة» وفيه دلالة على أن فساق الشيعة لا يدخلون الجنة حتى بعد التطهير من الذنوب ويؤيد ذلك قولهم ﷺ: «ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه».

وعلى هذا يكون دخول الجنة مختصاً بعدول الشيعة دون فسّاق الإنس ومؤمنو الجن.

٦ ـ ومن حيث الزواج في الحديث عن أبي جعفر ﷺ قال: «إن آدم وُلد له أربعة ذكور فأهبط الله إليهم أربع من الحور العين فزوَّج كل واحد منهم واحدة فتوالدوا ثم إن لله رفعهن، وزوَّج هؤلاء الأربعة أربعة من الجن فصار النسل فيهم فما كان من حلم فمن آدم وما كان من جمال فمن قبل الحور العين، وما كان من قبح أو سوء خُلق فمن الجن» وفي آخر عنه أيضاً ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى أنزل على آدم حوراء من الجنة فزوَّجها أحد إبنيه، وتزوَّج الآخر إبنة الجانّ فما كان في الناس من جمال كثير أو حسن خلق فهو من الحوراء وما كان من سوء خلق فهو من ابنة الجانّ».

٧ ـ من حيث الثواب اختلفوا فيه إلى قولين: إنَّه لا ثواب إلى الجن إلا النجاة من النار ثم يقال لهم: كونوا تراباً مثل البهائم، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١] وهو قول أبي حنيفة، والصحيح: أنهم في حكم بني آدم فيستحقون الثواب على الطاعة، والعقاب على المعصية، وهذا قول أبي ليلى، ومالك وجرت بينه وبين أبي حنيفة (في هذا الباب) مناظرة. قال الضحاك: يدخلون الجنة ويأكلون ويشربون، والدليل على صحة هذا القول: كل دليل دلَّ على أن البشر يستحقون الثواب على الطاعة فهو بعينه قائم في حق الجنِّ، والفرق بين البابين بعيد جداً إنتهى[١].

٨ ـ من حيث العدد في الحديث: إن عدد الجن عشرة أضعاف عدد الإنس ابتداءً من أبينا آدم إلى يومنا هذا، وذلك لطول أعمارهم،

(١) البحار، والتفسير الكبير ٢٨ ـ ٣١ ـ ٣٣.

وقلّة من يموت منهم فما تجد بقعة في الأرض إلا وعامر يسكنها وتختلف العمَّار بأحجامها وأديانها وقوَّتها ومنافعها ومضارها باختلاف المكان الساكنة فيه فالعفاريت وكبار الجن يسكنون الأماكن الخربة غير المسكونة بالإنس وذلك لكي لا يحدّ من تصرفاتها أحد، ومتى زاحمها إنسان أو جنّ دخيل عليهم حاربته بكل ما تملك من قدرة في التصرّف، وإن لم تستطع إخراجه تركت المكان وذهبت إلى غيره. وملوك الجن تسكن الأماكن البعيدة غير المأهولة بالإنس كالجبال والوديان والقفار والصحراء لكي تأخذ أوسع المكان لما يكفي لأفراد مملكة حاكمهم وأما البيوت والدور التي سكنها الإنسان والأماكن التي يقطنها ويتردد عليها كثيراً فغالباً ما يكون عمّارها متأقلمون مع الإنسان محجوبون بالحجب المانعة من ضرر الإنسان والتصرف في أفعاله إلا إذا خرق الإنسان هذه الحجب بالمعصية أو التعدي بفعل ما فعندها تكون لهم القدرة في التصرف في ضرر الإنسان.

إبليس

هو إفعيل من أَبْلَسَ أي يئس من رحمة الله: ﴿...فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] أي آيسون من النجاة والرحمة وقيل: متحيّرون، والإِبْلاسُ: الحيرة يقال: أَبْلَسَ يَبْلِسُ: أي تحيَّر، ومنه الخبر «ألم تر إلى الجن وإبليسها» أي تحيُّرها ودهشها، والمُبْلِسُ: النادِم، ويقال: الساكت المنقطع الحجة وكنية إبليسُ: أبو مرَّة. والأبالسة: الشياطين: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥﴾ [الزخرف: ٧٥] أي يائسون ملقون بأيديهم.

وعن جملة من الرواة: كان إبليس من الملائكة من طائفة يقال لها: الجنّ وكان اسمه بالعبرانية: عزازيل ـ بزاءين فلمّا عصى الله لعنه وجعله شيطاناً مريداً، واسمه بالعربية: الحارث، وكان رئيس ملائكة الدنيا وسلطانها وسلطان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهاداً، وأكثرهم علماً، وكان يوسوس بين السماء والأرض فيرى بذلك لنفسه شرفاً عظيماً فذلك الذي دعاه إلى الكبر فعصى وكفر فمسخه الله شيطاناً رجيماً ملعوناً.

وفي خبر آخر عن النبي ﷺ: «أمر الله الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام فدخل في أمره الملائكة وإبليس فإن إبليس كان مع الملائكة في السماء يعبد الله. وكانت الملائكة تظن أنه منهم ولم يكن منهم فلما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم خرج ما كان في قلب إبليس من الحسد

الشيطان

تعريفه:

قال الزمخشري: وقد جعل سيبويه نون الشيطان (في موضع من كتابه) أصليةً وفي آخر زائدة، والدليل على أصالتها قولهم: تشطّن، واشتقاقه من شَطَنَ، إذا بعد، لبعده من الصلاح والخير، ومن شاط، إذا بطل إذا جعلت نونه زائدة، وعن ابن عرفة: هو من الشَّطن وهو الحبل الطويل المضطرب.

والشيطان: معروف وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب يسمى شيطان، والأشطان جمع: شطن وهو الحبل وقد جاء في الحديث وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤] أي مردتهم من الشَّطن وهو البعد فكأنهم تباعدوا عن الخير وطال مكثهم في الشر وقوله تعالى أيضاً: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥] أي في الشين والقبح وعن الفراء قال فيه من العربية ثلاثة أوجه:

١ ـ أن يشبّه طلعها في قبحه برؤوس الشياطين لأنها موصوفة بالقبح. ٢ ـ إنَّ العرب تسمي بعض الحيَّات: شيطاناً وهو ذو العرف، قبيح الوجه. ٣ ـ يقال: إنه نبت قبيح يسمَّى رؤوس الشياطين.

بعض الأعمال التي قام الشياطين بها:

وقد قال الصادق ﷺ: إن الكهانة كانت في الجاهلية في كل

حين فترة من الرسل كان الكاهن بمنزلة الحاكم يحتكمون إليه فيما يشتبه عليهم من الأمور بينهم فيخبرهم بأشياء تحدث وذلك من وجوه شتى، من فراسة العين وذكاء القلب، ووسوسة النفس، وفطنة الروح، مع قذف في قلبه لأن ما يحدث في الأرض من الحوادث الظاهرة فذلك يعلم الشيطان ويؤديه إلى الكاهن، ويخبره بما يحدث في المنزل والأطراف.

وأما أخبار السماء فإن الشياطين كانت تقعد مقاعد استراق السمع إذ ذاك وهي لا تحجب ولا ترجم بالنجوم، وإنما منعت من استراق السمع لئلاً يقع في الأرض سبب يشاكل الوحي من خبر السماء فيلبس على أهل الأرض ما جاءهم عن الله لإثبات الحجة. ونفي الشبهة، وكان الشيطان يسترق الكلمة الواحدة من خبر السماء بما يحدث من الله في خلقه فيختطفها ثم يهبط بها إلى الأرض فيقذفها إلى الكاهن فإذا قد زاد (الكاهن) كلمات من عنده فيختلط الحق بالباطل. فما أصاب الكاهن من خبر مما كان يخبر به فهو ما أداه إليه شيطانه مما سمعه وما أخطأ فيه فهو من باطل ما زاد فيه فمذ منعت الشياطين عن استراق السمع انقطعت الكهانة.

واليوم: إنما تؤدي الشياطين إلى كهانها أخباراً للناس مما يتحدَّثون به وما يحدثونه، والشياطين تؤدي إلى الشياطين ما يحدث في البُعد من الحوادث من سارق سرق، ومن قاتل قتل، ومن غائب غاب، وهم بمنزلة الناس أيضاً صدوق وكذوب: فقال الزنديق: كيف صعدت الشياطين إلى السماء وهم أمثال الناس في الخلقة والكثافة، وقد كانوا يبنون لسليمان بن داود ﷺ من البناء ما يعجز عنه ولد آدم؟ قال ﷺ: غلظوا لسليمان كما سخِّروا، وهم خلق رقيق غذاؤهم النسيم، والدليل على ذلك صعودهم إلى السماء لاستراق السمع، ولا يقدر الجسم الكثيف على الارتقاء إليها» إلا بسلّم أو سبب.

وفي تفسير علي بن إبراهيم: في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: ٢٧] قال: أبو إبليس، وقال: الجنُّ من ولد الجانّ منهم مؤمنون وكافرون، ويهود ونصارى، وتختلف أديانهم، والشياطين من ولد إبليس وليس فيهم مؤمنون إلا واحد اسمه: هام من هيم بن لاقيس بن إبليس جاء إلى رسول الله ﷺ فرآه جسيماً عظيماً وامرءاً مهولاً فقال له من أنت؟...

وأنواع الشياطين كثيرة منها: الغول. السعلاة. الدلها. أم الصبيان الشق. العفريت القرين. الوسواس الخنَّاس.

١ ـ **الغُول** بالضم: من السعالي والجمع أغوال وغيلان، وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غُول. يقال: غالته غول: إذا وقع في مهلكة والغول بالضم: واحد الغيلان وهو جنس من الجن والشياطين وهم سحرتهم وفي الحديث: «إذا تغوَّلت بكم الغُول فأذِّنوا». كانت العرب تزعم في الفلوات تتغوَّل غولاً أي تتلوَّن تلوُّناً فتضلّهم عن الطريق[١].

وقيل: الغُول في لغة العرب: هو الجانُّ إذا تبدَّى بالليل، فهو أكثر ما يتراءى في الليل لمن يسافر وحده وأوقات الخلوات، ويكون الإنسان مقابل جثته كالطفل الرضيع عند أمه، ومن أعماله، يصدُّ المسافر عن الطريق ويفزع، وربَّما يؤذي ويسحر لأنه من الجن الذين لهم القدرة على سحر الإنسان فقد سئل رسول الله ﷺ عن الغيلان قال: «هم سحرة الجن».

٢ ـ **السَّعالي**: جمع سعلاة وهم سحرة الجن ومنه الخبر: «لا غول ولكن السعالي» يعني أن الغول لا تغول أحداً وتضلّه، ولكن في الجنّ سحرة كسحرة الإنس لهم تلبيس، وتحييل، والسعلات: اخبث

---

(١) مجمع البحرين.

الغيلان. وعن السهيلي: السعلاة: ما يتراءى للناس بالليل وفي (نسخة بالنهار) والغول يتراءى للناس بالنهار (مجمع البحرين) وقيل: مسكنها القفار والصحراء وأكثر ما تتراءى على هيئة امرأة وإذا ظفرت بإنسان قتلته خنقاً، ثم تلعب به كما تلعب الهرة بالفأر وبعدها تأكل شيئاً من جسده.

وقال في عجائب الملكوت: والعجيب أن هذا النوع من الجن يخاف الذئب فإذا رآها الذئب افترسها وقتلها، وهذه من عجائب خلق الله الذي أودع في الذئب خاصية الإفتراس لبعض أنواع الجن وهذا ما يحدُّ فساد الجن، وتعرضهم للإنس.

٣ ـ **الدَّلْهَابُ**: هذا النوع من الجن يوجد في البحار، ويتراءى على صورة إنسان جلده كصخر البحر الذي تجمع عليه الطحالب، وهو يتعرض للمراكب القريبة منه، ويقذف أهله في البحر.

٤ ـ **أم الصبيان**: وهي (على ما قيل) تأخذ على ثلاثمائة ضرب منها: عقد اليدين والرجلين والرأس والمفاصل والضروس، وثقل اللسان وتشويه الجسد وتخيله وتهزيله، وتأخذ في أرحام النساء فتدقّ عظم أولادهن، وتأكل لحمهم، وتشرب دمهم، وتبرك على المرأة عند الحيض فتعقرها، وتأخذ الصبيان والعجائز والشيوخ بالحمية والرمد واللطمة والوجع، والدواب تثبت فيها ولا تطلقها وتنقص البركة من المال، وتهلك الحرث، وتأتي على أصناف الصنائع كلها بالذي لا دواء له. قال في عجائب الملكوت: وغالباً ما تتصرَّف بهذه الضروب لأصحاب برج الثور والميزان والمولود بساعة الزهرة حبّاً فيها له. وذلك إن لم يكن متحصناً بذكر الله تعالى، وهناك الكثير من الأدعية والأحجبة، والأذكار التي تحصّن الإنسان منها ومن كافَّة الجن.

٥ ـ **الشِّقُّ**: وهو جنس من الشياطين صورته على نصف صورة

الإنسان والنصف الآخر حيوان يعرض للمسافر إذا كان وحده وربَّما أهلكه.

٦ ـ **العِفريتُ**: في القاموس: رجل عِفر وعِفرية. وعفريت بكسرهنَّ: خبيث منكر، والعِفريت: النافذ في الأمر المبالغ فيه مع دهاء.

وقال في العجائب: العفريت وهو الذي له من القوَّة والقدرة ما ليس لغيره من الجن كالعلوم الصعبة وجلب الأخيار والبناء والسرقة. وحمل ما يعجز الإنسان حمله، وله سلطنة وحكم وخدَّام من الجن يخضعون لأوامره وكلما كبر العفريت كانت سلطته أكبر وخدَّامه أكثر، والمؤمن من العفاريت يحثُّ في سلطته لمن دونه إلى الخير والعمل الصالح، والكافر يأمر في سلطته من دونه للشر والفساد والعمل الطالح.

٧ ـ **القرين**: لكل إنسان قرين يولد معه وهو على صورته قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد منكم إلا وقد وكِّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة».

وغالباً ما يحبب القرين المعصية والأفعال الحيوانية إلى الإنسان، وفي مقابل هذا ملك يحفظ الإنسان من تجرؤ الشيطان عليه.

قال في العجائب: والقرين ملازم للإنسان الموكَّل به أين ما كان ويعلم كل ما يلم، ويجهل ما يجهله، لأنه لا يجد نفسه في معرفة ما ليس عنده إلا بالصورة التي أمامه، وإذا أراد معرفة شيء فيعرفه بإخبار قرين آخر له وهذا ما يستفيد منه بعض المسخِّرين في جلب الأخبار ذكر أن الحجاج بن يوسف أتى برجل رمي بالسحر فقال: أساحر أنت؟ قال: لا، فأخذ الحجاج كفّاً من حصى فعدَّه، ثم قال له: كم في يدي من الحصى؟ قال: كذا وكذا، فطرح الحجاج الحصى، ثم أخذ كفّاً

آخر، ولم يعدُّه ثم قال: كم في يدي؟ قال: لا أدري، فقال الحجاج: كيف دريت الأول ولم تدر الثاني؟ قال: إن ذلك عرفته أنت فعرفه قرينك فأخبر قرينك قريني، وهذا لم تعرفه، فلم يعرفه قرينك فلم يخبر قريني فلم أعرفه.

٨ ـ **الخناس**: في الحديث عن أبي بصير عن أبي عبدالله ﷺ قال سألته عن الخنَّاس قال: «إن إبليس يلتقم القلب، فإذا ذكر الله خنس فلذلك سمي الخنَّاس» وهو صاحب الإلقاء الخفي في النفس عن أبي عبدالله ﷺ قال: «ما من مؤمن إلا ولقلبه أذنان في جوفه، أذن ينفث فيها الوسواس الخنَّاس، وأذن ينفث فيها الملك فيؤيِّد الله المؤمن بالملك» وقال في العجائب: والوسواس الخنَّاس من أدهى وأخبث الشياطين في نصب حبال المعصية لله تعالى يدبُّ في نفس الإنسان في خفاء بوسوسة الوعيد والتمني والتشكيك وتزيين المعصية. وحبّ المال، وإثارة الشهوات، وينسي ذكر الله ويثقل الجسد على القيادة...

والمعلومات عن الشيطان والشياطين نبيِّنها في أقسام:

القسم الأول: قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

﴿...وَلَا تَتَّبِعُوا۟﴾ [البقرة: ١٦٨] أي لا تعتدوا به في اتباع الهوى فتحرِّموا ما أحلَّ الله وتحلِّلوا ما حرم ﴿...إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨] أي ظاهر العداوة عند ذوي البصيرة. ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ١٦٩] لبيان عداوته ووجوب التحرّز عن متابعته، واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم. وتحقيراً لشأنهم، والسوء والفحشاء: ما أنكره العقل، واستقبحه الشرع قيل: والعطف لاختلاف الوصفين فإنه سوء لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستباحته إياه. وقيل: السوء يعمُّ كل القبائح، والفحشاء، ما يجاوز الحدّ في القبح من الكبائر.

وقيل: السوء ما لا حدَّ فيه والفحشاء ما شرِّع فيه الحدّ.

﴿...وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩] كاتخاذ الأنداد، وتحليل المحرمات، وتحريم الطيبات.

قال الرازي: اعلم أن أمر الشيطان ووسوسته عبارة عن هذه الخواطر التي نجدها في أنفسنا، وقد اختلف الناس في هذه الخواطر من وجوه:

أحدها: اختلفوا في ماهيَّتها فقال بعض: إنها حروف وأصوات خفية، وقال الفلاسفة: إنها تصوّرات الحروف والأصوات وأشباهها، وتخيُّلاتها على مثال الصور المنطبعة في المرايا فإن تلك الصور تشبه تلك الأشياء من بعض الوجوه، وإن لم تكن مشابهة لها من كلّ الوجوه..

وثانيها: إنَّ فاعل هذه الخواطر من هو؟ أما على أصلنا: إنَّ خالق الحوادث بأسرها هو الله تعالى فالأمر ظاهر، وأما على أصل المعتزلة: فهم لا يقولون بذلك، وأيضاً فإنَّ المتكلم عندهم من فعل الكلام، فلو كان فاعل هذه الخواطر هو الله تعالى وفيها ما يكون كذباً وسخفاً لزم كون الله تعالى موصوفاً بذلك تعالى الله عنه، ولا يمكن أن يقال: إنَّ فاعلها هو العبد، لأنَّ العبد قد يكره حصول تلك الخواطر، ويحتال في دفعها عن نفسه، مع أنها البتَّة لا تندفع، بل ينجرّ البعض إلى البعض على سبيل الإتصال فإذاً لا بدَّ ههنا من شيء آخر وهو إما الملك. وإما الشيطان، فلعلَّهما متكلمان بهذا الكلام في أقصى الدماغ أو في أقصى القلب حتى أن الإنسان وإن كان في غاية الصمم فإنه يسمع هذه الحروف والأصوات ثم إن قلنا: بأن الشيطان والملك ذوات قائمة بأنفسها غير متحيِّزة البتة لم يبعد كونها قادرة على مثل هذه الأفعال، وإن قلنا: بأنها أجسام لطيفة لم يبعد أيضاً أن يقال: إنها وإن

كانت لا تتولَّج بواطن البشر إلا أنهم يقدرون على إيصال هذا الكلام إلى بواطن البشر ولا يبعد أيضاً أن يقال: إنها لغاية لطافتها تقدر على النفوذ في مضايق بواطن البشر، ومخارق جسمه، وتوصل الكلام إلى قلبه ودماغه، ثم إنها مع لطافتها تكون مستحكمة التركيب بحيث يكون اتصال بعض أجزائها بالبعض اتصالاً لا ينفصل، فلا جرم لا يقتضي نفوذها في هذه المضايق والمخارق انفصالها وتفرُّق أجزائها وكل هذه الإحتمالات ممَّا لا دليل على فسادها، والأمر في معرفة حقائقها عند الله تعالى، وممَّا يدل على إلهام الملائكة بالخير قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] أي ألهموهم بالثبات وشجِّعوهم على أعدائهم، ويدل عليه من الأخبار قوله ﷺ: «للشيطان لمَّة بابن آدم وللملَك لمَّة» وفي الحديث أيضاً: «إذا ولد المولود لبني آدم قرن إبليس به شيطاناً، وقرن الله به ملكاً فالشيطان جاثم على أُذن قلبه الأيسر، والملك جاثم على أُذن قلبه الأيمن فهما يدعوانه» ومن الصوفية والفلاسفة من فسَّر الملَك الداعي إلى الخير بالقوَّة العقلية، وفسَّر الشيطان بالقوَّة الشهوانية والغضبية، ودلَّت الآية على أن الشيطان لا يأمر إلا بالقبائح لأن الله تعالى ذكره بكلمة (إنما) وهي للحصر، وقال بعض العارفين: إن الشيطان قد يدعو إلى الخير لكن لغرض أن يجرّه منه إلى الشر وذلك إلى أنواع: إما أن يجرّه من الأفضل إلى الفاضل ليتمكن من أن يخرجه من الفاضل إلى الشر، وإما أن يخرجه من الفاضل الأسهل إلى الأفضل الأشق ليصير ازدياد المشقَّة سبباً لحصول النفرة عن الطاعة بالكلية[1].

وقال أيضاً في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] اختلفوا في الشيطان فقيل: إبليس وقيل: سائر

(١) تفسير الرازي ج٥ ص٣ و٥.

الشياطين وقيل: شياطين الجن والإنس وقيل: النفس الأمّارة بالسوء والوعد يستعمل في الخير والشر، ويمكن أن يكون هذا محمولاً على التهكم.

وروى ابن مسعود أن للشيطان لمّة وهي الإيعاد بالشر، وللملك لمّة وهي الوعد بالخير فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، ومن وجد الأول فليتعوّذ بالله من الشيطان الرجيم وقرأ هذه الآية.

وروى الحسن قال بعض المهاجرين: من سره أن يعلم مكان الشيطان منه فليتأمل موضعه من المكان الذي منه يجد الرغبة في فعل الشر. والفحشاء: البخل والفاحش عند العرب البخل.

القسم الثاني: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

التخبط: معناه: التصرف على غير استواء، وتخبّطه الشيطان: إذا مسّه بخبل أو جنون، وتسمّى إصابة الشيطان: بالجنون ويسمى الخبل: خبطة ويسمّى المسُّ: الجنون يقال: مسّ الرجل فهو ممسوس وبه مسٌّ، وأصله من المسّ باليد، كأن الشيطان يمسُّ الإنسان فيجنّنه، ثم سمّي الجنون مسّاً كما أن الشيطان يتخبطه برجله فسمّي الجنون: خبطة، فالتخبط بالرجل والمسُّ باليد.

وقال الجبائي: والناس يقولون: المصروع إنّما حدثت به تلك الحالة لأن الشيطان يمسّه ويصرعه وهذا باطل لأن الشيطان ضعيف لا يقدر على صرع الناس، ويدل عليه وجوه:

أحدها: قوله تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهذا صريح في أنه ليس للشيطان قدرة على الصرع والقتل والإيذاء.

والثاني: إن الشيطان إما أن يقال: إنه كثيف الجسم أو يقال: إنه من الأجسام اللطيفة، فإن كان الأول وجب أن يُرى ويشاهد، إذ لو جاز فيه أن يكون كثيفاً ويحضر ثم لا يُرى لجاز أن يكون بحضرتنا شموس ورعود وبروق وجبال ونحن لا نراها، وذلك جهالة عظيمة، ولأنه لو كان جسماً كثيفاً فكيف يمكنه أن يدخل في باطن بدن الإنسان، وأما إن كان جسماً لطيفاً كالهواء فمثل هذا يمتنع أن تكون فيه صلابة وقوَّة فيمتنع أن يكون قادراً على أن يصرع الإنسان ويقتله.

الثالث: لو كان الشيطان يقدر على صرع الإنسان فيقتله لصح أن يفعل مثل معجزات الأنبياء، وذلك يجر إلى الطعن في النبوَّة.

الرابع: إن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يصرع جميع المؤمنين، لم لا يخبطهم من شدَّة عداوته مع أهل الإيمان؟ ولم لا يغصب أموالهم ويفسد أحوالهم، ويفشي أسرارهم ويزيل عقولهم؟ وكل ذلك ظاهر الفساد. واحتجَّ القائلون بأن الشيطان يقدر على هذه الأمور بوجهين:

الأول: ما روي أن الشياطين في زمان سليمان عليه السلام كانوا يعملون الأعمال الشاقة على ما حكى الله عنهم: إنهم كانوا ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: ١٣] والجواب عنه أنه تعالى كثَّف أجسامهم في زمان سليمان عليه السلام.

والثاني: إن هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥] صريح في أن تخبّطه كان من الشيطان بسبب مسّه.

والجواب عنه: إنَّ الشيطان يمسُّه بالوسوسة المؤذية التي يحدث عندها الصرع وهو كقول أيوب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] وإنما يحدث الصرع عند تلك الوسوسة لأن الله تعالى خلقه من ضعف الطباع وغلبة السوداء عليه بحيث عند الوسوسة فلا يجترىء

فيصرع عند تلك الوسوسة كما يفزع الجبان من الموضع الخالي ولهذا المعنى لا يوجد هذا الخبط من الفضلاء الكاملين وأهل الحزم والعقل وإنما يوجد فيمن به نقص في المزاج وخلل في الدماغ وهذا جملة كلام الجبائي في هذا الباب.

وأيضاً من عادة الناس أنهم إذا أرادوا تقبيح شيء يضيفوه إلى الشيطان كما في قوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥].

وقال الطبرسي قدّس سره: قيل: إن هذا على وجه التشبيه لأن الشيطان لا يصرع الإنسان على الحقيقة ولكن من غلب عليه المرَّة السوداء أو ضعف عقله ربما يخيِّل إليه الشيطان أموراً هائلة ويوسوس إليه فيقع الصرع عند ذلك من فعل الله تعالى، ونسب ذلك إلى الشيطان مجازاً لما كان ذلك عند وسوسته عن الجبائي.

وقيل: يجوز أن يكون الصرع من فعل الشيطان في بعض الناس دون بعض عن أبي الهذيل وابن الأخشيد قالا: لأن الظاهر من القرآن يشهد به وليس في العقل ما يمنع منه، ولا يمنع الله سبحانه الشيطان عنه امتحاناً لبعض الناس وعقوبة لبعض على ذنب ألمَّ به ولم يتب منه كما يُسلِّط بعض الناس على بعض فيظلمه ويأخذ ماله ولا يمنعه الله منه[1].

القسم الثالث: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا...﴾ [الأنعام: ١١٢].

قيل: المراد كما أمرناك بعداوة قومك من المشركين فقد أمرنا من

(١) مجمع البيان ٢: ٣٨٩.

قبلك بمعاداة أعدائهم من الجن والإنس ومتى أمر الله رسوله بمعاداة قوم من المشركين فقد جعلهم أعداء له.

وقيل: معناه حكمنا بأنهم أعداء وأخبرنا بذلك ليعاملوهم معاملة الأعداء في الإحتراز عنهم. وفيه أقوال أخرى.

وقال الطبرسي رحمه الله في تفسير الكلبي عن ابن عباس:

إن إبليس جعل جنده فريقين فبعث فريقاً منهم إلى الإنس وفريقاً إلى الجن فشياطين الإنس والجن أعداء الرسل والمؤمنين فيتلقى شياطين الإنس وشياطين الجن في كل حين فيقول بعضهم لبعض: أضللت صاحبي بكذا فأضلّ صاحبك بمثلها فلذلك يوحي بعضهم إلى بعض.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: إن الشياطين يلقى بعضهم بعضاً فيلقي إليه ما يغوي به الخلق حتى يتعلّم بعضهم من بعض. «يوحي» أي يوسوس ويلقي خفية. ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأنعام: ١١٢] أي القول المموَّه والمزيَّن الذي يستحسن ظاهره، ولا حقيقة له ولا أصل «غروراً» أي يغرونهم بذلك غروراً أو ليغروهم بذلك[١].

وقال الرازي: اعلم أنه لا يجب أن يكون كل معصية تصدر عن إنسان فإنها تكون بسبب وسوسة شيطان وإلا لزم دخول التسلسل أو الدور في هؤلاء الشياطين. فوجب الإعتراف بانتهاء هذه القبائح والمعاصي إلى قبيح أوَّل ومعصية سابقة حصلت لا بوسوسة شيطان آخر. إذا ثبت هذا فنقول: إن أولئك الشياطين كما أنهم يلقون الوساوس إلى الإنس والجن فقد يوسوس بعضهم لبعض، وللناس فيه مذاهب منهم من قال: الأرواح إما فلكية وإما أرضية والأرواح الأرضية منها طيّبة طاهرة آمرة بالطاعة والأفعال الحسنة وهم الملائكة

---

(١) مجمع البيان ٣/٣٥٢.

الأرضية ومنها خبيثة قذرة شريرة تأمر بالمعاصي والقبائح وهم الشياطين ثم إن تلك الأرواح الطيبة كما أنها تأمر الناس بالطاعات والخيرات فكذلك قد يأمر بعضهم بعضاً بالطاعات، والأرواح الخبيثة كما أنها تأمر الناس بالقبائح والمنكرات فكذلك قد يأمر بعضهم بضاً بتلك القبائح والزيادة فيها وما لم يحصل نوع من أنواع المناسبة بين النفوس البشرية وبين تلك الأرواح لم يحصل ذلك الإنضمام بالنفوس البشرية، وإذا كانت طاهرة نقيّة عن الصفات الذميمة كانت من جنس الأرواح الطاهرة فتنضم إليها، وإذا كانت خبيثة موصوفة بالصفات الذميمة كانت من جنس الأرواح الخبيثة فتنضم إليها.

ثم إن الصفات الطاهرة كثيرة، وصفات الخبث والنقصان كثيرة وبحسب كل نوع منها طوائف من البشر وطوائف من الأرواح الأرضية وبحسب تلك المجاسة والمشابهة والمشاكلة ينضم الجنس إلى جنسه فإن كان ذلك في أفعال الخير كان الحامل عليها ملكاً وكان تقوية ذلك الخاطر إلهاماً، وإن كان في باب الشر كان الحامل عليها شيطاناً وكان تقوية ذلك الخاطر وسوسة إذا عرفت هذا الأصل فنقول: إنه تعالى عبر عن هذه الحالة المذكورة بقوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] فيجب علينا تفسير ألفاظ ثلاثة: الأول الوحي وهو: عبارة عن الإيماء والقول السريع، والثاني الزخرف وهو الذي يكون باطنه باطلاً وظاهره مزيَّناً ظاهراً يقال: فلان يزخرف كلامه: إذا زينه بالباطل والكذب وكل شيء حسن مموَّه فهو زخرف.

وتحقيقه: إنَّ الإنسان ما لم يعتقد في أمر من الأمور كونه مشتملاً على خير راجح ونفع زائد فإنه لا يرغب فيه، ولذلك سمي الفاعل المختار مختاراً لكونه طالباً للخير والنفع، ثم إن كان هذا الإعتقاد مطابقاً للمعتقد فهو الحق والصدق والإلهام، وإن كان صادراً من الملك، وإن لم يكن مطابقاً للمعتقد فحينئذ يكون ظاهره مزيَّناً لأنه في

اعتقاده سبب للنفع الزائد والصلاح الراجح، ويكون باطنه فاسداً لأن هذا الإعتقاد غير مطابق للمعتقد فكان مزخرفاً[١].

القسم الرابع: قال تعالى: ﴿...وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قوله: ﴿...وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أي قدرة ومكنة وتسلّط وقهر فأقهركم على الكفر والمعاصي وأُلجئكم إليها، ﴿...إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] إلاّ دعائي إليكم إلى الضلالة[٢] بوسوستي وتزييني، والاستثناء منقطع أو متّصل، لأنّ قدرة الإنسان على حمل الغير على عمل من الأعمال تارة تكون بالقهر والقسر، وتارة تكون بتقوية الداعية في قلبه بإلقاء الوساوس إليه، فهذا نوع من أنواع التسليط[٣]، إلاّ أنّ ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّ الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان، ولا على تعويج أعضائه وجوارحه ولا على إزالة العقل عنه كما تقوله العوام والحشويّة، ثمّ قال: ﴿...فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ يعني ما كان منّي إلاّ الدعاء والوسوسة وكنتم سمعتم دلائل الله وشاهدتم مجيء أنبياء الله، فكان من الواجب عليكم أن لا تغترّوا بقولي ولا تلتفتوا إليّ، فلمّا رجّحتم قولي على الدلائل الظاهرة كان اللوم عليكم لا عليّ في هذا الباب.

قال في البحار: وفي هذه الآية مسألتان:

الأولى: قال المعتزلة: هذه الآية تدلّ على أشياء:

---

(١) تفسير الرازي ١٣/ ١٥٤ ـ ١٥٥.

(٢) إلاّ دعائي إيّاكم.

(٣) من أنواع التسلط.

الأوّل: إنّه لو كان الكفر والمعصية من الله تعالى لوجب أن يقال: فلا تلوموني ولا على أنفسكم فإنّ الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه.

والثاني: ظاهر هذه الآية تدلّ على أنّ الشيطان لا قدرة له على تصريع الإنسان وعلى تعويج أعضائه ولا على إزالة العقل عنه كما تقوله العوامُّ والحشويَّة.

والثالث: هذه الآية تدلّ على أنّ الإنسان لا يجوز ذمّه ولومه وعقابه بسبب فعل الغير، وعند هذا يظهر أنّه لا يجوز عقاب أولاد الكفّار بسبب كفر آبائهم.

وأجاب بعض الأصحاب عن هذه الوجوه بأنّ هذا قول الشيطان فلا يجوز التمسّك به، وأجاب الخصم عنه بأنّه لو كان هذا القول منه باطلاً لبيّن الله تعالى بطلانه وأظهر إنكاره وأيضاً أيّ فائدة في ذكر هذا الكلام الباطل والقول الفاسد؟ ألا ترى أنّ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] كلام حقّ؟ وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢] قول حقّ؟ بدليل قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

الثانية: هذه الآية تدلّ على أنّ الشيطان الأصليّ هو النفس، وذلك لأنّ الشيطان بيّن أنّه ما أتى إلاّ بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال لم يكن لوسوسته تأثير البتّة، فدلّ هذا على أنّ الشيطان الأصليّ هو النفس.

فإن قال قائل: بيّنوا لنا حقيقة الوسوسة.

قلنا: الفعل إنّما يصدر عن الإنسان لحصول[1] أمور أربعة يترتّب بعضها على البعض ترتيباً لازماً طبيعياً.

---

(١) عند حصول.

بيانه: إنَّ أعضاء الإنسان بحكم السلامة الأصليّة والصلاحية الطبيعيّة صالحة للفعل والترك والإقدام والإحجام، فلمّا لم يحصل في القلب ميل إلى ترجيح الفعل على الترك أو بالعكس فإنّه يمتنع صدور الفعل، وذلك الميل هو الإرادة الجازمة والقصد الجازم، ثمّ إنّ تلك الإرادة الجازمة لا تحصل إلاّ عند حصول علم واعتقاد[١] أو ظنّ بأنّ ذلك الفعل سبب للنفع أو سبب للضرر، فإن لم يحصل فيه هذا الاعتقاد لم يحصل ميل، لا إلى الفعل ولا إلى الترك.

فالحاصل: إنَّ الإنسان إن أحسّ بشيء ترتّب عليه شعور بكونه ملائماً له أو بكونه منافراً له، أو بكونه غير ملائم ولا منافر، فإن حصل الشعور بكونه ملائماً له ترتّب عليه الميل الجازم إلى الفعل، وإن حصل الشعور بكونه منافراً له ترتّب عليه الميل الجازم إلى الترك، وإن لم يحصل لا هذا ولا ذاك لم يحصل ميل لا إلى الشيء ولا إلى ضدّه بل بقي الإنسان كما كان، وعند حصول ذلك الميل الجازم يصير القدرة مع ذلك الميل موجبة للفعل، إذا عرفت هذا فنقول: صدور الفعل عن مجموعي القدرة والداعي الخالص أمر واجب فلا يكون للشيطان مدخل فيه، وصدور الميل عن تصوّر كونه خيراً أو تصوّر كونه شرّاً أمرٌ واجبٌ، فلا يكون للشيطان مدخل فيه، وحصول تصوّر كونه خيراً أو تصوّر كونه شرّاً غير مطلق الشعور بذاته أمر لازم فلا مدخل للشيطان فيه، فلم يبق للشيطان مدخل في هذه المقامات[٢] إلاّ في أن أذكره شيئاً[٣] بأن يلقي إليه حديثه مثل ان كان الإنسان غافلاً عن صورة امرأة فيلقي الشيطان حديثها في خاطره، والشيطان لا قدرة له إلاّ في هذا المقام وهو عين ما حكى الله تعالى عنه أنّه قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ

(١) أو اعتقاد.

(٢) في شيء من هذه المقامات.

(٣) إلاّ أن يذكره شيئاً.

﴿عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢] يعني ما كان مني إلاّ هجس[١] هذه الدعوة، فأمّا بقيّة المراتب ما صدرت منّي وما كان لي أثر البتّة.

قال في البحار: بقي في هذا المقام سؤالان:

الأوّل: كيف يعقل تمكّن الشيطان من النفوذ في داخل أعضاء الإنسان وإلقاء الوسوسة إليه.

والجواب: للنّاس في الملائكة والشياطين قولان:

الأوّل: ما سوى الله بحسب القسمة العقليّة على أقسام ثلاثة: المتحيّز، والحالّ في المتحيّز، والّذي لا يكون متحيّزاً ولا حالاً فيه.

وهذا القسم الثالث لم يقم الدليل البتّة على فساد القول به، بل الدلائل الكثيرة قامت على صحّة القول به، وهذا هو المسمّى بالأرواح فهذه الأرواح إن كانت طاهرة مقدّسة من عالم الروحانيّات المقدّسة[٢] فهم الملائكة، وإن كانت خبيثة داعية إلى الشرور وعالم الأجساد ومنازل الظلمات فهم الشياطين.

إذا عرفت هذا فنقول: فعلى هذا التقدير، الشيطان لا يكون جسماً يحتاج إلى الولوج في داخل البدن، بل هو جوهر روحانيّ خبيث الفعل مجبول على الشرّ، والنفس الإنسانيّة أيضاً كذلك، فلا يبعد على هذا التقدير أن يلقي شيء من تلك الأرواح أنواعاً من الوساوس والأباطيل إلى جوهر النفس الإنسانيّة.

وذكر بعض العلماء في هذا الباب احتمالاً ثانياً وهو أنّ النفس

---

(١) إلاّ مجرد هذه الدعوة.

(٢) القدسية.

الناطقة البشريّة مختلفة بالنوع، فهي طوائف وكلُّ طائفة منها في تدبير روح من الأرواح السماويّة بعينها، فنوع من النفوس البشريّة تكون حسنة الأخلاق كريمة الأفعال موصوفة بالفرح والسرور وسهولة الأمر، وهي تكون منتسبة إلى روح معيّن من الأرواح السماويّة وطائفة أخرى منها تكون موصوفة بالحدّة والقسوة والغلظة وعدم المبالاة بأمر من الأمور وهي تكون منتسبة إلى روح أخرى من الأرواح السماويّة، وهذه الأرواح البشريّة كالعون[1] لتلك الروح السماويّة وكالنتائج الحاصلة وكالفروع المتفرّعة عليها، وتلك الروح السماويّة هي التي تتولّى إرشادها إلى مصالحها، وهي التي تخصّها بالإلهامات في حالتي النوم واليقظة، والقدماء كانوا يسمّون تلك السماوية بالطباع التامّ ولا شكّ أنّ لتلك الروح السماويّة[2] التي هي الأصل والينبوع شعب كثيرة ونتائج كثيرة وهي بأسرها تكون من جنس روح هذا الإنسان وهي لأجل مشاكلتها ومجانستها يعين بعضها بعضاً على الأعمال اللائقة بها والأفعال المناسبة لطبائعها.

ثمّ إنّها إن كانت خيرة طاهرة طيّبة كانت ملائكة وكانت تلك الإعانة مسمّاة بالإلهام، وإن كانت شريرة خبيثة قبيحة الأعمال كانت شياطين وكانت تلك الإعانة مسمّاة بالوسوسة، وذكر بعض العلماء أيضاً فيه احتمالاً ثالثاً وهو أنّ النفوس البشريّة والأرواح الإنسانيّة إذا فارقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها، فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة وبين هذا البدن نوع تعلّق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما

---

(١) كالأولاد.

(٢) أنّ لذلك الروح الذي هو الأصل.

كان بدناً لتلك النفس المفارقة تعلّق شديد[1] بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلّقة بهذا البدن ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة.

ثمّ إن كان هذا المعنى في أبواب الخير والبرّ كان ذلك إلهاماً، وإن كان من باب[2] الشرّ كان ذلك وسوسة، فهذه وجوه محتملة تفريعاً على القول بإثبات جواهر قدسيّة مبرّأة من الحجميّة والتحيّز[3]، والقول بالأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة فليس لهم أن ينكروا إثباتها على صاحب شريعتنا صلوات الله عليه.

وأما القول الثاني، وهو أنّ الملائكة والشياطين لا بدّ وأن تكون أجساماً، فنقول على هذا التقدير يمتنع أن يقال: إنّها أجسام كثيفة، بل لا بدّ من القول بأنّها أجسام لطيفة، والله سبحانه ركّبها تركيباً عجيباً، وهي أن تكون مع لطافتها لا تقبل التفرّق والتمزّق والفساد والبطلان، ونفوذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة غير مستبعد، ألا ترى أنّ الروح الإنسانيّة جسم لطيف ثمّ إنّه نفذ في داخل عمق البدن، وإذا عقل ذلك فكيف يستبعد نفوذ أنواع كثيرة من الأجسام اللطيفة في داخل هذا البدن؟ أليس أنّ جرم النار سرى في جرم الفحم، وماء الورد سرى في ورق الورد، ودُهن السمسم سرى في جسم السمسم فكذا ههنا فظهر بما قرّرنا أنّ القول بإثبات الجنّ والشياطين أمر لا تحيله العقول ولا تبطله الدلائل، وأنّ الإصرار على الإنكار ليس إلاّ من نتيجة الجهل وقلّة الفطنة.

ولمّا ثبت أنّ القول بالشياطين ممكن في الجملة فنقول: الأخلق والأولى أن يقال: الملائكة على هذا القول مخلوقون من النور وأنّ

---

(١) فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد.

(٢) وإن كان في باب الشر.

(٣) من الجسمية.

الشياطين مخلوقون من الدخان واللّهب كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: ٢٧] وهذا الكلام من المشهورات عند قدماء الفلاسفة فكيف يليق بالعاقل أن يستبعده من صاحب شريعتنا صلوات الله عليه؟ (١).

وقال البيضاويّ: ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ [إبراهيم: ٢٢] بوسوستي فإنّ من صرّح العداوة لا يلام بأمثال ذلك ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، حيث أطعتموني إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربّكم لمّا دعاكم، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] بمغيثكم من العذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] بمغيثي ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] ما إمّا مصدريّة وهي متعلّقة بأشركتموني، أي كفرت اليوم بإشراككم إيّاي من قبل هذا اليوم، أي في الدنيا بمعنى تبرّأت منه واستكبرته(٢) كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] أو موصولة بمعنى «من» ومن متعلّقة بكفرت أي كفرت بالذي أشركتمونيه وهو الله تعالى بطاعتكم إيّاي فيما دعوتكم إليه من عبادة الأصنام وغيرها من قبل إشراككم حين رددت أمره بالسّجود لآدم(٣).

القسم الرابع: بعض الإرشادات عن أهل البيت عليهم السلام:

١ ـ تفسير الإمام قال عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تعوّذوا بالله من الشيطان الرجيم فإن من تعوّذ بالله أعاذه الله وتعوّذوا من همزاته ونفخاته ونفثاته، أتدرون ما هي؟ أما همزاته: فما يلقيه في قلوبكم من بغضنا أهل البيت قالوا: يا رسول الله وكيف نبغضكم بعد ما عرفنا محلّكم؟ قال: بأن تبغضوا أولياءنا، وتحبّوا أعداءنا.

(١) تفسير الرازي: (١٩ ـ ١١٢ ـ ١١٣).
(٢) واستنكرته.
(٣) أنوار التنزيل: ١ ـ ٤٣٤.

قيل: يا رسول الله وما نفخاتهم؟ قال: هي ما ينفخون به عند الغضب في الإنسان الذي يحملونه على هلاكه في دينه ودنياه وقد ينفخون في غير حال الغضب بما يهلكون به أتدرون ما أشد ما ينفخون؟ هو ما ينفخون بأن يوهموا أن أحداً من هذه الأمَّة فاضل علينا أو عدل لنا أهل البيت، وأما نفثاته فإنه يرى أحدكم أن شيئاً بعد القرآن أشفى له من ذكرنا أهل البيت ومن الصلاة علينا»[1].

٢ ـ وحديث آخر عن علي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تُؤووا منديل اللحم في البيت فإنه مربض الشيطان، ولا تُؤووا التراب خلف الباب فإنه مأوى الشيطان. وإذا بلغ أحدكم باب حجرته فليسمِّ فإنه يفرُّ الشيطان وإذا سمعتم نباح الكلاب، ونهيق الحمير فتعوَّذوا بالله من الشيطان الرجيم. فإنهم يرون ولا ترون ففعلوا ما تؤمرون»[2].

٣ ـ قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من الدواجن في بيوتكم تتشاغل بها الشيطاني عن صبيانكم»[3].

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ ص٢٤٤ باختصار.
(٢) فروع الكافي ٦/٢٩٩.
(٣) طب الأئمة.

مواضع استعمال البسملة:

يستحب مؤكداً للإنسان أن يذكر الله بالبسملة في مواضع كثيرة منها:

١ ـ عند الوضوء قال أبو عبد الله عليه السلام «إذا توضأ أحدكم ولم يسمّ كان الشيطان في وضوئه شرك......».

٢ ـ عند الأكل والشرب قال أبو جعفر عليه السلام «إذا أكلت الطعام فقل بسم الله في أوله وآخره فإن العبد إذا سمَّى في طعامه قبل أن يأكل لم يأكل معه الشيطان، وإذا سمَّى بعدما يأكل، وأكل الشيطان منه تقيَّأ ما كان أكل».

٣ ـ عند خلع الثياب قال النبي ﷺ: «إذا خلع أحدكم ثيابه فليسمِّ لئلاً تلبسها الجن فإنه إن لم يسمِّ عليها لبستها الجن حتى تصبح.

٤ ـ عند الزواج من أول اللقاء مع الزوجة قال أبو عبد الله عليه السلام لأبي بصير: «يا أبا محمد أي شيء يقول الرجل منكم إذا دخلت عليه امرأته؟ قلت: جعلت فداك أيستطيع الرجل أن يقول شيئاً؟ فقال عليه السلام: ألا أعلِّمك ما تقول؟ قلتُ: بلى قال تقول: بكلمات الله استحللت

فرجها. وفي أمانة الله أخذتُها اللّهم إن قضيتَ لي في رحمها شيئاً فاجعله بارّاً تقيّاً واجعله مسلماً سويّاً، ولا تجعل فيه شركاً للشيطان، قلتُ: وبأيّ شيء يعرف ذلك؟ قال: أما تقرأ كتاب الله عز وجل، ثم ابتدأ هو، ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤] فإن الشيطان يجيء حتى يقعد من المرأة كما يقعد الرجل منها، ويحدث كما يحدث، وينكح كما ينكح، قلتُ: بأيّ شيء يعرف ذلك؟ قال: بحبّنا وبغضنا من أحبَّنا كان من نطفة العبد ومن أبغضنا كان من نطفة الشيطان».

٥ ـ في وقت الجماع عن أبي بصير عن أبي عبدالله ﷺ «قال في معنى شرك الشيطان قال أبو بصير: قلت وكيف يكون من شرك الشيطان؟ قال ﷺ: إذا ذكر اسم الله تنحَّى الشيطان، وإن فعل ولم يسمِّ أدخل ذكره، وكان العمل بينهما جميعاً والنطفة واحدة» وفي آخر أيضاً: «إذا جامع الرجل امرأته ولم يسمِّ انطوى الشيطان إلى إحليله فجامع معه» وقال ابن عباس أيضاً: «إذا أتى الرجل امرأته وهي حائض سبقه الشيطان إليها فحملت فجاءت بالمخنَّث فالمخنَّثون أولاد الجان»

٦ ـ عند وقوع الأحزان والمعضلات: في الحديث: «إنه من أصابه الحزن لعارض يعترضه أو مصيبة ثم يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، مستيقناً بالله راجياً لرحمته، يمنُّ الله عليه بأحد أمرين، فإما أن يعطيه مسألته، وإما أن تكون الاجابة فيها ما يعارض صلاح العبد، فيعوّضه الله تعالى بأن يهبه من فضله ما يشرح به صدر عبده».

وقال الإمام علي الرضا ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها» ومن المعروف أن النطق بسم الله الأعظم يفتح جميع الأبواب المغلقة وأن هذه الآية تطرد الشياطين بمجرد النطق بها.

٧ ـ البسملة معناها (الإستعانة) فيكون معنى بسم الله (بعون اسم الله) ويعظم أثر حقيقة بسم الله عندما يدرك قائلها بما يملك من علم وسلوك أنه قد استيقن أن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة بدون عون الله بل الإنسان لا يملك حتى نفسه التي بين جنبيه فلا يمكنه أن يقدم عملاً أو يؤخره بدون إرادة الله تعالى وهو عندما يقول في صلاته بسم الله: إنما يعني أنه يقول: بسم الله أقرأ وأفتح، وبسم الله أعمل، وأنطق وأقول لأنه يعلم يقيناً أنه لا استقلال له البتة. يقول الإمام العسكري عليه السلام: «تقول بسم الله أي أستعين على أموري كلها بالله».

٨ ـ عند دخول بيت الخلاء وعند كشف العورة: قال أبو جعفر عليه السلام «إذا انكشف أحدكم لبول أو لغير ذلك فليقل بسم الله، فإن الشيطان يغضُّ بصره عنه حتى يفرغ».

٩ ـ على ظهر البعير قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن على ذروة كل بعير شيطاناً فامتهنوها لأنفسكم وذلّلوها، واذكروا اسم الله عليها كما أمركم الله» (المحاسن).

١٠ ـ عند لجوم الخيل عن يعقوب بن جعفر قال: «سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: الخيل على كل منخر منها شيطان، فإذا أراد أحدكم أن يلجمها فليسمِّ الله»[(١)].

يقول الراغب في المفردات: تستخدم (الحياة) في معان مختلفة: الحياة النباتية، الحياة الحسية (حياة الحيوانات) الحياة العقلانية (حياة البشر) الحياة بمعنى زوال الغم والهمّ والحزن، الحياة الأخروية الخالدة، والحياة المذكورة كونها إحدىٰ الصفاة الإلهيَّة....

---

(١) المحاسن.

آياته في الحيوان

وفيه أبحاث:

البحث الأول

في تعريفه وما يتعلق به من فروع

وهو كل جسم نام حساس متحرك بالإرادة.

قال في نفحات القرآن: إن الحيوانات تمثِّل جانباً عظيماً من الموجودات الحيَّة في العالم، وهي تجلب اهتمام كل ناظر إليها لتراكيبها المختلفة، وأشكالها المتنوّعة، وتباينها الكثير، وعجائبها العظيمة، ودراسة كل منها تعرِّف الإنسان على العلم والقدرة غير المتناهية لخالقها سبحانه وتتجلّى أهمية هذه المسألة عندما نرىٰ هذه الحيوانات في مكان واحد فمثلاً لو ذهبنا إلى حديقة الحيوانات وزرنا غرف الأسماك وأنواع الطيور والقردة والأسد والفهد والنمر والزرافة والفيل، ونظرنا عادات وعجائب خلق كل منها فلا يمكن لمن يمتلك قليلاً من العقل والفطنة، أن لا يغرق بتفكيره بها، ولا يذعن أمام خالق هذه الموجودات المتنوّعة والعجيبة، ومن بين هذه الحيوانات، هنالك حيوانات أليفة تخدم الإنسان، وذات منافع وبركات مختلفة للبشر، جديرة بالإهتمام أكثر من غيرها. ولهذا فقد استند القرآن الكريم

في آياته التوحيدية إلى جميع الدواب بشكل عام وإلى الأنعام والبهائم بشكل خاص، وذكر جوانب من عجائبها في آيات عديدة. كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ... ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى: ٢٩] فكلمة «بَثَّ» تعني في الأصل تفريق الشيء كما يُفرِّقُ الهواء الأتربة وهذا التعبير يعني: تكوين وخلْق وإبراز الموجودات المختلفة، ونشرها في مختلف المناطق..

وعلى أية حال... إن هذا التعبير في الآية يشمل جميع البهائم والحيوانات والإنسان ابتداءً من الموجودات المجهرية التي تتحرَّك حركة دقيقة وخفية حتى الحيوانات العملاقة التي يبلغ طولها عشرات الأمتار، وقد تزن أكثر من مائة طن بل قال بعضهم: «يصل وزن بعض الحيتان إلى مائة وعشرين طناً» ويضم كل نوع من الطيور، ويضم أيضاً مئات الآلاف من أنواع الحشرات المختلفة، وآلاف الآلاف من أنواع الحيوانات الوحشية والأليفة، والحيوانات المفترسة والزواحف والأسماك الصغيرة والكبيرة والموجودات الحيَّة في البحار وأما البقر فقد قال في حياة الحيوان: والوحشي من البقر أربعة أصناف، الإيَلُ، والمَها، واليَحْمُورُ، والتَّيْتَلُ، وكلها تشرب الماء في الصيف إذا وجدته، وإذا عدمته صبرت عنه، واقتنعت باستنشاق الريح وفي هذا الوصف يشاركها الذئب والثعلب.

البحث الثاني

في بعض منافع الحيوانات وفيه فروع

١ ـ «**الألبان وفروعها**» وهي من الفوائد المهمَّة للحيوانات قال تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا...﴾ [المؤمنون: ٢١] يعني اللبن هذه المادة السائغة الطعم التي تخرج من الحيوانات ومن بين دمها ولحمها شراباً مغذياً كاملاً.

والعجيب ما يذكره العلماء: . . فمن أجل إنتاج لتر واحد من الحليب في ثدي الحيوان يجب أن يمرَّ ما يقارب خمسمائة لتر من الدم خلال هذا العضو كي يتمَّ امتصاص المواد اللازمة من الدم لتكوين ذلك اللِّتر من اللبن!، ومن أجل إنتاج لتر واحد من الدم في الشرايين لا بدّ أن تمرَّ الكثير من المواد الغذائية خلال الأمعاء هنا حيث يتجلّىٰ مفهوم ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ [النحل: ٦٦].

فأي قدرة تلك التي تُخرج مثل هذا الغذاء الطاهر الصافي اللَّذيد من بين تلك الأشياء الملوَّثة؟ لونه أبيض، طعمه حلو، رائحته عطرة ومقبول من جميع الجهات. ﴿...إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٠] ونحن نعلم أن الحليب، ومستخرجاته يُمثِّل جانباً مهمّاً من غذاء الناس.

٢ ـ **«الركوب عليها»**: فقد كانت هذه الحيوانات على الدوام خير وسيلة للحمل والركوب عليها قال تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٢] واليوم في عصر السيارات والشاحنات لم يستغن البشر أيضاً عن وجود هذه الحيوانات للركوب وحمل الأمتعة، لاسيما في بعض المناطق الجبلية والطرق التي لا يمكن استغلال وسائط النقل الحديثة فيها، فيستفاد من الحيوانات في الحمل والنقل فهنالك حيوانات كالبغال وغيرها تعتبر أفضل وسيلة لإرسال العتاد إلى جبهات الحرب وغيرها على أعالي الجبال الوعرة ولولاها لأصبح من الصعوبة السيطرة على الجبال الشاهقة الواسعة وقد خلق الباري تعالى فوائد جمَّة في هذه الحيوانات وبيَّن آثار عظمته وفضله على الإنسان من خلالها، واللطيف أن الحيوانات جاءت في هذه العبارة من الآية في مقابل السفن وهذا دليل على أنها بمثابة سفن اليابسة. ولتعبير (حمل) مفهوم غير (الركوب) ويبدو أن المقصود منه هو المحامل والهوادج التي توضع على ظهور الأنعام، ويجلس فيها النساء والأطفال الذين لا طاقة لهم على الركوب، كما يستفاد منها للمرضىٰ والعجزة، والضعفاء.

٣ ـ «البيوت المتنقلة»: في كثير من الحالات يحتاج الإنسان إلى بيوت متنقلة كي يستطيع حملها، ونقلها بسهولة، وتقاوم في نفس الوقت البرد والحرَّ والرياح والعواصف، وأمثال ذلك، ومن أفضل البيوت المتنقلة هي الخيام التي تصنع من الجلود التي تمَّت الإشارة إليها في هذه الآية: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠] وهي أقوىٰ من الخيام المصنوعة من الصوف أو القطن وأكثر مقاومة وراحة. ويصنع من جلودها أيضاً: الأواني كأنواع القرب والأواني الأخرىٰ.

٤ ـ «الصوف والوَبَر والشَّعر»: من الحيوانات ذوات الأربع، ويصنع من هذه الأشياء الثلاثة الكثير من الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان باستمرار ومن ذلك: أنواع الملابس، والفرش، والأغطية، والستائر والخيام، والسُّفر، والحبال وأمثالها مما يلعب دوراً مهمّاً في حياة الإنسان تصنع جميعها من المواد الثلاثة قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠] والصوف من الغنم والوَبرُ من الإبل، والشعر من الماعز.

وبالرغم من أنهم قامُوا في هذا العصر بصناعة أنواع الملابس والفراش من المواد الصناعية والنفطية إلا أن دراسات العلماء (على ما ينقل) أثبتت أنها لا تعتبر صالحة لحياة الإنسان، وغالباً ما تُؤدِي إلى مضاعفات غير ملائمة له، بينما تُعتبر الملابس الصوفية، والوَبَرية، والشَّعَرية من أصلح الملابس.

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ [غافر: ٨٠] قالوا: إنَّ ذكر هذا المعنى على هيئة منفعة مستقلَّة مع أن مسألة الركوب قد ذكرت سابقاً، إلا أنه يمكن أن يكون المقصود منه: حمل ونقل الأمتعة، وضروريَّات الحياة، أو لأغراض التَّنزّه، والسياحة

والمسابقات، أو كسب القوّة في ساحة الجهاد، أو الصراع مع بعض الحيوانات الوحشية أو عبور الأنهار عن طريق سباحة الحيوانات لأنها جميعاً تندرج في لفظ «حاجة» الشامل. وهذه الضروريات لا شأن لها مع مسألة الركوب في الأسفار.

٦ ـ **(فائدة أكل اللحم)**: مع ما ذكره خبراء الغذاء من أضرار اللحم، وبالرغم من المؤاخذات الواردة على آكلي اللحوم في العالم من الناحية الطبية والأخلاقية وغيرها فإن الكثير يعتقدون أن استهلاك اللحم بكمية قليلة ليس غير مضر فحسب بل وإنه ضروري بالنسبة لجسم الإنسان وتبرهن تجارب الذين يعيشون على النباتات بأنهم مصابون بالإضطرابات والنواقص، ويؤيد ذلك وجوههم الصفراء. وهذا يعود إلى أن البروتين وبعض العناصر الأساسية الموجودة في اللحم لا يمكن الحصول عليها في أي نبات أبداً، والأهمية التي يعطيها القرآن لهذه المسألة تحكي عن هذا المعنى فقد قال سبحانه: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢] وفي بعض الروايات: «إنه من ترك أكل اللحم أربعين يوماً فإنه يسوء خلقه فيؤذن في أذنه» (بالمضمون) ولكن مما لا شك فيه أن الإفراط في أكل اللحوم شيء مذموم في نظر الإسلام، ومن وجهة النظر الطبية أيضاً.

البحث الثالث

في الأنعام

واعلم أن الأنعام أنواعها ثلاثة:

أوّلها: الإبل قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧].

قال الطبرسي قدس الله نفسه: كانت الإبل عيشاً من عيشهم

فيقول: أفلا يتفكرون فيها، وما يخرج الله من ضروعها ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦] يقول: كما صنعتُ هذا لهم فكذلك أصنع لأهل الجنة في الجنة، وقيل معناه: أفلا يعتبرون بنظرهم إلى الإبل وما ركّبه الله عليه من عجيب الخلق فإنه مع عظمته وقوّته يذلّله الصغير فينقاد له بتسخير الله إيّاه لعباده فيبركه ويحمل عليه ثم يقوم، وليس ذلك في غيره من ذوات الأربع فلا يحمل على شيء منها إلا وهو قائم فأراهم الله سبحانه هذه الآية فيه ليستدلّوا على توحيده بذلك وسئل الحسن عن هذه الآية وقيل له: الفيل أعظم من الإبل في الأعجوبة. فقال: أما الفيل فالعرب بعيدوا العهد بها ثم هو خنزير لا يركب ظهرها، ولا يؤكل لحمها ولا يحلب درُّها، والإبل من أعزّ مال العرب وأنفسه تأكل النوى والقتَّ، وتخرج اللبن، ويأخذ الصبي بزمامها فيذهب بها حيث شاء مع عظمها في نفسها، ويُحكىٰ أن فأرة أخذت تجرّها وهي تتبعها حتى دخلت الجحر فجرّت الزمام وبركت الناقة فجرّت فقرَّبت فمها من جحر الفأرة[1].

وقال الرازي: للإبل خواص:

منها: إنه تعالى جعل الحيوان الذي يقتنىٰ أصنافاً شتَّى. فتارة يقتنى ليؤكل لحمه وتارة ليشرب لبنه، وتارة ليحمل الإنسان في الأسفار، وتارة لينقل أمتعة الإنسان من بلد إلى بلد، وتارة ليكون به زينة وجمال وهذه المنافع بأسرها حاصلة في الإبل، وإن شيئاً من سائر الحيوانات لا تجتمع فيه هذه الخصال (مختصراً).

وثانيها: إنه في كل واحد من هذه الخصال أفضل من الحيوان الذي لا توجد فيه إلا هذه الخصلة، لأنها إن جعلت حلوبة سقت فأروت الكثير، وإن جعلت أكولة أطعمت وأشبعت الكثير، وإن جعلت

---

(١) مجمع البيان ج١٠ ص٣٨٠.

ركوبة أمكن أن يقطع بها من المسافات المديدة ما لا يمكن قطعه بحيوان آخر، وذلك لما رُكّب فيها من قوّة احتمال المداومة على السير، والصبر على العطش. والإجتزاء من العلوفات بما لا يجتزىء به حيوان آخر، وإن جعلت حمولة استقلت بحمل الأحمال الثقيلة التي لا يستقل بها سواها.

ومنها: إن هذا الحيوان كان أعظم الحيوانات وقعاً في قلوب العرب ولذلك فإنهم جعلوا دية الإنسان إبلاً، وكان الواحد من ملوكهم إذا أراد المبالغة في إعطاء الشاعر الذي جاء من المكان البعيد أعطاه مائة بعير، لأن امتلاء العين منه أشد من امتلاء العين من غيره، ولهذا قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦] الآية، ومنها: إنّي كنتُ مع جماعة في مفازة فضللنا الطريق، فقدَّموا جملاً وتبعوه وكان ذلك الجمل ينعطف من تلّ إلى تلّ ومن جانب إلى جانب. والجميع كانوا يتبعونه حتى وصل إلى الطريق بعد زمان طويل فتعجَّبنا من قوّة تخيّل ذلك الحيوان، إنه بالمرَّة والواحدة كيف انحفظت في خياله صورة تلك المعاطف حتى أن الذي عجز جمع من العقلاء إلى الإهتداء إليه فإن ذلك الحيوان اهتدىٰ إليه.

ومنها: إنّها مع كونها في غاية القوَّة على العمل مباينة لغيرها في الإنقياد والطاعة لأضعف الحيوانات كالصبي، ومباينة أيضاً لغيرها في أنّها يحمل عليها وهي باركة ثم تقوم فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها، ويستدلّ بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه ثم إن العرب من أعرف الناس بأحوال الإبل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها فلهذه الأسباب حسن من الحكيم تعالى أن يأمر بالتأمّل في خلقها[١].

---

(١) تفسير الرازي: ج٣١ ص١٥٦ ـ ١٥٧.

وقال الدميري في حياة الحيوان: إن الإبل الجمال وهي اسم واحد يقع على الجمع ليس بجمع ولا اسم جمع، إنما هو دال على الجنس، وروىٰ ابن ماجة أن النبي ﷺ قال: «الإبل عِزّ لأهلها، والغنم بركة، والخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة» والإبل من الحيوانات العجيبة، وإن كان عجبها سقط من أعين الناس لكثرة رؤيتهم لها، وهو أنه حيوان عظيم الجسم شديد الإنقياد ينهض بالجمل الثقيل، ويبرك به، وتأخذ زمامه فأرة تذهب به حيث شاءت، ويتخذ على ظهره بيت يقعد الإنسان فيه مع مأكوله ومشروبه وملبوسه وظروفه ووسائده كأنه في بيته ويتخذ للبيت سقف وهو يمشي بكل هذه، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧﴾ [الغاشية: ١٧] وعن بعض الحكماء أنه حدَّث عن البعير وعن بديع خلقها وكان قد نشأ بأرض لا إبل بها ففكَّر ساعة ثم قال: يوشك أن تكون طوال الأعناق حيث أراد الله بها أن تكون سفائن البرّ صبَّرها على احتمال العطش حتى أن ظمأها يرتفع إلى العشر وجعلها ترعىٰ كل شيء نابت في البراري والمفاوز ما لا يرعاه سائر البهائم، وفي الحديث: «لا تسبوا الإبل فإن فيها رقوء الدم، ومهر الكريمة» أي أنها تُعطىٰ في الديات فتحقن بها الدماء، وتمنع من أن يهراق دم القاتل.

وقال أصحاب الكلام: في طبائع الحيوان ليس شيء من الفحول مثل ما للجمل عند هيجانه إذ يسوء خلقه، ويظهر زبده ورغاؤه فلو حُمِّل ثلاثة أضعاف عادته حمل، ويقلُّ أكله، ويخرج الشقشقة، (وهي الجلدة الحمراء التي يخرجها من جوفه) وينفخ فيها فتظهر من شدقه لا يعرف ما هي وسئل رسول الله ﷺ عن الصلاة في مبارك الإبل فقال: «لا تصلوا في مبارك الإبل فإنها مأوىٰ الشياطين» وسئل عن الصلاة في مرابض الغنم فقال: «صلوا فيها فإنها بركة» [حياة الحيوان/ ٩ ـ ١١].

والثاني من أنواع الأنعام: البقر قال تعالى: ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾

[يوسف: ٤٣] والبقرات (بالتحريك) جمع بقر كذلك: هو هو اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، قيل: اشتق هذا الاسم من (بقر) إذا شق لأنها تشق الأرض بالحراثة، قال المبرد: إنما سمي الثور ثوراً لأنه يثير الأرض، والبقرة بقرة لأنها تبقر الأرض والبقر أجناس فمنها الجواميس وهي أكثرها ألباناً وأعظمها أجساماً قالوا: وهو حيوان عنده شجاعة وشدَّة بأس وهو مع ذلك أجزع خلق الله يفرُّ من عضِّ بعوضة، ويهرب منها إلى الماء، والأسد يخاف منه، ويقال: إنه لا ينام أصلاً لكثرة حراسته لنفسه. ومنها نوع آخر يقال له: دَرّبن وهي التي يحمل عليها الأشياء، وربما كانت لها أسنمة، وقال في حياة الحيوان: البقر اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، وإنما دخلته الهاء للوحدة والجمع بقرات وهو حيوان شديد القوَّة كثير المنفعة خلقه الله ذلولاً، ولم يخلق له سلاحاً شديداً كما للسباع لأنه في رعاية الإنسان فالإنسان يدفع عنه عدوَّه فلو كان له سلاح لصعب على الإنسان ضبطه والبقر الأجم (يعني الذي لا قرن له) يعلم أن سلاحه في رأسه فيستعمل محلّ القرن كما ترىٰ في العجاجيل قبل نبات قرونها تنطح برؤوسها تفعل ذلك طبعاً وهي أجناس منها الجواميس وهي أكثرها ألباناً وأعظمها أجساماً.

ومنها العراب وهي جرد ملس الألوان، ومنها نوع آخر يقال له: الدربانة وهي التي تنقل عليها الأحمال وربَّما كانت أسنمه، والبقر ينزو ذكورها على إناثها إذا تمَّت لها سنة من عمرها في الغالب وهي كثيرة المنيّ، وكل الحيوان إناثه أرقّ صوتاً من الذكور إلا البقر فإن الأنثى أفخم وأجهر، وليس لجنس البقر ثنايا عليا فهي تقطع الحشيش بالسفلىٰ، وذكر صاحب الترغيب والترهيب، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس: إن ملكاً من الملوك خرج من بلده يسير في مملكته وهو مستخف من الناس فنزل على رجل له بقرة فراحت عليه تلك البقرة فحلبت مقدار ثلاثين بقرة فحدَّث الملك نفسه أن يأخذها فلمَّا كان من

الغد غدت البقرة إلى مرعاها ثم راحت فحلبت نصف ذلك فدعا الملك صاحبها، فقال: أخبرني عن بقرتك هذه لم نقص حلابها؟ ألم يكن مرعاها اليوم مرعاها بالأمس؟ قال: بلى ولكن أرىٰ الملك أضمر لبعض الرعيَّة سوءاً فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همَّ بظلم ذهبت البركة قال: فعاهد الملك ربَّه أن لا يأخذها، ولا يظلم أحداً قال: فغدت فرعت ثم راحت فحلبت حلابها في اليوم الأول فاعتبر الملك بذلك وعدل وقال: إن الملك إذا ظلم أو همَّ بظلم ذهبت البركة لا جرم لأعدلنَّ ولأكوننَّ على أفضل الحالات[1].

ومنها: في حياة الحيوان أيضاً: والوحش من البقر أربعة أصناف: الإيْلُ، والْمَها، واليَحْمُوْرُ، والتَّيْتَلُ وكلها تشرب الماء في الصيف إذا وجدته، وإذا عدِّمته صبرت عنه، واقتنعت باستنشاق الريح، وفي هذا الوصف يشاركها الذئب والثعلب.

والثالث من أنواع الأنعام: الغَنَمُ وهو اسم مؤنث موضوع للجنس يقع على الضَّأنِ والمَعز الذكور والإناث. وقال الجاحظ: واتَّفقوا على أن الضأن أفضل من المعز واستدلوا عليه بوجوه....

وقد وردت أحاديث كثيرة منها:

١ ـ عن أم هاني قالت! إن النبيﷺ قال لها: «اتخذي غنماً فإن فيها البركة» وفي آخر: «شكت إليهﷺ امرأة أن غنمها لا تزكو فقالﷺ: ما ألوانها؟ قالت: سود، فقال: عفري، أي استبد لي أغناماً بيضاً فإن البركة فيها».

٢ ـ قالﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتَّبع بها شَعَفَ الجبال ومواضع القطر يفرُّ بدينه من الفتن» شَعَفُ الجبال:

---

(١) حياة الحيوان ج١ ص١٠٥ ـ ١٠٧.

رؤوسها وشَعَفُ كل شيء: أعلاه، وقال أبو الزنَّاد: خصَّ ﷺ الغنم من بين سائر الأشياء حضاً على التواضع، وتنبيهاً على إيثار الخمول، وترك الاستعلاء والظهور، وقد رعاها الأنبياء والصالحون. وقال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا رعى غنماً» قيل: والحكمة أن الله عز وجل جعل الرعي في الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق ولتكون أممهم رعايا لهم وقال ﷺ: «تسعة أعشار الرزق في التجارة، والجزء الباقي في السابياء» يعني الغنم قال في النهاية بعد إيراد الرواية في السابياء: يريد به النتاج في المواشي، وكثرتها يقال: إن لآل فلان سابياء أي مواشي كثيرة والجمع: السوابي وهي في الأصل: الجلدة التي يخرج فيها الولد وقيل: هي المشيمة.

٣ ـ وفي الحديث عن الحارث قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالغنم والحرث فإنهما يروحان بخير، ويغدوان بخير فقيل: يا رسول الله فأين الإبل؟ قال: تلك أعنان الشياطين، ويأتيها خيرها من الجانب الأشأم (يعني من الجانب الأيسر والمراد من خيرها: لبنها، لأنها تحلب وتركب من الجانب الأيسر».

قيل: يا رسول الله إن سمع الناس بذلك تركوها؛ فقال ﷺ: إذاً لا يعدمها الأشقياء الفجرة» وقال في النهاية: سئل عليه السلام عن الإبل: فقال: أعنان الشياطين، الأعنان: النواحي كأنه قال: إنها لكثرة آفاتها كأنها من نواحي الشياطين في أخلاقها وطبائعها وفي حديث آخر: «لا تصلُّوا في أعطان الإبل لأنها خلقت من أعنان الشياطين».

٤ ـ عن علي عليه السلام: قال: سئل رسول الله ﷺ «أي المال خير؟ قال: زرع زرعه صاحبه وأصلحه، وأدّىٰ حقه يوم حصاده قيل: فأي المال بعد الزرع خير؟ قال: رجل في غنم له قد تبع بها مواضع القطر يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة قيل: فأي المال بعد الغنم خير؟ قال: البقر

تغدو بخير وتروح بخير، قيل: فأي المال بعد البقر خير؟ قال: الراسيات في الوحل، والمطعمات في المحل، نعم الشيء النخل من باعه فإنما ثمنه بمنزلة رماد على رأس شاهق اشتدت به الريح في يوم عاصف إلا أن يخلف مكانها، قيل: يا رسول الله فأي المال بعد النخل خير؟ فسكت. فقال له رجل: فأين الإبل؟ قال: فيها الشقاء والجفاء والعناء وبُعد الدار، تغدو مدبرة وتروح مدبرة ولا يأتي خيرها إلا من جانبها الأشأم، أما أنها لا تعدم الأشقياء الفجرة» وقد شرح هذا الحديث في البحار وبدأ بقوله بيان:

قد تبع بها «الباء» للتعدية، أو للمصاحبة أو للسببية أي يتبع لغنمه مواضع قطر السماء ونزول المطر فإذا رأى ماء وعشباً نزل هناك «تغدو بخير» أي بلبن أي تأتي به غدواً ورواحاً. والخير: كل ما يرغب فيه، ويكون نافعاً، وقال الراغب: الخير والشر يقالان على وجهين:

أحدهما: أن يكونا اسمين كقوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

والثاني: أن يكونا وصفين وتقديراهما: تقدير أفعل منه نحو هذا خير من ذلك وأفضل كقوله تعالى: ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] المفردات، قوله: «الراسيات في الوحل» أي النخيل التي نشبت عروقها في الطين وثبتت فيه وهي تطعم أي تثمر في المحل (وهو بالفتح) الجدب وانقطاع المطر والتخصيص بها لأنها تحمل العطش أكثر من سائر الأشجار، قوله «فإنما ثمنه» هو قائم مقام الخبر كأنه قيل: فلا يرى خيراً لأن ثمنه فلذا خلا عن العائد أو هو خبر بإرجاع ضمير ثمنه إلى الموصول قوله ﷺ: «بمنزلة رماد» اقتباس من قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ [إبراهيم: ١٨] والعصف: اشتداد الريح

وصف به زمانه للمبالغة كقولهم: نهاره صائم وليله قائم «واشتدَّت به» أي حملته وأسرعت الذهاب به، والشاهق: المرتفع من الجبال والأبنية وغيرها «إلا أن يخلف مكانها» أي مثله أو الأعمّ والأول أظهر والشقاء: الشدة والعسر أو هو ضد السعادة. والجفاء: البعد عن الشيء وترك الصلة والبرّ وغلظ الطبع، وفي القاموس: جفا عليه كذا: ثقل، وجفا ماله: لم يلازمه، وأجفىٰ الماشية: أتعبها ولم يدعها تأكل. وأقول: هنا أكثر المعاني مناسب، فإن فيها غلظ الطبع ومن يلازمها يصير كذلك كما يُرىٰ في الأعراب والجمَّالين، ويبعد عن صاحبه للرعي، وإن كان المراد ببعد الدار أيضاً ذلك، وتتعب صاحبها وتثقل على صاحبها لقلّة منافعها، والعناء: التعب «تغدو مدبرة» لأنها تطلب العلف من صاحبها غدوة وليس لها منفعة تداركه وكذا في الرواح «أما إنَّها لا تعدم الأشقياء الفجرة» أي أنها مع هذه الخلال لا يتركها الأشقياء ويتخذونها للشوكة والرفعة التي فيها، ولا يصير قولي هذا سبباً لتركهم لها. وما يروى عن الشيخ البهائي قدّس سرّه أن المعنى أن من جملة مفاسدها أنها يكون معها غالباً شرار الناس وهم الجمَّالون فهذا الخبر وإن كان يحتمله لكن سائر الأخبار مصرّحة بالمعنى الأوَّل.

وفي الحديث أيضاً عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الغنم إذا أقبلت أقبلت، وإذا أدبرت أقبلت، والبقر إذا أقبلت أقبلت، وإذا أدبرت أدبرت، والإبل أعناق الشياطين إذا أقبلت أدبرت، وإذا أدبرت أدبرت....».

٥ ـ في الحديث عن أبي جعفر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «البركة عشرة أجزاء تسعة أعشارها في التجارة والعشر الباقي في الجلود» قال في البحار: لعلَّ الجلود أريد به: ذوات الجلود من الحيوانات وفي القاموس: الجَلَدُ (محرَّكة): الشاة يموت ولدها حين تضع كالجَلَدَةِ محركة فيهما، والكبار من الإبل لا صغار فيها، ومن

الغنم والإبل ما لا أولاد لها ولا ألبان، وككتاب من الإبل: الغزيرات اللبن كالمجاليد، أو ما لا لبن لها ولا نتاج والجلدُ: الذكر ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١] أي لفروجهم وقال الصدوق رضي الله عنه: يعني بالجلود الغنم.

البحث الرابع
في (عجائب عالم الحيوانات)

وفيه أقسام:

القسم الأول، (في الإبل)،

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧] إن التأمل في هذا الحيوان، يدلِّلُ على أنه ذو مواصفات متباينة تجعله يختلف عن باقي الحيوانات الأخرىٰ، ويتضح جيداً من خلال الإنتباه إلى هذه المواصفات الآتية:

١ ـ إن مقاومة الجمل لا نظير لها، لاسيما إزاء الجوع، وشدَّة التحمَّل وقد يقاوم العطش الذي هو أصعب من الجوع لعشرة أيام أو أكثر ولهذا يعتبر أفضل وسيلة لقطع الصحراء القاحلة، لذلك فقد أطلقوا عليه «سفينة الصحراء» لأنه يتمكن من خزن الغذاء والماء لمدَّة طويلة في بطنه، ويقتصد في استهلاكهما أيضاً.

ولا يتقيد بنوع خاص من الغذاء في طعامه، وغالباً ما يتغذى على كل ما ينمو في الصحراء.

٢ ـ والأعجب من ذلك أنه يواصل طريقه شاقاً العواصف الترابية المليئة برمال تعمي العيون، وتصم الآذان، وهو يستطيع سدَّ منخريه مؤقتاً ويحافظ على أذنيه من الغبار، ولعينيه هدبان يطبق أحدهما على

الآخر في هذه الظروف، وينظر من خلفهما وما قاله بعضهم بأن الجمل يسير مغمَّض العينين فإن هذا هو المقصود، وقال بعض أيضاً: إنه يحسن تشخيص الطريق في الليالي المظلمة.

٣ ـ إن الحيوانات تتباين فيما بينها، فبعضها يستفاد من لحمه ومنها: ما يستفاد منه في الركوب، ومنها: ما يستفاد من لبنه فقط، ومنها: ما يستفاد منه للحمل إلا أن الجمل يجمع بين هذه الجوانب الأربعة جميعها فيستفاد منه للركوب، ولحمل الأمتعة، ومن لبنه وجلده ووبَرِه.

٤ ـ ومن العجائب المتميِّزة لهذا الحيوان هي أن الحمل يوضع على ظهره أو يُركب أثناء بروكه، وينهض وبحركة واحدة من مكانه ليقف على أرجله بينما تنعدم هذه القدرة لدىٰ باقي الحيوانات.

وقال في عجائب الملكوت:

قيل: إذا وقع بصر الجمل على نجم سهيل مات لوقته، وبر الإبل إذا أحرق وذرّ على الدم السائل قطعه، وإذا ذرّ على الأنف يحبس الرعاف، وإذا ربط قراده وهو ما يسقط من الوبر في كم العاشق زال عشقه، وبوله يغلىٰ حتى ينعقد ويطلى به الناصور يزيله، وشربه يزيل صفرة الوجه، وقال مولانا أبا الحسن موسى ﷺ: أبوال الإبل خير من ألبانها، ويجعل الله الشفاء في ألبانها[1] وإذا شرب السكران بوله أفاق من ساعته، وهو نافع لورم الكبد، والمداومة على أكل كبده يدفع نزول الماء، وشحمه لم يوضع في موضع إلاّ هربت الحيّات منه، سنامه يذاب ويطلى به البواسير يسكن وجعها، عظمه يسحق ويخلط بالزيت ويطلى به رأس المصروع يزول صرعه، لبنها ينفع من

(١) وسائل الشيعة.

السمومات كلّها والتمضمض به ينفع للأسنان المأكولة، مخ ساقه إذا تحملت به المرأة في قطنة أو صوفة بعد الطهر سبعة أيام وجومعت فإنّها تحمل إن كانت عاقراً.

القسم الثاني، في الحيوانات الأخرى وفيه فروع:

١ ـ ومن المعروف أن قطيع الأغنام عندما يعود من الصحراء فهناك عدد من الغنم والماعز تعود إلى عائلة ما وبمجرَّد اقترابها من القرية يسلك كل منها فروع، وأزقة القرية، ويتَّجه نحو بيت صاحبه بدون أي اختلاف.

٢ ـ ومن المعروف أن النعجة لا تسمح أبداً لغير ولدها أن يرتضع من ثديها، وعندما تطلق الصغار في ظلام الليل الدامس وتدخل في القطيع يذهب كل منها إلى أمّه فتعرفه وتستعد لإرضاعه وتعرف ولد غيرها فتمتنع من إرضاعه، وهذه المعرفة تحصل للأم عن طريق «الشمّ» فقط، وهذا يعني أن عدد رائحة الأغنام تضاهي عددها فكل واحد منها يختص برائحة لا توجد في غيره، وكل نعجة تشخّص رائحة صغيرها من بين هذه الروائح!

٣ ـ يعتقد العلماء أن معظم الحيوانات لديها لغة خاصة بها وتتفاهم فيما بينها عن طريق تلك اللغة فالنمل تتحدث فيما بينها من خلال اللمس، أو من خلال اصطدام لوامسها، وتتبادل الرسائل، وبعضها تخابر عند حلول الخطر من خلال ضرب أرجلها على باب الخليّة «كالبرقيّات».

٤ ـ إن أغلب الأحياء علاوة على امتلاكها للغة الخاصة فهي تملك لغة عامّة تستطيع من خلالها فهم لغة بعضها مع بعض فهذه اللغة التي يصدرها الغراب أثناء حصول الخطر حيث يحذّر بقيَّة الحيوانات

بصوت خاص كي تبتعد سريعا عن منطقة الخطر، ويعتبر الغراب في الواقع بمنزلة جاسوس من جواسيس الغابة.

وقال عالم الطبيعة (فرانك ألن): إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحيَّة، وهي تتكوَّن من خمسة عناصر هي: الكربون، والنيتروجين، والأوكسجين، والكبريت، ويبلغ عدد الذرَّات في الجزيء البروتيني الواحد (٤٠٠٠٠٠) ذرَّة، ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة (٩٢) عنصراً موزَّعة كلها توزيعاً عشوائيّاً فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئاً من جزئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كميَّة المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلِّف هذا الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الإجتماع بين ذرَّات الجزيء الواحد. . . .

إلى أن قال: ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ولا تدبُّ فيها الحياة إلا عندما يحلّ فيها ذلك السرُّ العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً. إنه العقل اللانهائي، وهو الله وحده الذي استطاع أن يدرك ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقرّاً للحياة فبناه وصوَّره، وأغدق عليه سرَّ الحياة.

وبعد ذلك أقول: أنظر يا أخي إلى هذا النظام الدقيق وانظر إلى هذا العالم الذي نعيش فيه قد بلغ من الإتقان والتعقيد درجة، من المحال أن يكون نشأ بمحض المصادفة. إنّه مليء بالروائع والأمور المعقدة، التي تحتاج إلى منظم قدير.

وإن الطريقة العلمية تقوم على أساس انتظام الظواهر الطبيعية والقدرة على الاطمئنان بها في ظل هذا الانتظام ونستطيع أن نقول بكل دقّة: إن هذا الإنتظام في ظواهر الكون والقدرة على التنبؤ بها (وهما الأساسيان اللذان تقوم عليهما الطريقة العلمية) هما في الوقت ذاته

الإيمان بفكرة وجود الله تعالى إذ كيف يتسنّى أن يكون هنالك هذا النظام وكيف يتسنى لنا أن نتنبأ بهذه الظواهر ما لم يكن هنالك مبدع ومدبر وحافظ لهذا النظام العجيب؟!

القسم الثالث، في الفطنة التي رزقها الله لبعض الحيوان،

وفيه فروع أيضاً:

١ ـ مواراة البهائم عند إحساسها بالموت، اعتبر بما تراه في الصحارى والجبال من أسراب الظباء وجميع الوحوش وأصناف السباع من الأسد وغيره وضروب الهوام والحشرات ودواب الأرض، وكذلك اسراب الطير جميع هذه الأصناف والأنواع إذا أحسوا بالموت كمنوا في مواضع خفية فيموتون فيها ولولا ذلك لامتلأت الصحارى منها حتى تفسد رائحة الهواء، وتحدث الأمراض والوباء.

٢ ـ الفطنة التي جعلت في الأيل وهو حيوان من ذوات الظلف للذكر منه قرون متشعبة لا تجويف فيها أما الإناث فلا قرون فيها فإن الأيل يأكل الحيات فيعطش عطشاً شديداً فيمتنع من شرب الماء خوفاً من أن يدب السم في جسمه فيقتله ويقف على الغدير وهو مجهود عطشاً فيعج عجيجاً عالياً ولا يشرب منه ولو شرب لمات من ساعته.

٣ ـ الفطنة في الثعلب فإنه إذا أعوزه الطعام تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتاً فإذا وقعت عليه لتنهشه وثب عليها فأخذها.

٤ ـ الفطنة في الدلفين: دابة بحرية كبيرة يلتمس صيد الطير فتكون حيلته في ذلك أن يأخذ السمك فيقتله ويسرحه حتى يطفو على الماء ثم يكمن تحته ويثير الماء الذي عليه حتى لا يتبين شخصه، فإذا وقع الطير على السمك الطافي وثب إليه فاصطاده.

٥ ـ الفطنة في طائر ضخم يقال اسمه «الذمّي» فإنه إذا جاء إلى

عشّه أحد وأخذ فراخه فإنه ينتقم ممن أخذهم فيقبض برجليه حجراً كبيرة ويأتي للذي أخذ فراخه ويرميها على رأسه.

٦ ـ قال السيد عبد الحسين دستغيب: عندما كنت في ضيافة المرحومين الحاج خليل والحاج جليل (رحمة الله عليهما) في مدينة فيروزآباد سمعت منهما أن أحد الرعاة الفقراء في هذه المدينة قد توفيت زوجته أثناء الوضع، ولم يجد مرضعة لطفله فاضطر لأخذ طفله الرضيع معه إلى الرعي، وتركه عند إحدىٰ الأشجار وهو يرعىٰ أغنامه وبعد فترة رجع إليه فرأىٰ معزاة قد انحنت على الطفل، وتركت ثديها قريباً من فمه، وكان الطفل يرضع من حليبها، وهو في نشوة وسرور وعندما تقدم من المعزاة لم ترتبك، ولم تتحرَّك، وبقيت ترضعه حتى شبع الطفل، فتركته وذهبت إلى المراعي الجبلية العالية، وكانت كلما سمعت صوت الطفل يصرخ من الجوع تترك المرعىٰ، وتأتي إلى الطفل لترضعه. أجل إن الله سبحانه وتعالى قد قدَّر بقاء الطفل فأمَّن رزقه من هذه المعزاة وإنه حينما سخَّر الأمّ لإرضاع طفلها سخَّر المعزاة أيضاً لطفل يتيم لا أمَّ له[1].

٧ ـ الوفاء العجيب للكلب: يقول الحاج معتمد الدولة فرهاد ميرزا (محافظ فارس): عندما كنت في لندن، أنيطت بي مهمَّة أقوم بها في ضواحي المدينة فخرجت من الدار ومعي محفظتي، وفيها أوراق مالية ومستندات رسميَّة، وفي الطريق لاحظت كلباً يمشي إلى جواري، وكلما حاولتُ إبعاده لم استطع، واستمرَّ الكلب يسير بجانبي حتى وصلتُ إلى مكان ظليل فيه أشجار، وكان معي طعام الإفطار، فجلست وأكلتُ قليلاً، ثم واصلتُ السير، فإذا بالكلب يقف حائلاً في الطريق، ولا يدعني أمر، ومهما حاولتُ لم أوفَّق للخلاص منه فاضطررت

(١) القصص العجيبة.

لإطلاق النار عليه، وأرديتُه قتيلاً، وواصلتُ سيري وبعد فترة لاحظتُ أن محفظتي لم تكن معي فارتبكتُ، وتذكَّرتُ أنني وضعتها بالقرب من الشجرة، التي جلستُ عندها فرجعت القهقرىٰ إلى موقع الشجرة وبحثتُ عن المحفظة فلم أجدها فعجبتُ من الأمر، وقلتُ في نفسي ربما أخذها الكلب، وأخذتُ أتتبع آثار الدماء حتى وجدتُ جثة الكلب وقد وقعت في داخل الحفرة لا يلاحظها الشخص العادي، وكان الكلب قد عضَّ على المحفظة بناجذيه وهو جثة هامدة فعلمتُ أن الكلب وبعد أن يئس من ردعي عن مواصلة السير، وخوفاً منه على المحفظة المهمَّة فإنه أخذها معه وهو ينزف دماً، وألقىٰ بنفسه في تلك الحفرة بعيداً عن أنظار الناس والسراق[1].

٨ ـ تضحية الكلب بحياته من أجل صاحبه، كما نقل المرحوم الحاج الشيخ سهام عن والده عن جده أنه قال: عندما أراد المرحوم حسين علي ميرزا قائد القوات أن يسبح في البحر اعترضه كلب، لكن المرحوم لم يلتفت إلى الكلب وحاول إلقاء نفسه في البحر وعند ذاك قفز الكلب قبل صاحبه إلى البحر فظهر للتوِّ، وللحظة حيوان عظيم، وابتلع الكلب كاملاً. عند تلك اللحظة أدرك القائد لماذا حال الكلب في البداية دون سباحة صاحبه، وكيف ضحّىٰ بنفسه من أجل صاحبه فبغض النظر عن السباحة، وبقي القائد مهموماً، وقد غلبته العبرات على الكلب الوفي[2].

واعلم أن قصص الكلب العجيبة كثيرة جداً ومن أراد المزيد فليراجع الجزء الرابع عشر من كتاب بحار الأنوار فقد نقل هناك العلاّمة المجلسي (أعلى الله مقامه) قصصاً عجيبة في باب (وفاء الكلب).

---

(١) القصص العجيبة.
(٢) القصص العجيبة.

٩ ـ الفطنة في ديك الغاب طير من فصيلة العصفوريات رمادي اللون له منقار طويل جداً يستخدمه في نبش التربة للبحث عن الحشرات والديدان.

فإنه عندما يشعر بالخطر يضم فراخه بين جناحيه ويطير بها عالياً حتى يبتعد عن الخطر.

١٠ ـ الفطنة في السَّبَد: طير رمادي اللون وحيلته أنه إذا أحس بالجوع سكن في مكانه وفتح منقاره ويبقى هادئاً في مكانه وباطن فمه يبقى بارزاً أحمر اللون والكثير من الحشرات تغرى به وتظنه طعاماً لذيذاً، لكنها وبمجرد أن تصل إليه يطبق عليها، ويلتهمها.

١١ ـ الفطنة في الزقزاق الأغبر هو طائر صاحب خدعة فإنه يحدث أحياناً أن يقترب ثعلب أو أي حيوان يشكل خطراً بالنسبة لفراخه فيحاول هذا الطائر أن يبعد الخطر عن فراخه أو بيضه فيتظاهر بأنه جريح أو كسير فإذا رآه الثعلب واقترب منه فإنه يطير ويبتعد قليلاً عنه ثم يحل فيجري الثعلب وراءه ثم يطير الزقزاق مرة أخرى وهكذا إلى أن يبتعد الثعلب عن العُشّ فيطير عائداً إلى بيضه أو فراخه بعد أن أبعد الثعلب.

وقد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان في كثير من أنواعه كالنمل والنحل والأرضة على عجائب من آثار المدنية والإجتماع ودقائق من الصنعة ولطائف من السنن والسياسات لا تكاد توجد نظائرها إلا في الأمم ذو الحضارة والمدنية من الإنسان وقد حث القرآن الكريم على معرفة الحيوان والتفكر في خلقها وأعمالها عامة كقوله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية: ٤] ودعا إلى الاعتبار بأمر كثير منها كالأنعام والطير والنحل والنمل.

وقالوا أيضاً التفكر والإمعان في أطوار الحيوانات العجم التي

تزامل الإنسان في كثير من شؤون الحياة والتفكر في أحوالها وفي مسير حياتها وتعيّشها يدلّنا على أن لها كالإنسان عقائد وآراء فردية واجتماعية تبني عليها حركاتها وسكاناتها في ابتغاء البقاء مثل ما يبني الإنسان تقلباته في أطوار الحياة الدنيا على سلسلة من العقائد والآراء. فكما أن الواحد منها يشتهي الغذاء والنكاح أو الولد أو غيره أو يكره الضيم أو الفقر أو غير ذلك فيلوح له من الرأي أن من الواجب أن يطلب الغذاء أو يأكله أو يدّخره في ملكه وأن يتزوج وأن ينسل وهكذا ويلوح له أن من الممنوع المحرم عليه أن يصبر على ضيم أو يتحمّل مصيبة الفقر وهكذا فيتحرك ويسكن على طبق ما تدله هذه الآراء اللائحة لنفسه من الطريق.

كذلك الواحد من الحيوان (على ما نشاهده) يأتي في مبتغيات حياته من الحركات المنظمة التي يحتال بها إلى رفع حوائج نفسه من الغذاء والسفاد والمأوى بما لا نشك به في أن له شعوراً بحوائجه وترتفع به حاجته وأن له آراء وعقائد ينبعث بها إلى جلب المنافع ودفع المضار كما في الإنسان.

وقد عثر على الكثير من أنواع الحيل والمكائد للحصول على الصيد والنجاة من العدو من الطرق الإجتماعية والفردية ما لم يتنبه إليه الإنسان إلا بعد طي قرون وأحقاب من عمره النوعي.

وقالوا أيضاً: إن هذه الآراء والعقائد التي نرىٰ أن الحيوان على اختلاف أنواعها في شؤون الحياة، ومقاصدها تبني عليها أعمالها، ولا يبعد أن توجد فيها الأحكام الباعثة والزاجرة، واستحسان أمور، واستقباح أمور، ومعنى العدل أو الظلم، ويؤيّد ذلك ما نشاهده في بعض الإختلاف في أفراد أيّ نوع من الحيوان في أخلاقها فكم بين الفرس والفرس، وبين الكبش والكبش، وبين الديك والديك مثلاً من

الفرق الواضح في حدَّة الخُلُق أو سهولة الجانب ولين العريكة، وكذا يؤيِّد ذلك جزئيات أخرىٰ: من حُب وبغض وعاطفة ورحمة وقسوة وتَعَدّ وغير ذلك مما نجدها بين أفراد الحيوان من نوع واحد، ووجدنا مثلها بين أفراد الإنسان ووجدناها مؤثرة في الإعتقاد بالحسن والقبح في الأفعال والعدل الظلم في الأعمال، ثم إنها مؤثِّرة أيضاً في حياة الإنسان الأخروية وملاكاً لحشره ومحاسبة أعماله والجزاء عليها بنعمة أو نقمة أخروية.

وقال رسل لوبل ـ أستاذ علم الحيوان:

إنني أرىٰ أنواعاً عديدة من النباتات والحيوانات الحيَّة التي عاشت على سطح هذه الأرض والتي يبلغ عددها الملايين، وأنا أعني هنا الأنواع لا الأفراد فعدد الأفراد يبلغ أرقاماً خيالية تشبه الأرقام التي تستخدم في علم الفلك فهل هنالك من نظام تخضع له هذه الأنواع المختلفة؟ نعم هنالك نظام حيثما اتجهنا فكل نوع من هذه الأنواع ينقسم إلى فصائل وتنقسم الفصائل بدورها إلى أقسام أصغر فأصغر، ولكننا مهما قسمنا نجد أن هنالك صفات مشتركة بين جميع الأفراد التي تنتسب إلى نوع واحد أو صنف واحد، فإذا نظرنا إلى أحد الطيور التي تسمَّى نقَّارة الخشب، فإننا نجدها جميعاً قد بنيت على طراز واحد، وقد تتشابه مع غيرها من الطيور بقدر وتختلف عنها بقدر، وهنالك صفات مشتركة بين جميع الفصائل والأنواع الحيوانية، الموجودة في الطبيعة بأسرها فهي تشترك جميعاً في اللحم أو البروتوبلازم ويعدُّ ذلك بنفسه دليلاً على أن وراء كل ذلك التنظيم خالقاً مدبِّراً هو الذي خلق المادة الأساسية فيها، وأودع فيها من القوَّة والتوجيه ما جعلها تتخذ هذه الصورة التي لا تحصىٰ من الأفراد والأصناف والأنواع والأجناس إن المنطق السليم يدفعنا إلى التسليم بوجود عقل مقدَّس، هو الذي خلق ودبر تلك الإختلافات والإتفاقات

التي نتحدث عنها بدلاً من أن يجعلنا نتصوَّر أن تلك الأنواع المختلفة من الكائنات الحيَّة، والأجناس قد ظهرت بمحضر المصادفة التي أدّت إلى اتحاد بعض العناصر تحت ظروف البيئة. . . . .

القسم الرابع: في الهداية الفطرية للإنسان والحيوان:

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠] ليس البشر فحسب بل الكثير من الأحياء الأخرىٰ تولد من أمهاتها حاملة الكثير من العلوم والمعارف الفطرية والغريزية، العلوم التي لم يكن ثمَّة معلم يعلِّمها، وليست وليدة التجربة، والإختيار، بل إن المعلم الأول هو الذي أودعها منذ البداية في عمق وجود الإنسان وسائر الحيوانات، بطريقة غامضة ومذهلة «كما قالوا» إن هذه العلوم والمعارف والهداية الفطرية الموجودة في الإنسان والحيوان تعدُّ آيات عظيمة ودلالات واضحة على عظمة الله وعلامة بيِّنة لعلمه وقدرته.

وواضح أن كلّ موجود خلق من أجل هدف، وكل واحد من النباتات والحيوانات سواء كانت طيوراً أو حشرات أو حيوانات أو صحارىٰ أو بحاراً خلق لمحيط خاص، ويشاهد بوضوح أن لها انسجاماً كاملاً مع محيطها، وقد زوِّدت بكل ما تحتاج إليه، هذا في المرحلة البدائية من خلقها، أما في مرحلة الهداية التكوينية، فنشاهد بجلاء أن ليس هنالك موجود يترك لحاله بعد خلقه، بل إنه يساق نحو أهدافه بهداية غامضة، وللكثير منها علوم، ومعارف لم تصلهم بلا شك عن طريق التجربة الشخصية، ولا عن طريق تعليم المعلم إن هذه الهداية التكوينية، والعلوم والمعارف من آيات الذات المقدَّسة التي خلقت هذا العالم الكبير، وما انفكت تهديه وتسيِّره وهذا الكلام لا يخص الإنسان وحده، بل إن مفاد الآية المتقدمة ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] هو بحث كلي، وجامع وعام يشمل فيما

يشمل أفراد البشر وهذا أمر وراء هداية الأنبياء والرسل المسماة بالهداية التشريعية والخاصة بالإنسان.

وما صدق على النبات، يصدق على الحيوان أيضاً فهو كالنبات وسائر الأحياء الأخرى بحاجة ماسة إلى توافر الشعور والإدراك فيه ولكن على نحو أكثر رقياً وتطوراً مما هو عليه في النبات.

فهو (الحيوان) يحتاج إلى الحس والشعور اللازم لتوفير الاستعدادات الدفاعية والحفاظ على حياته من الأخطار الخارجية المحدقة به ومن الأخطار الداخلية المحيقة به أيضاً، بحيث نرىٰ أن قوائم الحيوان وعيونه وآذانه وأسنانه وغيرها تكون على نحو تمكنه من تأمين الدفاع الذاتي له في مواجهة الاعداء.

فنجد من الحيوانات ما هو زاحف على بطنه، ومنها ما يمشي على رجلين ومنها ما يمشي على أربع كما يشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥] وقوله عز وجل ﴿ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، إذاً اعطىٰ الله (عز وجل) لكل موجود ومخلوق تركيبته وهيئته التي تناسبه حالاً وكمالاً، وهذا ما نعبر عنه بالرحمة التي خُلق فيها الموجود واعطائه من القدرة التي تمكنه من تمييز الضر والسوء من الخير والصلاح كيما يستطيع دفع ذلك الضر وجلب النفع لنفسه وهو ما عبّر عنه الباري تعالى بالهدىٰ، وما الهدىٰ إلاّ لون من الوان الرحمة الإلهية لمن يتأمّل.

إلمام الحيوان بصنعة الطب:

ولقد ذكر بعض أهل العلم عن معرفة الحيوانات لمنفعة الطب قائلين:

١ ـ إذا مرض الأسد، فإنه يعالج نفسه من خلال أكل القردة.

٢ ـ ويعالج الكلب نفسه بأكل ورق النيل[١].

٣ ـ ويعالج الخنزير البري نفسه بأكل السرطان.

٤ ـ ويعالج البعير نفسه بتناول ورق البلوط.

٥ ـ ويعالج الضبع نفسه بأكل عُذرة الكلب.

٦ ـ ويعالج الببر[٢] نفسه بتناول الكلاب.

٧ ـ ويعالج الدب نفسه بأكل النمل.

٨ ـ ويعالج الذئب نفسه بأكل التراب.

٩ ـ ويعالج النمر نفسه بأكل التراب.

١٠ ـ ويعالج الفهد نفسه بأكل الفئران.

١١ ـ ويعالج الثعلب نفسه بأكل القصب، وهكذا أيضاً بالنسبة للأرنب.

١٢ ـ ويعالج الغراب نفسه بأكل الشعير.

١٣ ـ ويعالج الهدهد نفسه بأكل العقارب.

١٤ ـ ويعالج الحمام الجبلي نفسه بأكل الجراد.

١٥ ـ وتعالج القطة نفسها بأكل نبتة سطوح المنازل[٣].

الأدوية الناجحة لأوجاع القطط القلبية، والعمى عند الأفاعي:

وأعجب ما قيل عن أدوية آلام الحيوانات التي توصلت إليها تلك

(١) النيل: نبات ينمو في المناطق الحارة كالهند ويستعمل في صناعة صبغ الملابس والأقمشة باللون الأزرق (النيلي).

(٢) البَبْر: بفتح الباء الأولى وسكون الثانية، وهو حيوان من السنوريّات يشبه النمر ولكنّه أضخم منه ويقارن الأسد في هيئته ولكنّه يختلف عنه في الفعالية والنشاط.

(٣) وهو نبات طبيعي ينبت على سطوح المنازل الطينية في فصل الربيع.

الحيوانات بفضل ما أودعه الله تعالى فيها من غرائز ما ذكره الدميري في كتابه (حياة الحيوان) فقد أشار إلى موارد لطيفة بهذا الشأن، يقول إن القطط عندما تشتكي وجع القلب، تذهب إلى سطوح المنازل حيث ينبت عشب أخضر زاهي اللون فتتداوىٰ به عن طريق أكله، فلا تلبث حتى تتحسن أحوالها وتعود لها عافيتها من جديد، وعن الافاعي (وهي انواع من الحيّات السامة) يقول إن الأفاعي غالباً ما تعمر ألف سنة أو أكثر، فهي بعد أن تطوي من عمرها الألف عام تصاب بالعمى أو بضعف البصر الشديد، فتتحرك (وفق الغريزة التي اودعها الباري فيها) صوب شجرة تدعى شجرة الرازيانة أو شجرة الأسرار، (وتمتاز هذه الشجرة بالقدرة على سحب الأشياء والادواء الحائلة دون القدرة على الابصار لدىٰ الأفاعي)، فتطوي الأفعى الفيافي والقفار والمسافات من خلال قدرتها الفائقة على الشم حتى تعثر على تلك الشجرة ثم تقترب منها وتأخذ بدلك عينيها بورق تلك الشجرة لتنتهي من عملية الدلك هذه وقد عادت صحيحة البصر.

الرحمة الواسعة التي لا تستثني شيئاً:

كل ذلك كان من آثار رحمة الله الواسعة التي لا تغادر شيئاً من أشياء الوجود، والجميع يرفل في نعيمها، الغني والفقير على حد سواء، باعتبار أن هذه الرحمة هي لون من ألوان العطاء الإلهي الذي يعمم جميع الكائنات دون تفاوت أو استثناء يقول تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، ويذهب القرآن الكريم إلى تأييد هذا الأمر في قوله عز وجل: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧] وهو تشبيه لرحمة الله تعالى التي مثلها مثل الماء الذي تمطره السماء فتمتلىء به الأوعية، كل وعاء بقدر سعته فالكأس يمتلىء بسعته والحفيرة تمتلىء بسعتها والبحر يمتلىء بسعته فرحمة الله الرحمانية تغمر الخلائق جميعاً كل حسب قدره وسعته واستعداداته الذاتية وقابلاته التكوينية لينعموا بها.

نحن كنا عدماً دون أن نفصح سؤالاً   سمع الباريء منا ما عجزنا عنه مقالا

القسم الخامس، في الهداية التكوينية في طفل الإنسان وفيه فروع:

١ ـ **(علم الطفل بثدي أمه)**: إن الطفل الذي يولد من أمّه يمسك وبدون أي مقدمة ثدي الأم، ويمتص عصارة روحها، وتارة يضغط الثدي بيديه الصغيرتين فيحرك منابع اللبن في الثدي، من أين تعلّم هذا الدرس الذي يضمن له استمرار حياته؟

٢ ـ **(علم الطفل بالبكاء)**: من أين يعلم أن أفضل سبيل لرفع حاجاته التي لا يستطيع القيام بها هو «البكاء»؟ البكاء هو الذي يهزُّ الأمّ في نومها ويقظتها، ويفرض عليها معونته.

٣ ـ **(علم الحس عند الطفل)**: وهو الذي ليس إلا حس النفس بالأشياء: التي تنالها الحواس الخمس (الباصرة، السامعة، الشامة، الذائقة، اللامسة) فإذا ولد الإنسان فإنه يولد وهو خالي الذهن من كل فكرة وعلم فعلي، سوىٰ هذا الاستعداد الفطري، فإذا نشأ، وأصبح ينظر، ويسمع، ويذوق، ويشم، ويلمس، ونراه يحسُّ بما حوله من الأشياء، ويتأثر بها، فتنفعل نفسه بها. قالوا: وهذا هو أول درجات العلم وهو رأس الماء لجميع العلوم التي يحصل عليها الإنسان، ويشاركه في هذا العلم سائر الحيوانات التي لها جميع هذه الحواس الخمس أو بعضها.

٤ ـ **(علم الخَيال عند الطفل)**: وهو أن تترقىٰ مدارك الطفل، فيتصرَّف ذهنه في صور المحسوسات المحفوظة عنده فينسب بعضها إلى بعض هذا أطول من ذاك، وهذا الضوء أنور من الآخر، ويتخيَّل البلدة التي لم يرها مؤلفة من الصور الذهنية المعروفة عنده من مشاهداته للبلدان وهذا العلم يحصل عليه الإنسان بقوَّة الخيال، وقد يشاركه فيه بعض الحيوانات.

٥ ـ (علم الوهم عند الطفل): وهو أن يتوسَّع الطفل في إدراكه إلى أكثر من المحسوسات فيدرك المعاني الجزئية التي لا مادة لها ولا مقدار مثل: حُبّ أبويه له، وعداوة من يبغضه، وخوف الخائف، وحزن الثاكل، وفرح المستبشر قالوا: وهذا العلم يحصل عليه الإنسان كغيره من الحيوانات بقوَّة «الوَهم» وهذه القوّة هي موضع افتراق الإنسان عن الحيوان فيترك الحيوان وحده يدبر إدراكاته بالوهم فقط.

٦ ـ والأخير هو (العلم الذي يختص به الإنسان): ثم يبقى إدراك الإنسان وحده متميِّزاً عن الحيوان بقوَّة العقل والفكر التي لا حدَّ لها ولا نهاية فيدبِّر بها جميع مدركاته الحسية والخيالية والوهمية، ويميِّز الصحيح منها عن الفاسد، وينتزع المعاني الكلية من الجزئيات التي أدركها، وينتقل من معلوم إلى آخر، ويستنتج ويحكم ويتصرف ما شاءت له قدرته العقلية والفكرية. وهذا هو العلم الأكمل الذي يكون به الإنسان إنساناً، ولأجل نموِّه، وتكامله وضعت العلوم وأُلِّفت الفنون وبه تفاوتت الطبقات، واختلفت الناس.

القسم السادس، في الهداية التكوينية في الحيوانات،

قال علماء العصر: إن مسألة الهداية الفطرية والغريزية في عالم الحيوان أوسع بكثير عما هي عليه في الإنسان وقد عرضوا نماذج مدهشة عنها:

١ ـ إن تصرفات بعض الأسماك تُعدُّ من أسرار الطبيعة حيث يعجز كلُّ إنسان عن بيان سببها، فأسماك «قزل آلا» تترك مياه البحر لتعود إلى مياه الأنهار العذبة التي بدأت حياتها فيها، وتسبح بجدٍ في الإتّجاه المعاكس لتيَّار الماء، وتقفز من فوق الصخور، بل وتحلِّق فوق الشلاَّلات أيضاً، وقد تملأ النهر لكثرتها أحياناً، وعندما تصل هذه الأسماك إلى المكان الذي تبحث عنه تضع بيوضها ثم تموت! فكيف

تعثر هذه الأسماك على الأنهار المناسبة يا ترىٰ؟ إنها أكثر إثارة للعجب من اختراع المذياع والتلفاز، لأنها لا تمتلك خارطة كما أن رؤيتها تحت الماء ضعيفة وليس هناك من يدلُّها على الطريق أيضاً[١].

٢ ـ إن تصرف «الجرِّي» أكثر عجباً من هذا، فحينما يبلغ سمك الجرِّي «الانجليزي» ثمان سنوات يهجر الحوض أو النهر الذي يعيش فيه، ويزحف ليلاً كالأفاعي على الأعشاب الرطبة حتى يصل إلى شاطىء البحر ثم يطوي المحيط الأطلسي سباحة، ويتّجه نحو المياه القريبة من «مثلّث برمودا» حيث تضع الإناث بيوضها تحت الماء هناك، وتموت.... والمدهش أن صغار سمك الجرِّيّ تعود إلى سطح الماء ثم تبدأ سفراً طويلاً نحو الوطن الأمّ، حيث تستغرق هذه الرحلة سنتين أو ثلاث سنوات. (البحر دار العجائب) فكيف يعرف الجريُّ هدفه هذا مع أنه لم يسلك هذا الطريق أبداً؟! إن الجواب عن هذا السؤال يستوي فيه جميع الناس حتى أعلم العلماء[٢].

٣ ـ ينقل أن العلماء الروس نشروا قصة في التلفاز وهي: أنهم شاهدوا حيواناً كبيراً في قعر البحر ومن كبر سنه قد تكاثرت الأوساخ وبعض المواد المائية على جلده حتى وصلت إلى عينيه وسدّتهما فصار أعمى وبعد هذا بذلوا كل جهدهم في معرفة غذائه وهو بهذه الحال وبعد الجهد والتعب اكتشفوا أن طائراً يأتي ويرمي حبة على سطح الماء ثم تأتي لها سلحفاة فتأخذها وتغوص في ماء البحر حتى تصل إلى ذلك الحيوان وتلقمه تلك الحبة في فمه وحجم تلك الحبة صغير وكانت هذه العملية تتكرر فأخذوا من تلك الحبات وبعد فحصها وتحليلها في المختبر تبيَّن أنها تشتمل على مواد عجيبة من الفيتامين

(١) عن البحر دار العجائب ص ١١٦.
(٢) المصدر السابق نفسه.

ومن يأكل مثلها تكفيه عن ثلاث وجبات من الطعام. فجعلوا يصنعون حبوب تقليد لتلك الحبة ويعطونها إلى علماء الفضاء حتى يقل الخروج منهم في أثناء رحلتهم في الفضاء. وقد تبيَّن أن هذه القصة تضمَّنت ثلاث من المعجزات:

١ ـ مجيء الطير بالحبة. ٢ ـ أخذ السلحفاة للحبة وإيصالها الحيوان. ٣ ـ والحبة نفسها.

٤ ـ لقد اكتشف العلماء أسراراً مذهلة عن الخفافيش منها وجود أربعة أنواع من الخفافيش التي تصطاد الأسماك، فهي تحلِّق ليلاً فوق الماء وتمدُّ أرجلها فيه فجأة لتصطاد سمكة، وتأكلها إنه سرٌّ مدهش فمن أين لها العلم بأن في تلك النقطة سمكة تسبح تحت الماء؟ لم يفلح الإنسان بالقيام بهذا العمل حتى الآن بالرغم من وسائله واختراعاته العلمية، فلا تستطيع أيُّ طائرة أن تحدِّد مكاناً معيناً لغوَّاصة تحت الماء، وإن استطاعت فعليها أن تطلق موجات خاصة على الماء كي تحدِّد مكان الغوَّاصة من خلال الذبذبات التي تنبعث من الغوَّاصة إلى الطائرة بواسطة الأمواج اللاسلكية. أجل فالطائرة على عكس الخفافيش لم تستطع الإطلاع مباشرة على مكان وجود الهدف الذي تحت الماء.

(الحواس الخفية للحيوانات) ثم يضيف قائلاً: لو وضعنا أحد هذه اللبائن (الخفافيش) في صندوق مقفل مظلم، وابتعدنا به ثلاثمائة كيلو متر عن عشه ثم أطلقناه، نجده يعود مباشر وبأقصر وقت إليه بالرغم من كونه شبه أعمى، وكون ذلك المكان مجهولاً بالنسبة إليه.

٥ ـ لو أخرجنا فَرْخَ طير من عشِّه. وقمنا بتربيته في بيئة أخرىٰ فهو يبدأ ببناء عشٍّ له عند بلوغه مرحلة الرشد، والتكامل وبالأسلوب الذي يتبعه أبواه، فهل أن الأعمال المحدَّدة والمختلفة التي تصدر عن

جميع مخلوقات الأرض تحدث صدفة، أم العقل والشعور العام يؤدي إلى صدورها؟[١].

٦ ـ قال أحد العلماء الفرنسيين ويدعىٰ (فارد) بصدد طائر يسمىٰ (اكسيكلوب): لقد تفحصْتُ صفات هذا الطائر فوجدت من خصائصه: أنه يموت عندما يكمل وضع بيوضه، أي أنه لا يرىٰ فراخه أبداً، ولذلك فإن الفراخ سوف لن ترىٰ وجه الأم المليء بالحنان إلى الأبد، وعندما تخرج من البيضة تكون عديمة الريش والأجنحة، ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها تجاه ما يهدد حياتها لذلك فعليها البقاء لمدة سنة كاملة على هذه الحال وفي مكان آمن، وأن يكون غذاؤها إلى جانبها، لهذا فحينما تشعر الأمّ بحلول موسم وضع البيض تبحث عن مقطع خشبي، وتقوم بثقبه ثم تشتغل بجمع الأطعمة، فتجمع الأوراق والأغصان التي يمكن استخدامها لتغذية فراخها لمدة سنة كاملة وتُعِدُّهُ لواحد من هذه الفراخ ثم تضعه في نهاية الثقب، وتضع عليه بيضة واحدة، وتبني فوقه سقفاً قوياً نسبياً من عجينة الخشب، وتبقىٰ تشتغل بجمع الأطعمة، وبعد تأمين حاجات سنة كاملة لفرخ آخر ووضعها على سقف الطبقة الأولى تضع بيضة أخرىٰ ثم تبني طبقة ثانية، وهكذا تقوم ببناء عدَّة طبقات ثم تموت بعد الفراغ من العمل؟ (تأملوا جيّداً... من أين جاءت معرفة هذا الطائر الضعيف بأن لفراخه مثل هذه الحاجات؟ استلهم هذه التعاليم؟ فهل تعلَّمها من أمّه؟ في الوقت الذي لم يَرَها أبداً، أم من خلال التجربة، علماً أن هذا العمل لا يقع إلا مرَّة واحدة في حياته.... ألا يجب الإعتراف بأن هذا الفعل يستند إلى إلهام غيبي، وغريزي حيث وضعته يد القدرة الإلهية في كيانه؟!.

٧ ـ لقد شاهدنا في التلفاز أن طيراً صغيراً بنىٰ عشه وجعل فيه

---

(١) سر خلق الإنسان فصل ٨ الشعور الحيواني.

بابين: باب سرّي لا يعلم به أحد إلا هو وهذا هو الباب الحقيقي للعش وباب ظاهري لا يؤدي إلى العش حقيقة وإنما هو موضوع للإيهام والإغراء وبالفعل جاءت الحية لذلك العش ودخلت العش من الباب الظاهري ثم خرجت ولم تجد شيئاً وجاء الطير ودخل عشه من الباب السري فوجد فراخه سالمين وقد نجحت الحيلة التي احتالها على الحية.

٨ ـ وشاهدنا أيضاً أن فرخاً في عش يرمي إخوانه الصغار من العش بأن يحمل أحدهم على ظهره والإثنان بعد لم يبصرا حتى يحوز الأكل بتمامه له وبالفعل لما جاءت أمُه بالطعام رأيناه أكل ما عندها كله ولم يشبع وأيضاً: شاهدنا طيراً كبيراً عنده في فمه قطعة بيضاء ويحتمل هي من الخبز فرأيناه يرميها إلى الأسماك الصغار فإذا اجتمعوا عليها صادهم وأكلهم، وإن لم يأتِ لها السمك الصغار في ذلك الموضع رجع إليها (يعني قطعة الخبز).. وأخذها ومضى بها إلى موضع آخر حتى يصيد بها السمك الصغار فكل ذلك من الأمور الغريبة والعجيبة.

٩ ـ يروى أن في بعض المناطق رأوا حيوانات تموت بدون مرض فجأة ولم يعلموا بسبب ذلك فراقبوا المكان مراقبة دقيقة في الليل وإذا هم يرون خفاشاً أسود يأتي ويحلُّ على ظهر البقر ويقوم ببعض الحركات على ظهرها فترة قصيرة من الزمن ثم يطير عنها وبعد فترة قصيرة من الزمن تسقط وتموت في حينها.

الصَّوْتُ

١ ـ نحن نعيش في عالَم يعجُّ بالأصوات: بعضها يحدث طبيعيّاً ـ كقصف الرَّعْد، وزَمْجَرَة أمواج البحر المتكسِّرة على الشواطِىء،

وهزيز الرياح، وبعضها الآخر. يُبْعَثُ لِهدف معيَّن كَزَقْزقة العصافير لاجتذاب الوِلْفِ، وصَرير الخفافيش لتحديد موقع الفريسة، وكلام الناس لِلتَّوَاصل فيما بينَهُم. وبعض الأصوات لا يعدو كونه ضجيجاً مُزعِجاً يُلَوِّث البيئة: كضجيج حركة المرور، وهَدِير الطائرات وجَلَبة ماكينات المصانع. الأصواتُ على اختلافها سببها الإهتزازُ أو الذَّبْذَبَةُ ـ أي الحركة السريعة لِجُسَيْمات المادَّة يرتطم بعضها ببعض ناقلة الطاقة كَنَبْضٍ أو موجة متحرّكة. يُمكنك تَحسُّسُ الذبذبات الصوتيَّة بوَضع أطراف أصابعك على حلقك أثناء التكلُّم أو لَمْس جرس الدَّرَّاجة برفق وهو يَرِنُّ.

٢ ـ الذَّبْذَباتُ: يتذَبْذبُ قُرصُ النَّاقوس عند قَرْعَهِ، فيهتزُّ بسرعة إقبالاً وإدباراً دافعاً جُزَيْئات الهواء حواليه جيئة وذهاباً جاعلاً ضغط الهواء يعلو ويهبط. وتنتقل تغيُّرات الضغط هذه بتصادُمات جُزيئات الهواء ناقِلَةً التموُّجات الصوتيَّة بعيداً عن الجرس كتضاغُطات حيث يتزايد ضغط الهواء وتخلخلات حيث ينْخفِض.

٣ ـ أصوات الحيوانات المختلفة: تُصدِرُ مدًى واسعاً من الأصوات، فبعض الضفادع (رُغم صغر حجمها نسبيّاً) تصدر نقيقاً خفيض الطبقة جداً بنفخ كيس هوائيٌ تحت الحلقوم حتى يقارب حجمُه حجمَها، وتطلق القردةُ العوَّاءةُ زَعيقاً يعدُّ من أكثر الأصوات جَهارة في عالم الحيوان ـ إذ أنها تجعل فجوات خاصة بين العظام خَلْف المنخرَيْن تعزِّز زَعِيقها بالرَّنين عَصفات هوائيَّة قويَّة، وتستخدم الدَّلافينُ تردُّدات فوق سمعيَّةُ للتواصل فيما بينها، ولتحديد مواقع أسراب السمك، والعوائق تحت الماء، فهي تُصدر طبقات صوتيَّة عالية ترتدُّ أصداؤها عن الأجسام التي تعترضها مما يمكِّن الدَّلافينُ من تحديد حجم وبُعد تلك الأجسام في الماء حواليها. وهذا النظام عظيم الفائدة بخاصَّة في الكشف عن مُفْتَرِسات ككلاب البحر (أي أسماك القِرْش)

الخطيرة. تصدر الطبقات الصوتيّة من عضو خاصّ في رأس الدُّلفين.

أما الحشرات فعديمة الصوت إذ لا رِئاتٌ لها تنفخ لاحداث صوت، لكن بعض الجنادب تُصدرُ صريراً حادّاً بحكّ أجنحتها الأمامية الجلدية (كذا قالوا):، وتوجد رواية في حلية المتقين وفي البحار يشرح فيها الحسين بن علي عليه السلام معنى أصوات الحيوانات.

القسم السابع، في عالم الجنين في الرحم:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] وفروع هذا الموضوع ما يلي:

١ ـ (سلالة من طين) والمراد بالسُّلاَلَةُ: الخلاصة لأنها تُسلُّ من الكدر والسلالة: أيضاً: هي النطفة أو ما ينسلُّ من الشيء القليل. والسلالة: هي صفوة الشيء الذي يخرج منها، وقد أراد سبحانه من السُّلاَلَة: هو الماء الذي يُسلُ من الظهر، والماء مسلول من طين آدم عليه السلام لأن النطفة التي خلق منها آدم عليه السلام قد سلّت أي أخذت من طين.

٢ ـ (النُّطْفَةُ) وهي ماء الرجل، يقال: النُّطْفَةُ تتكوَّن أولاً دماً ثم تصير في الدماغ في عرق يقال له: الوَرْدُ، وتمرُّ في فقار الظهر، فلا تزال تجوز فقراً فقراً حتى تصير في الكليتين، وأما نُطْفَةُ المرأة فإنها تنزل من صدرها.

٣ ـ مرحلة (العَلَقَة) وهي القطعة الجامدة من الدم بعد أن كانت منيّاً وبعد أربعين يوماً فإنها تتبدل وتصير مضغة.

٤ ـ مرحلة (المُضْغَةُ) وهي قطعة لحم حمراء فيها عروق خضر مشتبكة سُمِّيت بذلك، لأنها بقدر ما يمضغ من اللحم، ومضغتُ الطعام أي علكتُه.

٥ ـ مرحلة (العظام) هي أن تتبدل الخلايا اللحمية إلى خلايا عظمية.

٦ ـ يأتي دور مرحلة تغطية العظام باللحم حيث تغطي العضلات كل العظام.

٧ ـ وهنا تتغير لهجة القرآن وتخبرنا عن تحول وخلق مهمّ وجديد للجنين ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] قال بعض المفسرين معناه: بلوغ الجنين مرحلة الحياة الإنسانية حيث يظهر فيه الحسّ والحركة، ويبدأ بالتحرُّك، ويضع قدماً في عالم الحيوانات والبشر. يعبر القرآن عن هذه الطفرة الكبيرة والعجيبة بكلمة «إنشاء» في إشارة إلى الطريق الطويل الذي يقطعه الإنسان خلال هذه المدة القصيرة، وقال الإمام الباقر عليه السلام في حديث معنى ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] هو نفخ الروح فيه.

القسم الثامن: في العجائب المدهشة للجنين وفيه فروع:

١ ـ (مقر الجنين): هو مقر الأمن والأمان، وفي الحقيقة أن أكثر نقاط الجسم صوناً هي تلك التي تستقر فيها النطفة والجنين بحيث تكون محميَّة من كل جانب، فمن جهة هنالك العمود الفقري والاضلاع، ومن جهة أخرى هنالك العظم القوي المسمّىٰ بالحوض ومن جهة ثالثة هنالك الأغطية والعضلات المتعدِّدة التي تحتويها البطن وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾ [المؤمنون: ١٣].

٢ ـ والأغرب من ذلك أن الجنين يقع في داخل كيس مملوء بماء لزج بحيث يكون معلّقاً في داخل ذلك الكيس وفي حالة تامة من السّعة بحيث لا يواجه أي ضغط من أي جانب بل يسبح في ذلك الكيس وفي ذلك الماء اللزج كيف ما يشاء، ذلك أن بُنْيَةَ الجنين وخاصة في بداياته تكون رقيقة جداً بحيث يمكن لأقل ضغط عليه أن يسحقه.

ولهذا الكيس أيضاً (بما يحتويه من ماء) خاصية القابلية على مواجهة الضربات قالوا: وهو تماماً كاللوالب المرنة التي توضع لأفضل السيارات، حيث بإمكانه امتصاص وإلغاء أية ضربة تواجهه نتيجة الحركات السريعة للأُمّ. ومن خواص هذا الكيس:

أنه يحفظ درجة الحرارة بالنسبة للجنين ضمن الحدود المعتدلة، ولا يسمح للحرارة والبرودة المفاجئة التي تهاجم بطن الأم من الخارج أن تترك آثارها بسهولة على الجنين!

٣ ـ (تغذية الجنين): تغذية الجنين بدورها أحد العجائب، لأن النمو والرشد السريع للجنين يستلزم مواداً غذائية كاملة ونظيفة ومصفّاة من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ يحتاج إلى الأوكسجين والماء بالمقدار الكافي الذي يجب أن يصل إلى الجنين بشكل مستمر، وقد جعل الله هذه المهمَّة على عاتق جهاز اسمه «الحبل السرّي» الذي خلقه منذ اللحظات الأولى إلى جانب الجنين والذي يرتبط من أحد طرفيه بقلب الأم عن طريق شريانين ووريد واحد، ومن طرفه الآخر بالجنين عن طريق عقدة السُرَّة والأمر المدهش الذي يقوم به هذا الحبل أنه يمتص كل المواد الغذائية والماء والأوكسجين اللازم بواسطة نظام الدورة الدموية للأُمّ، ثم ينقل هذه المواد بعد تصفيتها ثانية إلى الجنين ثم يقوم بجذب الفضلات والزوائد والكاربونات وما شاكل ذلك ويعيدها إلى دم

الأمّ وقد ثبت أن ما يقوم به هذا الحبل أنه يدلّ بكل وضوح على عظمة الخالق وعلى علمه وقدرته اللامتناهية سبحانه وتعالى.

٤ ـ (مصير الجنين من حيث الجنس): لم يتمكن أحد من الإجابة على السؤال القائل: كيف وبتأثير أية عوامل يصير الجنين ذكراً أو أنثى؟ أي أن العلم لم يعثر لحد الآن على جواب له، فمن الجائز أن تكون بعض المواد الغذائية أو الأدوية مؤثرة في هذا المجال، لكن المسلّم به هو أن تأثيرها ليس مصيرياً وجازماً، ومع هذا فالعجيب مشاهدة تعادل نسبي دائم بين هذين الجنسين (الرجل والمرأة) في المجتمعات البشرية وإن كان ثمة اختلاف فإنه ليس بالإختلاف الملفت للنظر.

تصوَّروا يوماً يختلُّ فيه هذا التعادل، فتكون نسبة الرجال إلى النساء عشرة إلى واحد مثلاً، أو على العكس يكون عدد النساء عشرة أضعاف الرجال، أية مفاسد عظيمة سوف تظهر؟ وكيف سيضطرب نظام المجتمعات البشرية؟ وكيف يكون المجتمع الذي يكون فيه مقابل كل رجل عشر نساء أو مقابل كل امرأة عشرة رجال، لكن الذي خلق الإنسان لحياة سالمة أوجد هذا التوازن العجيب الغامض فيها. أجل إن الله تعالى ووفقاً لمشيئته وحكمته يهب لمن يشاء ذكوراً، ويهب لمن يشاء إناثاً ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] لكن هذه المشيئة والإرادة محسوبة[١].

٥ ـ (خروج الجنين): إن الله سبحانه قد نسب إخراج الجنين من الرحم إلى نفسه ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ [غافر: ٦٧] قالوا في النفحات: إن هذا التعبير يكشف عن أهمية عملية الولادة التي توصل إليها العلماء في

---

(١) نفحات القرآن.

يومنا الحاضر ثم قال: ما هو العامل الذي ينظم زمان الولادة؟ وما هي الظروف اللازمة لإصدار الأوامر للجنين بالخروج؟. وكيف تُعَدُّ جميع أعضاء الجسم لهذا التحوّل المهم؟ وضمن أية عوامل ينقلب جسم الجنين تدريجياً ليخرج رأسه إلى الدنيا أولاً؟ هل تراه يعلم أنَّ ولادته ابتداءً برجليه غير ممكنة أو أنَّها عصيبة جداً؟ من يصدر الأوامر لكل عضلات جسم الأمّ بتسليط أشد الضغوط على الجنين من أجل الخروج؟ وتظهر أهميَّة هذا الموضوع عندما يختلُّ هذا النظام نادراً، ويضطر الأطباء إلى عملية «فتح البطن» وربما كان وجود مثل هؤلاء الأشخاص القلَّة إنذاراً للجميع لكي يتفكروا بأهميَّة هذا الموضوع.

٦ ـ (الولادة): قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] فإن أهمّ عجائب الجنين هي ولادته عندما تؤدي الأسباب إلى إصدار الأوامر للجنين بالخروج في لحظة معينة وعند ذلك تتغير أحوال الجنين فيتفاجأ بما يلي:

١ ـ (ينقلب عن شكله) فإنه في الحالة العادية يكون رأس الجنين إلى الأعلىٰ ووجهه إلى ظهر الأمَ وعند الولادة يتحول رأسه إلى الأسفل لتسهيل عملية ولادته.

٢ ـ في البداية يُخرقُ كيس الماء الذي كان الجنين يسبح فيه وتخرج المياه، ويستعدُّ الجنين لدخول الدنيا لوحده.

٣ ـ (ما يصيب الأمّ) فإنه يصيبها ألم شديد، وكما قالوا: تضغط كل عضلات بطنها وظهرها، وجانبيها على الجنين، وتدفعه إلى الخارج. إن التفاعلات الكيمياوية والتغييرات الفيزياوية التي تحصل للجسم أثناء الولادة على درجة من الغرابة والعجب، بحيث تحكي جميعها عن علم وقدرة غير متناهيين أوجدا هذه البرامج لمثل هذا الهدف المهم. وبهذا نستنتج بكل وضوح من الآيات أعلاه أن النظام

المعقد والمذهل لنموّ الجنين يُعَدُّ من الآيات والعلامات المهمة التي تخبر عن وجود العلم والقدرة اللامتناهية لخالقه وموجده، ومن جانب آخر على قدرته على قضية المعاد والحياة بعد الموت، ذلك أن الجنين يتخذ كل حين حياة ومعاداً جديداً. ولذلك كان هذا النموّ دليلاً على التوحيد بقدر ما هو دليل على المعاد[1].

٤ ـ ما قاله الصادق عليه السلام في حديث المفضل عن (موضوع ولادة المرأة): «حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي أديمه (الأديم: الجلد المدبوغ) على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق (وجع الولادة) فأزعجه أشد إزعاج، وأعنفه حتى يولد، فإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمّه إلى ثدييها».

القسم التاسع: في فوائد البكاء للأطفال:

١ ـ (الرياضة) إن الأطفال الرضع بحاجة شديدة إلى الرياضة والحركة والحال أن ليس بإمكانهم، والرياضة الوحيدة القادرة على تحريك كل وجودهم بما فيه الأيدي والأرجل والقفص الصدري والبطن وإدارة الدم بسرعة في كل العروق لتغذية كافة الخلايا بصورة متواصلة هي «رياضة البكاء» التي تعتبر بالنسبة للطفل رياضة كاملة، ومن هنا إذا لم يبك الوليد فيحتمل أن يتعرض لأضرار جمَّة أو تتعرض حياته كلها إلى الخطر.

٢ ـ إضافة إلى ذلك فإن هنالك رطوبة عالية في مخ الأطفال إذا بقيت هناك يمكن أن تؤدي إلى أمراض، وأوجاع شديدة أو تسبب العمى والبكاء يعمل على خروج الرطوبة الزائدة من أعينهم على شكل دموع، فيضمن ذلك صحتهم. قال الإمام الصادق عليه السلام في توحيد المفضل: «أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء، ووالداه لا يعرفان ذلك فهما دائبان ليسكتاه

(١) نفحات القرآن.

ويتوخّيان في الأمور مرضاته لئلا يبكي، وهما لا يعلمان أن البكاء أصلح له وأجمل عاقبة. . . .» وقال أيضاً في نفس الحديث يشير ﷺ إلى جريان الماء من أفواه الأطفال الذي يكمّل مهمة دموع أعين الأطفال، ويقول: «فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم في صغرهم لما لهم في ذلك من الصحة في كبرهم».

٣ ـ غالباً ما يكثر الأطفال الرُّضع من البكاء، ومن الممكن أن يكون هذا البكاء دلالة على آلامهم، فهم لا يمتلكون لساناً غير لسان البكاء للإفصاح عن الألم، أو أنه بسبب الجوع والعطش، أو بسبب الإنزعاج إزاء ظروف الحياة الجديدة سواء كانت حرّاً أو برداً أو ضوءاً شديداً أو ما شابه ذلك، لكن من الممكن أن يبكي الأطفال بدون ذلك وهذا البكاء رمز حياتهم وبقائها.

وعلى كل حال، فهذه حقاً من العجائب الكبيرة في عالم الوجود وغرائب عالم الخلقة أن يولد من مادة ميتة (وبلا روح، ولا قيمة لها) كالتراب موجود حي وعاقل وقيّم كالإنسان. فهذه من الآيات البينات لذلك المبدأ الكبير و«إن ذلك الخالق لجدير بالشكر والثناء المخرج من الماء والطين مثل هذا الشكل الجذاب» وبشكل عام فإن ظهور الحياة من قلب الموت ما يزال من ألغاز عالم العلوم فضمن أيّ شروط وظروف يخرج موجود حيّ من موجود ميّت كالتراب؟ يعتقد كل العلماء أن الكرة الأرضية حين انفصلت عن الشمس كانت كلها ناراً محرقة، ولم تكن عليها حياة مطلقاً، ثم بردت قليلاً قليلاً، وهطلت عليها سيول الأمطار من الغازات المضغوطة حولها فتكوَّنت البحار، بدون أن يكون فيها كائن حيّ، ثم ظهرت براعم الحياة سواء النباتية أو الحيوانية وأخيراً خُلقَ الإنسان[1].

(١) نفحات القرآن ج٢ ص٦٧.

لو كان للطفل عقل منذ البداية لحدث فيه ما يلي:

إنه يتألم بشدّة لأنه سوف يشعر آنذاك بالضعف والمذلّة، فهو لا يستطيع المشي، ولا الأكل، ولا القيام بأبسط الحركات، يجب أن يلفُّوه بقماط، ويضعوه في المهد، ويغطوه بغطاء، ويشطّفوه ويغسّلوه، ويحفّظوه قال الإمام الصادق عليه السلام في توحيد المفضل:

١ ـ ولو كان المولود يولد فَهِماً (سريع الفهم) عاقلاً لأنكر العالم عند ولادته وليبقىٰ حيراناً تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف، وورد عليه ما لم ير مثله من اختلاف صور العالم من البهائم والطير إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

٢ ـ واعْتَبِر، ذلك بأن من سُبي من بلد وهو عاقل يكون كالواله الحيران فلا يسرع إلى تعلم الكلام، وقبول الأدب، كما يسرع الذي سُبي صغيراً غير عاقل.

٣ ـ ثم لو وُلد عاقلاً كان يجد غضاضة «ذلّة ومنقصة» إذا رأى نفسه محمولاً مرضعاً معصَّباً بالخرق مسجًّى (مغطى بثوب على جسمه) في المهد لأنَّه لا يستغني عن هذا كله لرقة بدنه ورطوبته حين يولد.

٤ ـ ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع في القلوب ما يوجد للطفل فصار يخرج إلى الدنيا غبيّاً (قليل الفطنة) غافلاً عمَّا فيه أهله فيلقىٰ الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً، وشيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال حتى يألف الأشياء ويتمرَّن ويستمرَّ عليها، فيخرج من حدِّ التأمل لها والحيرة فيها إلى التصرف والإضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته، وإلى الإعتبار والطاعة والسهو والغفلة والمعصية، وفي هذا أيضاً وجوه أخر.

٥ ـ فإنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قُدِّر أن يكون للوالدين في الإشتغال بالولد من المصلحة، وما يوجب التربية للآباء على الأبناء من المكافأة بالبِرِّ، والعطف عليهم عند حاجتهم إلى ذلك منهم.

٦ ـ ثم كان الأولاد لا يألفون آباءهم ولا يألف الآباء أبناءهم، لأن الأولاد كانوا يستغنون عن تربية الآباء وحياطتهم فيتفرقون عنهم حين يولدون فلا يعرف الرجل أباه وأمَّه، ولا يمتنع من نكاح أمّه وأخته وذوات المحارم منه إذا كان يعرفهنَّ. . . .».

القسم الحادي عشر، في (غذاء الطفل بعد الولادة)،

وفروعه ما يلي:

١ ـ يتغير شكل ثدي الأُمّ بصورة تدريجية خلال فترة الحمل، ويكبر شيئاً فشيئاً نتيجة الإفرازات التي يقذف بها الحبل السِّري إلى دم الأمّ ليأمرها بالإستعداد الكامل، وهكذا يهيّء الثدي نفسه لوظيفته المستقبلية الثقيلة.

٢ ـ إن الأنابيب الموجودة في الثدي والممتدَّة حتى قمَّة الثدي (الحلمة) تتشعب وتزداد، وتفرز إفرازات بسيطة، وعند ولادة الطفل تعلن عن استعدادها التام لإرضاع الطفل وتغذيته.

٣ ـ إن ترشح اللبن من خلايا الثدي ليس دائمياً وإلا لخرج اللبن بصورة متواصلة إلى الخارج، بل إنه بمجرد ملامسة شفتي الوليد لثدي الأمّ وبدئه بالإمتصاص تتَّجه التنبهات العصبية عن طريق الأعصاب إلى النخاع، ومن النخاع إلى الهايپوثالموس فتؤدي إلى نوعين من الإفراز يصيب أحدهما في الأثداء عن طريق الدم، فيضغط على الأنسجة المحيطة بأنابيب اللبن ليندفع اللبن باتجاه الحلمة، وتتم كل هذه الأعمال خلال (٣٠) ثانية.

٤ ـ إن اللبن لا يتحرَّك في ذلك الثدي الذي يرضع منه الطفل فقط، بل ويحدث هذا في الثدي الآخر أيضاً فيكون مستعداً أيضاً ولذا يؤكد على إرضاع الوليد من كلا الثديين.

٥ ـ لا يستطيع وليد الإنسان والكثير من الحيوانات في بداية ولادته أن يأكل الأطعمة الجافة والثقيلة ولذا فقد هيَّأت يد الخالق عز وجل المقتدرة غذاءً خاصاً في ثدي الأم (اللبن) ويسمى أيضاً «الحليب» وهو يحتوي على أنواع الفيتامينات كفيتامين P.D.B.A وفيتامينات أخرىٰ، وقد اكتشف فيه العلماء (٢٢) مادة مختلفة وعلاوة على أنواع الأنزيمان والكثير من الأدوية الضرورية تنتقل عن طريق لبن الأم إلى وليدها، ومن هنا، فإن الأطفال المحرومين من لبن الأمّ يصابون بمختلف الأعراض.

٦ ـ اللبن غذاء كامل وخاصة لبن الأم الذي يعتبر غذاء أكمل بالنسبة لوليدها، ولا يستطيع شيء في العالم أن يحلّ محله والذي يبدو أن لبن الأم لا يغذّي جسم الطفل فحسب بل إنه يروي عواطفه وروحه أيضاً، ولهذا قد يصاب المحرومون من لبن الأمّ بمشاكل ونواقص عاطفية في بعض الأحيان. هذا ما أخبر عنه العلم الحديث ومن أراد المزيد فليراجع نفحات القرآن[١]، ودائرة معارف القرن العشرين مادة (لبن) والجامعة الأولى، وإعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة.

القسم الثاني عشر: من عجائب نظام هذا الكون في الإنسان أيضاً:

نظرة في عجائب نفس الإنسان وعالمها: من إحاطتها بالبدن كلّه، وتدبيرها له، واتّصافها بالعلم والقدرة، وسائر الصفات الكمالية،

(١) المجلد الثاني.

وتمكنها من الإحاطة بحقائق الأشياء بأسرها، وتصرفها في ملك الله وملكوته ـ وهو: الملائكة، والجن، والشياطين، وعوالم العقول والنفوس المجردة، كل هذه الأنواع تسمى (ملكوت) ـ بقوتها العقلية، والعلمية، وقد أودع الله عز وجل في هذه النفس الفهم، والقدرة، والعقل، على التدريج، حتى بلغ ما بلغ، وأودع في نفسه المجردة، وقواها الباطنة، أسراراً عجيبة، تحيّر طوامح العقول.

فانظر إلى قوة الخيال كيف تطوي السماء والأرض، وتتحرك من المغرب إلى المشرق في آن واحد!.

وانظر إلى قوة الوهم كيف تستنبط كثرة المعاني الجزئية في لحظة واحدة.

وانظر إلى المتخيّلة كيف تركب بعضها بالبعض وتأخذ منها ما فيه الصلاح، والرشاد، في أمر المعاش والمعاد.

وانظر إلى تسخير جميع الموجودات لهذا الإنسان الضعيف، وإطاعة جميع الموجودات له من البهائم، والملائكة، والشياطين، حتى السباع تخضع له، والطيور تخفض أجنحة الذلّ بين يديه، ويستخدم الجن، ويسخّر الكواكب.

ومن عجائب عالمه الطبع الموزون، والصوت الحسن، وعلمه بالصنائع العجيبة، والحرف الغريبة.

ومن عجائبه العظمى أمر الرؤيا، وإخباره بالمغيبات، ومصاحبته مع الملائكة، وأخذ العلوم منهم.

فانظر ـ يا أخي ـ إن كنت من أهل اليقظة إلى قدرة ربّك العظيم حيث أودع جميع ذلك فيما عرفت حاله من النطفة السخيفة، القذرة، وهذه النطفة هي التي تصير ملكاً شديد الهمة والبطش، وتصير بحيث تظهر منها خوارق العادات، وغرائب المعجزات في عالم هذه الأرض.

وانظر ـ يا أخي ـ كيف يتعجب الناس من صيرورة الميت حيّاً، مع أنّ جثته كانت موجودة، وإنّما أفيض عليه الحياة، وهي الحس والحركة، ولا يتعجبون من بلوغ قطرة ماء قذرة إلى المراتب التي عرفتها، فلا يمكن أن يكون ذلك إلاّ بقدرة قادر حكيم، وصانع عليم، قال سبحانه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

مثلاً: زيد وعمر من أم واحدة، ومن أب واحد، أنظر كيف يختلفان في المميزات، فإنّ كلاً منهما متميز عن الآخر بخصائص كثيرة، منها: في الوجه، ومنها: في الصوت والبنان، والنفس، والرأي، بل حتى في الكتابة، وفي غير ذلك ولهذا قال الإمام الصادق عليه السلام:

«إنّ الصور الإنسانية أكبر حجة لله على خلقه وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي مجموع صور العالمين، وهي المختصر من العلوم في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كل غائب، وهي تقرأ في الآية (٣) و(٤) من سورة القيامة قوله عز من قائل: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ [القيامة: ٣-٤].

جاء في الروايات، أن أحد مشركي العرب ويُدعىٰ (عدي بن ربيعة) وكان رجلاً معانداً ومتعصباً جداً، اتىٰ إلىٰ النبي ﷺ وسأله عن يوم القيامة وكيفية وزمان تحققه، وقال: إنني لا اصدقك ولا أؤمن بك وان رأيت ذلك اليوم بأمُ عيني، كيف يمكن التصديق بأن الله تعالى يجمع هذه العظام النخرة، هذا مما لا يقبل التصديق فنزلت الآية[1].

(بَنان) في اللغة بمعنىٰ الأصابع، وقد ورد احياناً (بمعنىٰ رؤوس الاصابع)، وهو مأخوذ من مادة (بَنَ) بمعنىٰ الاقامة.

---

(١) التفسير الكبير: ج٣، ص٢١٧. والقرطبي: ج١٠، ص٦٨٨٥.

وبناءً على كون الأصابع، اداة لإصلاح أحوال إقامة الإنسان في العالم، اطلق عليه هذا الاسم[1].

إن للأصابع دوراً مهماً جداً في حياة الإنسان، وتعد من عجائب الخلقة، وإن غفلنا عن اسرارها. لأنها تحت تصرفنا دائماً، ولو قطعت أصابع يد أحد ما، فإنه سوف لا يستطيع أن ينجز عملاً دقيقاً بأي شكل من الأشكال، وتستحيل عليه الكتابة، وتصفح أوراق الكتاب، وتناول الطعام بسهولة، والاتصال بالهاتف، وفتح الأبواب بالمفاتيح وأنواع الصناعات الدقيقة وتستحيل عليه بقية الصناعات الأخرىٰ كأنواع الأعمال المتعلقة بالسيارات، وحتى أخذ الأشياء الثقيلة باليد أيضاً. بل ويمكن لنقص أحد الأصابع أن يوجه ضربة عنيفة لكثير من الأعمال اليومية التي يقوم بها الإنسان. ولهذا السبب تنجز الحيوانات ذوات الأربع كثيراً من أعمالها بفمها أو رأسها.

ويمكن القول بعبارة أخرىٰ: إن وجود الأصابع لدىٰ الإنسان يعتبر من العوامل المهمة للتقدم الحضاري له، والتعبير بـ «البنان» المأخوذ من مادة الإقامة والدوام، إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة نفسها، وذلك لصعوبة وجوده في العالم بدونها.

تقول الآية الآنفة الذكر إن بامكاننا أن نعيد العظام الصغيرة الدقيقة في يوم القيامة أيضاً فضلاً عن العظام الكبيرة.

واحتمل جماعة من المفسرين أيضاً أن المقصود من تسوية البنان هو وصالها مع بعضها وإخراجها بصورة حافر حيوان من ذوات الأربع وليس لهذا التفسير تناسب مع آيات السورة.

من الأمور التي يمكن استفادتها من هذه الآية هو هذا الاكتشاف

---

(١) المفردات للراغب، ومجمع البحرين ومعجم مقاييس اللغة مادة (بن).

المهم، فقد أصبح من الثابت أن معرفة هوية أحد ما يتم بوسيلة رؤوس أصابعه. وهي أوثق وأدق من كل امضاء ولا يستطيع أحد تزويره، في حين أن التزوير قادر على التسرب إلى اعقد الامضاءات، ولهذا السبب أصبحت مسألة «أخذ البصمات» من الحقائق العلمية في عصرنا الحاضر واستحدثت لأجلها دائرة خاصة في المراكز الأمنية، من خلالها يكشف النقاب عن كثير من المجرمين، فيكفي أن يضع أحد السراق يده على مقبض الباب، أو زجاج الغرفة، أو على القفل والصندوق والكرسي عند دخوله لأحد الغرف أو المنازل ومن ثمَّ يبقىٰ أثرها على تلك الأشياء، أو يتم العثور على سلاح في قضية قتل عليه بصمات أحد الأشخاص، يكفي لأخذ نماذج فورية لها ويطابقونها على بصمات الأشخاص المشكوك بهم في تلك الحادثة ـ إضافة لما لديهم من معلومات عن المجرمين والسراق ـ ومن ثم يلقون القبض على الجاني.

إذاً تقول الآية بناءً على هذا التفسير: إننا لسنا قادرين على أن نجمع العظام الكبيرة والصغيرة فحسب، بل إن في مقدورنا أيضاً أن نعيد الأصابع وبصماتها بجميع مزاياها التي هي من أدقّ ما في البدن من خصوصيات إلى حالتها الأولىٰ وبعبارة أخرىٰ: إن مفهوم تسوية البنان (ومعناها التنظيم والترتيب) شامل لجميع الخصوصيات والجزئيات، من جملتها بصمات الأصابع.

ومن الجدير بالذكر هو ما نجده من توافق بين هذا المعنى وبين مسألة القيامة المحكمة الكبرىٰ للعدل الإلهي، التي يجب التحقيق فيها مع المجرمين والمذنبين ذلك أن هذه المسألة يستفاد منها أيضاً في محاكم الدنيا قبل أي مكان.

وقد أوضح الإمام الصادق عليه السلام (في حديث المفضل) أموراً جديدة في موضوع خلق الإنسان وتدبير الجنين في الرحم وبعد خروجه قال عليه السلام: نبدأ يا مفضل بذكر خلق الإنسان فاعتبر به... فأول ذلك

ما يدبِّر به الجنين في الرحم وهو محجوب في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة (وهي غشاء ولد الإنسان يخرج معه عند الولادة) حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء، ولا دفع أذىً، ولا استجلاب منفعة، ولا دفع مضرة. فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه الماء والنبات، فلا يزال ذلك غِذاؤه، حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوي أديمه (جلده) على مباشرة الهواء، وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق (وجع الولادة) بأمّه فأزعجه أشدّ إزعاج وأعنفه حتى يولد، فإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمّه إلى ثديها، وانقلب الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغِذاء، وهو أشد موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته إليه، فحين يولد قد تلمَّظ (أي أخرج لسانه فمسح به شفتيه) وحرَّك شفتيه طلباً للرضاع، فهو يجد ثدي أمه كالأداوتين (إناءان صغيران من جلد يتخذان للماء) المعلَّقتين لحاجته، فلا يزال يتغذَّىٰ باللبن ما دام رطب البدن، رقيق الأمعاء ليّن الأعضاء حتى إذا تحرَّك، واحتاج إلى غِذاء فيه صلابة ليشتد ويقوىٰ بدنه طلعت له الطواحن من الأسنان والأضراس ليمضغ (يلوك) بها الطعام فيلين عليه، ويسهل له إساغته، فلا يزال كذلك حتى يدرك. فإذا أدرك وكان ذكراً طلع الشعر في وجهه، فكان ذلك علامة الذكر، وعِز الرجل الذي يخرج به من حد الصِّبا، وشبه النساء، وإن كانت أنثى يبقىٰ وجهها نقياً من الشعر لتبقىٰ لها البهجة والنضارة التي تحرك الرجل لما فيه دوام النسل وبقاؤه (ثم أخذ الإمام يستدل على تدخل القدرة الإلهية في الموضوع) بقوله: اعتبر يا مفضل فيما يدبر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة هل ترى مثله يمكن أن يكون بالإهمال؟ أفرأيت لو لم يجر إليه ذلك الدم وهو في الرحم ألم يكن سيذوىٰ، ويجف كما يجف النبات إذا فقد الماء، ولو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ألم يكن سيبقىٰ في الرحم كالمؤود (المدفون)

في الأرض؟ ولو لم يوافقه اللّبن مع ولادته ألم يكن سيموت جوعاً أو يتغذّىٰ بغذاء لا يلائمهُ ولا يصلح عليه بدنه؟ ولو لم تطلع له الأسنان في وقتها ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام وإساغته أو يقيمه على الرضاع فلا يشتد بدنه، ولا يصلح لعمل؟ ثم كان يشغل أمه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد.

ظلّت تغييرات الجنين في بطن أمه ولسنين طويلة خافية عن أعين العلماء إلى أن رفعت يد العلم النقاب عن هذا العالم المزدحم بالأسرار وأظهرت أنَّ النطفة عندما تستقر في محلّها من الرحم وتبدأ سيرها التكاملي، ماذا تطوي من المراحل المختلفة والمتنوّعة حتى تصبح على هيئة إنسان كامل، والعجيب أن القرآن الكريم أكّد عدّة مرات على قضية نموّ الجنين في آياته المختلفة، وفي ذلك العصر والزمان الذي لم يكن له شأن بهذه الإكتشافات، تارة لإثبات التوحيد، وتارة لإثبات المعاد، مع أن «علم الأجنّة» ما زال يقطع مراحل طفولته، ومعلوماتنا عن هذا العالم الغامض ما تزال قليلة جداً، ولكن هذا المقدار الذي كشف العلم البشري النقاب عنه قد وضع دنيا من العجائب والغرائب مقابل أعين العلماء[1].

وقد قيل للإمام الرضاعليه السلام: يابن رسول الله ما الدليل على حدوث العالم فقالعليه السلام:

«إني لما نظرت إلى جسدي، ولم يمكني فيه زيادة ونقصان في العرض والطّول ورفع المكاره عنه، وجرّ المنفعة إليه علمت أن لهذا البنيان بانياً فأقررت به مع ما أرىٰ من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المبيّنات، علمتُ أن لهذا مقدراً ومنشئاً».

---

(١) نفحات القرآن.

آياته في الطيور

تمهيد:

لقد عشقَ الإنسانُ على مرّ التاريخ الطيورَ وتمتَّع بتربيتها ومشاهدتها تُحلقُ فوقَ رأسهِ في السَّماء بشكلٍ جميلٍ، وكانت هذه الظاهرة تبعث على دهشته دائماً، وهي كيفية إمكان أنْ يحلّق جسم ثقيل في السَّماء ويتحرك بتلك السرعةِ خلافاً لقانون جاذبية الأرض؟!

وليست هذه الصفة فقط بل صفات أخرى كالريش وجناح الطيور، التغريد اللطيف لبعضها، طراز بناء البيت والعش، تربيةِ الفراخ وإطعامها، الهجرة الطويلة لقسم منها، وأُمور أخرى من هذا القبيل كانت مصدراً لدهشته، بالرغم منّ أنَّ تكرار هذه الحالات المثيرة أدَّى ـ وبالتدريج ـ إلى أن يمرَّ بعض النَّاس عليها مرور الكرام.

وقد أشارَ القرآن الكريم في جانبٍ من آياتِ التوحيد إلى هذه المسألة، ودعا الجميع إلى مشاهدة عالم الطيور، كي يَرَوْا آيات وبراهين الباري تعالى.

وبهذا التمهيد نستمع خاشعين إلى الآيات الآتية:

١ ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩].

٢ ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ١٩].

٣ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١].

٤ ـ ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

شرح المفردات:

﴿طَيْرٍ﴾ جمع «طائر» وتُقال لكلّ حيوانٍ ذي جناحٍ وريشٍ، ويحلّقُ في الهواء، ومصدرها «الطيران»[١] و«تَطَيَّر» تقالُ لطالعِ السوء الذي كان يستلهمونه في الجاهلية من حركة الطيور، ولكن أُطلقَ فيما بعد على كل أشكال التشاؤم وسوء الطالع.

كما جاء لفظ «تَطايُر» بمعنى الحركة بسرعة أيضاً[٢].

﴿صَافَّاتٍ﴾ من مادة «صف» وتعني وضع الأشياء في خطٍ مستقيم، كالناس أو الأشجار حينما يكونون في خطٍ واحد، فعندما يُطلق هذا اللفظ وصفاً أو حالاً للطيور ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ فهو إشارة إلى بسط الأجنحةِ في السماء أثناء الحركة، ويعاكسها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾.

ولفظ «اصطفاف» كناية عن التسليم والطاعة المحضة والخضوع التام، وإشارة للخدمِ الذين يقفون في صفٍ واحدٍ استعداداً لتقديم الخدمة[٣].

وبطبيعة الحال إنَّ احتمال ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ إشارة إلى مجموعة من

(١) وقد قالوا إنَّ مصدر هذا الفعل «طَير» أيضاً، وطيور جمع الجمع (جمع طَير) وذكر بعضهم أنَّ «طيور» جمع «طائر».

(٢) مفردات الراغب، لسان العرب، كتاب العين، ومجمع البحرين.

(٣) «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» و«مفردات الراغب».

الطيور التي تتحرك بشكلٍ جماعيٍ في صفٍ أو عدة صفوف حيث تلفتُ الانتباه بتناسقها وارداً أيضاً، إلاّ أن عبارة ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ تمنعُ هذا التفسير.

جمع الآيات وتفسيرها:

الطيرُ يُسبّحُ وأنا صامت!

يقول في الآية الأولى مؤكداً على أنَّ تحليق الطيور في جو السَّماءِ خلافاً للجاذبية هو آيةٌ من آيات الله ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩][1].

ونظراً لطبيعة الأجسام في الانجذاب نحو الأرض فإنَّ حركة الطيور في أعالي الجو تبدو شيئاً عجيباً، ويجب أنْ تُؤخذ مأخذ جدّ، فمن المسلَّم به أنَّ هناك مجموعة من المزايا لدى الطيور تمكنها من الطيران بيُسرٍ في السَّماء مستثمرة مختلف القوانين الطبيعية المعقَّدة، إنَّه لشيء يبعث على الدهشة بلا شك.

إنَّ لهذا الميدان العجيب والقوانين التي تسبب هذه الظاهرة المدهشة ربّاً قادراً حكيماً مطّلعاً على أسرار العلوم، بل ليست العلوم إلاّ شيئاً من القوانين التي وضعها، لهذا يقول في سياق الآية: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ [النحل: ٧٩].

ويضيف في ختام الآية: ﴿...إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

وسنرى في الإيضاحات التي ستأتي في نهاية هذه الآيات ـ إن

(١) لقد اتخذ بعضهم لفظ «جَوّ» بمعنى الفضاء الذي يحيط بالأرض، وبعضٌ بمعنى «الهواء» قريباً كان أم بعيداً عن الأرض، ولكن يبدو أنَّ ما يستعمل عادةً هو المعنى الأول، وهو الذي يناسب الآية أعلاه حيث يمكن أن يكون مصدراً للإعجاب.

شاء الله ـ ما هي القوانين التي يجب أنْ تتظافر كي تحصل هذه الظاهرة التي تُدعى «الطيران»، لذلك نواجه في كلّ خطوةٍ آيةً جديدةً من آيات مُبدىء الوجود العظيم.

والآية الثانية تتشابه مع الأولى من عدة وجوه، إلاّ أنّه يُلاحظُ فيما بينهما اختلافاتٌ أيضاً، ففي هذه الآية يدعو الناس (لاسيَّما المشركين) إلى تفحّص أوضاع الطيور، هذه الموجودات التي تنطلق من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية، وتتحرك مسرعة بكل يُسرٍ في جوّ السَّماء لساعاتٍ وأحياناً لأسابيع، وحتى أحياناً لعدة شهور بدون توقفٍ، حركةً رقيقةً وسريعةً، بنحوٍ يبرهنُ على أنّها لا تواجه مشكلةً في عملها.

فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩][(١)].

فلا أحد سوى الرَّحمٰن الذي عمَّت رحمتُه كلَّ شيء، يستطيع أن يُمسكُهُنَّ هناك: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الملك: ١٩].

أجل.. اللّهُ الذي منَحها كلَّ أدوات الطيران، وعلَّمها طريقته وأسلوبه، كما وضعَ قوانين وأنظمةً تستفيدها فتحلّق بيسر وسهولة. فهو العليم بحاجات كل الموجودات والبصير بكلّ شيءٍ ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

وابتداءً من الذرّات حتى المنظومة الشمسية، والمنظومات الأخرى الجبَّارة، ومن النباتات والحيوانات المجهرية، حتى الموجودات العملاقة، الكل والكل يستمر في وجوده بتدبيره جلَّ وعلا، التدبير الذي يُطلعنا في كلّ مرحلةٍ منه على آيةٍ جديدةٍ من علمه وقدرته تبارك

(١) يقول بعض المفسرين لو تعدت «الرؤية» بـ«إلى» فهي تعني الرؤية الحسّية، وإذا تعدت بـ«في» فهي تعني المشاهدة القلبية والمطالعة العقلية (روح البيان: ج١٠: ٩١).

وتعالى، وينفي كل أشكال الاحتمال بوجود الصدفةِ وقدرتها على الخلق، ويملأ القلب بحبّه والإيمان به.

ويُمكن أن يكون التعبير بـ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ و﴿...وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ إشارة إلى وضع الطير، حيث يبسطنَ أجنحتهنَّ تارةً، ويجمعنَها أخرى، ويقدرنَ على الطيران من خلال هذين الفعلين، ويردُ هذا الاحتمال أيضاً بأنْ يكون إشارة إلى صنفين من الطيور: التي غالباً ما تكون أجنحتها مبسوطة، وتركبُ أمواجَ الهواء، وفي نفس الوقت تسيرُ في كلِّ اتجاهٍ بسرعة، فكأنَّما هناك قدرةٌ خفيَّةٌ تُحركُها لا نراها بأعيننا، والطيور التي تخفق أجنحتها باستمرار أثناء طيرانها، ولبعضِ الطيور حالةٌ وسطٌ بين هاتين الحالتين أثناء الطيران[1].

وفي الآية الثالثة نواجه صياغة جديدة بصدد الآيات التوحيدية لحياة الطيور إذ يخاطبُ النبي ﷺ قائلاً ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٤١] ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ [النور: ٤١].

الطيور التي تتحرك في جو صفوفاً، بجلالٍ وعظمةٍ وجمال لا تتعبُ العين من مشاهدتها أبداً، فهي ترسمُ أشكالاً هندسيةً مختلفة على صفحة السَّماء بحيث تذهلُ الإنسان، إذ قد تطير المئات بل الآلاف من الطيور وتغيّر طريقها باستمرار من خلالِ أمرٍ خفيٍّ من دون أن يحدث اصطدامٌ فيما بينها.

ويضيف في سياق الآية ﴿كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥ﴾ (النور:

---

(١) لماذا جاءت «صافاتٍ» بصيغة الاسم الفاعل، و«يقبضنَ» بصيغة الفعل المضارع؟ وردت تفسيرات كثيرة أفضلها: يُقال إنَّه عند انبساط الأجنحة يأخذ وضع الطائر نسقاً واحداً، بينما يتكرر رفيف أجنحته عند خفقانها، وهذا ما يناسب الفعل المضارع ويكسبه صفة الاستمرارية. وذُكر تفسير آخر في «الكشاف» وأيده بعض المفسرين: بأنَّ منشأ هذا التفاوت ينبع من أنَّ الطيران هو الحالة الأصلية الأولى للطيور، والحالة الثانية هي عرضية. غير أنَّ الغموض يكتنف هذا التفسير.

٤١](١). نعم.. فلكلٍّ منها صلاةٌ وسرٌّ ودعاءٌ وحاجات في عالمها الخاص، ولكلٍّ تسبيحه وتعظيمه وثناؤه، ومن المعروف أنَّ ذرَّات وجود أيٍّ منها وبناء مختلف أعضائه وحركاته وسكناته تُخبرُ عن مُبدىءٍ عظيم يجمعُ كافة الكمالات ومُنَزَّهٍ عن جميع النواقص، وهي دائمةُ التَّسبيحِ بحمده بلسان حالها.

ويعتقد بعضهم أنَّ حمدَها وتسبيحها وصلاتها عن وعي، ويعتبرون لكلِّ موجودٍ حتى الذي تَحسبُه جماداً وبلا روح، عقلاً وإحساساً، بالرغم من جهلنا به، كما نقرأ في مكانٍ آخر: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وكل تفسير من ذينك التفسيرين الصحيحين يصلح أن يكون شاهداً على ادعائنا بأنَّ جميع الموجودات في هذا العالم، لاسيَّما الطيور التي تطير في جوِّ السَّماء، آياتٌ وبراهينٌ على قدْرةٍ وعلم خالق الكون.

ويقول في نهاية الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

فهو يعلم كل أعمالهم ونواياهم وجميع حاجاتهم، وهنا لماذا استند في هذه الآية إلى بسط أجنحة الطيور فقط ﴿صَافَّاتٍ﴾؟ لعلَّ السبب هو هذا الوضع العجيب والمدهش حيث تستطيع أن تتحرك في جو السَّماء بسرعة بدون تحريك أجنحتها كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

والاحتمال الوارد أيضاً هو أنَّ الطيور تتحرك في السَّماء بشكلٍ جماعي بنحوٍ يبعث على الحيرة، حركة هندسية منظَّمة، متناسقة تماماً، وبلا قيادةٍ ظاهرةٍ.

وأشار في الآية الرابعة والأخيرة من البحث إلى مسألةٍ جديدةٍ

---

(١) هنا حيث يعود الضمير في «عَلِمَ» إلى «الله» أو إلى «كلٌّ» هنالك جدالٌ بين المفسِّرين، ولكن ما يناسب وضع الآية هو أن يعود الضمير إلى «كل» فيعني: «كل واحد» أي أنَّ كلَّ واحدٍ من موجودات الأرض والسَّماء والطيور يعرف صلاته وتسبيحه جيداً.

أخرى من عجائب عالم الطيور فقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

والتعبير بـ﴿أُمَمٌ﴾ جمع «أُمة» يدللُ على أنَّ لها عقلاً وإحساساً في عالمها، والتعبير بـ﴿أَمْثَالُكُم﴾ يؤكد هذا المعنى أيضاً، لأنَّها تشابه الإنسان في مسألة الإدراك والفهم والشعور، وهذا تأكيد مجدد للتفسير الذي ورد في الآية السابقة، بأنَّ لها تسبيحاً ودعاءً عن وعيٍ في عالمها الخاص بها[1].

إنَّ القرائن المتوفرة لدى الطيور، وباقي الحيوانات، تؤيد بأنَّها ذات ذكاءٍ وشعور.

لأنَّ: أولاً: الكثير من الحيوانات تعمل بمهارةٍ ودقةٍ في بناءِ بيوتها وجمع غذائها وتربية فراخها، ورعايتها، وسعيها لسد حاجات حياتها الأخرى بدقة ومهارة لا يُصدق معها، صدور هذا العمل عن غير عقلٍ وشعور؟

وهي تبدي ردود فعلٍ مناسبة إزاء الأحداث التي لا تمتلك تجربةً سابقةً حيالها، فمثلاً نرى أنَّ الخروف الذي لم يَرَ ذئباً طيلة حياته له وعيٌ كاملٌ عن خطر هذا العدو ويدافع عن نفسهِ بكلِّ وسيلةٍ يستطيعها.

لقد قاموا بتربية الحيوانات من أجل غاياتٍ مهمةٍ، كالطيور التي تنقل الرسائل، والحيوانات التي تُرسلُ إلى السوق للشراء، وحيوانات الصيد، وكلاب الشرطة التي تستعمل للكشف عن المخدَّرات، وملاحقة المجرمين وأمثال ذلك، فتُربَّى هذه الحيوانات بنحوٍ قد تكون أفضل

(١) لقد أعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير تشبيهها بالإنسان حيث يبدو أنَّ ما أوردناه أعلاه أكثر تناسباً بالرغم من عدم وجود تعارضٍ بين هذه الاحتمالات. يراجع تفسير المنار: ج٧، ص٣٩٢. وتفسير القرطبي: ج٤، ص٢٤١٧.

وأكثر ذكاءً من الإنسان في إنجاز مهمتها، حتى في هذا العصر الذي تنوعت فيه معدات كشف الجرائم لم يجدوا في أنفسهم غنًى عن هذه الكلاب!

خصوصاً أنَّ بعض الحيوانات كالنحل والنمل والأرضة، وبعض الطيور كالطيور المهاجرة، وبعض حيوانات البحر كالأسماك الحرّة التي تقطع آلاف الأميال في أعماق البحر باتجاه منشئها الأصلي أثناء وضع البيوض، تعيش حياةً دقيقةً ومليئةً بالأسرار بحيث لا يمكن نسبتُها إلى الغريزة، لأنَّ الغرائز تُعتبر عادةً مصدراً للأعمال ذات النَسق الواحد، في حين أنَّ حياة هذه الحيوانات ليست كذلك، وأعمالها دليلٌ على فهمها وإحساسها النسبي.

يقول مؤلف تفسير «روح المعاني»:

أنا لا أرى مانعاً من القول بأنَّ للحيوانات نفوساً ناطقة وهي متفاوتة الإدراك حسب تفاوتها في أفراد الإنسان وهي مع ذلك كيفما كانت لا تصل في إدراكها وتصرفها إلى غاية يصلها الإنسان والشواهد على هذا كثيرة وليس في مقابلتها دَليل يجب تأويلها لأجله[1].

والظاهر أنَّ مقصوده من الشواهد هذه التلميحات أو التصريحات التي جاءت في القرآن الكريم في قصة «الهدهد وسليمان» وكذلك «النملة وسليمان»، وكذلك الروايات التي نُقلت في تفسير آية البحث بأنَّ الحيوانات تُحشرُ وتُنشرُ وتحاسبُ يوم القيامةِ أيضاً[2].

ولكن على أيةِ حالٍ فسواء كانت أعمالها وتصرفاتها ناتجة عن عقلٍ وإرادةٍ أو عن غريزة فلا أثر لذلك على بحثنا فهي بأيِّ نحوٍ آيةٌ من آيات الله وبرهانٌ من براهين علمه وقدرته.

(١) تفسير روح المعاني: ج٧، ص١٤٧.
(٢) مجمع البيان: ج٣، ص٢٩٨.

واللطيف أنَّه يقول في نهاية الآية: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨][1] . ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

والتعبير بـ«حَشر» يشير أيضاً إلى أنَّها ذات عقلٍ وإرادةٍ نوعاً ما.

يُستفادُ من الآيات أعلاه أنَّ الطيور ومن عدَّة جوانب تعتبر من آيات الله ولا يمكن نسبة هذه الظواهر الدقيقة والمعقدة والمليئة بالأسرار إلى الصدفة العمياء والصماء أو إلى الطبيعة الهامدة.

توضيحات:

١ ـ فَنُّ الطيران المُعقَّد:

منذ سنواتٍ والإنسان يُفكر: ما هذه القوَّة الخفيَّة التي تحمل الطيور الثقيلة نسبياً خلافاً لجاذبية الأرض وتجعلها تطير بإنسيابية ويُسرٍ ومهارةٍ في أعالي السَّماء، وتتنقلُ بسرعةٍ؟ ولكن باختراع الطائرة وصناعتها تمَّ اكتشاف هذا السِّر بأنَّ هناك قوَّة تُسمَّىٰ (القوَّة الرافعة) تستطيع أنْ ترفع الأجسام الثقيلة جداً وتجعلها تطير في السَّماء، فضلاً عن الطيور. ويمكن توضيح ذلك في عبارةٍ بسيطةٍ وخاليةٍ من المصطلحات الفنية بما يلي:

لو كان لجسم سطحان مختلفان (كأجنحة الطيور أو أجنحة الطائرة حيث يكونُ سطحها العلوي منحنياً وبارزاً، فلو تحرك هذا الجسم أُفقياً ستتولد قوَّةٌ خاصةٌ ترفعُهُ إلى الأعلى، وهذا يعود إلى أنَّ

---

(١) «فَرَّطنا» من مادة «تفريط» أي التقصير في أداء العمل وتضييعه بنحوٍ بضيع (صحاح اللغة) ويردُ هذا الاحتمال أيضاً بأنَّ المقصود من عدم التفريط في هذا الكتاب السماوي يعني أنَّ للقرآن مفهوماً جامعاً حيث يشمل كافة حاجات الإنسان إلاَّ أنَّه نظراً إلى ذيل الآية فإنَّ المعنى أعلاه يعتبر أكثر مناسبة.

ضغط الهواء سيتضاعف على السطح السفلي أكثر من العلوي (لأنَّ السطح العلوي أوسع من السفلي).

وتعدُّ الاستفادة من هذا القانون السبب الرئيس في تحليق الأجسام الثقيلة في الجو، ولو تأمَّلنا أجنحة الطيور جيداً للمسنا هذا القانون الفيزيائي بكل دقة.

غير أنَّ هذه مسألة واحدة فقط من عشرات المسائل المهمة في الطيران، ومن أجل تصور أوسع له لا بدَّ من التطرق إلى الأُمور الآتية:

١ ـ السرعة الأولية لحصول القوَّة الرافعة (فالطائرة تسير وقتاً طويلاً على الأرض للحصول على هذه السرعة، أمَّا الطيور فقد تركض قليلاً أو بقفزةٍ سريعةٍ في الهواء فتصل إلى هذه الغاية!).

٢ ـ كيفية التحكم بهذه القوَّة أثناء الهبوط (وهذا الأمر يجري في الطيور والطائرة بتقليل السرعة وتغيير هيئة الجناح!).

٣ ـ كيفية تغيير الاتجاه أثناء الطيران (ويتم هذا الأمر عن طريق الاستفادة من حركات ذيل الطائرة أو الريش الخاص في أذناب الطيور التي تحدث حركات في مختلف الاتجاهات وتسوق الطائر نحو أيِّ اتجاه).

٤ ـ اتخاذ الشكل المناسب للطيران بالنحو الذي يوصل مقاومة الهواء على جسم الطائر إلى الحد الأدنى (وهذا الأمر تمَّ تأمينه من خلال الهيكل المغزلي للطيور، والرأس البيضوي، والمنقار المدبَّب والحاد، وهيئة الطائرة تقليدٌ له!).

٥ ـ أدوات التنسيق مع الطيران (وهذا المعنى متوفرٌ من خلال الريش الذي يسمح للطيور أنْ تسبح في الهواء، ووضع البيوض بدلاً من الحمل، كي لا يصبح جسمها ثقيلاً، والعيون الحادَّة حيث ترى الفريسة أو الصيد جيداً من مكان بعيد وأمثال ذلك).

٦ ـ لقد كان العلماء ولمدةٍ من الزمن يلاحظون أنَّ عجلات الطائرات علاوة على تخفيفها لسرعتها فهي لا تخلو من الأخطار أثناء طيرانها، حتى شاهدوا الطيور تجمع أرجُلَها أثناء الطيران وتفتحها قبل الهبوط بقليل فأدركوا أنَّه يجب الاستفادة من العجلات المتحركة التي تُجمع بعد الارتفاع، وتُفتح قبيل الهبوط!.

ولا عجب في إجراء العلماء لبحوث كثيرة ولسنواتٍ متماديةٍ على مختلف أنواع الطيور مهتمين بكيفية الطيران، والهبوط، وشكل الأجنحة والأذناب، وقاموا بصِناعةِ أنواع مختلفة من الطائرات تقليداً لمختلف الطيور.

فهل يُمكن أن تكون الأسس الضرورية المذكورة في الطيران وليدة للطبيعة العمياء والصّماء؟ أوَليسَ جملةُ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ [الملك: ١٩] إشارة دقيقة وجميلة إلى جميع تلك الأسس؟ لاسيَّما وأنَّ المعنى يتم بعد جملة ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

٢ ـ «عجائب الطيور والطيور العجيبة»:

للطيور أنواع مختلفة وعجيبة، وبعضها أكثرُ عجباً، إذ يقول بعض العلماء: شوهد ٢٨٩ نوعاً من الحمام و٢٠٩ أنواع من الحجل و١٠٠ ألف نوع من الفراشة لحد الآن[1].

ويمكن ذكر «الخفاش» مثلاً من بين الطيور العجيبة، فهو يضجر من ضوء الشّمس على عكس سائر الطيور، ويطير في ظلام اللّيل بكل شجاعةٍ وجرأةٍ وبأيّ اتجاه شاء، وجسمه خالٍ من الريشِ تماماً وأجنحتُه متشكلة من جلد رقيق، وهو لبونٌ ولودٌ، فيحيضُ، ويأكل

(١) يراجع كتاب «أسرار حياة الحيوانات»: ص١٤٢ إلى ١٩٦.

اللحم، ويقالُ إنَّ الطيور تنصبُ له العداء، كما أنَّه يعاديها أيضاً! لهذا فهو يقضي حياته منعزلاً.

وحركته السريعة والجريئة في ظلمة اللَّيل من دون أن يصطدمَ بمانعٍ تبعث على الحيرةِ، فهو يَمر من خلال إنحناءاتٍ والتواءاتٍ كثيرة بدون أن يضل طريقه، ويوفر طعامه بدقة أينما كان مختفياً ومن دون خطأٍ، لامتلاكه لجهازٍ خفي يشبه «الرادار».

فهو يرى بأذنه «أَجَلْ بأذنه!» لأنَّ الأمواجَ الخاصَّة التي يصدرها من حنجرته ويرسلها إلى الخارج عبر أنفهِ ترتطمْ بكل ما يصادفها وتعود، وهو يلتقط الأمواج المنعكسة بأذنه، ويتحسسُ الوضعَ في جميع الجهات فيتجنب العقبات.

إنَّ بناءَ حنجرته وأنفهِ وأذنهِ عجيبٌ، دقيقٌ لا يوجد له مثيل في أيٍّ من اللبائن.

والأمواج التي يرسلها إلى الخارج هي أمواج ما وراء الصوت، التي لا نستطيع سماعها، وفي كلِّ ثانيةٍ يرسل ٣٠ ـ ٦٠ مرَّة إلى كل الاتجاهات المحيطة به ويستلم ردَّها.

لقد أجروا بحوثاً كثيرة حول «الخفَّاش» وألفُوا مقالاتٍ عديدةً، تشكل منها دروس حقة لمعرفة الله.

ولهذا يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة في خطبةٍ معروفةٍ باسم «خطبة الخفَّاش» عن هذا الحيوان، ويُبينُ مهارتَه ودقته في بيانهِ العظيم والبليغ، حيث يقول:

«من لطائف صنعته، وعجائب خلقته، ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش...»[1] ثم يضيف بصدده قائلاً:

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٥٥.

«وقيل من الحيوانات من يحتضن صغاره، ويحمله تحت جناحه وربَّما قبض عليه بفيه وهو في حنوه عليه وإشفاقه عليه وربَّما أرضعت الأنثى ولدها وهي طائرة. . .»[1].

ومن عجائب الخلق طائرٌ آخر يُسمَّى «الطاووس»، بريشه الجميل الذي تصيب الدهشة من يتمعن بألوانه، فكأنَّما خرجَ لتوِّهِ من تحت يد رسَّام ماهر مليئاً بالألوان الحيوية الزاهية الشفَّافة والجذَّابة، مصففاً ريشه بمظلة عجيبة التي لا يمكن نسيانها، إنَّ ذلك لآية أخرى من آيات خلقِ الله.

لهذا أكَّد معلمُ التوحيد ومعرفة الله، الإمام علي عليه السلام في إحدى خطب نهج البلاغة «خطبة الطاووس» على هذا الأمر قائلاً:

«ومِنْ أعجبِها خلقاً الطاووس الذي أقامَهُ في أحكَم تعديلٍ. . . ونضّد ألوانه في أحسن تنضيد بجناحٍ أشرج قصبه وذنب أطال مَسْحَبَه إذا درج إلى الأنثى نشره من طيّه وسَما به مطلاً على رأسه كأنّه قلع داري عنجه نوتيّهُ يختال بألوانه. . .»[2].

و«الطيور المهاجرة» من أكثر أنواع الطيور إثارة للدهشة أيضاً، فهي تقطع أحياناً كل المسافة بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي، ثم تعودُ إلى مكانها الأول، قاطعة سفراً طويلاً بعيداً قد يبلغ آلاف الأميال، والعجيب أنَّها تستخدم في هذه المسافة الشاسعة آلاتٍ خفية تستطيع بها تشخيص طريقها بين الجبال والغابات والصحارى والبحار.

والأعجب من كل هذا مواصلة طيرانها لعدة أسابيع بدون توقف ليلاً ونهاراً دون الحاجة إلى غذاء، لأنَّها تبدأ بالأكل قبل بداية سفرها

---

(١) سفينة البحار: ج١، ص٤٠٣.
(٢) تراجع بقية هذا الحديث في الخطبة ١٦٥ من نهج البلاغة.

ـ بدافع داخليٍّ ـ، أكثر من الحد اللازم، وتختزن هذه الأطعمة على هيئةِ دهونٍ في جسمها، كي تكتسب الطاقة اللازمة لهذا الطيران الطويل المستمر.

فهل تستفيد من الجاذبية المغناطيسية للأرض من أجل تشخيص طريقها؟ أو من استقرار الشّمس في السّماء والنُّجوم أثناء اللَّيل؟ وفي هذه الحالة يجب أن تكون هذه الطيور من الفلكيين المرموقين، أو تستفيد من طريقة خفيَّة أخرى نجهلها لحد الآن؟

والأهم من ذلك أنَّها تنام في السَّماء أحياناً وهي طائرةٌ وتواصل مسيرتها نحو هدفها! كما أنَّها تتوقعُ التحولات في الجو قبل حصولها من خلال تنبؤ ذاتي، فتستعد للحركة.

لعلَّكم شاهدتم بأعينكم أنَّ الطيور المهاجرة تتحرك بشكلٍ جماعيٍّ وتُشكِّلُ نسقاً على هيئةِ رقم (٧)، فهل هذا حدثَ صدفةً؟ لقد أثبتت بحوث العلماء أنَّ الطير عندما يحرِّك جَناحَيه في الهواء فهو يخفضه ممَّا يسهل عملية تحريك جناح الطائر الذي يليه، لهذا فإنَّ الطيور حينما تتحرك بالشكل أعلاه قليلاً ما تتعب، وتختزن كميةً لا بأس بها من طاقتها، فأيُّ معلِّم أعطاها هذا الدرس الدقيق؟

والأسماك تواصل سيرَها أثناء رحلتها بصورةٍ جماعيةٍ وعلى هيئة مخروطٍ يكون رأسه إلى الأمام، فقد أثبتت بحوث المتخصصين في هذا المورد أنَّ سرعة الأسماك تتضاعف ست مرَّات عن حركتها الانفرادية فيما إذا استخدمت هذا الأسلوب.

٣ ـ الطيور في خدمة الإنسان والبيئة:

يقول أحد العلماء: إنَّ شقاءَ وقسوة الإنسان، وغفلته وجهله لا حدَّ ولا عدَّ لها، فيجب أن يعلَم أنَّ قتلَ الطيور يكلفه هذه الخسارة

الفادحة التي يتحملها، ويحرمُهُ عون ونصرة أعزّ وأغلى الأصدقاء والرفاق في صراعه مع الحشرات الضارة.

فللإنسان طريقتان في صراعه مع الحشرات المهاجمة: أحدهما الأسلوب البدائي وهو عبارة عن أخذ اليرقات من البساتين والمزارع وقتلها والقضاء على الجراد وحشرة المنّ، عن طريق السموم، والآخر الصراع العلمي عن طريق «البيولوجيا» بواسطة الفايروسات والطفيليات الخاصّة التي يتم تكثيرها لهذا الغرض.

إلاّ أنّه يدفعُ ثمناً غالياً في هذين الأسلوبين من الصراع ويتحمل المتاعب والمشقة، بينما لو ترك الطيور سالمةً، وقام بتكثير الطيور التي تقتل الحشرات كالبوم، وبعض الطيور التي تتغذى على الحشرات فستكون المكافحة أسهل وأفضل (وأرخص).

يقول عالمٌ يُدعى «ميشيل»: «لولا وجود الطيور ستصبح الأرض فريسةً للحشرات»، ويكتبُ آخرُ يُسمَّى «فابر» في تأييده: «لولا وجود الطيور سيقضي القحط على البشر»!.

وتحدّثنا الإحصاءات، بأنْ لو حصلنا على حسابات دقيقة نسبياً عن معدل اليرقات والحشرات التي تستهلكها الطيور الصغيرة سنوياً في طعامها وطعام فراخها فستتضح هذه المسألة كثيراً.

فهنالك طيرٌ صغيرٌ يُدعى «رواتوله» يأكل سنوياً «ثلاثة ملايين» من هذه الحشرات المهاجمة! وهناك نوع من الطيور يُسمَّى «الطائر الأزرق» يأكل سنوياً «ستة ملايين ونصف المليون» من الحشرات، ويستهلك «أربعاً وعشرين مليون» لإطعام فراخه التي لا تقل عادةً عن اثني عشر أو ستة عشر فرخاً...

والسنونو تطوي يومياً أكثر من ستمائة كيلومتر وتأكل «الملايين»

من الذباب، وهناك طيرٌ يُدعى «تروغلوديت» يتغذى على «تسعة ملايين» حشرة منذ أن يخرج من البيضة وحتى طيرانه من العش! وغالباً ما يعتبر الناس أنَّ الغراب الأسود مضرٌ، ولكن لو ذبحتم أحدها وتفحصتم حوصلته تجدونه مليئاً بنوعٍ من الديدان البيضاء[1].

هذا جانبٌ من خدمات الطيور للمزارعين والبيئة، فافرضوا الآن لو أنَّها تأخذُ نصيباً من محاصيلنا الغذائية الذي لا يساوي واحداً بالألف ممَّا تستحقه من هدية! فهل يؤدِّي بنا هذا إلى اعتبارها حيواناتٍ ضارةٍ ومؤذية؟

فَمَنْ أَوْدَعَ هذا التكليف لدى هذه الطيور بأن تتكفَّل بدورٍ مهمٍ بموازنة القوى في عالم الحيوانات والحشرات التي لها فوائدها أيضاً.

٤ ـ دروس التوحيد في وجود الطيور:

يقول الإمام الصَّادق ﷺ معلمُ التوحيد العظيم في الحديث المشهور بـ«المفضل»:

«تأمَّل يا مفضل جسم الطائر وخلقته فإنَّه حين قدّر أن يكون طائراً في الجو خفَّف جسمه وأدمج خلقه فتقصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن منفذين للزبل والبول على واحد يجمعهما ثم خلق ذا جؤجؤ محدد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكُسيَ كله الريش ليدخله الهواء فيقله، ولما قدّر أن يكون طعمه الحب واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار

(١) نظرةٌ إلى الطبيعةِ وأسرارها: ص١٩٥ ـ ص١٩٧ «مع الاختصار».

صلب جاسٍ يتناول به طعمه فلا ينسجح من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم، ولمَّا عدم الأسنان وصار يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريضاً أُعين بفضل حرارة في الجوف تطحن له الطعم طحناً يستغني به عن المضغ؛ واعتبر ذلك بأنَّ عجم العنب وغيره يخرج من أجواف الإنس صحيحاً ويطحن في أجواف الطير لا يرى له أثر ثم جعل ممَّا يبيض بيضاً ولا يلد ولادةً لكيلا يثقل عن الطيران...»[1].

ثمَّ يشرحُ الإمام ﷺ بعد ذلك، الأُمورَ المهمة والدقيقة الأخرى حول الطيور حيث نُعرض عنها مراعاةً للاختصار[2].

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص١٠٣ وما بعدها.
(٢) نفحات القرآن.

آياته في النحلُ

وفيه :

البحث الأول

في تعريفه وما يتعلق به

وفيه أبحاث خمسة:

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

(النحل) إسم زنبور العسل و«نِحْلَة» (على وزن قِبْلَة) تعني العطاء بلا عوض، ومفهومها محدُود أكثر من مفهوم الهبة، لأن «الهبة» تشمل العطاء بعوض وبغير عوض بينما تشمل النحلة العطاء بلا عوض فقط و«نُحول» تعني الضعف تشبيهاً بهزال زنانير العَسَل، و«نواحل» تطلق على السيوف الحادة «الرفيعة» وقد يحتمل أن المنشأ الأصلي لـ«نِحلة» يعني العطاء، وإذا أطلق على زنبور العسل «نَحْلٌ» فلأنه يصطحب معه عطاء وهبة حلوة لعالم الإنسانية[1].

و«أوْحى» من مادة «وَحْي» ولها معان كثيرة إلا أن المعنى الأولي لها

(١) الراغب في المفردات.

هو «الإشارة السريعة» بالنظر إلى أمر الله تعالى فيما يتعلّق بالنشاطات المختلفة والمعقدة للنحل قريب الشَّبَه من الإشارة السريعة أو الإلهام القلبي فهذا المعنى استخدم أيضاً (كما قيل) فيما يخص النَّحل لأن جميع هذه الأعمال المعقدة قد تُنجز من خلال إشارة إلهيِّة سريعة. قالوا: والتعبير بـ «أَوْحى» تعبير جميل حيث يبرهن على أن الله تعالى قد علَّم هذا الحيوان طراز بناء البيت الذي يُعدُّ من أروع أعمال هذه الحشرة بواسطة إلهام خفي، وهي تقوم بإنجاز واجباتها على أفضل وجهٍ وفقاً لهذا الوحي الإلهي فقد تختار صخور الجبال أو بطون الكهوف لبناء بيوتها، وتضع الخلية بين أغصان الأشجار أحياناً، وقد تستخدم الخلايا الإصطناعية التي يصنعها الإنسان لها على القصب أو أنها هي التي تقوم ببناء البيت على القصب. وقد اختلف المفسِّرون (على ما ينقل) في معنى قوله: ﴿فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ﴾ [النحل: ٦٩] إلى ثلاثة أقوال:

١ ـ إن القصود هي الطرق التي يطويها النحل نحو الأزهار والتعبير بـ «ذلل» (جمع «ذلول» وتعني التسليم والطاعة) يدلُّل على أن هذه الطرق تُعيَّن بدقَّة بحيث يكون ارتيادها سهلاً وعاديّاً للنحل قيل: وتؤيّد دراسات خبراء النحل هذا المعنى أيضاً فهم يقولون: تخرج مجموعة من النحل مكلَّفة بتشخيص مكان الأزهار صباحاً من الخلية، وبعد اكتشاف المناطق المليئة بالأزهار ترجع، وتعطي للباقين العنوان الكامل لذلك المكان بشكل سرّي ومدهش وقد تشخِّص الطريق بوضعها علامات عليه متكوّنة من مواد ذات رائحة خاصة، وبنحو لا تضلُّ أية نحلة باتباعها.

٢ ـ إن المقصود هو طريق العودة إلى الخلية، لأن النحل قد يجبر على قطع مسافات طويلة، ولا يبتلىٰ بالتيْه ـ عند عودته إلى الخلية فهو يتجه نحو الخلية بدقة...

٣ ـ إن «السُّبَل» هنا لها معنى مجازي فهي تشير إلى الأساليب

التي يتبعها النحل لإعداد العسل من رحيق الأزهار، فهي تمتص رحيق الأزهار بنحو خاص وتُرسله إلى «حوصلتها» وهناك حيث تكون كمختبر للمواد الكيمياوية يتبدل إلى (عسل) من خلال التغييرات والتطوّرات التي تجري عليه ثم يستخرجه الزنبور من حوصلته.

واختلفوا أيضاً في معنى قوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: ٦٩] حيث اعتبرها بعضهم بمعنى هذا «اللون» الظاهري الذي يتفاوت فيه العسل، فبعضه أبيض شفاف، وبعض أصفر، والآخر أحمر اللون، وبعضه يميل إلى السواد قيل: ويمكن أن يكون هذا التباين مرتبطاً باختلاف أعمار النحل، أو مصادر الأزهار التي يمتصها أو كليهما. وقد احتمل بعضهم أن يكون المقصود من هذا التفاوت (نوعية) العسل فبعض كثيف، وبعض خفيف، أو أن عسل الأزهار المختلفة له آثار ومزايا مختلفة أيضاً كما يختلف العسل العادي كثيراً عن «الشهد» وهو (العسل الخاص الذي يصنع لملكة الخليَّة) لأن المشهور أن لـ «الشهد» قيمةً من الناحية الغذائية بحيث يزيد كثيراً من عمر الملكة، ولو تمكن الإنسان أن يتغذىٰ عليه فإنه يترك أثراً عميقاً في طول عمره وقالوا أيضاً: في بعض البلدان هناك حدائق من ورود متشابهة حيث تُنصب فيها الخلايا الخاصة بالنحل، وبهذا تستخلص أنواع مختلفة من العسل كل منها مستخرج من زهر خاص، ويتمكن الراغبون من شراء العسل من الورد الذي يرغبونه، وبهذا نواجه ألواناً مختلفة من العسل تدخل في المفهوم الواسع والعام للآية.

البحث الثاني
في (غرائب خلية النحل)

قال العلماء: إن حياة النحل من أكثر ظواهر الخلق دهشة، وقد

اكتشفت عجائب عن حياة هذه الحشرة الصغيرة من خلال بحوثهم وعلى كل حال نبيّن في هذا الموضوع ما يلي:

١ ـ من المسلَّم به أن بناء خلية النحل يجري بإلهام إلهي لأنها تبني تشكيلات سداسية منظمة واسعة من كمية قليلة من الشمع (وذلك لاستغلال جميع زواياه ويكون مقاوماً أمام الضغط)، وتتكوَّن بيوتها من طبقتين، وعندما تبني بيتاً في الجبال أو على الأشجار فهي تقتصر على هاتين الطبقتين إلا أنها تضيف طبقتين أخريين في الخلايا الإصطناعية، وبما يمكن استيعابه منها.

ويتخذ قعر البيت شكلاً هرمياً حيث يتألف من ثلاثة سطوح لوزية الشكل، ويغور الرأس والأجزاء البارزة بكل طبقة في قعر الطبقة السفلىٰ.

٢ ـ قد أثبتت التجارب أنه لو كان سطح الشمع مربع الشكل أو بأي شكل آخر، وصُبَّ في قوالب اصطناعية، ويُطلقُ النحل في داخله فسوف لا يرتضي مثل تلك الجدران الخاطئة، بل يرفع الجدران إلى الأعلىٰ، ويعيدها إلى وضعها الصحيح.

٣ ـ قالوا: إن بناء الخلية، وكيفية جمع رحيق الورود، وصناعة العسل وخزنه وتربية الصغار، واكتشاف المناطق المليئة بالأزهار، وإعطاء عنوان السكن لباقي النحل، والعثور على الخليَّة بين مئات أو آلاف الخلايا كل ذلك دليل على الذكاء الخارق لهذه الحشرة إلا أن من المسلَّم به هو أن الإنسان لم يكن يمتلك مثل هذه المعلومات عن النحل سابقاً، ولكن القرآن الكريم أشار في سورة (النحل) بإشارات مليئة بالمعاني إلى الحياة المعقَّدة والمدهشة لهذه الحشرة.

٤ ـ إن البعض يعتقد أن حضارة النحل وحياتها الإجتماعية أكثر تطوّراً من حياة الإنسان، فأنتم لا تعثرون على أي مجتمع متطور قد

حلَّ مشكلة «البطالة» و«المجاعة» بشكل كامل إلا أن هذه المسألة حُلَّت تماماً في بلاد النَّحل «خلايا النحل» فلا يعثر في هذه المدينة على زنبور عاطل عن العمل أو زنبور جائع.

٥ ـ ينقل عن بعضهم ويُدعىٰ: «رايت» ما يلي: لدينا ثلاث طرق عملية فقط في الهندسة لتقسيم الفواصل المنظمة وربطها، وتكوين الأشكال الكبيرة والصغيرة، وهذه الطرق الثلاث عبارة عن (المثلث القائم الزاوية) و(المربَّع) و(المسدَّس)، وتستخدم الطريقة الثالثة أي «المسدَّس» في بناء غُرف النحل، وهذا الشكل أكثر ملاءمة لاستحكام البناء (لأننا لو دققّنا قليلاً نجد أن الشكل السداسي يشبه الأقواس من جميع الجهات، حيث يمتلك الحد الأقصىٰ لمقاومة الضغط بينما نتصوَّر المثلثات، والمربَّعات لا تصمد أمام الضغط كثيراً) بالإضافة إلى أن جسم النحل إسطواني الشكل تقريباً ويتلاءم كثيراً مع الخروج والدخول في مثل هذه البيوت.

ونحن كلَّما تحققّنا بخصوص ما أشار إليه القرآن الكريم في مسألة بناء بيت النحل نحصل على مسائل عجيبة جديدة تجعلنا نعظم خالق ومبدع ومربّي هذه الحشرة العجيبة.

البحث الثالث

في جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل

وهو على أقسام:

١ ـ إستناداً إلى أقوال العلماء: يجب أن تسافر (٥٠) ألف نحلة من أجل إعداد كيلو غرام واحد من العسل! وتؤكد حساباتهم أيضاً أنه من أجل إعداد كيلو غرام واحد من الرحيق يجب أن يمتصَّ النحل سبعة آلاف وخمسمائة زهرة كمعدل، ويستخرج رحيقها.

وطبقاً لهذه المعادلة يجب امتصاص ٧,٥ مليون زهرة لإعداد كيلو غرام واحد من العسل، ولا بد أن نعلم أيضاً أن النحل يسافر يومياً حوالى ١٧ ـ ٢٤ مرة من أجل جمع رحيق الأزهار، ولا عجب أن نعلم أن النحل لا يذوق طعم الراحة طيلة عمره، وأنه لا يرىٰ النوم أبداً فهو يقظ طيلة عمره![١].

٢ ـ وفي «عالم الحشرات» على ما ينقل (ومن أجل أن ندرك العمل المرهق لهذه الحشرة الكادحة يجب أن نقول: إنه يتعيَّن على النحل أن يسافر (٨٠) ألف مرة ذهاباً وإياباً على الأقل من أجل كل أربعمائة غرام من العسل الذي يحصل عليه، ولو ربطنا هذا الذهاب والإياب معاً، وقدَّرنا مسافة كل مرة (كمعدل) بكيلو متر واحد، ستكون المسافة التي يقطعها النحل من أجل الحصول على أربعمائة غرام من العسل تعادل ضعف محيط الكرة الأرضية، أي إن هذه الحشرة الكادحة تقطع مسافة ما يعادل ضعف محيط الكرة الأرضية من أجل جمع شراب يصنع من أربعمائة غرام من العسل).

٣ ـ وقال في (الحواس الخفية للحيوانات) (ومن الضروري الإنتباه إلى هذه النكتة وهي أن معظم الأزهار لا تمتلك الرحيق باستمرار كي يستطيع النحل إمتصاصه، بل إنها تقدِّم رحيقها مرة واحدة في اليوم وفي ساعات معينة تتبع نوع الزهرة، فبعض الأزهار تعطي رحيقها صباحاً، وبعضها ظهراً، وبعضها الآخر بعد الظهر، والعجيب أن النحل يعرف هذه البرامج جيداً فيتوجَّه نحو الأزهار وفقاً لها تماماً فلا يذهب وقته هدراً).

وقال في نفحات القرآن: (ويحق للإنسان أن يخجل عندما يشاهد

---

(١) عن «تربية النحل» ص ١١٥.

هذه الأرقام والأعداد في مجال جمع العسل وعدد مرات الطيران، وعدد الأزهار المستهلكة من أجل غرام واحد من هذه المادة الغذائية المهمَّة، ولكن لو فكر الإنسان بإمعان في الوقت نفسه بعظمة خالق هذه الحشرة الكادحة، وتحقَّق بعلمه وقدرته لخضع أمامه مؤدياً شكر هذه النعمة، ويمكن أن يكون كل ذلك مقدَّمة لهذه الغاية السامية).

٤ ـ إن علاوة على امتصاصه للرحيق فهو مكلف بجمع «الحبوب الصفراء» للأزهار المسماة «بولن» ومزجها مع العسل ولهذه الحبوب آثار حياتية فائقة، فهي تحتوي على (٢١) نوعاً من حامض الأمونيك، وأنواع الزيوت، وهو رمونات النمو، والسكَّر والإنزيمات، كما تستخدم عصارة الحبوب تلك في معالجة الإلتهابات والأورام المزمنة التي تعجز المضادات الحيويَّة عن علاجها، كما أن لها آثاراً منشطة أيضاً (الجامعة الأولى).

٥ ـ وللأرجل الخلفية للنحل نشوءات كأسنان المشط يثير بها غبار الأزهار، ويصنع منه ذرَّات كروية، وهنالك أيضاً إلى جانب تلك النشوءات ما يشبه «السلَّة»، وآخر يشبه «الملقط» حيث يجمع ذرَّات غبار الورد هناك ويحفظها، وحينما يعود إلى الخلية يجلب معه بالإضافة إلى رحيق الأزهار كرتين صفراوين كانتاج لعمله اليومي[1].

البحث الرابع

في فوائد العسل من حيث الغذاء ومن حيث الشفاء

قالوا في النفحات: لقد تحدث القرآن الكريم في الجزء الثالث من الآيات المذكورة عن مسألة التأثير المهم للعسل في شفاء المرضى

(١) نظرة على الطبيعة وأسرارها ص١٢٧.

بتعبير مختصر وغامض، ويتمُّ في هذا العصر إزالة الستار عن أسراره من خلال دراسات المختصين بعلم الغذاء إذ يذكر هؤلاء مزايا وآثاراً لا تحصىٰ للعسل تبعث على دهشة الإنسان فهم يقولون: إن العسل مادة لا تفسد أبداً، وتبقىٰ صالحة لآلاف السنين فيما إذا كان صافياً لأنَّ أي مكروب لا يعيش فيه أبداً. وقد عُثر في قبور الفراعنة على ظروف من العسل تعود إلى آلاف خلت. من السنين، وقد بقي هذا العسل صالحاً وطبيعيّاً بشكل كامل وهذا بحد ذاته دليل على صدق الإدعاء أعلاه.

وهذا الموضوع يكون على أقسام:

١ ـ يقول العلماء: يعتبر العسل مادة حيَّة بسبب احتوائه على الفيتامينات و «الإنزيمات» و«حامض الفورميك» فهو يحتوي على الفيتامينات: أ، ب، ث، د، ك، أي، ومواد معدنية كالبوتاسيوم، والحديد، والفسفور، و«الرصاص» و«المنغنيز»، و«الألمنيوم»، و«النحاس» و«الكبريت» و«الصوديوم» ومواد أخرىٰ متفرقة، وكذلك يحتوي على مختلف الحوامض. (الجامعة الأولى) ج ٥ ص ١٢٩.

٢ ـ قال في الجامعة الأولى (على ما ينقل): قد قام بعض العلماء بصناعة أقراص من رحيق الأزهار تحتوي على مواصفات تشبه مواصفات العسل، وأهمُّ آثارها مضاعفة طاقة الشباب، وتنشيط الخلايا ومن ثم يؤدي إلى الراحة وطول العمر.

ولهذا فقد عرف إن «فيثاغورس» كان يوصي طُلاَّبه «كلوا العسل والخبز ما استطعتم» وكان «بقراط» يقول: «لو أردتم عمراً طويلاً فعليكم بالعسل».

٣ ـ (مواصفات العسل) ١ ـ يؤثّر العسل في تصفية الدم وتركيبه ٢ ـ للعسل أثر جيد في إزالة التعب، وتقلُّص العضلات ٣ ـ العسل

يؤدي إلى أن يتمتع الولد بجهاز عصبيّ متين إذا ما تناولته المرأة الحامل ٤ ـ العسل يؤثر في تقوية القلب، ٥ ـ العسل يولّد طاقة لا بأس بها لدى المسنين إلى غير ذلك.

(مواصفات العسل العلاجية للأمراض):

١ ـ إنه يحدُّ من حدوث الإلتهابات في المعدة والأمعاء، ٢ ـ مفيد لمن لديهم جهاز هضمي ضعيف، ٣ ـ يعتبر العسل مرمِّماً قوياً. ٤ ـ ينفع لعلاج قرحة المعدة والاثنى عشر. ٥ ـ ويفيد العسل لعلاج مرض الربو «ضيق التنفس»، ويعتبر عاملاً مساعداً في علاج الأمراض الرئوية. ٦ ـ ويعتبر دواء لعلاج مرض الروماتيزم، وضعف نمو العضلات والمتاعب العصبية. ٧ ـ ويعدُّ العسل مفيداً للمصابين بالإسهال نظراً لمزيته في قتل الجراثيم. ٨ ـ تصنع من العسل أدوية تؤثر في نعومة وجمال الجلد، وإزالة الحروق، والتَّجعُّدات. ٩ ـ ويصنع من العسل دواء يعالج ورم الفم، ويعطّر التنفس. ١٠ ـ يستثمر العسل في معالجة ذبول الجلد، والتشققات والحروق، والرمد، واللدغات المؤلمة للحيوانات، وورم العين، والسعال.

٤ ـ (سمُّ النحل علاج) إن لدغة النحل والسُّمُ الموجود فيها علاج لكثير من الأمراض أيضاً كالروماتيزم، والملاريا، وتضخم الغدَّة الدرقية، وألم الأعصاب، وبعض أمراض العين وغيرها قالوا: ويجب أن يكون التداوي بوخز النحل حسب برنامج خاص وبإشراف الطبيب فمثلاً في اليوم الأول مرة واحدة وفي الثاني اثنتان، وحتى اليوم العاشر يستفاد من عشرة زنابير، وتلك هي الرحلة الأولى من العلاج، وأما في المراحل الثانية فيتخذ العلاج شكلاً آخر، وإذا تجاوز وخز النحل الحدَّ المعيَّن فمن الممكن طبعاً أن تتمخض عنه أخطار كما أن قليله مضر بالأشخاص الذين لديهم حساسية إتجاهه.

البحث الخامس

في قصة بناء الشمع والتلقيح وغيرهما

فيه أقسام:

١ ـ الشمع: وهذه المادة هي التي يشيَّد منها بيت النحل بشكل كامل والعجيب أنها لا تستثمر هذا الشمع لبناء البيت فقط بل قد تقوم (على ما قيل) بتحنيط أجساد الحشرات المؤذية التي لا تستطيع دفعها إلى الخارج كي تأمن شرها!، وينقل عن أحد خبراء النحل: إنه لفت انتباهه في أحد الأيام وجود كرة كبيرة نسبياً. داخل خلية نحل، وعندما فتحها وجد فيها جثة جرادة حنَّطها النحل.

٢ ـ وقال بعضهم عن الشمع: إنه روح العسل، والعسل روح الزهر وهو خفيف بحيث إن وزن خمسمائة بيت من مدينة النحل لا يتجاوز بضعة غرامات، ولا شك في صعوبة معرفتنا بكيفية ترشح هذا الشمع بالنسبة للنحل غير أننا نعرف جيداً أن للشمع استعمالاً هامّاً.

٣ ـ (عملية التلقيح) هي من أهم أعمال النحل، وكذا حمل الأزهار حتى قال بعض العلماء: (لولا وجود الحشرات لخلت سلالُنا من الفاكهة، لأن الحشرات التي تستفيد من الأزهار يمكن أن تلقحها أفضل من بقية العوامل فعندما تمدّ إحدىٰ الحشرات (التي تعشق الأزهار) خرطومها في الزهرة فهي إما أن تدخل أغلبه أو أن تدخل جزءاً من جسمها في الزهرة كما يحدث غالباً، وفي خروجها يتغطى جسمها بالغبار ذي اللون الأصفر وهو غبار الورد فتنقله مباشرة إلى زهرة أُخرىٰ (وكما نعلم) أن غبار الأزهار عامل مؤثّر فلا تتبدل البذور إلى الحبوب ولا المبيض إلى ثمار بدونه. ومن جهة ثانية قال بعض العلماء: وهذه النكتة جديرة بالإهتمام من الناحية الفلسفية إذ إنّ

الحشرات التي تعشق الأزهار تميل إليها منذ بدء التكوين... كل منها بموازاة الأخرىٰ. تنمو وتتكامل، وقد وصل الحال بها اليوم إلى عدم قدرتهما (يعني الحشرة والزهرة) على الحياة منفصلتين عن بعضهما... ومن أهمّ الحشرات التي تعشق الأزهار (ولا بد أنكم تعرفونها) هي: الفراشة، والنحل والزنبور الذهبي... ولكن النحل أكثر استعداداً وتجهيزاً من بين هذه الحشرات لإخراج الغبار والرحيق من الأزهار»[1].

٤ ـ قال العلماء: «إن النحل يساعدنا بكلفة لا تقل عن مائتي ألف درهم في الزراعة مقابل كل ألف درهم من العسل والشمع الذي يصنعه لنا» وقال آخر: «لو هلك النحل (سواء الوحشي منه أو الأليف) فسيفنى مائة ألف نوع من النباتات». والأزهار والثمار وما يدريك بأن لا تزول حضارتنا أصلاً»!![2].

٥ ـ إن تركيب النحل ذاته ذو قصة طويلة ومدهشة، وعيونها بالذات أكثر عجباً إذ يقول العلماء: تتألف عيون النحل من ألفين وخمسمائة طبقة صغيرة! تشكّل مع بعضها زواية من ٢ ـ ٣ درجات، وهذه العيون قادرة على تعيين الشمس فيما إذا حجبتها الغيوم عن طريق الأشعة فوق البنفسجية التي تؤثر فيها، وإن النحل (كما قيل) لا يرىٰ الأزهار الملوَّنة بشكلها ولونها الذي نراه بل إنه يرىٰ بواسطة الأشعة فوق البنفسجية، وهذا النور يضاعف في جمال الأزهار فيجذبها نحوها[3].

٦ ـ قال الإمام الصادق ﷺ في حديث توحيد المفضل:

---

(١) نظرة على الطبيعة وأسرارها.

(٢) الجامعة الأولى ج٥ ص٥٥.

(٣) سر خلق الإنسان ص٩٣.

«أنظر إلى النحل واحتشاده في صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدَّسة وما ترىٰ في ذلك من دقائق الفطنة فإنك إذا تأمَّلت العمل رأيته عجيباً لطيفاً، وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس، وإذا رجعت إلى الفاعل ألفيته غبياً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوىٰ ذلك ففي هذا أوضح الدلالة على أن الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها وسخَّره فيها لمصلحة الناس» وفي البحار علَّق على قوله: «ألفيته غبياً جاهلاً بنفسه» قائلاً: أي ليس له عقل يتصرف في سائر الأشياء على نحو تصرفه في ذلك الأمر المخصوص، فظهر أن خصوص هذا الأمر إلهام من مدبر حكيم أو خلقة وطبيعة جبله عليها في شأن مصلحته الخاصة مع كون هذا الحيوان غافلاً عن المصلحة أيضاً، ولعل هذا يؤيد ما يقال: إن الحيوانات العجم غير مدركة للكليات.

وقال الرازي يقال: وحىٰ وأوحىٰ وهو الإلهام والمراد من الإلهام: أنه تعالى قرَّر في نفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر وبيانه من وجوه:

الأول: إنها تبني البيوت المسدَّسة من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرَّد طباعها، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطرة والفرجار.

والثاني: إنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكَّلة بأشكال سوىٰ المسدَّسات فإنه يبقىٰ بالضرورة ما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة فاهتداء تلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفيَّة والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب.

والثالث: إن النحل يحصل بينها واحد كالرئيس للبقيَّة، وذلك الواحد يكون أعظم جثَّة من الباقي، ويكون نافذ الحكم على تلك البقيَّة وهم يخدمونه ويحملونه عند تعبه، وذلك أيضاً من الأعاجيب.

والرابع: إنها إذا ذهبت عن وكرها ذهبت من الجمعيَّة إلى موضع آخر فإذا أرادوا عودها إلى وكرها ضربوا الطبول وآلات الموسيقىٰ وبواسطة تلك الألحان يقدرون على ردِّها إلى وكرها، وهذه أيضاً حالة عجيبة، فلمَّا امتاز هذا الحيوان بهذه الخواصّ العجيبة الدالة على مزيد الذكاء والكياسة ليس إلا على سبيل الإلهام وهو حالة شبيهة بالوحي ثم قال: لا جرم قال تعالى في حقها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] واعلم أن الوحي قد ورد في حق الأنبياء ﷺ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] وفي الأولياء أيضاً قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] وبمعنى الإلهام في حق البشر: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] وفي حق سائر الحيوان خاصّ وقال الزجاج:

يجوز أن يقال: سمِّي هذا الحيوان نحلاً لأن الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج من بطونها وقيل: لا يبعد أن يكون لهذه الحيوانات عقول وأن يتوجَّه عليها من الله أمر ونهي.

وقال في عجائب المخلوقات يقال ليوم عيد الفطر: «يوم الرحمة» إذ أوحىٰ الله تعالى فيه إلى النحل صنعة العسل فبيَّن سبحانه أن في النحل أعظم اعتبار وهو حيوان فيهم ذو كيس وشجاعة ونظر في العواقب ومعرفة في فصول السنة وأوقات المطر وتدبير المراتع والمطاعم، والطاعة لكبيره والإستكانة لأميره وقائده وبديع الصنعة وعجيب الفطرة.

وقال أرسطو: النحل تسعة أصناف: منها ستة يأوي بعضها إلى بعض، وغذاؤها من الفضول الحلوة والرطوبات التي ترشّح بها الزهر والورق، ويجمع ذلك، ويدَّخره وهو العسل وأوعيته، ويجمع مع ذلك رطوبات دسمة يتَّخذ منها بيوت العسل وهي الشمع، وهو يلقطها

بخرطومه، ويحملها على فخذيه، وينقلها من فخذيه إلى صلبه هكذا. قال: والقرآن يدلُّ على أنها ترعىٰ الزهر فيستحيل في جوفها عسلاً وتلقيه من أفواهها فيجتمع منه القناطير المنطرة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩] وقوله: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: ٦٩] المراد به: بعضها نظيره قوله: ﴿...وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] يريد به البعض، واختلاف الألوان في العسل بحسب اختلاف النحل والمرعىٰ. وقد يختلف طعمه لاختلاف المرعىٰ، ومن هذا المعنى قول زينب للنبي ﷺ: «جرست نحلة العرفط» حين شبَّهت رائحته برائحة المغَافير، والحديث مشهور في الصحيحين وغيرهما.

ومن شأنه في تدبير معاشه أنه إذا أصاب موضعاً نقيّاً بنىٰ فيه بيتاً من الشمع أولاً ثم يبني البيوت التي يأوي فيها الملوك ثم بيوت الذكور التي لا تعمل فيها شيئاً، والذكور أصغر جرماً من الإناث، وهي تكثِّر المادة داخل الخلية وهي إذا طارت تخرج بأجمعها، وترتفع في الهواء ثم تعود إلى الخلية، والنحل تعمل الشمع أولاً ثم تلقي البزر لأنه له بمنزلة العش للطائر فإذا ألقته قعدت عليه وحضنته كما يحضن الطير فيتكوَّن من ذلك البزر دود أبيض ثم ينهض الدود وتغذِّي نفسها ثم تطير والنحل لا يقعد على أزهار مختلفة بل على زهر واحد، وتملأ بعض البيوت عسلاً وبعضها فراخاً، ومن عادتها أنها إذا رأت فساداً من ملك إما أن تعزله أو تقتله، وأكثر ما تقتل خارج الخليَّة، والملوك لا تخرج إلا مع جميع النحل، والملك إذا عجز عن الطيران حملته، ومن خصائص الملك أنه ليس له حمَّة يلسع بها، وأفضل ملوكها الشقر، وأسوأها الرقط بسواد، والنحل تجتمع فتقتسم الأعمال، فبعضها يعمل الشمع وبعضها يعمل العسل، وبعضها يسقي الماء وبعضها يبني البيوت وبيوتها من أعجب الأشياء لأنها بنيت على الشكل المسدَّس الذي لا

ينحرف كأنه استنبط بقياس هندسيٍّ ثم هو في دائرة مسدَّسة، لا يوجد فيها اختلاف فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة. . . .

وقال في الإحياء: أنظر إلى النحلة كيف أوحىٰ الله إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتاً، وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء والآخر شفاء ثم لو تأمَّلت عجائب أمرها (في تناولها الأزهار والأنوار واحترازها من النجاسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملتها وهو أكثرها شخصاً وهو أميرها، ثم ما سخَّر الله سبحانه وتعالى أميرها من العدل والإنصاف بينها حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة) لقضيت من ذلك العجب إن كنت بصيراً على نفسك وفارغاً من همٍّ بطنك وفرجك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك، ثم دع عنك جميع ذلك فانظر إلى بنيانها بيتها من الشمع واختيارها من جميع الأشكال المسدَّس فلا تبني بيتها مستديراً، ولا مربعاً، ولا مخمساً بل مسدَّساً لخاصيَّة في الشكل المسدَّس يقصر فهم المهندس عن درك ذلك. . . . وفي طبعه أنه يهرب بعضه عن بعض، ويقاتل بعضه بعضاً في الخلايا، ويلسع من دنا من الخلية، وربَّما هلك الملسوع، وإذا هلك منها شيء داخل الخلايا أخرجته الأحياء إلى الخارج، وفي طبعه أيضاً النظافة فلذلك يخرج رجيعه من الخليَّة لأنه منتن الريح وهو يعمل زماني الربيع والخريف والذي يعسله في الربيع أجود والصغير أعمل من الكبير وهو يشرب من الماء ما كان عذباً صافياً يطلبه حيث كان ولا يأكل من العسل إلاَّ قدر شبعه، وإذا قلَّ العسل في الخلية قذفه بالماء ليكثر خوفاً على نفسه من نفاذه، لأنه إذا نفذ أفسد النحل بيوت الملوك وبيوت الذكور، وربَّما قتلت ما كان منها هناك.

آياته في النمل

في تفسير علي بن إبراهيم: قال الصادق ﷺ: إن لله وادياً ينبت الذهب والفضة وقد حماه الله بأضعف خلقه وهو النمل لو رامته البخاتي ما قدرت عليه وفي حياة الحيوان: النمل معروف الواحدة نملة والجمع نمال وأرض نملة ذات نمل، وطعام منمول، أصابه النمل[1]، والنملة بالضمّ: النميمة، يقال: رجل نمل أي نمّام، وما أحسن قول الأوّل:

اقنع فما تبقى[2] بلا بلغة فليس ينسى ربّنا النمله
إن أقبل الدهر فقم قائماً وإن تولّى مدبراً فنم له[3]

وسمّيت نملة لتنمّلها وهو كثرة حركتها وقلّة قوائمها، والنمل لا يتزاوج ولا يتلاقح إنّما يسقط منه شيء حقير في الأرض فينمو حتّى يصير بيضاً، ثمّ يتكوّن منه والبيض كلّه بالضّاد إلاّ بيض النمل فانّه بالظاء المشالة، والنمل عظيم الحيلة في طلب الرزق، فإذا وجد شيئاً أنذر الباقين يأتون إليه[4]، وقيل: إنّما يفعل ذلك منها رؤساؤها.

ومن طبعه أنّه يحتكر[5] في زمن الصيف لزمن الشتاء، وله في

(١) الصحيح: إذا أصابه النمل.
(٢) الصحيح: بما تلقى.
(٣) الصحيح: نم له.
(٤) الصحيح: ليأتوا إليه ويقال.
(٥) الصحيح: يحتكر قوّته من زمن.

الاحتكار من الحيل ما أنّه إذا احتكر ما يخلف إنباته قسّمه نصفين ما خلا الكسفرة فإنّه يقسّمها أرباعاً لما ألهم أنّ كلّ نصف منها ينبت، وإذا خاف العفن على الحبّ أخرجه إلى ظاهر الأرض ونشره، وأكثر ما يفعل ذلك ليلاً في ضوء القمر، ويقال: إنّ حياته ليست من قبل ما يأكله ولا قوامه، وذلك أنّه[1] ليس له جوف ينفذ فيه الطعام، ولكنّه مقطوع نصفين، وإنّما قوته إذا قطع الحبّ في استنشاق ريحه فقط وذلك يكفيه وقد روي عن سفيان بن عيينة أنّه قال: ليس شيء يخبأ قوّته[2] إلاّ الإنسان والعقعق والنمل والفأر، وبه جزم في الاحياء في باب التوكّل، وعن بعضهم أنّ البلبل يحتكر[3] ويقال: إنّ للعقعق مخابيء إلاّ أنّه ينساها، والنمل شديد الشمّ، ومن أسباب هلاكه نبات أجنحته فإذا صار النّمل كذلك أخصبت العصافير لأنّها تصيدها في حال طيرانها وقد أشار إلى ذلك أبو العتاهية بقوله:

وإذا استوت للنمل أجنحة حتّى تطير فقد دنا عطبه

وكان الرشيد يتمثل بذلك كثيراً عند نكبة البرامكة.

وهو يحفر قرية بقوائمه وهي ستّ فإذا حفرها جعل فيها تعاويج لئلا يجري إليها ماء المطر، وربّما اتّخذ قرية فوق قرية بسبب ذلك، وإنّما يفعل ذلك خوفاً على ما يدّخره من البلبل.

قال البيهقيُّ في الشعب: وكان عديّ بن حاتم الطائيّ يفتّ الخبز للنمل ويقول إنّهن جارات ولهنّ علينا حقّ الجوار.

وسيأتي في الوحش عن الفتح بن خرشف الزاهد أنّه كان يفتّ الخبز لهنّ في كلّ يوم فإذا كان يوم عاشوراء لم تأكله.

---

(١) الصحيح: وذلك لأنّه.
(٢) الصحيح: ليس شيء يحتال لقوّته.
(٣) الصحيح: يحتكر الطعام.

وليس في الحيوان ما يحمل ضعف بدنه مراراً غيره، على أنه لا يرضى بأضعاف الأضعاف حتّى أنّه يتكلّف حمل[1] نوى التمر وهو لا ينتفع به، وإنّما يحمله على حمله الحرص والشره وهو يجمع غذاء سنين لو عاش ولا يكون عمره أكثر من سنة، ومن عجائبه اتّخاذ القرية تحت الأرض وفيها منازل ودهاليز وغرف وطبقات معلّقات يملأها حبوباً وذخائر للشتاء.

ومنها ما يسمّى الفارسيّ[2] وهو من النمل بمنزلة الزنابير من النحل، ومنها ما يسمّى نمل الأسد، سمّي بذلك لأنّ مقدّمه يشبه وجه الأسد ومؤخّره يشبه النّمل، وروى البخاريّ ومسلم وأبو داود والنسائيّ وابن ماجة عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: نزل نبيّ من الأنبياء ﷺ تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج من تحتها وأمر بها فاحرقت بالنار، فأوحى الله تعالى إليه: فهلاّ نملة واحدة؟! قال أبو عبد الله الترمذي في نوادر الأصول: لم يعاتبه[3] على تحريقها، وإنّما عاتبه لكونه أخذ البريء بغير البريء، وهذا النبي[4] هو موسى بن عمران ﷺ وإنّه قال: يا ربّ تعذّب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع؟ وكأنّه أحبّ أن يريه ذلك من عنده، فسلّط عليه الحرّ حتى التجأ إلى شجرة مستروحاً إلى ظلّها وعنده قرية نمل فغلبه النّوم فلمّا وجد لذّة النوم لدغته نملة فدلكهنّ بقدمه فأهلكهنّ وأحرق مسكنهنّ فأراه تعالى الآية في ذلك عبرة لما لدغته نملة، كيف اصيب الباقون بعقوبتها، يريد أن ينبّهه على أنّ العقوبة من الله تعالى تعمّ الطائع والعاصي فتصير رحمة وطهارة وبركة على المطيع، وشرّاً ونقمة

(١) الصحيح: لحمل نوى.
(٢) الصحيح: الذر الفارسي.
(٣) الصحيح: لم يعاتبه الله.
(٤) الصحيح: قال القرطبي: هذا النبي.

وعدواناً[1] على لعاصي، وعلى هذا ليس في الحديث ما يدلّ على كراهة ولا حظر في قتل النمل، فانّ من آذاك حلّ لك دفعه عن نفسك ولا أحد من خلق الله تعالى أعظم حرمة من المؤمن وقد ابيح لك دفعه عن نفسك بضرب أو قتل على ماله من المقدار فكيف بالهوامّ والدوّاب التي قد سخّرت للمؤمن وسلط عليها[2] فإذا آذته ابيح له قتلها.

وقوله: «فهلاّ نملة واحدة» دليل على أنّ الذي يؤذي يقتل وكلّ قتل كان لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء، ولم يخصّ تلك النملة التي لدغت من غيرها لأنه ليس المراد القصاص لأنّه لو أراد لقال: فهلاّ نملتك الّتي لدغتك، ولكن قال: «فهلاّ نملة» فكأن نملة تعمّ البريء والجاني وذلك ليعلم أنه أراد أن ينبّهه لمسألة ربه في عذاب أهل قرية فيهم المطيع والعاصي.

وقد قيل: إنّ في شرع هذا النبيّ عليه الصلاة والسلام كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة، فلذلك إنما عاتبه الله تعالى في إحراق الكثير لا في أصل الإحراق، ألا ترى قوله: «فهلاّ نملة واحدة»؟ وهو بخلاف شرعنا فإنّ النبيﷺ قد نهى عن تعذيب الحيوان بالنار وقال: «لا يعذّب بالنار إلاّ الله تعالى» فلا يجوز إحراق الحيوان بالنّار إلاّ إذا أحرق إنساناً فمات بالاحراق فلوارثه الاقتصاص بالاحراق للجاني.

وأمّا قتل النّملة فمذهبنا لا يجوز لحديث ابن عبّاس أنّ النبيّﷺ نهى عن قتل أربع من الدوابّ: النّملة والنّحلة والهدهد والصّرد. رواه أبو داود باسناد صحيح على شرط الشيخين، والمراد النّمل الكبير السليمانيّ كما قاله الخطابيّ والبغويّ في شرح السنّة، أمّا النمل الصّغير المسمّى بالذّر فقتله جائز، وكره مالك قتل النّمل إلاّ أن يضرّ ولا يقدر

---

(١) الصحيح: وسوءاً ونقمة وعذاباً على العاصي.
(٢) الصحيح: وسلّط عليها وسلّطت عليه.

على دفعه إلاّ بالقتل، وأطلق ابن أبي زيد جواز قتل النّمل إذا آذت، وقيل: إنّما عاتب الله تعالى هذا النبيّ لانتقامه لنفسه باهلاك جمع آذاه واحد منهم، وكان الأولى به الصّفح والصبر، ولكن وقع للنبيّ ﷺ أنّ هذا النّوع مؤذ لبني آدم، وحرمة بني آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان، فلو انفرد له هذا النظر ولم ينضمّ إليه التشفّي الطبيعي لم يعاتب، فعوتب على التشفّي بذلك والله أعلم.

وروى الطبرانيّ في معجمه الأوسط والدّارقطنيّ[1] أنّه قال: لمّا كلّم الله موسى ﷺ كان يبصر دبيب النّمل على الصفا في الليلة الظلماء من مسيرة عشرة فراسخ.

وروى الترمذيّ الحكيم في نوادره عن معقل بن يسار قال: قال أبو بكر وشهد به على رسول الله ﷺ قال: ذكر رسول الله ﷺ الشرك فقال: هو أخفى فيكم من دبيب النمل وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب الله عنك صغار الشّرك وكباره، تقول: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم»[2] تقولها ثلاث مرّات.

وروى أيضاً عن أبي أمامة الباهليّ قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ثمّ قال: إنّ الله تعالى وملائكته وأهل الأرض حتّى النّملة في جحرها وحتّى الحوت في البحر ليصلّون على معلّمي الناس الخير.

قال الترمذيّ: حديث حسن صحيح.

---

(١) الصحيح: روى الدارقطني والطبراني في معجمه الأوسط عن أبي هريرة.
(٢) الصحيح: لم تعلم ولا أعلم.

وسمعت أبا عثمان الحسين بن حريث الخزاعيّ يقول: سمعت الفضيل بن عياض يقول: عالم معلّم[1] يدعى كبيراً في ملكوت السماوات.

وروي أنّ النّملة التي خاطبت سليمان ﷺ أهدت إليه نبقة فوضعها عليه الصّلاة والسّلام في كفّه فقالت:

ألم ترنا نهدي إلى اللّه ما له	وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله
ولو كان يهدى للجليل بقدره	لقصّر عنه البحر حين يساحله
ولكنّنا نهدي إلى من نحبّه	فيرضى به عنّا ويشكر فاعله
وما ذاك إلاّ من كريم فعاله	وإلاّ فما في ملكنا ما يشاكله

فقال سليمان ﷺ: بارك الله فيكم، فهو بتلك الدعوة أكثر خلق الله تعالى[2].

وروي أنّ رجلاً استوقف المأمون ليستمع منه فلم يقف له، فقال: يا أمير المؤمنين إنّ الله تعالى استوقف سليمان بن داود ﷺ لنملة ليستمع منها وما أنا عند الله تعالى بأحقر من نملة، وما أنت عند الله بأعظم من سليمان ﷺ فقال المأمون: صدقت ووقف وسمع كلامه وقضى حاجته.

وقال فخر الدّين الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ [النمل: ١٨] الآية، وادي النمل بالشام كثير النّمل فإن قيل: لم أتى بعلى قلت: لوجهين.

أحدهما أنّ إتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء.

---

(١) الصحيح: عالم عامل معلم.
(٢) الصحيح: أشكر خلق الله توكلاً على الله تعالى.

الثاني أنّه يراد به قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم: أتى على الشيء إذا بلغ آخره، تكلّمت النملة بذلك، وهذا غير مستبعد فإنّ حصول العلم والنّطق لها ممكن في نفسه، والله تعالى قادر على الممكنات، وحكي عن قتادة أنّه دخل الكوفة فاجتمع عليه الناس فقال: سلوا عمّا شئتم، وكان أبو حنيفة حاضراً وهو يومئذ غلام حدث فقال: سلوه عن نملة سليمان عليه الصّلاة والسّلام أكانت ذكراً أم انثى؟ فأفحم[1] فقال أبو حنيفة: كانت انثى، فقيل له: كيف عرفت ذلك؟ قال: من قوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [النمل: ١٨] ولو كانت ذكراً لقال: «قال نملة» لأنّ النمل مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والأنثى.

ورأيت في بعض الكتب المعتمدة أنّ تلك النملة إنّما أمر رعيّتها بالدخول في مساكنهم لئلاّ ترى النعم فتقع[2] في كفران نعم الله تعالى عليها، وفي هذا تنبيه على أنّ مجالسة أرباب الدنيا مخطورة.

وروي أنّ سليمان قال لها: لم قلت للنمل: ادخلوا مساكنكم؟ أخفت عليها منّي ظلماً؟ قالت: لا ولكنّي خشيت أن يفتنوا بما يروا من جمالك وزينتك فيشغلهم ذلك عن طاعة الله تعالى.

قال الثعلبيّ وغيره: إنّها كانت مثل الذئب في العظم وكانت عرجاء ذات جناحين وذكر عن مقاتل أنّ سليمان ﷺ سمع كلامها من ثلاثة أميال، وقال بعض أهل العلم[3] إنّها تكلّمت لعشرة أنواع من البديع: قولها: ﴿...يَٰٓأَيُّهَا﴾ (يا) نادت (أيها) نبّهت ﴿ٱلنَّمْلُ﴾ سمّيت ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ أمرت ﴿مَسَٰكِنَكُمْ﴾ نعتت ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ حذّرت ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾

---

(١) الصحيح: فسألوه فأفحم.

(٢) الصحيح: في مساكنها لئلا ترى النعم التي أوتيها سليمان وجنوده فتقع.

(٣) الصحيح: وقال بعض أهل التذكير.

خصّت ﴿وَجُنُودُهُ﴾ عمّت ﴿وَهُمْ﴾ أشارت ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ اعتذرت [النمل: ١٨].

والمشهور أنّه النّمل الصغار، واختلف في اسمها فقيل: كان اسمها طاغية[١]، وقيل: كان اسمها خرمى، قيل: كان نمل الوادي، كالذئاب قيل: كالبخاتي.

وفي الحديث عن داود بن كثير الرقي قال: بينما نحن قعود عند أبي عبد الله عليه السلام إذ مرّ بنا رجل بيده خطّاف مذبوح، فوثب إليه أبو عبد الله عليه السلام حتى أخذه من يده ثمّ دحا به الأرض ثمّ قال: أعالمكم أمركم بهذا[٢] أم فقيهكم؟ لقد أخبرني أبي عن جدّي عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نهى عن قتل ستّة النّحلة والنّملة والضّفدع والصّرد والهدهد والخطّاف، فأمّا النّحلة فإنّها تأكل طيّباً وتضع طيّباً وهي التي أوحى الله عزّ وجلّ إليها ليست من الجنّ ولا من الانس[٣]، وأمّا النّملة فانّهم قحطوا على عهد سليمان بن داود عليه السلام فخرجوا يستسقون فإذا هم بنملة قائمة على رجليها مادّة يدها إلى السّماء وهي تقول: «اللّهمّ إنا خلق من خلقك لا غنى بنا عن فضلك فارزقنا من عندك ولا تؤاخذنا بذنوب سفهاء ولد آدم» فقال لهم سليمان: إرجعوا إلى منازلكم فانّ الله تبارك وتعالى قد سقاكم بدعاء غيركم، وأمّا الضّفدع فإنّه لمّا أُضرمت النّار على إبراهيم عليه السلام شكت هوامُّ الأرض إلى الله عزّ وجلّ واستأذنته أن تصبّ عليها الماء، فلم يأذن الله عزّ وجلّ لشيء منها إلاّ للضّفدع فاحترق منه الثلثان وبقي منه الثلث، وأما الهدهد فانّه كان دليل سليمان عليه السلام إلى ملك بلقيس، وأمّا الصّرد فإنه كان دليل آدم عليه السلام

---

(١) الصحيح: طاخية.

(٢) أي أمركم بقتله.

(٣) أي ليست من الجن الذي أوحى إليه ولا من الإنس، وحاصله أنّه يوجد من أوحى إليه من غيرهما وهو النحل.

آياته في النبات

وفيه أبحاث:

البحث الأول

في تعريفه وما يتعلق به

النبات: وهو كل ما يخرج من الأرض من الأجسام الناميات وهو يعني في الأصل كل نوع من الزرع الذي ينبت في الأرض سواء كان له ساق كالشجر وهو كالنخيل وغيرها أو بدون ساق كالذي يسمّيه العرب بـ «النجم» وهو كالحشائش والتوابل وغيرها، ويطلق (النبات) أيضاً على كل موجود نام سواء كان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً، فقد قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧﴾ [نوح: ١٧] نبَّه بذلك أن الإنسان هو من وَجْه نبات من حيث إن مبدأه ومنشأه من التراب وأنه ينمو من التراب كالنبات ثم يرجع في آخر الأمر إلى التراب، وأنبت الغلام: أي بلغ ونبتت عانته.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٦] وفي «مقاييس اللغة (على ما ينقل) أن «الشجر» له عينان في الأصل: هما الإرتفاع والعلو، وتداخل أجزاء الشيء مع بعضها، وحيث إن الأشجار ترتفع عن الأرض وكذلك فإن أغصانها تتداخل فيما بينها لذلك أطلق عليها «شجر» و «مشاجرة» تعني النزاع والإختلاف والمحادثة لأن حديث الجانبين يتداخل مع بعضه.

وبعضهم عرَّف الشجر: بالشيء الذي ينمو ويرتفع وتتفرع منه أوراق وأغصان، وقد يطلق هذا اللفظ «شجر» على الأمور المعنوية أيضاً كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقد فسّرت بمعنى «شجرة الزّقوم» أو «اليهود» أو «بني أمية».

وكما يفهم من كتب اللغة المختلفة فإن «الزرع» تعني في الأصل: نثر البذور والحبوب في الأرض وهنا حيث سيتبع نثر الحبوب والبذور: نموّ النبات وحصاده، فيطلق على كل واحد من هذه العمليات «زرعاً» وقال بعض اللغويين: إن الزرع تعني الإنماء، وهذا في الحقيقة هو فعل الله تعالى، وإذا أطلق لفظ (الزارع) على العباد فهو بسبب توفيرهم لأسباب ومقدمات ذلك، وغالباً ما يطلق لفظ «زرع» على الحنطة والشعير إلا أن مفهومه أكثر شمولاً حيث يشملهما وغيرهما[١].

وفي النفحات: إن النباتات هي أكثر الكائنات الحيَّة الموجودة على الأرض وتحتلّ المرتبة الأولىٰ من حيث التنوّع والكثرة والعجائب والزينة وكذلك من حيث الآثار المفيدة والثمينة أيضاً لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية مراراً على مسألة خلق النباتات ومزاياها المختلفة ودعا الإنسان إلى التفحُّص في أسرار هذه الموجودات الرائعة في عالم الخلق، الموجودات التي يمكن أن تقدّم ورقةٌ واحدةٌ منها كتاباً عن معرفة الله تعالى.

البحث الثاني
في أسرار النبات

وفيه فروع:

١ ـ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾

(١) صحاح اللغة وغيرها.

[الشعراء: ٧] قال الكثير من المفسرين: المقصود (بالزوج) هنا: النوع والصنف واعتبروه إشارة إلى تنوع، وتشعب النباتات حيث إن عددها غير محدود، ولا يمكن حصره، وأي واحد منها يعتبر (آية) من آيات الباري عز وجل.

وبعض احتملها إشارة إلى «الزوجية» (أي الذكر والأنثى) الموجودة في عالم النباتات، وهذه الحقيقة اكتشفت لأول مرة على نطاق واسع على يد عالم النبات السُّويدي المعروف «لينه» أواسط القرن الثامن عشر الميلادي حيث إن النباتات (على الأغلب) تحمل وتثمر كالحيوانات عن طريق اختلاط الذكر والأنثى، في الوقت الذي وردت هذه الحقيقة في القرآن الكريم قبل قرون عديدة.

ومن هنا حيث لا تعارض بين هذين المعنيين فيمكن أن تكون إشارة إليهما معاً.

وإن وصف الزوج بـ «كريم» علماً بأن لفظ (كريم) يعني الموجود الثمين فهو إشارة إلى أهمية أنواع النباتات وقيمتها الفائقة.

٢ ـ ومن الأسرار التي كشف عنها القرآن الكريم هو ما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩] فقد دلَّت هذه الآية الكريمة على أن كل شيء ينبت في هذه الأرض له وزن خاص، وقد ثبت أخيراً أن كل نوع من أنواع النبات مركب من أجزاء خاصة على وزن مخصوص بحيث لو زيد في بعض أجزائه أو نقص لكان ذلك مركباً آخر، وإن نسبة بعض الأجزاء إلى البعض من الدِّقَّة لا يمكن ضبطها بأدقّ الموازين المعروفة للبشر.

وقالوا: إن «مَوْزُون» من مادة «وَزَنَ» إلا أنها هنا إشارة إلى النظام الدقيق والمحدَّد والتقديرات المتلائمة والمتناسقة التي تحكم

جميع ذرّات النبات وإن «وَزَنَ» في الأصل تعني معرفة قدر الشيء وقال بعض: إن المراد من هذا التعبير: هو إن الله خلق من كل نبات بقدر حاجة الإنسان.

كما إنهم قالوا: إن المراد من «مَوْزُون» هو وجوب تظافر كميّات محددَّة من الماء والهواء والتراب وضوء الشمس كي تنمو النباتات.

٣ ـ ومن الأسرار التي كشف عنها القرآن الكريم ما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦].

فهذه الآية تبين (بوضوح أكثر) شمولية عنصر الزوجية للنباتات والبشر والأشياء الخارجة عن حدود العلم البشري، ونظراً لأن كثيراً من المفسرين لم يجدوا هنا مفهوماً للزوجية بالمعنى الحقيقي (أي عنصرين الذكر والأنثىٰ) فقد عمدوا إلى تفسيرها بالأصناف المختلفة للموجودات في العالم التي تبدو على شكل زوج زوج مثل النهار والليل، النور والظلمة، البر والبحر، الشمس والقمر، الحرب والسلم وغيرها.

إلا أننا عثرنا على تفسير أدق لهذه الآية في وقتنا الحاضر، ذلك أن التحقيقات العلمية أثبتت هذه الحقيقة بوضوح وهي: إن جميع الموجودات لعالم المادة تتشكّل من أجزاء صغيرة جداً تدعىٰ (بالذرة) وهذه الأجزاء التي عُرفت قديماً بالموجود الذي لا تنفصم عُراه (أجزاء لا تتجزّأ) وسمي بـ (الذرَّة) لهذا السبب قد تحطم على أثر تطوُّر القدرة العلمية والفكرية للإنسان(يعني المعنى الأول) ومن هذا المنطلق نشأت القوّة الذريَّة والصناعات المتعلقة بها.

وعندما حلَّلوا الذرَّة وجدوا أنها مركبة من أجزاء متكوِّنة غالباً من الكترونات (وهي الجزئيات التي تغلف النواة وتحمل شحنة سالبة) وبروتونات (وهي الجزئيات التي تحمل شحنة موجبة).

وعلى هذا الأساس تُحصِّل من ذلك معنى أدق للزوجية في كل ذرّات عالم الوجود وهو توفُّر عنصري (الذكر) و(الأنثى) (الموجب) و(السالب) و(الفاعل) و(القابل).

وبدون أي استثناء أيضاً في حين أن التفسير الذي قال به العلماء الأوائل بالرغم من عدم انسجامه الكامل مع مفهوم الزوجية، فيه استثناءات كثيرة أيضاً.

وعلى أي حال، توجد هناك جاذبية قوّية بين الزوجين الحقيقيين وكذلك بين جسمين بشحنتين كهربائيتين مختلفين سالبة وموجبة، وهي كثيراً ما تشابه الجاذبية الجنسية في حين لا يوجد أي نوع من أنواع الجاذبية بين الليل والنهار، النور والظلمة، البر والبحر، وما شابه ذلك.

ومن الجدير بالذكر ما صرح به بعض المفسرين القدامى من خلال ما استلهموه من الآيات السالفة، بأن المقصود من الزوجين في هذه الآيات هو عنصرا الذكر والأنثى نفسهما وإن لم يوضّحوا هذا المطلب بصورة كاملة[1].

وقال أحد العلماء من السويد «وهو أحد المتخصصين بعلم النبات»: ومن الظريف أن النباتات مختلفة من هذه الجهة ففي كثير منها يجتمع الذكر والأنثى فيها في أصل واحد وفي البعض الآخر تنفصل أشجار الذكر عن أشجار الأنثى، خذوا وردة من الورود ثم افصلوا أوراقها عنها وتأمّلوا بدقّة في داخلها تجدون عالماً مليئاً بالعجائب والأسرار وفي الواقع ينعقد هناك محفل كبير بيد أنه لا صخب فيه. ويخلو من أي لون من ألوان العنف والإعتداء. إن المياسم الظريفة واللطيفة التي تحمل معها أكياس حبوب اللقاح تحيط

(١) نفحات القرآن.

بما حولها ثم تتحرّك مع هبوب الرياح لتنثر تلك الحبوب على المدقّة. إن الحبّات المذكر التي تمثّل كل واحدة منها خلية صغيرة جداً تتجذّر بسرعة وبعد العبور من على عنق المدقّة تمتزج مع نطفة الأنثىٰ في المبيض في أصل الورد لتشكّل بدورها بذرة الورد أو الفاكهة.

وقال في الميزان: «إنشاء لتنزيهه تعالى، لما ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من أنواع النبات ورزقهم من الحبوب والأثمار، وإنما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضاً كما قال: ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧] أشار إلى ما هو أعظم وأوسع من خلق أزواج النبات وهو خلق الأزواج كلها، وتنظيم العالم المشهود باستيلاد كل شيء من فاعل ومنفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمراً ثالثاً....» وهذا التعبير في الآية يدل على أن «الزوجية» هنا تعني جنس الذكر والأنثى ووجودها على نطاق واسع في عالم النباتات، وهذا من المعاجز العلمية للقرآن الكريم لأن هذا المعنى لم يكن آنذاك واضحاً لدى الإنسان بأن هناك وجود لقوام الذكر، والأجزاء الأنثوية، في عالم النباتات، وتنطلق الخلايا التي هي نُطفُ الذكور لتستقرّ في الأجزاء الأنثوية وتتلاقح معها، وتنعقد نُطفة النبات. وقوله: «ومن أنفسهم» يعني الناس «ومما لا يعلمون» وهو الذي يجهله الإنسان من الخليقة أو يجهل كيفية ظهوره أو ظهور الكثرة فيه (الميزان) ويمكن أن تكون عبارة «مما لا يعلمون» إشارة إلى أن مسألة الزوجية لها نطاق واسع، وما أكثر الموجودات التي تجهلون وجود الزوجية فيها، وسيزيل تطوُّر العلم النقاب عنها (كما ثبتت هذه المسألة في الذرات وأنها قائمة على نظام الزوجية حيث إن الذَّرَّة تتركب من قسمين مختلفين يكمّل أحدهما الآخر كالزوجين فـ «الإلكترونات» تحمل الشحنات السالبة و«البروتونات» تحمل الشحنات الموجبة)، والكثير من المواضيع الأخرىٰ لم يتوصل إليها العلم البشري حتى الآن.

٤ ـ ومن الأسرار الموجودة في النبات: إعطاء الحس والشعور اللازمين للموجودات: لقد أعطى الله تعالى لكل شيء من الكائنات ما تستلزمه في حياته حتى المقدار الضروري من الحس والشعور والوسائل والأسباب التي يفترض وجودها لتحقق الشعور والحس والإدراك فمثلاً نرى الحس والشعور موجودين في النباتات فهي عندما تنمو نراها تتنحّى عن الأجسام الصلبة التي تعترض حركتها بحيث تُبقي على نفسها من حالة استمرار تعرضها لأشعة الشمس باعتباره أحد العناصر اللازمة في تأمين الغذاء والنمو ومواصلة الحياة لأن الجزء الذي لا يتعرض إلى أشعة الشمس بصورة مباشرة أو غير مباشرة سيؤول إلى التلف والفساد وهذا المقدار المحدود من الحس والإدراك لازم ضروري في حياة النبات.

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥] و«فالق» من مادة «فلق» فهي تعني انفطار الشيء. وانفصال جزء عن جزء آخر و«الحبّ» تعني حبوب الطعام، والغذاء أو تعني كل أشكال الحبوب النباتية و«النَّوىٰ» تعني نوىٰ الثمار. وإذا حصرها البعض بمعنى نوىٰ التمر فذلك بسبب تكاثره في ذلك المحيط[1].

وعلى كل حال، فإن أهم وألطف مراحل حياة النباتات هي مرحلة تفتُّح الحبِّ والنَّوىٰ، وفي الحقيقة فإن هذه الحالة تشبه حالة ولادة الطفل (كما قيل) والعجيب أن هذا البرعم النباتي بما فيه من رقّةٍ وظرافة يشق هذا الجدار القوي الذي يحيط به، ويخرج إلى العالم الخارجي، فيولد هذا الكائن الحي الذي كان محبوساً إلى ما قبل لحظات في القشرة والنَّوىٰ، ولم تكن له علاقة بالعالم الخارجي، ويقيم علاقاته مع الخارج فوراً فيتغذىٰ من المواد الغذائية الموجودة في

(١) الراغب.

الأرض، ويرتوي من الماء والرطوبة التي تحيط به، ويبدأ بالحركة بسرعة في اتجاهَيْن متعاكسَيْن فمن جهة ينفذ في الأرض على هيئة جُذرٍ ومن جهة أخرىٰ يستقيم فوق الأرض على هيئة ساق ولذا قيل: إنَّ القوانين الدقيقة التي تسود هذه المرحلة من حياة النبات مدهشة حقاً، وتعتبر دليلاً حياً على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا.

وبعد ذلك أقول: انظر يا أخي إلى هذا التنسيق الدقيق في نظام هذا الكون الباهر، واعلم أن جميع ما في هذا الكون يشهد على وجود الله جلَّ وعلا ويدلُّ على قدرته وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى، وعندما يقوم العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون، ودراستها، حتى باستخدام الطريقة الإستدلالية، فإنهم لا يجدون أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته، ذلك هو الله الذي لا يستطيع أحد أن يصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرىٰ آياته في أنفسنا، وفي كل ذرَّة من ذرَّات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته.

(الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله).

٥ ـ ومن الأسرار التي كشف عنها القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمٰن: ٦].

والمراد (بالنجم) هو كل ما ينجم أي يخرج من الأرض ويفترشها ناشراً عليها أوراقه وأغصانه وثماره من النبات كالقرع واليقطين والخيار والبطيخ وغير ذلك وهو ما يسمى بالنبات الزاحف أي الذي يزحف على الأرض.

والشجر: هو نوع آخر من النبات يقوم على الأرض أي يثبت عليها قائماً بواسطة سيقانه كما في اشجار التفاح والبرتقال والنخيل وغير ذلك ولذلك قالت العرب للنبات الزاحف: نجم، وقالت للنوع الآخر: أشجار أو شجر، قال في جنة الخلد: ولو التفتنا إلى مقدار

فصاحة وبلاغة هذه الآيات لأدركنا السر في الترتيب إذ إن الآية تدعونا فيما سبق إلى رفع رؤوسنا نحو السماء لنرقب الشمس والقمر ونظام حركتهما لندرك من خلال ذلك عظمة الباري تعالى (يقصد بذلك قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ [الرحمن: ٥].

ثم تدعونا الآية اللاحقة (يريد: «والنجم والشجر يسجدان») إلى أن نطأطىء رؤوسنا نحو الأرض لننظر النبات الذي افترش الأرض أو ما قام عليها وهما يسجدان لله سبحانه وتعالى.

كل شيء يسجد لله تكويناً:

السجود لغة معناه: الإنقياد وقد جاء السجود هنا بمعنى السجود التكويني والسجود التكويني للنبات إنما هو في حدود ما حدده الله تعالى لها فهي لا تتعدى ما رسم لها فالحب والنوىٰ ينفلق في حدود ما أراده الله لها فحبة القمح لا تنفلق نبتة شعير وشجرة البرتقال لا تثمر تفاحاً وهكذا الحال في سائر النبات والأشجار لأنها لا تباشر أفعالها إلا وفقاً للخصوصيات التي أودعت فيها تكويناً، لذلك كانت منقادة في شؤونها التكوينية كسائر الموجودات وعلى هذا الأساس فهي تسجد انقياداً لأمر الله وإرادته وفقاً لما هو مطلوب منها.

والشيء المهم في موضوع الإنقياد هو السجود الإختياري في الإنسان رغم أنه يسجد سجوداً تكوينياً أيضاً كسائر المخلوقات بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [الرعد: ١٥].

فالإنسان منقاد لأمر الله تعالى منذ كان نطفة وينقاد أيضاً عندما يخرج إلى الدنيا ذكراً كان أو أنثى سليماً كان أو سقيماً، وحتى يدركه الضعف والعجز والشيخوخة ثم يصير إلى الموت.

فهو في جميع تلك الأحوال منقاد لله يسجد له ولا سبيل له إلا

التسليم لمشيئة الله (جل وعلا) ويبقى الشرف والكرامة للإنسان عندما يسجد بمحض إرادته، واختياره.

كيفية سجود المخلوقات غير الإنسان،

السجود: هو أعلى درجات الإنقياد والتذلل وتعد وضع الجباه على التراب صورة من صور السجود، ولكن هذا لا يعني بالضرورة انحصار عملية السجود بوضع الجبهة على التراب بل مفهوم السجود هو أوسع من ذلك فالأرض والشمس مثلاً هما في سجود مستمر بالنسبة لحركتهما المستمرة وانقيادهما التام للخالق وينقطع هذا الإنقياد إذا توقفتا عن الحركة عصياناً لا سمح الله بل إن جميع الأشياء تبذل طاعتها للأمر الإلهي التكويني مع العلم به أو بدون العلم به.

فالأشجار والنباتات بافتراشها الأرض أو قيامها عليها نجدها في سجود، انقياد وطاعة للأمر الإلهي التكويني وفقاً لما عيَّنه الله سبحانه من حيث نوع الأوراق وأشكالها ونوع الثمار وأشكالها مثلاً فلا يمكن أن يكون ثمر النخلة تفاحاً ولا يسمع في التاريخ وقوع صدفة من هذا القبيل وكذا تغيير الورق ويدل على كل ما تقدم قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

وقد تبين مما تقدم أن كل شيء في هذا الكون هو خاضع لله ومنقاد إليه (عز وجل) ما خلا الإنسان جهلاً وغروراً منه.

ثم هناك وجهان آخران لسجود النبات:

الأول: وهو ما ذكره الفخر الرازي من أن سجدة النبات والشجر شبيهة بسجدة الإنسان فكما أن الإنسان يضع رأسه في التراب تعبيراً عن تعظيمه لله (تعالى) فإن النباتات هي الأخرىٰ تضع في الواقع رأسها

وأساسها في التراب فتولجه في الأرض، وواقع الأمر أن الجزء العلوي من النباتات لا يعدُّ رأساً لها وقد أخطأ من ظن ذلك لأن أساس النبات الذي يتغذَّى بواسطته ومن خلاله يحل له النمو والنضج هو الجذر والذي هو بمنزلة الرأس لدى الإنسان فكما أن الإنسان يتغذى عن طريق الفم ثم ينتقل منه إلى بطنه ليتوزع على سائر البدن فهكذا الأمر لدى الزرع والنباتات فهي تتغذَّى عن طريق الجذور ومنزلة الجذر من النبات كمنزلة الرأس من الإنسان لذلك صح أن النباتات جميعاً هي في حال سجود تكويني دائم.

والوجه الثاني: هو أن معنى سجود الزرع هو في واقعة شهادة على عظمة الصانع (تعالى).

كل نبت يفلق الأرض يردد لا إله إلا الله بذا أشهد وقد ذهب إلى هذا الوجه عدد غفير من المفسرين وأحدهم الشيخ الطبرسي (رض) وإنها لجديرة حقاً بالمشاهدة والملاحظة تلك القدرة المودعة في هذا الكائن الحي (الزرع)، فمن خواص الماء أنه ينحدر من أعلى إلى أسفل ويتطلب رفع الماء إلى الأعالي وجود واسطة تؤمّن صعوده، فلو صببنا الماء على أصول النبات نجد أن لدى النبات قوة تجعل الماء ينفذ صعوداً فيه حتى يبلغ عروق الورق منتقلاً إلى ارتفاعات عدة أمتار أحياناً ثم يتم توزيع الماء على مئات الآلاف من الأوراق دون أن تستثنى ورقة واحدة من الماء ويصل الماء أيضاً إلى جميع الثمار، فتأمل كيف أن كل جزء في النبات يشهد على عظمة الصانع؟ والخلاصة: إن معنى الآية: «والنجم والشجر يسجدان» إن هذين الصنفين من النبات يسجدان ومعنى سجودهما: شهادتهما لله (عز وجل) بالربوبية والعظمة. وبعد ذلك أقول: إنه رغم جهل الإنسان وقلّة علمه وفهمه المحدود لكل هذه الظواهر فإنه يشعر أن هناك كثيراً من الأمور التي ينتظر أن يصل إليها وجميعها تقوم على أساس انتظام الطبيعة

وقُدْرة الإنسان على التنبؤ بظواهرها في ظل ما يكشف عنه العلم من سنن هذا الكون وأسراره التي ما هي في الواقع إلا من تجلّيات الخالق (سبحانه) في خلقه.

ومن الأسرار التي كشف عنها القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] فقد دلّت هذه الآية على أن هناك قسماً من الأشجار، والنباتات يتوقف إنتاجها على التلقيح بسبب الرياح.

ولهذه الآية تفسيران:

الأول: قال العلماء الأقدمون: اللقاح في الآية معناه: الحمل لأن الحمل أحد معاني اللقاح، وفسروا الآية على أن الرياح هي التي تحمل السحاب أو تحمل المطر الذي يحمله السحاب.

الثاني: قال العلماء المتأخرون: إن الرياح لا تحمل السحاب، وإنما تدفعه من مكان إلى مكان آخر، وقالوا: إنا قد استفدنا من الآية سراً دقيقاً لم تدركه أفكار السابقين وهو الإشارة إلى أن انتاج قسم كبير من الأشجار والنبات يتوقف على تلقيح الرياح له بأن تكون الرياح هي السبب في تلقيحه مثل شجر المشمش والرمان والصنوبر والبرتقال والقطن ونباتات الحبوب وغير ذلك من الأشجار والنبات.

وكيفية هذا التلقيح هو: إذا نضجت حبوب الطَّلْع، انفتحت الأكياس وانتثرت الحبوب خارج الأكياس، فتحملها الرياح على أجنحتها ثم تسقطها على مياسم الأزهار بصورة عفوية.

وقد اكتشفوا ظواهر طبيعية بالنسبة لتلقيح الحشرات للأزهار وهذه الظواهر هي: الجمال، والعطر، والبهاء نجد أنها تتوافق في المواطن التي يتوافق تواجدها وتلك الأوصاف فيها وتتوافق أيضاً مع مهمَّة تيسير الحياة فالأزهار التي ترك تلقيحها للحشرات اكتشف علماء النبات أنها

قد زوّدت بعناصر الجمال والجذب من اللون الزاهي والعطر المغري بنحو يتفق مع جذب الحشرة إلى الزهرة، وتيسير عملية التلقيح بينما تتميز بعض الأزهار التي تحمل الهواء أو لقاحها عادة بعناصر الإغراء.

وهنا ظاهرة أخرى أيضاً وهي:

ظاهرة الزوجية على العموم والتطابق الكامل بين التركيبين: التركيب الفيسيولوجي للذكر والتركيب الفيسيولوجي لأنثاه في الإنسان والحيوان على النحو الذي يضمن التفاعل واستمرار الحياة وهذا يعتبر مظهراً كونياً آخر للتوافق بين الطبيعة ومهمّة تيسير الحياة.

قال في قلب القرآن في تفسير قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يس: ٣٦] كان قدماء المفسِّرين يؤوّلون «الأزواج» ويحملونها على أنها بمعنى الأصناف والأنواع.... هكذا خلق تعالى الأصناف والأنواع. بعض أخر كان يقول: هي تركيب جوهر المادة وعَرَضِها مع صورتها ثم قال: هذه التفاسير إنما هي نتيجة للجهل بالمطلب المبهم لنظام الخلق إذ كان الإنسان لا يزال يجهل أن لقضيَّة تزاوج الكائنات وجود ففي السابق كانوا يعرفون أن شجر النخيل فقط (علاوة على الحيوان) تمتلك خاصية التذكير والتأنيث مما يوجب تلقيح الشجرة الأنثى من الشجرة الذكر حتى تحمل وتعطي الثمر، لكنه مؤخراً أضحى مسلَّماً وقطعياً أن الأشجار كافة تحتاج إلى تلقيح، وليس شجرة النخيل فقط، وليس صحيحاً أن (الأزواج) تعني الأصناف والأنواع بل إن كلمة (زوج) تعني الذكر والأنثى، ويعبر عنهما بالزوجين.

ثم قال رحمة الله عليه: يريد الله تعالى في هذه الآية الشريفة أن يعلن أن نظام الخلق كله قائم على الزوجيَّة وليس هذا وقفاً على الحيوان وشجر النخيل فقط، بل الأشجار كلها بحاجة لوصول أثر من الذكر إلى الأنثى.

ثم قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦] ربما يكون ذلك إشارة إلى ما عرفوه مؤخراً عن نظام الذرَّة. الذرَّة التي كان يقال لها في السابق «الجزء الذي لا يتجزَّأ» وكانوا يقولون إنها واهبة الجوهر فلقها الإنسان مؤخراً بواسطة الأجهزة العلمية واكتشفها. هذه الذرَّة هي بدورها (زوج) تملك فاعلاً ومفعولاً هما الألكترون والبروتون فهي إذاً إحدىٰ معجزات القرآن العلمية، إذ لم يكن الإنسان يستطيع أن يصدِّق أن كل الأشياء «زوج» ولذا كانوا يؤوِّلون الأزواج بالأصناف والأنواع، واتَّضحت أخيراً حقيقة أن ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦] كل الأزواج أي كل الأشياء لأن كل شيء (زوج) ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩].

الثالث: في ألفاظ تخصّ النبات، الألفاظ التي تخص النبات في القرآن الكريم.

١ ـ «النبات» هو في الأصل كل نوع في الزرع الذي ينبت من الأرض سواء كان له ساق كالشجر أو بدون ساق كالنجم.

٢ ـ «الشجر» وهو النباتات ذات السيقان كالنخيل والسِّدْر.

٣ ـ «النجمُ» وهو النبات الذي لا ساق له كالحشائش والتوابل.

٤ ـ «الثمرُ» وهو ما يحصل من الشجرة كالفاكهة.

٥ ـ «الزرع» وهو نثر البذور والحبوب في الأرض.

٦ ـ ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: ٩٩] وهو سيقان وسنابل الحنطة والشعير والذرة وما شابه ذلك و«متراكب» مأخوذة من مادة (ركوب) وهو الصعود وهو إشارة إلى الحبوب التي تتراكب على بعضها على هيئة سنبلة ذات منظر جميل ومحبَّب للغاية.

٧ ـ ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: ٩٩] جمعٌ «قِنْو» وهو الفروع الرفيعة

التي تخرج من الطلع بعد تفتحه أو هي الخيوط التي تكون في عذق الثمر و«دانية» إشارة إلى قرب هذه العذوق من بعضها أو انحنائها نحو الأسفل بسبب ثقل ثمار الرطب.

٨ ـ ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الانعام: ١٤١] في تفسيره قولان:

الأول: هو إن هذه الثمار تتشابه في المنظر إلا أنها تختلف في الطعم كأنواع العنب والرمان الحامض والحلو.

الثاني: هو أن أوراق أشجارها تتشابه أحياناً (كأوراق الزيتون والرُّمان في حين أن ثمارها مختلفة.

٩ ـ ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤] والصِّنْوُ: إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد فكل واحدة منهم (صِنْوٌ)، والإثنان (صِنْوانُ) والجمع: (أصْناء) وغير (الصنوان) هي النخلة الواحدة المنفردة التي ليس تحتها نخيل صغار.

١٠ ـ ﴿تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] من «سامهُ» وهي مادة «سَوْم» وتعني: رعي الحيوانات، وحيث إن الحيوانات تتناول وتأكل كلاً من الأعشاب وأوراق الأشجار عند رعيها فالتعبير بـ «شجر» يبدو مناسباً لاشتماله على كليهما، وطبعاً إن المعنى اللغوي لـ «السَّوْم» هو وضع العلامة، وبما أن الحيوانات حين العلف تترك أثراً على الأرض أطلق عليه هذا الإصطلاح.

١١ ـ ﴿مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الانعام: ١٤١] (مَعْرُوش) من مادة (عَرْش) وتعني: السرير المرتفع أو السقف و«مَعْرُوشات» هي ما انبسط على الأرض مما يفرش مثل الكرم والبطيخ والقرع و«غير معروشات» هو ما قام على ساق مثل النخل والسِّدْر وغيرهما.

البحث الرابع
في تركيب النبات

وهذه أرقام وبحوث مفصَّلة أطرحها إليك وكلها من أقوال العلماء: في تركيب النبات المحيّر للعقول وفيه فروع:

١ ـ جذور النبات وهو أن الجذْرَ بلطافته ورقّته له قدرة مذهلة فهو ينفذ في طبقات الصخور والأراضي الصلدة، وأحياناً يغور تحت قطع صخرية تزن عدَّة أطنان، ويرفعها من مكانها، وتتحرَّك العمارات والأحواض التي أنشئت من القوالب والطبقات المسلحة نتيجة نموّ الأشجار حولها.

٢ ـ عمل الجُذْرِ هو امتصاص المواد الغذائية والرطوبة من كل ناحية وكأنها تعرف مراكز الرطوبة والمواد الغذائية من خلال شعورها العجيب فتسعىٰ نحوها، ولكل جذر جهاز عظيم له قدرة خاصة في انتخاب نوع الغذاء، وتغييره وتبديله ثم يدفعه إلى داخل الأغصان بعد التغييرات التي يحدثها فيه ومنها إلى الثمار. وتجري عليها تفاعلات كيمياوية جديدة في كل مرحلة كي يصنع من التراب فاكهة طيبة كالبرتقال والتفاح ونحوهما أو يصنع دواءً شافياً وصحياً.

٣ ـ قالوا: وبناء الأوراق أكثر عجباً مما تقدم وذلك لو وضعنا ورقة أمام أشعة الشمس ستلفت نظرنا الفروع الدقيقة جداً الممتدة فيها والتي يكون واجبها إيصال الماء والغذاء إلى كافة خلايا الورقة. قالوا: وفي الواقع إن كل ورقة تعتبر بحدِّ ذاتها مدينة كاملة، وهذه الفروع هي الأنابيب المنظَّمة لهذه المدينة ابتداءً من الأنبوب الرئيسي وحتى أصغر التفرعات، والوَرَقَةُ مع رقَّتها لها سبع طبقات، وكل طبقة لها بناء وبرنامج خاص يبعث على الدهشة، والغلاف الذي يغطي الورقة ـ كجلد

الإنسان ـ ذو مسامات دقيقة جداً، وكل من هذه المسامات لها خلايا للصيانة تقوم بتنظيم انفتاح وانغلاق المسامات، وتتنفّس الورقة من خلال هذه المسامات فتستنشق الهواء، وتفصل عنه غاز ثاني أوكسيد الكاربون لتصنع به «الكلوروفيل» النباتي، وفي المقابل تطرح الأوكسجين وكميَّة من الرطوبة لتلطيف وتطهير الجوّ كموهبتين عظيمتين لدنيا الإنسانية. وقد قال العلماء: من أجل أن يتمكن النبات من صناعة رطل واحد من السُّكر يجب أن تستنشق الأوراق ما يعادل ثلاثمائة ألف ليتر من الهواء وتحلّله.

٤ ـ وبناء الأزهار ومن ثمَّ الثمار أعجب مما تقدم أيضاً فهناك الأقسام الذكرية والأنثوية، وتفاعل الذَّرَّات الذكرية الدقيقة جداً مع الأجزاء الأنثوية ثم تكوين البويضة من رحم النبات بعد هذا الزواج الصامت، وكيفية نموّه، إنه عالم عجيب يسلب معه روح وعقل الإنسان، ويجعله غارقاً في محيط من العجائب.

وقال أحد الخبراء في الزراعة «تشرالدت»: إن الإله يظهر من خلال القوانين الثابتة والرمزية التي يدير بها عالم النبات إنه يظهر ويتجلّىٰ من خلال هذه الطرق:

١ ـ النظام والترتيب: الذي يُنجْز نموَّ وإنتاج المثل وتفرعات الخلايا وتكوين أقسام النبات المختلفة بشكل منظَّم.

٢ ـ التعقيد، فلا تُقاسُ أيّ ماكنة من صنع الإنسان مع ماكنة معقدة ومذهلة لنبات عاديٍّ.

٣ ـ الجمال: إن جمال الساق والورق والزهر أمر إلهيٌّ، إذ لا يقدر أيُّ نحّات ماهر ورسَّام مجرِّب من تقديم تمثال أو لوحة بهذا الجمال.

٤ ـ (الوراثة) فكل نبات يولِّد مثله وهذا هو إنتاج المثل وهو يجري وفقاً لإرادة وتخطيط فمهما عملوا وبأيِّ شكل ربَّوا فإن «الحنطة تنبتُ من الحنطة، والشعير من الشعير» ثم يقول: باعتقادي، إنَّ هذه المظاهر دليل على وجود الخالق ذي الحكمة البالغة والقدرة اللامتناهية. «نقلاً عن عالم الأزهار».

٥ ـ في توحيد المفضل ذكر الإمام الصادق عليه السلام جملة من الأمثلة التي تدل على رحمة الله الواسعة حيث قال عليه السلام: فانظر إلى البطيخ فلو كانت نبتة هذه الثمار أشجاراً لما استطاعت أغصانها أن تتحمل ثقل وزن هذه الثمار «لأنه قد يصل وزن بعض هذه الثمار إلى عشرات الكيلوغرامات» لذلك كانت هذه النبتة زاحفة على الأرض معروشة عليها.

ومن رحمته الواسعة أيضاً:

أن خلق الثمار ذات القدرة على اختزان السوائل من ثمار الصيف ليطفىء بها الإنسان حرارة صيفه، ويمد بدنه بما ينضح منه من عرق لئلا يجف البدن فتكون هذه الثمار معيناً لبدن الإنسان من حيث الرطوبة والسوائل اللازمة لتوقي جفاف البدن فجعل الله ثمار البطيخ والرقّي وأشباه ذلك في فصل الصيف دون الشتاء تبعاً للمنفعة اللازمة.

البحث الخامس

الإعجاز في النبات

وقد علمنا مما في الأرقام المتقدمة ما يلي:

١ ـ إن هذه التفاعلات الدقيقة والحركات العجيبة التي تقوم بها جذور النباتات وخضوعها لقوانين ثابتة مما تكشف عنه هذه التفاعلات

وأمثالها التي ليس لها عدّ ولا حصر ليست إلا دليلاً وشاهداً على أن هذا الكون منظّم غاية التنظيم وقد ثبت عندهم أنه ليس هنالك تناقض بين العلوم وبين فكرة وجود الله الذي قدّر كل شيء فأحسن تقديره، والذي ظهرت آياته للناس في ثنايا ما تكشف عنه العلوم، وما أوتينا من العلم إلاّ قليلاً.

٢ ـ إن ما عرضناه في الأرقام المتقدمة كل رقم ينطق بالمعجز الخارق لنواميس الطبيعة، ولا يمكن أن يتصوَّر العقل أن هذا النظام قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم أو من الفوضىٰ. وعلى ذلك فإن الإنسان المفكّر لا بد أن يصل ويسلّم بوجود إله منظّم لهذا الكون، وعندئذٍ تصير فكرة الأُلوهية إحدىٰ بديهيّات الحياة، والمنطق الذي نستخدمه هنا هو أنه إذا كان هنالك إله فلا بد أن يكون هناك نظام، وعلى ذلك فما دام هنالك نظام فلا بد من وجود إله.

٣ ـ يلاحظ أن للملحدين أدلَّة على عدم وجود الله تعالى منها ما يلي:

أ ـ إن وجود الله يستدل عليه بشواهد معينة، وليس ببراهين قاطعة وهذا من وجهة نظرهم يعني أن الله ليس موجوداً.

ب ـ إنهم يردُّون على الأدلة الكونية بقولهم: إن المادة والطاقة يتحول كل منهما إلى الآخر بحيث يمكن أن يكون بذلك أبدياً.

ت ـ إنهم ينكرون النظام في الكون، ويرونه مجرَّد وهم وكأنهم يعنون بذلك: إن الشمس والقمر والنجوم ما هي إلا نوع من الوهم والخيال، وليس لها حقيقة تذكر في الخارج.

ث ـ ينكرون الشعور النفسي بالعدالة والإتّجاه نحو موجِّه أعظم وقد أنكروا كل الأدلة الموجودة والتي يستدل بها على وجود الله

سبحانه ومن منطقهم: إن الأدلة الموجودة لإثبات وجود الله لا تعتبر كافية من وجهة نظرهم ومع ذلك لا يستطيعون أن يقيموا دليلاً واحداً صحيحاً على عدم وجود الله سبحانه وتعالى. والذي يظهر هو أن الله قد أعمى قلوبهم وأبصارهم وحرَّم عليهم لذَّة حبه والإيمان به سبحانه وتعالى وصدق الله حيث يقول: ﴿...لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الاعـــراف: ١٧٩].

البحث السادس

بعض فوائد النبات

قالوا: إن النباتات تمثِّل الركن الأساسي للحياة على الكرة الأرضية وكافة الكائنات الحيَّة الأخرىٰ تتعلق بأطرافها، ففوائد النباتات كثيرة للغاية حيث يمكن الإشارة إلى عدد من هذه الفوائد:

١ ـ (أفضل مادة غذائية) يتم تحضير أفضل أطعمتنا نحن البشر من النباتات والحبوب والفاكهة فطاقتنا وقدرتنا وسلامتنا تؤمَّن عن طريق الغذاء النباتي، وكذا الكثير من الطيور والدواب واللبائن والأسماك في البحر كلها تستفيد من النباتات لهذا فكل بلد يتمكن من تأمين منتجاته الغذائية عن طريق النباتات فإنه يبلغ الإكتفاء الذاتي في الواقع.

٢ ـ (الملابس) إن الجانب الأعظم من ملابسنا يتم تصنيعه من ألياف النباتات وفي الواقع فإن المصدر الذي لا ينفد لملابس الإنسان في الدرجة الأولى هو النبات.

٣ ـ (البيت وأثاثه) لو ألقينا نظرة على ما حولنا في البيت لوجدنا أن أغلب الأبواب والشبابيك، واللوازم الأخرىٰ هي من منتجات الأشجار بنحو لو أردنا إلغاءها من حياتنا فستصبح الحياة صعبة، وفي

الكثير من المناطق يصنعون بيوتهم من الخشب بشكل كامل، ولهذه البيوت مزايا كثيرة وهذا في غير النخل وأما النخل فقد شاهدنا أن البيوت في البحرين تبنى على نوعين:

أ ـ بيوت الشتاء تبنى من سعف وجريد النخل بحيث يكون الجدار من السعف غليظاً حتى يمنع البرد والهواء والمطر من أن يصل إلى الساكن فيه.

ب ـ بيوت الصيف تبني أيضاً من السعف وجريد النخل لكن بشكل أخف من بيوت الشتاء وبشكل رقيق حتى يدخل لهم الهواء وشاهدنا أيضاً أنَّ السمك في البحر يبنى لها بيوت في البحر كي يصيدوها فهي تبنى من جريد النخل وهي موجودة إلى هذا اليوم في بعض المناطق، وأما جذع النخل فإنه يجزَّأ ويوضع لسقف البيت وغيره ويجعل وتاداً للبيت وغيره، وأما ما يبقى في النخل بعد قطع السعف مثل الكَرَب وغيره فإنه يجعلونه حطباً للوقود في النار وأما الليف فإنه يستفاد منه لصنع الحبال وللوقود أيضاً ويوضع في الجداول لمنع الماء، وأما أصل العذق الذي يبقىٰ بعد قطع الثمر فهو يوضع للوقود في النار.

٤ ـ (النايلون) وهو أحد اللوازم المهمة للحياة المعاصرة ونحن نعلم أن مادته الأصلية تستخرج من عصير شجر (المطاط) ومن هذا الشجر كثير موجود في الهند والشجرة الواحدة منه كبيرة جداً وكيفية إخراج المادة منه: فإنه يؤتى بإناء ويوضع بالقرب من ساق الشجرة ثم يثقب ساق الشجرة بمسحاة أو غيره ثم تخرج منه مادة مثل (الحليب) وتبقى تصب في ذلك الإناء إلى أن ينتهي ما في ساق الشجرة ثم يتركونها إلى وقت معين من الزمن ثم يأتون لنفس العملية.

٥ ـ (الأعشاب الطبية) حيث كانت أغلب الأدوية في السابق تستخلص من النباتات واليوم فإن القسم الكبير منها يستخرج من

النباتات أيضاً ونظراً للآثار السلبية للأدوية الكيمياوية فقد بدأت الآن حملة للعودة إلى الأدوية النباتية، وهنالك صيدليات جميع أدويتها من النباتات.

٦ ـ (السيطرة على الكثبان الرملية) إن أحد الأخطار الجدّية التي تهدد المدن لاسيما القريبة من الصحارى الرملية هي الكثبان الرملية حيث تُدفن تحتها أحياناً قرية كاملة، وأفضل سبيل لتثبيت هذه الرمال هو استخدام النباتات المختلفة التي تُوقف حركتها وتقدُّمها.

٧ ـ (تحضير الورق) إن اختراع الورق كان له نصيب مهمّ للغاية في تطوّر الحضارة والعلم البشري، والنباتات هي المصدر الأساسي لهذه الوسيلة.

٨ ـ (معادلة الحرارة والبرودة) إن النباتات وبسبب الرطوبة المناسبة، والمعتدلة التي تلقيها في الفضاء تقوم بالحدّ من شدة البرد وكذلك بالحدّ من شدة الحرارة، ولهذا فإن الجوَّ في المناطق كثيفة الأشجار يكون معتدلاً دائماً.

٩ ـ (وسائط النقل) إن الكثير من البواخر والقوارب كانت تصنع سابقاً وحالياً من الخشب وهي تعتبر من أفضل وسائط النقل التي يستخدمها الإنسان سابقاً وفي الوقت الحاضر.

١٠ ـ (الجمال) لا يخفىٰ هذا الأثر اللطيف (للأشجار والنباتات والزهور) على أحد حيث تنتعش روح الإنسان بجمال الأشجار المدهش ويريح القلب، ويهدىء الإنسان إزاء الضغوط الشديدة للحياة لهذا يقومون بتزيين المستشفيات بأنواع النباتات والأشجار من أجل تحسين صحة المرضىٰ، ويلجأ الإنسان باستمرار إلى أحضان الطبيعة في وسط الأشجار والبساتين ومزارع الحنطة من أجل إزالة المتاعب النفسية وتجديد النشاط.

١١ ـ (المصدر المهم للطاقة) إن الخشب والورق وجذور النباتات كانت ولا زالت إحدىٰ المصادر المهمَّة للطاقة، وإنتاج الحرارة، وحتى الفحم الحجري الذي هو إحدىٰ مصادر الطاقة المهمَّة فهو من منتوجات الأشجار والنباتات أيضاً، والحرارة التي تحصل من الخشب وأوراق الأشجار ملائمة، وتلويثها للبيئة قليل جداً، وحتى الرماد المتبقي منها يصلح كسماد للأشجار يستفاد منه مجدداً.

١٢ ـ (الفحم) في الموسوعة: يَختزِنُ الفحم الحجري طاقة الشمس منذ ملايين السنين إن نموَّ النباتات يعتمد على الشمس، وإذا طُمِرت هذه النباتات ملايين السنين تحت الضغط والحرارة في باطن الأرض فإنها تتحوَّل إلى فحم حجريّ، وعند إحراق الفحم تُطلِق تلك الطاقة المخزونة (منذ القدَم كطاقة حراريَّة) الكربون هو العنصر الأساسيّ في الفحم، فالكربون الذي يُؤلِّف حوالى ٥٠٪ من الخشب يشكل قُرابة ٩٠٪ من الفحم بدأ معظم الفحم بالتكوُّن في العصر الكربونيّ منذ حوالى ٣٥٠ مليون سنة، فغابات المستنقعات الضخمة قرارات الفحم الرئيسية في العالم.

١٣ ـ (أصناف العطور والمواد الكيمياوية) نحن نعلم أن أفضل العطور الملطفة لروح الإنسان كانت ولا زالت تستخلص من رحيق الأزهار والأشجار والنباتات ذات الورق والخشب المعطر لطيف الرائحة. وأما البخور فهو يؤخذ من الأشجار أيضاً.

وإن الكثير من المواد الكيمياوية المستخلصة من النباتات تستخدم في مختلف الصناعات. ومن العطور النباتية:

أ ـ الورد: وهو معروف وفي الحديث عن علي ﷺ: «حيَّاني رسول الله ﷺ بالورد بكلتا يديه فلما أدنيته إلى أنفي قال: أما أنه سيد ريحان الجنة بعد الآس» وفي حديث آخر: «لما أسري بالنبي ﷺ إلى

السماء حزنت الأرض لفقده وأنبتت «الكَبَرَ» (شجر الآصف) فلما رجع إلى الأرض فرحت وأنبتت الورد فمن أراد أن يشمَّ رائحة النبيﷺ فليشمّ الورد» وفي آخر أيضاً «لما عرج بالنبيﷺ عرق فتقطر من عرقه إلى الأرض فأنبتت من العرق الورد الأحمر فقال رسول الله ﷺ: من أراد أن يشمَّ رائحتي فليشمّ الورد الأحمر» وفي آخر أيضاً قال النبيﷺ: «الورد الأبيض خلق من عرقي ليلة المعراج والورد الأحمر خلق من جبرئيل والورد الأصفر من براق»[1].

وجاء في ماء الورد: «من مسح وجه بماء الورد لم يصبه في ذلك اليوم بؤس ولا فقر، ومن أراد التمسح بماء الورد فليمسح به وجهه ويديه وليحمد ربه، وليصل على النبيﷺ»[2].

ب ـ النرجس: وهو (كما يقال) ريحان الأعاجم وفي الحديث: «في النرجس فوائد كثيرة في شمه ودهنه. ولما أضرمت النار لإبراهيم صلوات الله عليه فجعلها الله عز وجل برداً وسلاماً أنبت الله (تبارك وتعالى في تلك النار) النرجس فأصل النرجس مما أنبته الله تعالى في ذلك الزمان».

وفي آخر: «شمُّوا النرجس ولو في اليوم مرة، وفي الشهر مرة، ولو في السنة مرة فإن في القلب حبة من الجنون والجذام والبرص، ولا يقطعها إلا النرجس».

ج ـ من أنواع العطور: المسك وقد أثبت العلم الحديث: أن وعاء المسك كيس رقيق جاف يتولد تحت جلد الذكر البالغ من ظباء المسك وموضع الكيس دون سرة الظبي وأمام قلفته، ويحيط بالكيس

---

(١) البحار ج٧٦ ص١٤٦.
(٢) المصدر نفسه.

منسوج خلوي مملوء من العروق، ويلتصق من الخارج بجلدة الحيوان وفارة المسك: هو المجموع من الكيس وما فيه.

والمسك: هو مادة خاصة تفرز وتخزن في ذلك الكيس. وفي الحديث: «عن الصادق ﷺ عن أبيه ﷺ: «قال: إن رسول الله ﷺ كان يتطيب بالمسك حتى يرىٰ وبيصه في مفارقه» وبيصه أي بريقه ولمعانه.

د ـ من أنواع العطور: العنبر وهو:

١ ـ نوع من الطيب الجيد.

٢ ـ هو ما يخرج من قعر البحر يأكله بعض دوابه لدسومته فيقذفه رجيعاً فيطفو على الماء فتلقيه الريح إلى الساحل، وهو: يقوي القلب ونافع من الفالج، واللقوة والبلغم الغليظ. والعنبر هو سمكة بحرية يتخذ من جلدها التراس (عن حياة الحيوان). وفي القاموس: العنبر هو من الطيب روث دابة بحرية أو نبع عين فيه وحكى الشهيد في البيان عن أهل الطب أنهم قالوا: إن العنبر جماجم تخرج من عين في البحر وغير ذلك من الأقوال. وفي الحديث: «كان النبيﷺ يتطيب بذكور الطيب وهو المسك والعنبر وكانﷺ يتطيّب بالغالية تطيِّبه بها نساؤه بأيديهنَّ».

والغالية: هي ضرب من الطيب مركب من مسك وعنبر ودهن البان وكافور وعود. وتغلَّيتُ بالغالية أي تطيَّبتُ بها وذكرت العنبر لأنه يشبه العطر النباتي.

هـ ـ من أنواع العطور: البخور وهو ما يتبخَّر به وعرف أنه دخان الطيب المحترق وكأن أفضل أنواعه العود القماري وزنه كقطامي وهو موضع(في الهند) يجلب منه العود القماري وفي الحديث: «كان النبيﷺ يستجمر بالعود القماري».

١٤ ـ ومن فوائد النبات السواك وهو: العود الذي تدلك به الأسنان ولعل أفضله ما أخذ من شجر الأراك وهو شجر يستاك بقضبانه واحدته أراكة، نبات شجيري من فصيلة الأراكية كثير الفروع له ثمر حمر دكناء تؤكل كعناقيد العنب ينبت في البلاد الحارة ويوجد في صحراء مصر الجنوبية والشرقية.

وقد روي في فضله أحاديث كثيرة منها: ما رواه أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من استاك كل يوم مرَّة رضي الله عنه وله الجنة، ومن استاك كل يوم مرتين فقد أدام سنة الأنبياء عليهم السلام وكتب الله له بكل صلاة يصليها ثواب مائة ركعة، واستغنى عن الفقر، وتطيب نكهته ويزيد في حفظه ويشتدُّ له فهمه، ويمرىء طعامه، ويذهب أوجاع أضراسه ويدفع عنه السقم وتصافحه الملائكة لما يرون عليه من النور، ويُنقِّي أسنانه، وتشيعه الملائكة عند خروجه من البيت وتستغفره حملة العرش، والكروبيُّون وكتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة ثواب ألف سنة، ورفع له ألف درجة وفتح الله له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء، وأعطاه الله كتابه بيمينه، وحاسبه حساباً يسيراً، وفتح عليه أبواب الرحمة، ولا يخرج من الدنيا حتى يرىٰ مكانه من الجنة وقد اقتدى بالأنبياء ودخل معهم الجنة ومن استاك كل يوم فلا يخرج من الدنيا حتى يرىٰ إبراهيم عليه السلام في المنام وكان يوم القيامة في عدد الأنبياء، وقضى الله له كل حاجة في أمر الدنيا والآخرة، ويكون يوم القيامة في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، ويكون في الجنة رفيق إبراهيم عليه السلام ورفيق جميع الأنبياء عليهم السلام» وقال صلى الله عليه وآله: «ركعتان بسواك أحب إلى الله تعالى من سبعين ركعة بغير سواك»(١).

١٥ ـ ومن فوائد النبات: وقود من الشجر الأخضر الرطب قال

(١) البحار ج٧٦ ص١٣٨.

تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠] الشجرة الخضراء الرطبة نوقد منها ناراً بقدرة الله تعالى فالماء والنار متضادّان غير أن يد القدرة قد جمعتهما دون أن يؤثّر أحدهما على الآخر يقول المفسرون عموماً (على ما ينقل) إنها إشارة إلى الشجرتين الموجودتين في الجزيرة العربية وهما شجرة الزخ وشجرة العفا، وهما شجرتان تتميزان بميزة خاصة فإذا ما حككنا غصناً من أُولاهما مع غصن من الثانية تولَّدت عن احتكاكهما النار رغم خضرتهما ورطوبتهما، وكان الناس يستعيضون بهما عن الكبريت.

﴿...فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠] أي فإذا بالشجر الأخضر يتحوَّل إلى وقود لاستعمالكم، فالكبريت لم يكن معروفاً فيما مضى، وكان الناس يستعملون الحجر الصَّوَّان وهاتين الشجرتين بدلاً عنه. إن الأشجار كلها بشكل عام تشتمل على النار والماء في آن واحد ففيها جميعاً مواد مولِّدة للنار ولكن ظهور النار فيها يتم بالطبع بعد التغلُّب على الرُّطوبة الموجودة فيها وذلك عندما تجفُّ هذه الرُّطوبة، إما بواسطة أشعة الشمس أو بمجاورتها للنار ولهذا قيل: يبدو أن الذي حمل المفسرين على تفسير هذه الآية بشجرتي الزخ والعفا، هو أنهم أخذوا بظواهر الأمور على اعتبار أن هاتين الشجرتين كانتا بمثابة كبريت ذلك الزمان، وإلا فإن هذه الخاصيَّة موجودة في كل النبات.

البحث السابع
في التفكر المتعلق بالنبات

وبعدما تقدم من عرض بعض الفوائد والبركات للنباتات نقول: إن الإسلام يأمر بالتفكر في مخلوقات الله قال سبحانه ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]. وقد جاء في بعض الروايات: «تفكر ساعة أفضل من

عبادة ستين سنة» لماذا؟ لأن العبادة توصل إلى الثواب أما التفكر فإنه يوصل إلى الله ويقوّي روح الإيمان بالله سبحانه والوصول إلى الله أهم كثيراً من الثواب والإمام علي ﷺ يقول: «ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه» ونحن نرى ونأكل الأنواع الكثيرة من الفواكه وغيرها بدون أي تفكير في ذلك وبهذا نكون كالحيوانات العجم لا يهمّها إلا إشباع بطنها وصدق الله حيث يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف: ١٠٥] فنمرُّ على الآية مرور الكرام في الوقت الذي يكمُنُ فيها عالم من عجائب وقدرة وعظمة الخالق جلَّ وعلا. كالذي يوجد في الرمان والبرتقال وغيرهما من أنواع الفواكه.

ويستفاد من مجموع ما ورد في الآيات القرآنية حول خلق النباتات وخصائصها المختلفة ابتداء من رشد النباتات إلى تنوّعها ومسألة اللقاح والزوجية، وأنواع المواد الغذائية للإنسان والحيوان حتى كيفية نموّ طلع التمر والحبوب المرتب بعضها فوق بعض كالحنطة والشعير، وتكاثر الثمار والزروع المتباينة تماماً الناتجة عن ماء واحد، وأرض واحدة، وسيادة القوانين الموزونة على جميع المراحل، وانفلاق الحبوب والنوىٰ إنها جميعاً آيات لتلك الذات المقدَّسة، ودليل حي على وحدانية الرب، ونفي كل أشكال الشرك.

والخلاصة: إن كل إنسان إذا تأمل وتدبَّر في مخلوقات هذا الكون اتضحت له حقيقة الحال وزالت عنه غياهب الإشكالات فلم تبق مندوحة أبداً عن وجود صانع واحد، منزه عن امكانات الحادثات قد خلق هذه الموجودات التي كانت معدومات فصارت موجودات وقد ظهر من ذلك أن الحق الحقيقي هو: إن التصديق بوجود الله تعالى، بل توحيده أمر جلي قد فطر الناس عليه كما قال سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا...﴾ [الروم: ٣٠].

البحث الثامن

(الأنواع غير المحدودة للنباتات)

قال أهل الخبرة: إن انواع النباتات كثيرة بالقدر الذي لا يمكن حصرها ونحن نبيِّن الآن ما عثرنا عليه من أقوالهم:

١ ـ إنه قد تمَّ حتى الآن إحصاء ثلاثة آلاف نوع من النخيل وألف وسبعمائة نوع من التين الهندي، وألف ومائتي نوع من ورد الثعلب.

٢ ـ إن عدد النباتات ذي الحبِّ المغطَّىٰ يبلغ مائة وخمسين ألف نوع، وقد تمَّ بيان وتوضيح أكثر من ثمانية عشر ألف نوع من النباتات في بعض كتب علم النباتات[1].

٣ ـ قد تمَّ بحث ألف نوع من الكمأة من التي تمَّ إحصاؤها، وأكثر من أربعين ألف نوع من الطحالب، وسبعة آلاف نوع من التفاح، وخمسة وثلاثين ألف صنف من الحنطة[2].

وبعد ذلك أقول: إن أقوى دليل على وجود الخالق سبحانه هو دليل السببية وهو: ملاحظة كل مفكر أن كل ما يحدث في هذا الكون لا بد له من محدث وكل موجود لا بد له من موجد ويدل على هذا الدليل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور: ٣٥] وهذه الآية تثبت عدم إمكان أن يخلق الشيء نفسه ولا أن يوجد بدون موجد بل لا بد له من خالق وموجد وقد جاءت هذه الآية لتأكيد قانون السببية.

---

(١) نقلاً عن «تاريخ العلوم» ص٣٥٢.

(٢) نقلاً عن «معرفة الله» ص٢٩١ و٢٩٢.

٢ ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] فالآية تحكي قول المشركين النابع من إحساسهم بأنه لا بدَّ للسماء والأرض من خالق لأنه في وجهة نظرهم يستحيل أن تكون السماوات والأرض (بما فيهما من مخلوقات) قد وجدت من تلقاء نفسها فإذا عرفنا هذا فاعلم أن تلك الأنواع المختلفة من النبات والكائنات الحية والأجناس المتباينة من الحيوانات والنباتات والأجرام السماوية (التي تتلألأ فوق رؤوسنا) وما فيها من الحركات المنتظمة والتنسيق الدقيق وغير ذلك هذه كلها تجعلنا نؤمن ونتيقن بوجود قوّة عاملة مقدَّسة هي التي خلقت ودبَّرت تلك الإختلافات والإتفاقات في هذه الكائنات والأجناس التي تحدثنا عنها ولا يمكن أن نتصوَّر أن تلك الأشياء كلها وجدت بمحض المصادفة العمياء التي أدَّت إلى اتحاد بعض العناصر تحت ظروف البيئة.

البحث التاسع

في عجائب عالم النباتات

نبين ذلك في أقسام: ١ ـ إن أوراق وسيقان النباتات الضخمة ترفع يومياً مليارات الأطنان من الماء من الأرض ثم تنثره بخاراً في الفضاء المحيط بها. قالوا: وأي قانون يسمح للنباتات أن تستعرض فوقها هكذا خلافاً لقانون الجاذبية التي تسحب كل شيء نحو الأسفل (لاسيما الماء)؟

٢ ـ هنالك الكثير من النباتات كعين الشمس تدور مع حركة الشمس، فتتحرك أزهارها الكبيرة نحو المشرق في أول الصباح ونحو الغرب أثناء غروب الشمس كعباد الشمس وغيره.

٣ ـ (النباتات آكلة اللحوم) وهي من أكثر ظواهر عالم النباتات

إثارة. وقد نقل أنه قد أجرىٰ البروفسور «ليون برتن» مدير «متحف التاريخ الوطني الطبيعي الفرنسي» تحقيقات بخصوص هذه النباتات آكلة اللحوم حيث يوجد منها عشرة أنواع فقط في فرنسا وأشهرها النباتات الآتية:

أ ـ «آلدرو فوند» وتكثر في ولاية «جير فوند» الواقعة غرب فرنسا على سواحل المحيط الأطلسي فهذا النبات ذو ورقة تتكوَّن من قطعتين خاصتين متقابلتين كصحيفتي كتاب مفتوح تتصلان من الأسفل بواسطة مفصل خاص، وتغطي سطح الأوراق طبقة حسَّاسة وعندما تقترب ذبابة منه وتمس أرجلها أو جسمها هذه الطبقة تنطبق الصحيفتان المذكورتان بسرعة فيقع الحيوان في وسط ذلك السجن، وفي النهاية يهضم تدريجاً، ويصبح جزءاً من جسم النبات إثر العصير الخاص الذي يفرز من الورق.

ب ـ (دروزر ٢١): وهذا النبات له أوراق حمر اللون تشاهد عليها مخالب رفيعة تشبه الشَّعَر، وحينما تضلّ الذبابة طريقها، تجلس على أوراق هذا النبات ظناً منها بأنها قد عثرت على المكان الآمن الخالي من الأخطار وفجأة تنطبق المخالب من ناحية رأسها فتجرها مخفورة إلى داخل الورقة فتُهضَم، ويمتصها النبات وسط الإفرازات اللَّزجة للورقة.

ج ـ «نيانتس» وهو أكثر النباتات الآكلة للحوم عجباً حيث يوجد في نهاية الفرع الدقيق ما يشبه الوعاء الصغير تكون فوهتُه نحو الأعلىٰ وله باب خاص مفتوح خلال الأوضاع العادية، ويعتبر هذا الوعاء فخّاً خطيراً للحشرات الغافلة والهائمة في الجوّ فهو يحتوي باستمرار على العسل اللَّزج الحلْو حيث يدعو الحشرات «عابدة البطن» نحوه، وكذلك فإن جمال وشفافية لون الوعاء ذو جذب خاص للحشرات. «ذات

الذوق الجيد» فإذا وقعت حشرة ما أسيرة لهواها ودخلت الوعاء فإن فوهته ستنغلق على الفور وستبتلى بسجن لا خلاص منه أبداً. وهذا الوعاء يعتبر كالمعدة بالنسبة لهذا النبات والإفراز الداخلي كإفرازاتها، ويجعل الحشرة قابلة للإمتصاص.

٤ ـ (ثمر النباتات): إن من أعجب وألطف جوانب وجود النباتات هو إنتاج الثمار، وبعضها فيها وجود سائل حلو ولذيذ في الكثير منها مخزون في أوعية صغيرة خاصة مربوطة بإحكام كالبرتقال والرمّان وما شابه ذلك افتحوا برتقالة واحدة ستجدون كأن شقاً منها يتكوَّن من مئات القطع الزجاجية الصغيرة الظريفة التي تفيض بسائل لذيذ معطَّر الزجاجات التي تجمَّعت معاً من دون أيّ فاصلة. (ولو كان هنالك فاصلة وهواء فيما بينها لفسدت بسرعة) لكن هذه الزجاجات لا تتكسَّر أبداً وتتحمَّل صعوبات الحمل والنقل. وإن عصارة أيّ من هذه الثمار لو وُضعت في اهواء الطلق ستتغيَّر بعد مرور ساعة واحدة، وقد تتعفّن خلال عدة ساعات إلا أن تغليفها دقيق ومحبوك بنحو لا يسمح بنفوذ الهواء إلى داخلها أبداً ولهذا فهي تبقى سالمة لعدة شهور دون أقلّ تغيير في طعمها. وقد حذفنا الكلام الذي يعني المركبات الكيمياوية لكل فاكهة وخواصها الغذائية والطبية، وأنواع الفيتامينات وموادها الغذائية وأردنا بذلك الإختصار.

٥ ـ ينقل أن في بعض المناطق في الهند منطقة فيها أشجار متوسطة الحجم لها أوراق ناعمة كالقطن والشيء العجيب في هذه الأشجار أنها من طبيعتها تفرز برودة قويّة وشديدة بحيث تصل برودتها إلى أكثر من مسافة كيلومتر واحد.

قال الإمام الصادق ﷺ في حديث توحيد المفضل: «فكِّر يا مفضل في هذا النبات وما فيه من ضروب المآرب فالثمار للغذاء،

والأتبان للعلف والحطب للوقود، والخشب لكل شيء من أنواع النجارة وغيرها واللحاء والورق والأصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع. أرأيت لو كنّا نجد الثمار التي نغتذي بها على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه الأغصان الحاملة لها كم كان يدخل علينا من الخلل في معاشنا، وإن كان الغذاء موجوداً فإن المنافع بالخشب والحطب والأتبان، وسائر ما عدَّدناه كثيرة، عظيم قدرها جليل موقعها. هذا ما في النبات من التلذذ بحسن منظره ونضارته التي لا يعدلها شيء من مناظر العالم وملاهيه.

فكّر يا مفضل في هذا الريع الذي جُعل في الزرع فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر وأقل، وكان يجوز أن يكون الحبة تأتي بمثلها فلم صارت تُريع هذا الريع إلا ليكون في الغلّة متسع لما يرد في الأرض من البذر وما يتقوت الزراع إلى إدراك زرعها المستقبل. . . . تأمل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والباقلاء وما أشبه ذلك فإنها تخرج من أوعية مثل الخرائط لتصونها، وتحجبها من الآفات إلى أن تشدّ، وتستحكم كما قد تكون المشيمة في الجنين لهذا المعنىٰ بعينه، فأما البُرُّ وما أشبهه، فإنه يخرج مدرجاً في قشور صلاب على رؤوسها مثل الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفّر على الزراع. . . . تأمل الحكمة في خلق الشجر، وأصناف النبات فإنها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان، ولا حركة تنبت بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض لتنزع منها الغذاء فتؤديه إلى الأغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت أصولها التي هي كالأفواه ملتقمة للأرض لتنزع منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان أمهاتها.

تأمّل يا مفضل خلق الورق فإنك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة منها أجمع فمنها غلاظ ممتدَّة في طولها وعرضها، ومنها دقائق

تتخلل الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً لو كان مما يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورقة شجرة واحدة في عام كامل ولاحتيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام فصار يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسَّهل وبقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام إلا بالإرادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع».

وهناك المزيد من بحوث النبات في كتاب توحيد المفضل أنقل لك العناوين الموجودة في الفهرس:

١ ـ النبات وما فيه من ضروب المآرب ٢ ـ الربيع في النبات وسببه ٣ ـ بعض النباتات وكيف تصان. ٤ ـ الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات، ٥ ـ خلق الورق ووصفه. ٦ ـ العجم والنوىٰ والعلة في خلقه. ٧ ـ موت الشجر، وتجدد حياته، وما في ذلك من ضروب التدبير. ٨ ـ خلق الرمانة وأثر العمد فيه. ٩ ـ حمل اليقطين وما فيه من التدبير والحكمة. ١٠ ـ موافاة أصناف النبات في الوقت المشاكل لها. ١١ ـ في النخل وحلقة الجذع والخشب وفوائد ذلك ١٢ ـ العقاقير واختصاص كل منها.

من أراد أن يطلع على ما في هذه العناوين فليراجع كتاب توحيد المفضل الذي أملاه عليه الإمام الصادق عليه السلام.

البحث الحادي عشر

في التربة

وفيه فروع:

١ ـ إن العلماء يقسِّمُون موجودات عالم المادة إلى نوعين:

الأول: (العضوية) وهي الموجودات القابلة للفساد كأنواع النباتات وأجسام الحيوانات، وتشكل المواد العضوية جميع أطعمة الإنسان تقريباً

وهي مأخوذة كلُّها من التراب، وحين تدخل جسم الإنسان تكوِّن تراكيب كيمياوية جديدة تناسب تغذية كل عضو من الأعضاء، وهذه نفس الحقيقة التي يبيِّنها القرآن بقوله: ﴿خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]، أو ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] قالوا في النفحات: صحيح أن للإنسان علاوة على المادة الترابية روحاً إلٰهيَّة، ولكن لا شك أن الروح تكون مظهراً للأعمال والأفعال المختلفة بالتنسيق مع الجسم، عليه فإن هذه المادة الترابية تستطيع بالتنسيق مع الروح أن تقدم أنواع القابليات والأذواق، والإبتكارات والأعمال التي يحار فيها العقل. . . . . هنا لا يعتبر ظهور الإنسان من المادة البسيطة (التراب) ومن سلالة من طين، ومن الحمأ المسنون إحدىٰ أعمال الخلق العظيمة والآيات الكبيرة على وجود الله فحسب، بل إن كل واحدة من خلايا الجسم بإمكانها أن تكون مرآة عاكسة لعظمة الله ووجوده.

الثاني: (اللاَّعضوية) كالمعدنية مثل الذهب والفضة وغيرهما من المواد التي لا تقبل الفساد. ولهذا يقسمون الكيمياء إلى قسمين «الكيمياء العضوية»، و«اللاَّعضوية».

٢ ـ إن التربة الخصيبة تتكوَّن من مواد معدنية، ولكن بها فوق ذلك بعض المواد «العضوية» التي ترجع في أصلها إلى أجسام الحيوانات والنباتات الأخرىٰ، وتتعرض هذه المادة العضوية لعمليات التحلّل ومع ذلك ففي أثناء هذه العمليات تنبثق حياة كثير من النباتات والحيوانات، وبفضل هذه العناصر (مجتمعة مع الهواء والماء) تستمرُّ العمليات الحيويَّة داخل أجسام الكائنات الحية، وتعتبر التربة التي لا تحتوي إلا على المواد الصخرية والمعدنية المتحلِّلة تربة مجدبة لا يمكن أن تكون مبدأً لنموِّ النباتات، أما التربة المنتجة الخصيبة فهي تربة حيَّة يعيش بها عدد لا يحصىٰ من الكائنات الدقيقة من حيوان ونبات، وقد تصل نسبة الكائنات الحيَّة التي تعيش بهذه التربة الخصيبة

إلى ما يقرب من (٢٠٪) من المادة العضوية التي بها، وقد يصل عدد هذه الكائنات الحيَّة إلى بضعة بلايين في الجرام الواحد من التربة وعلى ذلك فإن التربة تتكوَّن من تأثير العوامل الجويَّة على الجزء الصلب من سطح الأرض بالإضافة إلى ما يعيش فيها من الكائنات الحيَّة ومنتجاتها عى طول الزمان (لسزجون أخصائي في التربة).

٣ ـ ولكن كيف ومتى بدأت هذه العمليات؟ فلا يكفي أن يكون هنالك ضوء ومواد كيماوية وماء وهواء لكي ينمو النبات. إن هنالك قوَّة داخل البذرة تنبثق في الظروف المناسبة فتؤدي إلى قيام كثير من التفاعلات المتشابكة المعقَّدة، والتي تعمل معاً في توافق عجيب، والبذرة التي بدأت من اتحاد خليَّتين مجهريَّتين تتألف كل منهما من عدد كبير من العناصر والعمليات تكون فرداً جديداً يشق طريقه في الحياة، ويكون مشابهاً للنبات الذي أنتجه بحيث لا تنتج حبة القمح إلا قمحاً ولا بذرة البلُّوط إلا شجرة البلُّوط ورغم ما بين أنواع النبات من تشابه تجد لكل منها صفاته وخواصّه المميِّزة، والحق أنه النظام الرائع، والجمال الذي ليس له مثيل ولا حدود، والتوافق الغريب، كل هذا هو مجمل ما يراه الإنسان أينما اتجه في عالم النبات العجيب.

٤ ـ وبينما تختلف النباتات الراقية اختلافات فردية بعضها عن بعض نجد لها بعض الصفات العامة التي تشترك فيها جميعاً فكلها مثلاً تقوم بعملية التمثيل الضوئي الذي ينتج فيه النبات المواد الغذائية من ثاني أوكسيد الكربون والماء في وجود الضوء وهنالك التشابه في تركيب البذور والسيقان والأوراق والأزهار وما يؤديه كل منها من الوظائف المتماثلة في النباتات المختلفة، وهنالك الإستجابة الموحدة للمؤثرات الخارجية فكلها تلتجىء نحو الضوء، وتموت عندما تحرم من الضوء أو الأوكسجين إلى غير ذلك من الصفات العديدة التي تشترك فيها جميع النباتات.

٥ ـ ثم قال: فمن الذي قدَّر وأوجد تلك القوانين العديدة التي تتحكَّم في وراثة الصفات وفي نموّ النبات؟ وسوف يقودنا هذا السؤال إلى سؤال آخر أشد تعقيداً، وهو من أين جاءت النباتات الأولى؟ أو بعبارة أخرىٰ كيف خُلق النبات الأول؟ ونحن لا نستطيع أن نصل بعقلنا الطبيعي، ومنطقنا السليم إلى أن هذه الأشياء قد أنشأت نفسها بنفسها أو نشأت هكذا بمحض المصادفة، ولا بد لنا من البحث عن خالق مبدع، ويعتبر التسليم بوجود الخالق أمراً بديهيّاً تفرضه عقولنا علينا.

٦ ـ قال اختصاصي فيزياء التربة: عندما يسير سكان المدن بسيّارتهم في الطرقات التي تخترق الريف والمزارع تجدهم يعجبون بالحاصلات الزراعية، وهم يعلمون أنها تخرج من الأرض ولكنهم قلَّما يعيرون التربة التي تنبتها جانباً من الإهتمام. وعلى نقيض ذلك يهتم الممتازون من الفلاحين والزراع بأنواع التربة وخواصّها.... والتربة عالم يفيض بالعجائب، ولكنها عجائب لا يستطيع أن يصل إلى كنهها أو يكشف أمرها إلا العلوم والدراسة العلمية.... وللتربة أهمية خاصَّة بالنسبة لنا لأنها مصدر المواد الغذائية الهامَّة التي يحصل عليها النبات في أثناء نموُّه، كما أنها ضرورية لتثبيت النباتات الأرضية فوق سطح الأرض.

٧ ـ قال هنالك شواهد تدل على أن الصخور النارية التي لم تتأثَّر بعوامل التفتت تحتوي على قدر من النيتروجين النشادري. ومن الممكن أن تكون النباتات الأولى قد استفادت من هذا المصدر، ولكن هنالك مصادر أخرىٰ غير ذلك، هنالك البرق مثلاً، وقد يظن كثير من الناس أن البرق ليس أكثر من وسيلة من وسائل التدمير، ولكن التفريغ الكهربي الناتج عن البرق يؤدي إلى تكوين أكاسيد النيتروجين التي يهبط بها المطر أو الثلج إلى التربة، ويستفيد منها النبات، وتقدَّر كميَّة النيتروجين التي تحصل عليها التربة بهذه الطريقة في صورة نيترات بما

يقرب من خمسة أرطال للفدان الواحد سنوياً وهو ما يعادل ثلاثين رطلاً من نيترات الصوديوم، وهذه كميَّة تكفي لبدء نموّ النبات.

٨ ـ قال: ويلاحظ أن كميَّة النيتروجين الذي يثبته البرق تكوَّن في المناطق الإستوائية أكثر منها في المناطق المعتدلة الرطبة، وهذه بدورها تزيد على الكميَّة التي تتكوَّن في المناطق الجافَّة الصحراوية ومن ذلك نرىٰ أن النيتروجين يوزَّع على المناطق الجغرافية المختلفة بصورة متفاوتة تبعاً لمدىٰ احتياج كل منطقة منها لهذا العنصر الهام. فمن الذي دبَّر كل ذلك؟ إنه المدبِّر الأعظم.

٩ ـ . . . . . ثم قال: ومن الطبيعي أن يتساءل الإنسان بعد كل ذلك: لماذا وُجدت هذه القوانين؟ ولماذا قامت بين الأشياء المختلفة ومن بينها التربة والنبات تلك العلاقات العديدة التي تتَّسم بذلك التوافق الرائع بين القوانين مما يؤدي إلى تحقيق النفع والفائدة إننا نعترف بأننا وقد وصلنا إلى هذا الحدّ من التفكير قد اقتربنا من الحدّ الفاصل بين العلوم والفلسفة. فكيف نفسِّر كل ذلك النظام والإبداع الذي يسود هذا الكون؟

هنالك حالان: فإما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة وهو ما لا يتَّفق مع المنطق أو الخبرة وما لا يتفق في الوقت نفسه مع قوانين الديناميكا الحرارية التي يأخذ بها الحديثون من رجال العلوم. وإما أن يكون هذا النظام قد وُضع بعد تفكير وتدبُّر وهو الرأي الذي يقبله العقل والمنطق، وهكذا نرىٰ أن العلاقة بين النبات والتربة تشير إلى حكمة الخالق، وتدل على بديع تدبيره. . . . فممَّا لا شك فيه أن هنالك حكمة وتصميماً وراء كل شيء سواء في السماء التي فوقنا أو الأرض التي من تحتنا. إن إنكار وجود المصمِّم والمبدع الأعظم يشبه في تجافيه مع العقل والمنطق ما يحدث عندما يبصر الإنسان حقلاً

رائعاً يموج بنباتات القمح الصفراء الجميلة ثم ينكر في الوقت نفسه وجود الفلاّح الذي زرعه والذي يسكن في البيت الذي يقوم بجوار الحقل[1].

١٠ ـ قال عالم غربي: .... ومن ذلك نرىٰ أن جميع النباتات والحيوانات لم تخلق لكي تعيش في بيئة ثابتة محدَّدة الأوصاف، بل إن لديها من الاستعدادات ما يجعلها قادرة على مسايرة الأجواء، والظروف الأخرىٰ في حالة الضرورة والإضطرار، وتعنى دراسة الوراثة بمعرفة مدىٰ استعداد الحيوانات والنباتات المختلفة لهذه الملاءمة.... وقد كان يخيَّل إليَّ كأنما توجد قوَّة أخرىٰ في هذا الكون تعمل في اتّجاه عكسي، وتمنع أو على الأقل تحول دون استفادة الإنسان فائدة كاملة من النباتات والحيوانات فهنالك مثلاً كثير من النمل، وقليل من النحل مما ينجم عنه ضعف في محصولاتنا كما نلاحظ أن التربة يتناقص خصبها تدريجاً ومع ذلك فإنها تنتج كثيراً من العشب القويّ فلماذا يحدث كل ذلك؟ إن الطبيعة لم تعطنا الإجابة عن هذا السؤال ولكني عثرتُ على هذه الإجابة في الكتاب المقدس: إنه غضب الله ينزل بالتربة والطبيعة بسبب أخطاء الناس ومع ذلك فلا يزال هنالك من الخير في كثير من المخلوقات ما يسمح بظهور قدرة الله العجيبة وحكمته البالغة، وعلينا نحن في حدود طاقتنا أن نساعد على عودة الأرض إلى حالتها الأولى من الجمال والكمال.

١١ ـ قال لسزجون الاختصاصي في التربة: إننا جميعاً نتحوَّل إلى فلاسفة في بعض الأحيان. فقد نسير بجوار حقل من القمح، ونشاهد الحدائق وسيارات النقل تفيض بما تحمله من الخضر المتنوّعة ونرىٰ الفاكهة الناضجة، والأعناب اليانعة ونعجب بجمال الخريف في الغابات

(١) الله يتجلّى في عصر العلم.

وألوانه التي تشبه ألسنة اللهب، ثم لا نلبث أن نسأل أنفسنا: «من أين جاء هذا».

لقد قال عيسى ﷺ يوماً لتلاميذه: «ما لم تنزل حبَّة القمح إلى الأرض ويمسُّها الموت، فإنها لا تستطيع أن تعطي الثمار» لقد كان عيسى خبيراً وحكيماً فيما رمىٰ إليه، فلقد ذكر في لغة سهلة واضحة إحدىٰ حقائق الطبيعة وعجائبها وهي أن حبَّة القمح لا بدَّ أن تتعرض للموت قبل أن تبزغ منها الحياة.

ولكن لا بدَّ أن يكون هنالك ماء حتى تقوم الحياة، ولا بدَّ أن يكون هنالك مصدر للمواد الغذائية التي يحتاج إليها النبات والعناصر والمركَّبات الكيماوية هي المواد الخام الميِّتة التي تمتصَّها النباتات فتحوِّلها داخل جسمها إلى مواد غذائية، وكذلك لا بدَّ أن يكون هنالك ضوء أو طاقة لكي تمدَّ النبات بالقوَّة اللازمة للنموِّ.

١٢ ـ ثم قال: فالحياة تحتاج إلى الماء لكي تعيش، وكما قال بارسون: إن الماء هو دم الحياة أو إكسيرها الذي يجري في الأرض. فمعظم العلميات الكيماوية اللازمة للحياة والنموّ تحتاج إلى الماء أو تؤدي إلى تكوين الماء. والماء يذيب كثيراً من المواد، فتهيِّىء بذلك السبيل لحدوث التفاعلات الكيماوية الضرورية داخل النبات، وهو متوافر في معظم الأماكن، ودورته التي تمدُّ به الأرض وما عليها من الكائنات دورة مستمرَّة أبدَ الدهر لا تنتهي ولا تنقطع. وتتكوَّن جميع المواد من عناصر كيماوية. ومصدر العناصر الأساسيَّة لنموِّ النبات هو التربة والهواء، فمن أين جاءت التربة؟ وكيف تحتفظ بما تحتاج إليه النباتات من المواد الغذائية؟

١٣ ـ قال لورنس الاختصاصي علوم الغابات وغيرها:

.... وهناك ظاهرة أخرىٰ من الظواهر التي شوهدت في هذه

الغابات، (فالقان الأبيض) وهو عادة من الأعشاب التي تنمو بكثرة من تلقاء نفسها، وتجود زراعتها إلى حد بعيد في مناطق السهول، تنمو تحت جذوره في حضانتها نباتات الصنوبر البيضاء التي تكون في هذه الحالة كثيفة (يعني غليظة) غاية الكثافة. وقد لوحظ أن أعراض نقص «البوتاسيوم» (وهو عنصر أرضي لغذاء النبات) لا تظهر على الأشجار الصنوبرية التي تنمو بجوار أشجار (القان)، وأثبتت تحاليل التربة والأوراق أن نسبة (البوتاسيوم) القابل للإمتصاص كانت تحت هذه الظروف ثلاثة أمثالها في الأرض الخالية من أشجار (القان) مما يثبت أن لأشجار (القان) قدرة كبيرة على تحديد خصوبة التربة التي تكون عناصرها قد استنزفت بسبب الإجهاد المترتب على طول فترات زراعتها، ولا شك أن هذه التغذية المعدنية تعتبر همزة الوصل التي يستخدمها الإنسان لكي يحوّل المواد العضوية الميّتة إلى عالم الحياة.

١٤ ـ ومن الظواهر العجيبة الأخرىٰ التي شوهدت في وادي كوبيكتيكت ما لوحظ من أن شجر السّدر الأحمر يستطيع بمصاحبة خرطون الأرض (وهو من الدود) أن يزيد من نسبة عنصر (الكلسيوم) بالتربة فأوراق السِّدر الأحمر تتساقط على قاع الغابة، وعندئذٍ تنجذب ديدان الأرض إليها بسبب ارتفاع نسبة (الكلسيوم) بها، وسرعان ما تلتهم الديدان هذه الأوراق وتهضمها وبذلك تطلق في التربة عنصر «الكلسيوم» في صورة يسهل على النبات امتصاصها والإستفادة منها. قال: ولا تقتصر فائدة السِّدر الأحمر على الناحية الغذائية وحدها، بل إنه يؤدي إلى تحسين جميع الخواص الطبيعية للتربة مثل مساميتها وسرعة رشح الماء خلالها، وقدرتها على الإحتفاظ بالماء، ومنسوب الماء فيها.

١٥ ـ ثم قال: تحتوي النباتات على هرمونات تقوم بأداء وظائف مختلفة فيها ومن فصيلة هذه الهرمونات مركب صناعي اسمه (٢ ـ ٤ ـ

٥ ـ ت) يقوم بإنضاج ثمار الطماطم، ويمنع استنبات البطاطس عند خزنه ويؤدي إلى سرعة نموّ الأجزاء الجذرية عند زراعتها، وربما يقوم بغير ذلك من الوظائف الحيويَّة العديدة التي لم نكتشفها بعد. وهذا الهرمون أو بعبارة أصح: هذا المنظم لعملية النموّ (لأنه في الواقع مركب صناعي عضوي له خواص الهرمونات) لا تزال تجري عليه البحوث والتجارب لمعرفة خواصّه وآثاره المختلفة في حياة النبات ونموّه. والمعنى الذي نحب أن نشير إليه في هذا المقام وهو أن ظهور مركبات من أمثال هذا المركب في الطبيعة مما أبدعه الخالق الأعظم مشابهة لما استطاع الإنسان أن يقوم بتركيبه في المعمل بعد تفكير وتدبير يعدُّ دليلاً على ما يسود هذا الخلق من نظام وتدبير.

١٦ ـ ثم قال: ويهمنا في هذا المقام الطريق التي يسلكها النظير المشع لهذا المركب داخل أشجار الغابات فذرَّة الكربون الأخيرة (ك ١٢) الداخلة في تكوين هذا المركب يمكن أن تستبدل بنظيرتها (ك ١٤) بطريقة صناعية وعندئذ يمكننا استخدام هذا المركب الجديد لكي نحدِّد بكل دقَّة الطريق التي يسلكها عند انتقاله من الأوراق إلى الساق إلى الجذور، بل يمكن فوق ذلك أن نعيِّن معدل حركته داخل النبات، وقد يعدُّ ذلك من وجهة نظر الخارجين على الدين مظهراً لروعة الطبيعة أما بالنسبة لنا فإنه دليل على قوَّة الله الموجهة التي توجه كل ذرة إلى حيث ينبغي أن تكون، وترسم طريقها، وتحدُّد مستقرها.

ومن عجائب ما تكشف عنه هذه الدراسات ما تبيَّن من أن هذا الهرمون يبقىٰ ثابتاً لا يتغيَّر داخل النبات برغم ما يقوم به من التفاعلات العديدة، فقد وجد أن نسبة ما يتحوَّل منه إلى مركبات كيماوية أخرىٰ لا يزيد (١٠٪) وأعجب من ذلك أنه مهما تغيرت الكميَّة التي توضع منه على سطح الأوراق، فإنه لا يمتصُّ منه إلا قدراً ضئيلاً. فالنبات لا يحتاج منه في أداء وظائفه التي تتَّصل بعمليات

التحوُّل الغذائي إلا إلى قدر يسير. أفلا يدل كل ذلك على نظام دقيق عجيب رسمه خالق قادر مدبِّر؟

١٧ ـ ثم قال في آخر محاضرته: إن تلك التفاعلات الدقيقة، والحركة المنظَّمة والخضوع لقوانين ثابتة مما تكشف عنه هذه التفاعلات، وأمثالها التي لا يحصيها عدّ ولا حصر، ليست إلا دليلاً وشاهداً على أن الكون منظم غاية التنظيم مما أطلق عليه هجلز «نظرية كمال الكون»، فذرَّة الكربون (ك ١٤) في المركب العضوي، والإلكترون الذي يشع منها على ورقة الترشيح يعدَّان من وجهة نظر الباحث الأمين دليلاً على أنه ليس هنالك تناقض بين العلوم وبين فكرة وجود الله الذي قدَّر كل شيء فاحسن تقديره، والذي ظهرت آياته للناس في ثنايا ما تكشف عنه العلوم، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً، وكما قال الفيلسوف بول: «إن قدرة الله تتجلَّى في كل شيء. وكل شيء يقوم بقدرته» وكما يقول فيليبس في تعليقه على هذا الكلام: «لقد ظهر الحق فمنذ بدأ الله هذا الكون تتجلَّى آياتُه وقوَّتُه الخالدة في كل ما يقع عليه الحسُّ أو يحيط به العقل».

بعض الأدلّة على توحيده تعالى

وحدانيّته تعالى:

وهي: الإعتقاد بأنّ الله تعالى واحد ليس له شريك، وأوضح ما يدلّ عليها:

أولاً: وحدة الآثار:

أي إنّ كل شيء إذا كان يدبّره أكثر من واحد لا بدّ أن يظهر أثر كل واحد منهم فيه، فينسب كل أثر إلى مؤثره.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على ما في هذا الكون من مخلوقات لم نجد شيئاً ينسب إلى غير الله تعالى، ولو كان غيره قد خلق بعض ما في هذا الكون لكانت له آثار تدل عليه، ولأرسل رسلاً للهداية إليه، ولما لم يكن شيء من المخلوقات ينسب إلى غير الله تعالى، ولما لم يكن فيها أثر يدل على غيره كما لم يدع أي من الرسل ﷺ إلى إله غير الله تعالى، وقد كانت دعوتهم جميعاً إلى إله واحد لا شريك له.

من جميع ذلك ندرك أنّ الله واحد لا شريك له، وهذا ما يعبّر عنه بالقول المشهور (وحدة الأثر تدلّ على وحدة المؤثّر).

وقد جاء ذلك في وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام قال:

«اعلم يا بني لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، ولرأيت أثر ملكه، وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد».

كما تدلّ على وحدانيته تعالى الآية الكريمة: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾ [المؤمنون: ٩١] فهي صريحة في عدم وجود شريك له تعالى، وإلاّ لوجدنا مخلوقات لذلك الشريك، ولحاول كل منهما التغلب على شريكه فعدم ذلك دليل على عدم الشريك.

الدليل الثاني على وحدانيته تعالى:

وحدة النظام الكوني واستقامته.

ويظهر ذلك مما نلاحظه في موجودات هذا الكون من تشابه واستقامة مما يدل على أنّ خالقها واحد لا شريك له.

فمثلاً: تكوين جميع الكائنات الحية من خلايا صغيرة جداً، وهذه الخلايا مكوّنة من عناصر أساسية مشتركة في جميع الكائنات الحية، فهي في الحيوان الصغير جداً، هي نفسها في أكبر الحيوانات، وهي في أصغر النباتات عينها في أكبرها حتماً.

فوحدة المخلوقات تدلّ على وحدة الخالق سبحانه، كما أنّ ما في الكون من استقامة، وتنظيم عجيب ـ كما تقدمت الإشارة إليه في البحوث السابقة ـ يدل هذا التنظيم وهذا التناسق في هذا العالم على وحدانيته سبحانه، لأنّه لو لم يكن خالق ذلك واحداً لاختلت أنظمة بعض ما في هذا الكون من مخلوقات، لاختلاف رغبة كل شريك عن غيره، فعدم أي شيء من ذلك يدل بالتأكيد على وحدة الخالق تبارك وتعالى.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فهي صريحة في أنّه لو كان في السماء أو الأرض إله غير الله لأدّى ذلك إلى عدم استقامة ما فيهما ولما كان كل ما فيهما مستقيماً دلّ ذلك على وحدانيته عزّ وجلّ.

وقد قال أمير المؤمنين في نهج البلاغة: ولو فكّروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة ألا ينظرون إلى صغير ما خلق، كيف أحكم خلقه وأتقن تركيبه وفلق له السمع والبصر، وسوّى له العظم والبشر، أنظر إلى النملة في صغر جثّتها ولطافه هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبّت على أرضها.... ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلّتك الدلالة إلا أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شيء، وغامض اختلاف كل حي، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء، كذلك السماء والهواء والرياح والماء فانظر إلى الشمس والقمر والنبات والشجر والماء والحجر، واختلاف هذا الليل والنهار، وتفجُّر هذه البحار. وكثرة هذه الجبال وطول هذه القلال، وتفرق هذه اللغات والألسن المختلفات فالويل لمن جحد المقدِّر، وأنكر المدبِّر زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع ولا لاختلاف صورهم صانع ولم يلجأوا إلى حجّة فيما ادَّعوا، ولا تحقيق لما أوعوا، وهل يكون بناء من غير بان، أو جناية من غير جان....

والمراد بالتفكّر: إعمال النظر في الشيء، والجسيم العظيم، والبصائر جمع البصيرة والبصر بالتحريك: العلم والخبرة، والدخل بالتحريك: ما داخلك من فساد في عقل أو جسم والعيب والريبة يقال: هذا الأمر فيه دخل ودغل بمعنى، والإحكام: الإتقان. واللحظ: النظر بمؤخر العين وهو أشد التفاتاً من الشزر فانظر إلى الشمس والقمر الخ:

أي تدبر فيما أودع في هذه الأشياء من غرائب الصنعة ولطائف الحكمة. واختلاف الليل والنهار: تعاقبهما ومجيء أحدهما بعد ذهاب الآخر ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحج: ٦١] وفجّر الماء: فتح له طريقاً فتفجَّر أي جرى وسال، والبحار: الأنهار العظيمة أو البحار المعروفة وتفجُّرها: جريانها لو وجدت طريقاً، والقلال كجبال جمع قُلَّة بالضم وهي أعلى الجبل وقيل: هي الجبل، وتفرق اللغات: اختلافها وتباينها كما قال عز وجل: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ [الروم: ٢٢] والويل الحزن والهلاك والمشقة من العذاب، والنبات: ما ينبت في الصحارى والجبال من غير زرع وليس المراد أن النبات ليس له مقدِّر ومدبّر أصلاً وقيل: المراد أنهم قاسوا أنفسهم على النبات الذي جعلوا من الأصول المسلَّمة أنه لا مقدِّر له بل ينبت بنفسه من غير مدبِّر، وذكر ﷺ الإختلاف في الصور لأنه من الدلائل الواضحة على وجود الصانع لم يلجأوا: أي لم يستندوا والغرض أنهم استندوا في دعواهم إلى قياس باطل وظن ضعيف وأوعى الشيء، ووعاه: أي حفظه وجمعه أي لم يرتبوا العلوم الضرورية ولم يحصِّلوا المقدمات على وجهها حتى تفضي إلى نتيجة صحيحة، وجنى فلان أي جرَّ جريرة على نفسه وقومه، وجنيتُ الثمرة: أي اقتطفتها.

آياته في تنسيق نظام الكون

قال تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ٣-٤]، من السبل التي سلكها علماء العقيدة والفلسفة للوصول إلى وحدانية ذات الله المقدسة هي دراسة عالم الوجود الذي هو عبارة عن مجموعة متناسقة، وكتلة مترابطة هذه الوحدة وهذا التناسق ينبئان عن وحدانية الخالق سبحانه ولذا أطلق على هذا الدليل «برهان الوحدة والتناسق» وهو من أفضل دلائل التوحيد التي استندت إلى الآيات القرآنية. وبعد هذا التمهيد القصير نشرح هذا الموضوع في أقسام وهي ما يلي:

الأول: تقول الآية المتقدمة إن هذا العالم الواسع بكل ما يتضمنه من عظمة فهو متناسق ومنسجم ومترابط ومتّحد ومنظّم، وإن وجود الإختلاف في اللون والشكل والوزن وسائر الكيفيات الظاهرية والباطنية أو الكمية أمر طبيعي جداً، ولكن الشيء الذي لا وجود له هو الإختلال وعدم النظام وعدم التناسق.

والآية الكريمة تأمر بالنظر الدقيق والعميق والمخاطب في الآية وإن كان هو النبيﷺ ولكن من الواضح أن المراد هم البشر جميعاً وبهذا يقوم القرآن الكريم وبتعابير مختلفة بدعوة البشر إلى النظر في عالم الوجود ولا يكتفي بهذه الدعوة بل يرغبهم ويحرّكهم ويحرّضهم

على النظر الدقيق والتأمل جيداً كي يعلموا أنهم لا يجدون خللاً أو نقصاً في هذا الوجود وعندما لا يرون ذلك فسوق يتعرفون على حقيقة توحيد المبدأ والوحدانية ويرددون جملة «لا إله إلا الله» قلباً ولساناً.

القسم الثاني: من آيات تنسيق نظام الكون هو: «قانون التغيُّر»

وفيه فروع:

١ ـ قال في نفحات القرآن: إن عالمنا الذي نعيش فيه في تغيُّر دائم فلا يبقى الوجود على حالة واحدة، وكل شيء يعيش حالة من التغيّر.

ويبدو أن نطاق حياة البشر والحيوانات والنباتات المقترنة بالتغيير والحركة أوسع وليس بوسع أحد أن ينكر هذا التغيير والتبدّل على صعيد نفسه أو على صعيد عالم المادة فالإنسان يواجه مشاهد مختلفة عن هذا التغيير ليلاً ونهاراً، بل إن ظاهرتي (الليل والنهار) هما من أوضح النماذج عن التغيير والتبدل في العالم.

هذه التغييرات والحركات التي تحكم العالم تدل بوضوح على وجود مركز ثابت تنشأ منه هذه التغيُّرات والحركات كلها، وكأن الجميع يدور حول هذا المركز الثابت على محيط دائرة.

والتغيير والحركة في الموجودات هما في الأساس شاهدان ساطعان على حدوثها كما أن حدوثها دليل على وجود خالقها.

٢ ـ يقول القياس المنطقي: (العالم متغير وكل متغير حادث) النتيجة :

العالم حادث

وهذا القياس يثبت حدوث هذا العالم بدليل أنه متغير لأنه لو

كان أزليّاً وقديماً لما تغيّر وقد استند الكثير من المتكلمين (علماء العقيدة) على هذا الدليل (دليل التغيّر) لإثبات وجود الله دون ملاحظة (نظرية الحركة الجوهرية) لأن التغيُّرات التي تشاهد في ظاهر الموجودات في العالم باستمرار تكفي لإثبات آرائهم وللإيضاح نقول: لا يبقىٰ في عالم المادة شيء على حالة واحدة فكل الأشياء (دون استثناء) في حالة تغيّر.

وإن هذا الإستدلال وبملاحظة النظريات الجديدة بشأن المادة يتقدم بصورة أوضح فكل مادة «وفق النظريات الفيزيائية الجديدة» تتركب من ذرات والذرَّة عبارة عن مجموعة من الحركات، وكل حركة أمر حادث (فالمادة إذن) والتي هي عبارة عن مجموعة حركات (الإلكترونات) و(البروتونات) لا يمكن أن تكون أزلية، وبعبارة أخرىٰ: إن كل حركة لها بداية ونهاية، وكل ما له بداية ونهاية لا يكون أزلياً. هذه مسألة جاءت بشكل جميل في حديث الإمام الصادق عليه السلام.

في مواجهة مع (ابن أبي العوجاء) حيث قال له الإمام عليه السلام: إسأل ما شئت فقال (إبن أبي العوجاء): ما الدليل على حدث الأجسام؟ فقال الإمام عليه السلام: «إني ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا إذا ضم إليه مثله صار أكبر وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولىٰ، ولو كان قديماً ما زال ولا حال لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأزل دخوله في القدم، ولن تجتمع صفة الأزل والحدوث والقدم والعدم في شيء واحد» البحار.

٣ ـ الأفول: وفي معناه قولان:

١ ـ الإختفاء وهو لجمع من اللغويين. ٢ ـ اختفاء الأجسام النيّرة كالشمس والقمر وهو للراغب في المفردات قال في نفحات القرآن:

والصحيح هو ما يذهب إليه الراغب لأن هذا المعنى هو المتبادر من إطلاق هذا اللفظ كما أنه ذو معنى كنائي في بعض المجالات، فمثلاً يعبَّر عن موت العالم بـ (الأفول) وفي ذلك (في الحقيقة) تشبيه بالشمس أو النجم والتعبير بالأفول والغروب هو بهذا اللحاظ.

والأفول هو دليل إبراهيم عليه السلام في إبطال مذهب عبدة النجوم قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الانعام: ٧٦] قال في النفحات: التعبير بـ (رأى كوكباً) مع أن النجوم كثيرة تظهر في الليل فيه إشارة إلى نجم كبير ولامع ألفت نظره إليه، وبما أن كوكب (الزهرة) يظهر أول الليل و(كوكب) يعني (النجم عند طلوعه) يتأيَّد بذلك التفسير الذي يميل إليه أغلب المفسرين وهو أن النجم كان الزهرة أو المشتري اللذين كانا يعتبران في العصور القديمة من الآلهة المعبودة عند المشركين وخاصة ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في إحدى الروايات بأن هذا النجم هو: كوكب الزهرة. وعلى كلِّ حال فإن هذا النجم لم يدم طويلاً حتى أفل فقال إبراهيم «... لا أحب الآفلين».

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ [الانعام: ٧٧]... مرة أخرى إلتفت إبراهيم إلى طلوع (القمر) من وراء الأفق فأضاء السماء والأرض بنوره الأخّاذ والجميل فقال إبراهيم ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ولكن لم يدم طويلاً حتى تعرض القمر إلى مصير النجم واختفىٰ وراء الأفق وترك السماء في ظلام مرة أخرىٰ عندئذ قال إبراهيم عليه السلام الذي كان يسعىٰ للوصول إلى وحدة المعبود والرب الحقيقي ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الانعام: ٧٧] وبهذه الطريقة أوضح أن سعي الإنسان لا يكفي للوصول إلى الحق بل يجب أن يشمله الإمداد الإلهي كي لا يكون من الضآلين، ومن المؤكد أن هذا الإمداد يشمل الذين يجهدون أنفسهم في ابتغاء الحق، الله سبحانه. وأخيراً انتهى الليل

وأخذ الظلام يلمُّ ستائره، وفرَّ من صفحة السماء وبزغت الشمس فجأة بوجهها النيّر المتلألىء من الشرق وألقت بأشعتها الذهبية على الجبال والصحارىٰ، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ﴾ [الأنعام: ٧٨]، ولكن بانتهاء النهار وسقوط الشمس في جوف الليل المظلم واختفاء صورتها خلف حجاب الغروب نادى إبراهيم ﷺ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨].

قال في النفحات: لقد أدرك من أفول هذه الموجودات وغروبها أنها ليست سوى مخلوقات خاضعة لقوانين الخلق والتغيُّرات بما فيها الأفول والغروب ومن ذلك فهم أن وراء هذا المشهد قدرة خفية ثابتة لا سبيل للأفول والغروب والتغيُّر إلىٰ «ذاته المقدَّسة» أبداً.

علاقة الأفول بالحدوث:

لقد استدل إبراهيم ﷺ بأفول الكواكب والشمس وغروبها على نفي ألوهيَّتها وقال بأن هذه الموجودات لا يمكنها أن تكون آلهة للعالم والكلام هنا كيف يمكن توضيح هذه العلاقة؟ توجد هنا آراء مختلفة منها:

١ ـ (الأفول) علامة التغيير والتغيير، دليل على نقص الموجود لأن الموجود الكامل من كل جهاته لا تُتَصوَّر فيه الحركة ولا التغيير لأنه لا يفقد شيئاً ولا يكتسب شيئاً فهو الكامل المطلق وعلى ذلك فإن الموجودات المتغيرة والمتحركة تكون ناقصة حتماً فهي إما تفقد كمالاً أو إنها تبحث عن كمال جديد والموجود الناقص لا يمكن أن يكون واجب الوجود.

٢ ـ الموجود المقرون بـ(الأفول) معرَّض للحوادث وكل ما هو معرَّض للحوادث لا يمكن أن يكون قديماً وأزلياً وبين هذين حالة تضاد (تأمل جيداً).

ينقل (الفخر الرازي) عن بعض المحققين: إن استدلال إبراهيم عليه السلام من السموّ والشمول ما يجعله مورداً لاستفادة الخاصة والمتوسطين والعوام أما الخاصة فإنهم يفهمون حقيقة (الإمكان) من (الأفول) وكل موجود ممكن هو بحاجة إلى الخالق، وهذه سلسلة متصلة حتى تنتهي بالطاهر المنزّه من الإمكان، ولا سبيل إلى ذاته كما نقرأ في موضع آخر ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: ٤٢] وأما المتوسطون فإنهم يفهمون من الأفول مطلق الحركة، وإن كل متحرّك حادث وكل حادث محتاج إلى وجود القديم الأزلي، أما العوام فإنهم يفهمون الغروب من الأفول، ويشاهدون الشمس والقمر والكواكب تُمحىٰ وتضمحل عند الغروب وتزول سلطتها وحكومتها، ومثل هذه الأشياء لا تصلح للألوهيَّة، إذن جملة (لا أحب الآفلين) كلام يستفيد منه (المقربون) و(أصحاب اليمين) و(أصحاب الشمال) وهذا أكمل وأوضح برهان[1].

القسم الثالث: من آيات تنسيق نظام الكون (قانون الحركة):

وفيها فروع:

١ ـ تعريفها: أ ـ خروج الشيء من القوة إلى الفعل بصورة تدريجية. ب ـ الزوال والحدوث المستمر. ج ـ حصول الجسم في مكان بعد حصوله في مكان آخر.

عندما تتساقط قطرات المطر من السماء فالنتيجة هي أما أن ينبت نبات أو ينضج ثمر تدريجياً وفي هذه الموارد يكون للجسم وضع فعلي كما أن له قابلية في ذات الوقت لاتخاذ وضع آخر، وعندما يفقد الوضع الموجود تدريجياً ويتقبل وضعاً جديداً (ما كان فيه بالقوَّة يصبح

(١) تفسير الرازي: ج١٣ ص٥٢.

فعلياً) فإن ذلك الموجود وفق سلسلة من الزوال والحدوث المستمر يكون قد انتقل من حال إلى حال غير أن هذا لا يعني أن الحركة مركبة من أجزاء إسمها (السكون) أو أنها مركبة من (الوجود والعدم) بل إن الحركة أمر واحد مستمر في الخارج وله أجزاء في التحليل العقلي (كذا قيل).

٢ ـ وجود الحركة: لا توجد أي مشكلة عندنا في إثبات وجود الحركة بل نعدُّ وجودها من الأمور البديهية، حيث نلاحظ بأم أعيننا وبوضوح ونحس بحواسنا الأخرىٰ باستمرار وجود حركات في الخارج، وعليه فإن أدلة المنكرين لوجود الحركة لا قيمة لها، وإنها تجابه أمراً بديهياً وذلك لأننا لا يمكن أن نعتبر الماء الجاري في النهر أو التفاحة التي تنضج في الشجرة تدريجياً أو عندما نركب السيارة، ونسافر من مدينة إلى أخرىٰ أموراً خيالية قد ابتلينا بها، وأنها أمور ذهنية وليست خارجية لأن هذا الأمر هو أشبه بإنكار البديهيات ونحن في غنىٰ عن الإستدلال ضده.

٣ ـ أركان الحركة وهي ستة: المبدأ. الغاية. المحرُك. المتحرِّك. موضوع الحركة. زمن الحركة، ذكرها الفلاسفة.

إن هذه الأركان الستة تطابق نظرية شهيرة ذهب إليها الأقدمون وعليه فإنا لا نحتاج إلى موضوع للحركة بعد الإقرار بالحركة الجوهرية.

٤ ـ مجالات الحركة: كان الفلاسفة في السابق يعتقدون بأن الحركة تحدث في أربع مقولات من مجموع تسع مقولات عرضية وهي:

أ ـ الحركة في (المكان) نظير حركة قطرات المطر وحركة السيارة في الطريق.

ب ـ الحركة في (الكميَّة) نظير زيادة حجم النبات النامي.

ج ـ الحركة في (الوضع) نظير حركة الأرض حول نفسها.

د ـ الحركة في (الكيفية) نظير التغير التدريجي في لون وطعم ورائحة الفاكهة في الشجرة.

القسم الرابع: من آيات تنسيق نظام الكون (وحدة عالم الخلق):

عندما نلاحظ هذا العالم الواسع نراه على شكل موجودات متفرقة: الشمس، القمر، النجوم الثابتة والمتحركة، الإنسان: الحيوانات، أنواع النباتات، والعناصر المختلفة، ولكن بعد شيء من الدقّة والدراسة نجد أن ذرات هذا العالم مترابطة ومتّصلة الأجزاء حتى تبدو وكأنها واحد، وكلما تعمَّقت دراستنا وتركَّزت ازددنا إيماناً بهذه الوحدة والإتحاد.

قالوا للأسباب التالية:

١ ـ إن أجرام المجموعة الشمسية مترابطة فيما بينها إلى حد تكون فيه كأسرة واحدة كما هي عليه نظريات العلماء التي تعتقد أنها كانت في البداية شيئاً واحداً متصل الأجزاء، ثم انفصلت تدريجياً وبقيت مترابطة حتى بعد افتراقها. وتقول الأبحاث الفلكية في هذا المجال: إن مجموعتنا الشمسية غير مستقلة أيضاً حيث إنها جزء من مجرَّة كبيرة تشكل مع المجرات الأخرىٰ مجموعة واحدة يعمل فيها قانون الجاذبية حيث يجعلها كسلسلة مترابطة الحلقات كما يعتقد العلماء بأن هذه المجرَّات كانت بأجمعها شيئاً واحداً متصلاً فانفصلت أجزاؤها تدريجاً.

٢ ـ الأجسام المختلفة والمتباينة تماماً تتركب (كما يبدو بالتحليل النهائي لها) من عدد من العناصر المعينة وهي تلك الموجودات البسيطة التي اكتشف منها أكثر من (١٠٠) عنصر لحد الآن، وهذه العناصر

رغم اختلافها الشديد في الظاهر نراها عند تحليلها إلى أصغر أجزائه (أي الذرَّة) إنها متشابهة والفارق فيها هو عدد الإلكترونات والبروتونات.

٣ ـ من العجيب أن يكون النظام الحاكم على هذه الذرَّة هو الحاكم على العالم الواسع أي المجموعات والمجرات أيضاً حيث تجمع قوَّة الجذب والطرد هذه السيارات في مجموعة واحدة أو الإلكترونات في ذرة واحدة وفي مدارات خاصة تدور حول النواة الأصلية دون أن تنفصل عن بعضها أو تتجاذب فيما بينها.

٤ ـ الكائنات في الأرض، وإن بدت لنا متنوّعة، كما في الألوان التي نشاهدها شديدة الإختلاف فيما بينها إلا أننا وبالتحليل النهائي نصل إلى أن كل الألوان ترجع إلى أمواج تختلف في شدة ذبذبتها وطول أمواجها وقصرها.

٥ ـ إننا نسمع أصواتاً مختلفة تماماً ولكن علم الفيزياء الحديث يقول: بأن هذه الأصوات كلها الجميلة منها والقبيحة، الخفيفة والصاخبة ترجع إلى مبدأ واحد هو عبارة عن أمواج خاصة، تنشأ هذه الأنواع من اختلاف الذبذبة فيها.

٦ ـ للأحياء أنواع كثيرة جداً فالحشرات وحدها لها مئات الآلاف من الأنواع والنباتات لها أنواع تفوق ذلك، غير أن علماء النبات والحيوان يقولون: إنها مركبة من مادة واحدة ومؤلفة من الخلايا التي يحكمها نظام واحد، ولذا تجرب الأدوية التي يراد معرفة درجة تأثيرها في الإنسان على حيوانات أولاً في الغالب.

٧ ـ توصل العلماء من خلال تحليل النور المنبعث من الكواكب البعيدة والقريبة إلى هذه النتيجة وهي: إن العناصر التي تتركب منها الكواكب السماوية تشابه الأجزاء التي تتركب منها كرتنا الأرضية وهذا

يعني وجود تناسق عجيب حاكم على مجموعة الأجرام والنجوم في الكون.

٨ ـ القوانين المختلفة التي تحكم الكون قانون الجاذبية وسرعة النور وقانون الحركة وأمثالها توجد بنفسها في كل مكان وتتبع منهجاً واحداً.

وباختصار في الآية الأولى ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [المُلك: ٣] من آيات هذا القسم، أننا لا نرىٰ أي اختلاف في خلق الرحمن ولا فطور أو خلل، وكلما تقدم العلم والفكر البشري كلما تجلَّت عظمة هذه الآية وعمقها أكثر فأكثر. وهذا التناسق والوحدة دليل واضح على وحدة الخالق للعالم. (قاله في نفحات القرآن).

القسم الخامس، من آيات تنسيق نظام الكون (النور وسرعته):

من الطرق الهامة في تفهيم الحقائق المعقدة هو استعمال التشبيهات البليغة بغية تقريب الحقائق العلمية إلى الذهن بضرب الأمثلة الحسية حتى يفهم الإنسان التدبر في معنى النور وصفاته وخصائصه وبركاته ولا ريب في أن النور من أجمل الموجودات المادية وألطفها وأكثر بركة، وتنتشر منه البركات والجمال في عالم المادة. فنور الشمس هو منبع الحياة والسر في بقاء الموجودات الحية والعنصر الفاعل في نمو النبات والزهور وجميع الأحياء، والنور هو المصدر الأساس للطاقات نظير حركة الرياح وهطول الأمطار والنور هو العنصر الأساس في وجود المحروقات (البترول والفحم الحجري) ولو تبدَّل نور الشمس إلى ظلام فسوف تتوقف كل حركة في العالم.

والنور واسطة لمشاهدة الموجودات المختلفة والمظهر لها، هذا وإن حركة الأمواج والذرَّات الضوئية هي أسرع الحركات المتصوَّرة في

عالم المادة حيث تبلغ سرعتها (٣٠٠ ألف كم) في الثانية وهذا يعني أن النور يدور حول الأرض سبع مرات كلمح البصر.

وأخيراً فإن نور الشمس هو أفضل عامل على تلطيف البيئة والقضاء على مختلف أنواع الجراثيم الضارَّة، وإزالة الموانع عن طريق الحياة البشرية وبملاحظة هذه الخصائص التي يتصف بها النور المحسوس يتضح عمق تشبيه ذات الله المقدسة بالنور ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] نعم إن وجوده تعالىٰ هو النور الذي يظهر الموجودات، ويحفظها، ومنه تنبع الحياة المادية والمعنوية، ويصدر كل جمال في العالم، وكل حركة نحو الكمال تنبع من وجوده المقدَّس، وكل هداية تتحقق برعايته.

وهو الذي يرفع الموانع عن طريق عباده، وهو القائد للإنسان في طريق الكمال والقرب لذاته، وبكلمة واحدة كل ما في العالم قائم بذاته المقدَّسة.

القسم السادس: من آيات تنسيق نظام الكون (قانون الجاذبية):

من القوانين المختلفة التي تحكم هذا الكون هو قانون الجاذبية، فإن العلماء وبإجراء تجارب على نموذج واحد أو عدة نماذج في الأرض يكتشفون قانوناً شاملاً يحكم عالم الوجود كله كما نجد أن «نيوتن» إكتشف قانون الجاذبية من رؤية تفاحة تسقط من شجرة وقد انكشف أن هذا القانون يكون سارياً في كل شيء.

وهذه بعض المواضع التي يعمل فيها هذا القانون:

١ ـ المجموعات الشمسية بينها اتحاد وترابط بفضل الجاذبية ولولاها لتفكك هذا الاتحاد وتفرقت أجزاء تلك المجموعات ومثلها أجرام المجرات فإن الجاذبية جعلتها كسلسلة مترابطة الحلقات كما يعتقد العلماء.

٢ ـ جاذبية الشمس للأرض فإنها تؤدي إلى استمرار الأرض في دورانها في مدارها الثابت حول الشمس ولولا هذه الجاذبية لسقطت الأرض في إحدى زوايا هذا الفضاء اللامتناهي كالكرة المضطربة.

٣ ـ الجاذبية الموجودة في القمر راجع آيات القمر في المدّ والجزر.

٤ ـ الجاذبية الموجودة في الأرض من فوائدها أنها تمكّن الإنسان والحيوان من المشي عليها ولولا هذه الجاذبية لما كان لأحد أن يمشي على الأرض بل يكون كالريشة في مهب الريح بل لولاها لما سقطت الكرة التي يلعب بها في الرياضة، والجاذبية في الأرض هي التي تُحدِّدُ المكان الذي تصل إليه أمواج البحر (حين يصير المدّ) وتمنع ماء البحر من أن يطغىٰ على المدن ويتجاوز حدوده المعروفة.

القسم السابع: من آيات تنسيق نظام الكون (الشر والخير) وفيه فروع:

١ ـ في تعريفهما وما يتعلق به: قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] إن كلمة (الشرر) هنا ذات معنى واسع يشمل أنواع المصائب والأمراض والمشاكل والإبتلاء والفقر والفاقة، وإن كلمة (الخير) هنا ذات معنى واسع أيضاً يشمل جميع أنواع الإنتصارات والصحة والعافية والغنى وما يغنمه الإنسان من جوائز وغيرها.

وجملة (وإلينا ترجعون) المذكورة في ذيل الآية تُعدُّ إشارة لطيفة إلى حقيقة كون الدنيا دار ابتلاء واختبار لا دار مقر وخلود.

وقيل: الخير هو كل ما يتناغم مع وجودنا، ويسبب تكامله وتقدُّمه.

والشر: هو كل ما لا يتناغم معه، ويسبب الإنحطاط والتخلف ومن هنا يتضح جيداً بأن الخير والشر ذوا صبغة نسبيَّة فيمكن أن يكون أمر من الأمور خيراً لنا وشراً للآخرين أو خيراً لجميع الناس، وشراً بالنسبة لنوع من الحيوانات، كأن تظهر في السماء غيوم فتمطر السماء،

وتتلقح أشجار معينة ولكن نفس هذه الأمطار تسبب سيلاً في نقطة أخرىٰ، وتؤدي إلى الدمار أو يتهدَّم عش طائر بقطرات بسيطة من المطر في حين أنها تلطف لنا الجوّ فكل جماعة هنا تنظر إلى هذه الظاهرة بمقياس وجودها ومنافعها الخاصَّة وتسميها خيراً أو شراً. فإبرة الحشرات ومخالب وقواطع الحيوانات المفترسة خير بالنسبة لها لأنها وسيلة دفاعية أو للحصول على الصيد والغذاء، ولكن قد تكون شراً بالنسبة لنا نحن البشر. فليس من السهل الحكم على كون الحادثة المعينة شراً.

ومن جهة أخرىٰ يمكن تقسيم الخير والشر إلى ما يلي:

الخير المطلق: وهو الخير الخالي من أي صفة سلبيَّة. والشر المطلق: وهو الذي ليس له أي صفة إيجابية، ونادراً ما يوجد مصداق لهذين النوعين فغالباً ما نواجه أشياء أو حوادث أو ظواهر مركبة من صيغ إيجابية وسلبيَّة، فما فيها من صفات إيجابية أكثر تسمّىٰ: خيراً، وما فيها من صفات سلبيَّة أكثر تسمَّى: شراً، وإذا تعادلت صفات الخير والشر فيها لا خير ولا شر.

وقد قال الإمام الباقر عليه السلام: «إن الله يقول: أنا الله لا إله إلا أنا خالق الخير والشرُّ وهما خلقان من خلقي....»[1] وقال الصادق عليه السلام: «إني أنا الله لا إله إلا أنا خلقتُ الخلق، وخلقتُ الخير وأجريتُه على يدي من أُحب فطوبىٰ لمن أجريتُه على يديه وأنا الله لا إله إلاَّ أنا خلقت الخلق وخلقت الشرَّ وأجريتُه على يدي من أريده فويل لمن أجريتُه على يديه» أصول الكافي باب الخير والشر.

٢ ـ (الخيرات التي تأتي من الشرور) وهي ما يلي:

أ ـ كثيراً ما يتفق أن تصير الحوادث والظواهر (التي تُعدُّ شروراً في

---

(١) البحار.

الظاهر) منبعاً لخيرات وبركات مختلفة، فكثير من حالات الحرمان تصير سبباً في تفتُّح الإستعدادات والجهود العظيمة لأن الإنسان على أي حال ينتفض، ويجنّد جميع ما يمتلكه في باطن وجوده للحصول على ما يصبو إليه، وهذه المسألة بالذات ستصير سبباً في القفزات العلمية والإجتماعية، فكثير من الحرمان صار سبباً للوصول إلى اختراعات كبيرة، وكثير من حالات النقصان صارت مقدّمة إلى منابع مهمّة جديدة.

فالأشجار التي تنمو في المناطق الصخريَّة والنباتات البرية التي تنمو بالرغم من افتقارها لكثير من مسبِّبات النمو فهي أصلب عوداً وأقوىٰ وقوداً من النباتات التي تنمو على سواحل الأنهار بعدَّة أضعاف والبشر يخضعون لهذا القانون أيضاً فالبدو الذين يواجهون أنواع المشاكل دائماً، ويصارعون أنواع الحيوانات الوحشية، يتّصفون بالشجاعة والقوَّة وشدَّة التحمُّل في حين نجد سكّان المدن الذين يتمتعون بالنعم الوفيرة نجدهم ضعفاء بالقياس إلى البدو، وإلى ذلك أشار أمير المؤمنين علي في الكتاب الخامس والأربعين من نهج البلاغة في الإجابة على سؤال وُجِّه إليه وهو: كيفية قدرته ﷺ على مبارزة شجعان العرب بالرغم من تناوله أغذية بسيطة جداً؟: «ألا وإن الشجرة البرية أصلب عوداً. والروائع الخضرة أرقّ جلوداً والنباتات العِذْبة أقوىٰ وقوداً وأبطأ خموداً»[1].

ب ـ (معرفة النعم في المصائب): لا يمكن لأحد أن ينكر هذه الحقيقة وهي: عدم معرفة الإنسان قيمة النعمة عندما يكون غارقاً فيها. ولا يلتذ بها، ولا يؤدي شكرها وأحياناً قد لا ينتبه إلى أصل وجودها فلو لم يمرض الإنسان أبداً لما عرف نعمة السلامة بكل ما لها من أهمية وعظمة، وكموهبة إلهية عظيمة، ولو لم تهتزّ الأرض أحياناً لما عرف قدر هذا السكون العجيب الذي يسودها طيلة السنة ويدور في ظله

(١) نفحات القرآن.

كل شيء حول محوره، ولا تعرف حقيقة الظلمة إلا بالنور وكذا العكس، ولو لم تهيّج عواصف الحوادث بحر أفكار الإنسان أحياناً لما فهم قدر ساعات الهدوء والسكون.

ج - (الأمور التي خيرها يغلب شرها) كالكثير من سموم الحيوانات التي تؤدي إلى موت وهلاك الإنسان في حالات معينة لكنها ولما نعلم مادَّة صناعة الكثير من العقاقير الشافية من جهة أخرىٰ، ويوجد في مراكز صناعة الأدوية أقسام لحفظ الثعابين الخطرة. وذلك للإستفادة من سمومها علاوة على هذا فإن أنياب وسمَّ هذه الحيوانات هي وسيلتها الدفاعية لمواجهة الأعداء أو جمع الغذاء من أجل البقاء.

وكذا المكروبات المعروفة (بالشر) هي أمور وجوديَّة، فبالإضافة إلى آثارها السلبية فإن لها آثاراً إيجابية أيضاً وتعمل الكثير من هذه الموجودات المجهريَّة على تفسيخ أجساد الموتىٰ وجثث الحيوانات، ولولاها لما مضت إلا مدَّة وجيزة حتى تمتلىء الأرض بالأجساد المتعفِّنة وتتلوَّث بسببها ولَحلَّ الدمار الشديد بالبيئة الإنسانية وأيضاً تعمل مجموعة منها على إحداث أفعال وانفعالات معيَّنة داخل التربة لتهيّئها للزرع وحتى المكروبات المؤذية المسبِّبة للأمراض، فإن هجماتها المستمرَّة على بدن الإنسان (عن طريق الغذاء والماء والهواء) تُنشِّط جميع خلاياه، وتجعلها في حالة دفاعية دائماً وتكون سبباً في اقتدارها إلى الدرجة التي يعتقد البعض بأن لو لم تكن هذه المكروبات الهجوميَّة لكان بدن الإنسان ضعيفاً جداً ولكان أطول إنسان لا يتجاوز طول قائمته الثمانين سنتمتراً!

وقال في النفحات: والسؤال الأخير المطروح بصدد خلق الشر هو: لِمَ لا تنحصر مخلوقات الله بالخير المحض؟ وتوجد أشياء غالبة الخير فمثلاً نجد أن النار مادَّة حارقة ينتج منها الكثير من شؤون

الحضارة الإنسانية والمواد الحياتية والأشياء المفيدة، لكنها أحياناً قد تُحرق أفراداً، أو تُحوّل بيتاً بأكمله إلى رماد بسبب سوء استخدامها، ولكن يجب الإنتباه في مثل هذه الموارد انها لو جرّدت عن صيغة الشر فإنها تفقد محتواها أي أن لا يخلق الله ناراً لأن النار التي تُحرق أحياناً ولا تُحرق أحياناً أخرىٰ ليست بنار.

د ـ (الإبتلاء عن طريق المشاكل) نحن نعلم تفاوت الإبتلاء الإلٰهي عن الإبتلاء البشري بصورة تامّة فالناس يمتحنون شخصاً أو شيئاً لتتوضّح لهم بعض المجهولات، وتتبيَّن قيمة وقابلية واستعداد ذلك الشخص أو ذلك الشيء خلال الإمتحان، ولكن الله لا يخفىٰ عليه شيء في جميع عالم الوجود في الأرض والسماء وما وراء السماوات وفي داخل وخارج الأشياء لكي يعرفه عن طريق الإمتحان إذاً لِمَ وكيف يمتحن؟

إن للإبتداء الإلٰهي صيغة تربويَّة، إن الذهب عندما يلقىٰ في النار فمِن أجل تحريره وتنقيته من الشوائب أو عندما يدرب الجنود بالأعمال الشاقة على تمرين المقاومة والإستقامة فمن أجل رفع مستوىٰ لياقتهم البدنية فالإبتلاء الإلٰهي مثلُه مثلُ هذه الحالات بالضبط فهي تزيد من تحمُّل ومعرفة ونقاء البشر وبكلمة واحدة: إن الإبتلاء وسيلة لتكامُل وتربية روح الإنسان وجسمه لذا فلا عجب من كون قسم من المصائب داخلة في هذا النوع من الإمتحان والإختبار وليس جميعها[1].

هـ ـ (تلخيص بعض الظواهر المبغوضة):

النقائص والعيوب، والإنكسارات، والهزائم، وأنواع المشاكل المنهكة كالأمراض، وحالات الفشل، والحوادث المرَّة تحدث في حياة الإنسان حوادث طبيعية مفجعة ينتج عنها هلاك الحرث والنسل، فمن

(١) نفحات القرآن.

الذي لا يسمع بدمار وضحايا الزلازل والعواصف، وسنوات الجفاف والمجاعات؟ وعند حلول هكذا حوادث مدمِّرة يطرح هذا السؤال عادة: أولم تكن جميع العوامل والأسباب الطبيعية منقادة لامر الله تعالى؟ وإذا كان كذلك ألم يكن الماء والهواء والنار من جنوده تعالى، ويطيعون ما يأمرهم به؟ فكيف يرتضي عدل الله أن يعاني الإنسان من هذه الأمور، وتتحول حلاوة الحياة في فمه إلى حنظل؟ إذن ألا تتنافىٰ مثل هذه الأُمور مع أصل العدل والحكمة الإلٰهيَّة والجواب الإجمالي المختصر هو:

لا ريب في كون ما نعلمه من المجهولات قليلاً جداً، وما نعلمه من أسرار الخلق والوجود بالقياس إلى ما نجهله منها كقطرة من بحر عظيم هذه حقيقة اعترف بها جميع العلماء الإلٰهيين والماديين (على ما ينقل) لذا فإن جميع وجهات نظرنا تجاه حوادث هذا العالم تقع في حدود دائرة معلوماتنا وليست مطلقة بتاتاً.

فإذا عجزنا عن معرفة أسرار هبوب العاصفة أو حدوث الزلزلة فإننا لا نستطيع أن نتفهَّم مسببها بشيء فهل نحن متيقنون من عدم وجود أثر إيجابي من الدمار الناشىء عن عاصفة أو زلزلة يطغىٰ على سلبيات هذا الدمار؟؟ كنّا في الماضي نعدُّ الكثير من المسائل من الآفات والبلايا لكنّنا اليوم وفي ظل التطورات العلمية، وكشف أسرار جديدة عن الكون نعتقد بفائدتها فمثلاً كان الرأي السائد في السابق هو أن بكاء الأطفال المواليد لا ينجم إلا عن ألم أو أذىٰ لا غير في حين يقال اليوم:

بأن لولا هذا البكاء لكان من المحتمل أن يفقد هذا المولود سلامته بالمرَّة، وإن البكاء خير رياضة لبدنه فهو ينشِّط الجهاز التنفُّسي ويسرّع جريان الدم في عروقه، ويغذِّي جميع ألياف البدن، ويقوِّي عضلات اليدين والرجلين والصدر والبطن، علاوة على طرده الرطوبة

الزائدة الموجودة في دماغه والتي يمكن أن تُحدث التهابات معيّنة فيه، والكثير من قبيل هذه النماذج.

ونحن نعلم بأن الحوادث والكوارث الطبيعية هي أمور ذات أسرار خاصَّة، بالرغم من جهلنا، ويحتمل انكشاف قسم منها بمرور الزمان وتطور العلم كما انكشف قسم منها لحد الآن وفي نفس الوقت يحتمل أن يبقىٰ قسم آخر منها مستوراً عنَّا إلى الأبد لكننا مع ذلك نعلم بأن في جميع هذه الأمور أسراراً خفيَّة.

القسم الثامن: من آيات تنسيق نظام الكون (القرآن والجواب المجمل على مسألة الآفات والبلايا):

للقرآن الكريم إشارات كثيرة في هذا المجال من جملتها:

١ ـ قال في موضع: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فاحذروا أن تحاولوا بعلمكم المحدود أن تنظّروا في كل شيء وتتصوَّروا بجهلكم بأسرار الحوادث عدم وجود تلك الأسرار.

٢ ـ بعد أن أشار تعالى في سورة النساء إلى قسم من الإختلافات التي قد تحدث بين الزوجَيْن، أمر الرجال بحسن معاملة النساء فقال: ﴿...فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

وقد ورد نفس هذا المفهوم بتعبير آخر بالنسبة إلى الجهاد في سورة البقرة كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦] مع أن الآية الأولى تخصُّ المعاشرة الزوجيَّة والآية الثانية تخصُّ الجهاد المسلح ضدّ العدو لكن ما ورد في نهايتهما قانون كليّ حيث يقول: إن محدودية علمكم في

الكثير من الموارد تحول دون تمييزكم الخير والشر وعليه لا يمكن النظر فقط إلى ظاهر الحوادث والقضاء بشأنها فمن المسلم أن الحوادث البشرية المرَّة تقع في دائرة هذا القانون الكلي أيضاً.

٣ ـ إن قصَّة الخضر عليه السلام وموسى عليه السلام التي وردت في سورة الكهف والتي تُعدُّ من القصص القرآنية الغنية الرامية إلى أهداف متعدِّدة تشير بوضوح إلى بحثنا والتي يمكن القول: بأن أحد الأهداف الأساسية من طرحها هو هذه المسألة وهي: عندما يصدر فعل معيَّن من حكيم يجب عدم الحكم بظاهره والقضاء بشأنه استناداً إلى ذلك فما أكثر الحالات التي يبدو فيها ظاهر العمل قبيحاً لكنه يحتوي في باطنه على أسرار عميقة.

فمثلاً خرق سفينة المساكين المستضعفين التي كانت تشكِّل مصدر عيشهم (رزقهم) المحدود، أو قتل الغلام الذي كان يبدو بريئاً ولم يرتكب جُرماً وخيانة ظاهراً أو إقامة الجدار (الذي أوشك على الإنهيار) بدون ثمن في قرية البُخلاء الذين أبَوا أن يضيِّفوا (موسى وصاحبه عليهما السلام) كانت جميعها أعمالاً يُعدُّ كلٌّ منها أقبح من الآخر. ولهذا السبب كان موسى يعترض كلما ارتكب الخضر عليه السلام أحد هذه الأعمال ويقول له: لِمَ فعلت هذا؟ ففي الوقف الأول قال له: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١] و(إِمْرٌ) على وزن (شِمْرٌ) تطلق على العمل المهمّ والعجيب أو المبغوض والقبيح جداً. وفي الموقف الثاني استنكر قائلاً: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] وفي الموقف الثالث أراد من الخضر عليه السلام أن يتقاضى أجراً مقابل عمله: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧] وكان يبدو لموسى عليه السلام أن العمل الأول إتلاف مال الغير والثاني إتلاف النفوس والثالث إتلاف الحق الخاص. ولكن عندما كشف (الخضر) ذلك العالم الكبير الذي كان يعدّ هنا بمنزلة استاذ ومعلِّم لموسى عليه السلام حُجُباً عن أسرار عمله

تأسّف موسى ﷺ على استعجاله في القضاء بشأن تلك الأمور لأنه عرف بأن من وراء ظاهر هذا العمل القبيح أسراراً خفيَّة تعود بالمصلحة للمستضعفين في النهاية! فخرق السفينة وإعابتها المؤقتة حال دون غصبها من قبل سلطان جائر غاصب كان يغصب جميع السفن السليمة، وبقتل ذلك الشاب غير المؤمن والكافر الظالم (الذي كان مستحقاً لمثل هذه العقوبة حسب القوانين الإلٰهية) قد خلَّص أبويه المؤمنين من الخطر. وبترميمه ذلك الجدار الذي كان مشرفاً على الإنهيار كان قد حفظ كنزاً لطفلين يتيميْن والذي كان يُعدُّ إرثاً خلَّفه لهما أبوهما المؤمن ليستفيدا منه أوان بلوغهما سنَّ الرشد.

وكما (ينقل) يمكن الإستفادة من هذا البيان القرآني كقانون كلي والإستنارة به لمعرفة حقائق الأمور الظاهرية التي قد نشاهدها أحياناً في عالم الوجود واعتباره جواباً إجمالياً لنستيقن بالأسرار الخفيَّة المحتمل وجودها من وراء هذه الظواهر.

٤ ـ ونلاحظ إشارة أخرىٰ إلى هذا المطلب في قصَّة قارون ذلك الرجل الشري والأناني الظالم من بني إسرائيل في الموضع الذي استعرض قارون يوماً ما كان يملكه من الثروات الطائلة والنفيسة (من الخيول والغلمان والإماء والمجوهرات الذهبية) أمام انظار بني إسرائيل فدهش جماعة من الأفراد ذوي النظرة الظاهرية من هذا المشهد بحيث قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩] ولكن في اليوم التالي الذي خُسفت به الأرض بقارون وأمواله وتبيَّن بأن وراء ذلك الجمال الظاهري قبْح باطني وعقوبة أليمة قالوا مستوحشين: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [القصص: ٨٢].

علاوة على ما تحمله هذه القصَّة من البلاغات التربويَّة فإنها تشير إلى هذه المسألة وهي: إستحالة إمكانية القضاء بشأن أمر معيّن خيراً كان أو شراً على أساس ظواهر الأمور.

فأحياناً ما يراه الإنسان خيراً من الظاهر فإنه شرٌّ في الباطن بحيث لو عرف نتائجه لفرَّ منه.

٥ ـ في المسائل المتعلّقة بالوصية في القرآن الكريم بعد أن أشار تعالى إلى إرث الطبقة الأولى (الأبناء والوالدين) قال: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١] مع كون الأب والأم والولد أقرب إلى الإنسان ممن سواهم. ويقضي أغلب سنيّ عمره معهم إلا أن القرآن يقول: أنتم لا تدرون أيّاً من آبائكم وأبنائكم أقرب لكم نفعاً، وأيّهم صاحب الدور في حياتكم لذا لم يوكل أمر تعيين حصّة الإرث إليكم.

فالإنسان الذي لا تسمح له محدودية علمه في أن يحكم حكماً قطعياً في مثل هذه المسائل كيف يمكنه أن يحكم سلفاً على حدث ينتج عنه الألم في الظاهر بأنها مسألة غير موزونة في عالم الخلق؟ (نفحات من القرآن).

القسم التاسع: من آيات تنسيق نظام الكون (الطاقة):

وهي عبارة عن المدد المعنوي الإلهي في كل شيء له قابلية يقال: زيد عنده طاقة للدرس أي عنده نشاط وقوّة وتحمُّل وقدرة لأن يستوعب الدرس. وقد ثبت علمياً أنه عندما تموت الموجودات في هذا العالم الوسيع تُخَلِّفُ وراءها بقايا وآثاراً دائماً لكنَّ موت الطاقة أمر عجيب لأنها في الظاهر عندما تموت تفنىٰ كلياً ولا يبقىٰ لها أي أثر فلو أخذنا الشمس مثالاً لذلك لوجدنا أن ضوءها وحرارتها هما عبارة عن طاقة تبثُّها نحو كرتنا الأرضية والسيارات الأخرىٰ التابعة للمنظومة الشمسية وبعد الإشعاع تفنىٰ تلك الطاقة، ولا يبقىٰ لها أيُّ أثر، وإذا لم يستمر منبع الإشعاع أي (الشمس) على ممارسة برنامجه فإنه سوف يفنى كل نور وضياء وتفنىٰ الحرارة أيضاً لكن العلم الحديث أثبت بأن الطاقة أيضاً لا تفنى بالكامل، بل تَخْمُلُ وتتحوَّل من حالة إلى أخرىٰ وعندما تتوفَّر الظروف المناسبة فإنها تعود ثانياً وتُبعث من جديد بصورة عظيمة وهناك قول في هذا وهو: إن الأشجار خلال فترة حياتها تمتصُّ

ضوء وحرارة الشمس باستمرار وتدَّخِرُهما في باطنها وعندما نحرق الخشب الجاف تنبعث الحرارة والضوء اللتان امتصتهما الشجرة في مدَّة طويلة وتنفد في مدَّة وجيزة.

وتوضيح ذلك: إن «السليلوز» يشكِّل المادة الرئيسية للأشجار وهو مركب من «الكاربون» و«الأوكسجين» و«الهدروجين» فالنباتات تحصل على الأوكسجين والهدروجين من الماء وتحصل على الكاربون من الهواء أي إنها تأخذ ثاني أوكسيد الكاربون الذي هو عبارة عن تركيب من الأوكسجين والكاربون وتحلِّل ذلك المركب فتحتفظ بالكاربون وتُطلق الأوكسجين ثم تصنع الخشب بواسطة تركيب الكاربون مع الماء ومن الجدير بالذكر هنا بناء على القواعد المتبعة في علم (الكيمياء) إن الكثير من التركيبات الكيميائية لا تتم إلا عند توفر نوع من أنواع الطاقة والأشجار أيضاً تتَّبع هذا القانون وتستخدم ضوء وحرارة الشمس في إنجاز التركيبات الكيميائية. وعلى هذا فالأشجار عندما تنمو وتكبر وتقوىٰ سيقانها يوماً بعد يوم فإنها تدَّخر كميَّة كبيرة من الطاقة الشمسية في داخلها تلك هي الضوءُ والحرارة التي تظهر عند احتراق الخشب فنفس تلك الطاقة المدَّخرة التي خَمَلَتْ في الظاهر تعود مرَّة أخرىٰ من خلال معاد موزون ودقيق.

القسم العاشر: من آيات تنسيق نظام الكون (الموت):

وهو على قسمين:

القسم الأول: الموت الخفيف: وهو النوم وقد فسِّر على أوجه كلها صحيحة بنظرات مختلفة: قيل هو استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، وقيل هو: أن يتوفىٰ الله النفس من غير موت قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] الآية وقيل: النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل(١).

---

(١) (الراغب) و(لسان العرب).

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم: ٢٣].

فالقرآن الكريم لم يشر إلى الموضوعات المهمّة جداً كخلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم وروح الإنسان بصفتها آيات وبراهين من الله تعالى فحسب، بل يستند أحياناً إلى المسائل العاديّة في نظرنا أيضاً لكي يوضّح لنا أن ليس هناك شيء عاديّ في هذا العالم فكلُّها آيات حتى كبيرها وصغيرها وبراهين عظيمة على علم وقدرة الباري تعالى والقرآن في الآية المتقدمة يعدُّ نوم الإنسان في الليل والنهار أحد البراهين على علم وقدرة الله ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣] وهو في نهاية الآية يؤكد هذا البرهان: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣] ومما لا شك فيه أن جميع الكائنات الحيَّة تحتاج إلى الراحة لتجديد قِواها واكتساب الطاقة اللازمة لاستمرار نشاطاتها الحياتية، الراحة التي تلاحقهم تلقائياً وتجبر حتى الحريصين على التمتع بها.

فأي عامل أفضل من النوم يمكن أن نبكر به من أجل تحقيق هذا الهدف حيث يلاحق الإنسان بشكل إجباري ويضطره لإيقاف جميع نشاطاته الجسمية، بل حتى بعض نشاطاته الفكرية الأساسية وفي النتيجة يغط في راحة عميقة وخلال هذه الفترة تقوم أجهزة الجسم بإعادة البناء والإستعداد للسعي والحركة من جديد. ومما لا شك فيه أن الإنسان لولا النوم فإنه يذبل ويتلف ويصيبه العجز والإنكسار بسرعة لذلك فقد قالوا إن النوم المعتدل والاستقرار سر السلامة وطول العمر وحيوية الشباب واللطيف أن الآية التي نبحثها وضعت النوم، و«ابتغاء فضل الله» في مقابل بعضهما وحسب قول بعض المفسرين: إن الأول هو علامة الموت والثاني علامة القيامة[1].

---

(١) النفحات.

وهذه نقطة جديرة بالإهتمام حيث ذكرت الآية النوم بالنهار إضافة إلى النوم بالليل ﴿...مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الرُّوم: ٢٣] في الوقت الذي يعتبر النوم مرتبطاً بالليل حيث تؤكد آيات القرآن الكريم هذا المعنى، إلا أن بعض الظروف التي تطرأ في حياة الإنسان تجبُرُهُ على أن يسهر الليل وينام النهار. ويلاحظ هذا الأمر كثيراً في أسفار الليل وفي المناطق الحارَّة جداً حيث تتوقَّف النشاطات النهارية بسبب حرارة الجوّ.

وفي عصرنا الراهن حيث يكون الكثير من المؤسسات الصناعية ومعامل صناعة الأدوية مضطرة للعمل ليلاً ونهاراً إذ من الصعوبة إيقاف العمل مما يدفع العمال إلى تقسيم أعمالهم إلى ثلاثة أدوار يومياً فتَّتضح الحاجة إلى النوم في النهار أكثر من أي وقت آخر. والآن. . . فلو لم يكن برنامج تنظيم النوم بيد الإنسان ولم يتيسر النوم نهاراً بدلاً عن الليل فمن المسلَّم به أن مشكلات كبيرة ستعترض حياته.

ظاهرة النوم الخفيَّة:

مع أن «النوم» و«الرؤيا» يعتبران بالنسبة لنا أمران عاديّان إلا أن العلماء لم يتوصلوا إلى عمق هاتين الظاهرتين المهمتين بالرغم مما بذلوه من مساع وجهود فأيُّ فعل وانفعالات تطرأ على الإنسان ليتوقّف فجأة القسم الأعظم من نشاطاته الجسمية والروحية؟! ويحصل هذا التعبير في جميع أجزاء جسمه وروحه كذلك فلا يفهم شيئاً ولا يُبدي أيَّ حركة ويستلقي جانباً كالميِّت، ولو غرقت الدنيا بأكملها فهو نائم لا يدري، ومع كل هذه التوضيحات والآراء والفرضيات التي قيلت في هذا المجال فقد حافظ النوم على صورته المدهشة.

والأكثر عجباً من ذلك مسألة (الرؤيا) التي تُعدُّ من الألغاز العظيمة كروح الإنسان، وطبعاً إن الحديث المفصَّل بصدد حقيقة وأسرار هاتين الظاهرتين خارج عن موضوع بحثنا لأن الغاية من بحث الآيات المذكورة

هي بيان المنافع الكثيرة والفوائد التي لا تُحصىٰ للنوم من جانب ومن جانب آخر كونه نعمة من نعم الله فالنوم المعتدل دائماً يعتبر دليلاً على سلامة روح وأعصاب الإنسان، لذلك فإن أهم أسئلة الأطباء لمرضىٰ النفس تدور حول كيفية نومهم.

فلا تتوقّف الأجهزة الأساسية في جسم الإنسان كالقلب والرئة أثناء النوم لكنها تعمل بهدوء أكثر، ويُصبح دوران الدم في الأعصاب أكثر تناسقاً، ويتوقّف نشاط الدماغ تقريباً، وتستقر جميع العضلات أيضاً فتؤدي كلُّ هذه الأمور إلى حصول هذه الأعضاء على فرصة لتجديد بناء ذاتها. وخلال النوم تزال سموم الجسم وتعالج كثير من الأمراض[1].

ونقل عن بعض الأطباء قوله «إن النوم عبارة عن ظاهرة توقُّف من أجل الصيانة وتجديد القُوىٰ وعليه فيمكن استغلاله كعامل للعلاج من الأمراض المختلفة وتؤيد التجارب اليومية دور النوم في ذلك أيضاً» ثم يضيف: «إن النوم الطويل العميق مؤثر على تحسن صحَّة المريض، لأن المرضىٰ ينامون أكثر من المعهود بعد مرضٍ طويل من أجل استعادة قواهم وسلامتهم».

ويقول أيضاً: «لقد واجه العلاج عن طريق النوم رواجاً واسعاً في الاتحاد السوفياتي وقد استُخدمت هذه الطريقة لأول مرَّة لمعالجة (جنون الشباب) «الشيزوفرينيا» الذي يعتبر من الأمراض النفسية الشائعة».

وقال أيضاً: «تمَّ الحصول على نتيجة مرضية لعلاج المصابين بارتفاع ضغط الدم عن طريق النوم العميق... فالنوم الطويل الذي هو حالة من الراحة الكاملة للمخ يُجدِّد قدرة الجهاز العصبي، ويوازن تنظيم نشاط الأعضاء الداخلية ويترك أثراً إيجابياً مساعداً للوضع العام للإنسان[2]».

---

(١) النفحات.

(٢) النوم في نظر بافلوف ص١١٢ ـ ١١٦ (مع الاختصار).

القسم الثاني: الموت الثقيل: الموت: هو خروج الروح من البدن بواسطة الإزهاق والروح هي نور يضيء ظلمة البدن، ويشع من العين نظراً ومن الأذن سمعاً وكذا من سائر الحواس والموت هو انتقال النور إلى مكان آخر وخروج هذا النور من البدن ومثال ذلك: إذا وضعت مصباحاً داخل كوخ فيه عدَّة ثقوب فإن ضوءه سيشعُّ من الثقوب إلى الخارج، وإذا أخرجت المصباح من داخله فإنه سيظلم، وينقطع الإشعاع من داخله وعلى هذا يكون الموت هو إخراج مصباح الروح من البدن. والموت هو محطَّة عبور نحو العالَم الآخر بل ويُعدُّ الموت في الحقيقة ولادة جديدة وبداية انتقال إلى عالَم أوسع وحياة أرقىٰ.

وبعد ذلك أذكر بعض الفروع وهي ما يلي:

١ ـ حقيقة الموت: يعتبر كثير من الناس الموت فناءً وعدماً، ونهاية كل شيء لذلك فهم يخافون الموت، ويهابونه بشدَّة بينما يفسِّر القرآن الكريم حقيقة الموت بـ «التوفِّي» ومعناه (قبض واستلام روح الإنسان من قِبَلِ الخالق) أو بتعبير آخر هو انتقال من عالَم حقير إلى عالم كبير وسام) قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزُمَر: ٤٢] ثم من أجل أن يذكر نموذجاً للموت في هذه الدنيا أضاف سبحانه (في نفس الآية المذكورة) ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الزُمَر: ٤٢] أي التي لن تصحو من نومها بعد ذلك أبداً ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [الزُمَر: ٤٢] أي التي يجب أن تستمر في حياتها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزُمَر: ٤٢] إن هدف القرآن هو بيان هذه الحقيقة وهي: كما أن روح الإنسان لا تفنىٰ في عالم النوم، بل يضعف ارتباطها بالبدن بصورة مؤقَّتة ومن أجل هذا يمكنها التحوُّل في عوالم مختلفة فإنها لا تفنىٰ أيضاً بالموت بل تتحرَّر وتتحوَّل في عوالم كبيرة أخرىٰ.

و«يَتَوَفَّى» من مادة «وَفَىٰ» وهي في الأصل بمعنىٰ: الكمال لذلك

أطلقوا على الدرهم الكامل: «درهماً وافياً» أي «الكامل من حيث الوزن ومقدار الفضة» على هذا يكون التوفّي بمعنى: القبض التام وبما أن القابض هو الله فإن هذه الجملة تدلُّ على أن الإنسان سوف يضع قدمه في عالم أعلىٰ وأرقىٰ.

إن هذه النظرة إلى الموت تغيِّر كثيراً من المعادلات والمفاهيم ومن أجل هذا عرَّفوه ببوَّابة العبور إلى عالَم البقاء.

٢ ـ ومن الجدير بالذكر هو: ان الآية المتقدمة تحذِّر الناس لأنها تعتبر «النوم» مساوياً «للموت» وكأنها تقول: كيف تغفلون عن الموت وهو يأتيكم في كل يوم وليلة وأنتم تلمسونه بأيديكم؟! إنكم في حالة النوم تنفصلون عن هذا العالم وتفارقون حياتكم ومنصبكم ووجودكم بصورة مؤقَّتة فالموت أيضاً هو عبارة عن نوم خالد كما أن النوم هو عبارة عن موت مؤقَّت.

ولذلك قالوا: إن الإنسان يمكنه أساساً أن يشك في كل شيء إلا أنه لا يمكنه أن يشك في تحقق الموت، إن جميع أهل السماوات والأرض سوف يموتون وسوف يبتلع الموت جميع الموجودات الحيَّة، فالجميع من دون أي استثناء لهم أجل ونهاية معيَّنة لا تتأخر عن موعدها لحظة واحدة قال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ... ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥] ويستفاد من الآية ما يلي:

١ ـ بأن روح الإنسان لا تموت ومعنى الذوق: هو أن الروح باقية فتدرك الموت وتذوقه.

٢ ـ يستفاد منها: بأن الروح غير الجسد وذلك لأنها تبقىٰ بعد موت الجسم. وقد جاء في بعض الروايات: عندما نزلت الآية الشريفة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٦] قالت الملائكة: «مات أهل الأرض» وعندما نزلت الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] قالت الملائكة: «متنا

نحن أيضاً»[1] بالرغم من أن كلمة «النفس» أطلقت أحياناً على الله كما جاء في حديث عيسى ﷺ عندما كان بين يدي الله حيث قال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ [المائدة: ١١٦] لكن التعبير بـ «كل نفس» في الآية المذكورة يراد منه المخلوقات لا الخالق عز وجل.

٣ ـ وأزيّن هذا الموضوع بحديث عن الحسين ﷺ فقد جاء في ثورة كربلاء! أن الحسين ﷺ جمع أصحابه يوم عاشوراء وقام خطيباً فيهم فقال: «صبراً بني الكرام فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائم فأيُكم يكره أن ينتقل من سجنٍ إلى قصر»؟ قيل: والذي دعا الإمام لإلقاء خطابه هذا هو أنه كان كلما اشتدَّ حصار الأعداء عليه وعلى أصحابه، وكلما حمي الوطيس كان وجهه أكثر إشراقاً ونفسه أكثر اطمئناناً، هنا حدَّث بعض أصحابه بعضاً قائلين: «أُنظروا لا يبالي بالموت».

فسمع الإمام هذا منهم فألقىٰ عليهم الخطاب المذكور ثم أضاف إليه قوله: روىٰ أبي عن جدي رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، والموت جسر هؤلاء إلى جنانهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذِبْتُ ولا كُذِّبت» فالسِّر في حماسة ثورة عاشوراء وشجاعة الحسين ﷺ وأصحابه التي لم يكن لها مثيل والتي سُجِّلت في التاريخ بأحرف من ذهب لامعة هو وجوب البحث عنه في هذا الميدان أي الإيمان الراسخ لهؤلاء بالمعاد والحياة الآخرة الخالدة.

٤ ـ الغاية من الموت والحياة: قال تعالى في سورة الملك: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [المُلك: ٢].

فالقرآن بيَّن في هذه الآية: بأن خلق الموت والحياة هما من دلائل قدرة الله الواسعة ثم يضيف إلى ذلك: إن الهدف من هذا الخلق هو

---

(١) التفسير الكبير ج٩ ص١٢٥.

امتحان لأحسن الأعمال.... إمتحان يهدف إلى تربية البشر وهدايتهم إلى منزلة القرب الإلهي وقد دلَّت هذه الآية بأن الموت والحياة مخلوقان من مخلوقات الله سبحانه ويستفاد من هذه الآية عدَّة أمور:

أ ـ إن ذِكْرَ الموت قبل الحياة إما أن يكون للدلالة على موت الدنيا وحياة عالَم الآخرة، وإما أن يكون للدلالة على المرحلة التي كان فيها الإنسان تراباً فتعتبر الحياة بمعنى الخلق من التراب، وإما أن يدل على كليهما معاً.

ب ـ إن المقياس الذي يُعيِّن قيمة الإنسان لدىٰ الله تعالى هو حسن العمل ومن البديهي أيضاً أن الأعمال الصالحة تنبع من العقائد الطاهرة والقلب المؤمن والنية الخالصة وذلك لأن العمل يكون دائماً انعكاساً لهذه الأمور. قال في النفحات: ومن المحتمل أن يكون هذا هو دليل النبي ﷺ عند تفسير جملة ﴿أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [المُلك: ٢] في أحد الأحاديث المروية عنه قال ﷺ في تفسيرها: «أتمَّكم عقلاً وأشدُّكم لله خوفاً وأحسنكم فيما أمر الله به ونهىٰ عنه نظراً وإن كان أقلكم تطوعاً».

ج ـ إن القيمة الواقعية تختص بـ «كيف الأعمال» ولا بـ «كمُّها وحجمها» فرب عمل صغير ذي كيفية عالية من جهة الإخلاص والإيمان والمعرفة فاق أعمالاً كثيرة لذا جاء في إحدىٰ الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير أنه «أحسن عملاً» قال: «ليس يعني أكثركم عملاً ولكن أصوبُكم عملاً».

د ـ ومن أجل احتمال أن يشعر الإنسان بالوحدة والعجز في ساحة الإختبار العظيمة أو أن يُهيمن عليه اليأس بسبب العثرات وصف الله نفسه في ذيل الآية بالعزيز الغفور وذلك للقضاء على هذه المخاوف فالآية تقول للإنسان: إنك لست وحيداً فلا تخف من رهبة الإختبار وليكن قلبك مع الله، فإن عثرت فالجأ إلى عفو الله وغفرانه.

وفي الختام أقول:

إعلم يا أخي أن التقوى سبب في زيادة علم الإنسان المتقي، وحبُّ التمتع من لذائذ المادة وغريزة استخدام كل شيء في طريق التوصل إلى الإستعلاء على مشتهيات النفس، والتسلّط التام على ما تدعو إليه أهواؤها لا يدع مجالاً للإنسان يبحث فيه عن كنوز المعارف والحقائق المدفونة في فطرته، ثم ينبي ويدوم عليها في مسير حياته، وخاصة إذا استولت هذه المادية على المجتمع واستقرت في المستوىٰ، فإنها تكون لهم ظرفاً يحصرهم في التمتعات المادية، ولا ينفذ في شيء من الفضائل الإنسانية ولا يزال ينسىٰ فيه ما بقي من إثارة الفضائل المعنوية الموروثة واحداً بعد واحد حتى يعود مجتمعهم مجتمعاً حيوانياً ساذجاً كما نشاهده في الظروف الراقية اليوم أنهم توغلوا في المادية واستسلموا للتمتعات الحسية فشغلهم ذلك في أوقاتهم وصرفهم عن الآخرة إلى الدنيا صرفاً سلبهم الإشتغال بالمعنويات، ومنعهم أي تفكير في ما يسعدهم في حياتهم الحقيقية الخالدة.

وبالجملة فالعقل الإجماعي والشعور المادي الحاكم في المجتمعات ليس مما يوصل الإنسان إلى هذه المعارف الإلْهية والفضائل المعنوية التي لا تزال المجتمعات الإنسانية على تنوّعها، وتطورها تتضمن أسماء كثيرة منها واحترام معانيها.

انتهى تأليف هذا الكتاب
يوم الأربعاء/٢٧/ شوال سنة ١٤٢٣هـ
الموافق/١/١/ سنة ٢٠٠٣م.

الفهرس

المقدمة ٧
الكرسي ١١
العرش ١٣
العرش والكرسي ١٤
سورة المنتهى ومعنى عليين وسجين ١٧
الحجب والسُّرادقات ٢١
البيت المعمور واللوح والقلم ٢٤
آياته في السَّمَاءُ ٢٦
البحث الأول: في تعريفها وما يتعلق به ٢٦
البحث الثاني: في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ ٢٩
البحث الثالث: في بروج السماء ٣٨
البروج الإثنا عشر ٣٨
البحث الرابع: في رتق السماء والأرض وفتقهما ٤١
البحث الخامس: في فوائد السماء ومنافعها ٤٣
البحث السادس: في الصواعق ٥١
البحث السابع: آيات السماء ٥٢
آياته في الشمس ٥٤
البحث الأول: في الشمس ٥٤
الحركة المنتظمة للشمس والقمر ٥٥

البحث الثاني: في فوائد الشمس وفيه فروع ٥٩
الألوان ٦٦
آياته في القمر ٦٨
البحث الأول: في تعريفه وما يتعلق به ٦٨
ظاهرة القدرة الإلهية المدهشة ٦٩
البحث الثاني: القمر، وضوؤه، والمنافع المترتبة عليه ٧١
منازل القمر ٧٢
البحث الثالث: في فوائد القمر وفيه فروع ٧٣
نشاط الخزانات الكهربائية ٧٤
آياته في النُّجوم ٩٥
البحث الأول: في تعريفها وما يتعلق به ٩٥
البحث الثاني: في إسرارها ٩٦
البحث الثالث: في فوائد النجوم وفيه فروع ٩٨
البحث الرابع: في معجزة الكواكب ١٠٥
البحث الخامس: علوم عامة في النجوم ١٠٧
آياته في الرعد والبرق ١١١
البحث الأول: في تعريفهما وما يتعلق بهما ١١١
البحث الثاني: في فوائد الرعد والبرق وفيه فروع ١١٤
آياته في الغيوم ١٢٢
البحث الأول: في تعريفها وما يتعلق به ١٢٢
البحث الثاني: في فوائد الغيوم والأمطار وفيه فروع ١٢٣
آياته في الظلال ١٣٢
البحث الأول: في تعريفه وما يتعلق به ١٣٢
البحث الثاني: في فوائده ١٣٣
آياته في الليل والنهار ١٣٦
البحث الأول: من تعريفهما وما يتعلق به ١٣٦
البحث الثاني: في فوائد الليل والنهار ١٣٧

آياته في الرياح ١٥٠
البحث الأول: في تعريفها وما يتعلق به ١٥٠
البحث الثاني: في دلالة بعض الآيات ١٥٢
البحث الثالث: في فوائد الرياح ١٥٩
آياته في النار ١٦٣
آياته في الحرّ والبرد ١٦٩
آياته في الماء ١٧١
البحث الأول: في المطر ١٧١
البحث الثاني ١٧٤
البحث الثالث ١٨١
البحث الرابع: دورة المياه في الطبيعة التي كثيراً ما نشاهدها في حياتنا الاعتيادية ١٨٣
البحث الخامس: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ١٨٤
البحث السادس: في فوائد الماء المطلقة وما فيها من إعجاز ١٨٦
البحث السابع: وهو خاص بشرح ما قاله الصادق عليه السلام في فوائد الماء ١٨٨
البحث الثامن: في الاستعمال الشرعي للماء وهو ١٩٢
آياته في الأنهار ١٩٤
آيات أربع ١٩٧
أقوال الفلاسفة في الآيات الأربع ١٩٧
آياته في الأرض ٢٠٨
البحث الأول: في تعريفها وما يتفرع عليه ٢٠٨
البحث الثاني: في الكلام عن بعض المعجزات من الأرض ٢٠٩
البحث الثالث: فيما يخص الأرض وفيه فروع ٢١١
الأول: قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ ٢١١
الثاني: تأثير المد والجزر على الظروف الحياتية ٢١١
الثالث: الحركة المذهلة غير المحسوسة للكرة الأرضيّة ٢١٢

حركة الأرض في القرآن ٢١٣
الرابع: الجبال أوتاد الأرض، وخزائن فيها نفائس الله ٢١٦
الخامس: سطح الأرض، ليس بالرخو اللّين ولا بالصلد الشديد ٢١٦
وما لم يصلح في الأرض للحياة، يصلح للعبرة والموعظة ٢١٧
البحث الرابع: استقامة النظام الكوني في الأرض ٢١٨
البحث الخامس: أيضاً استقامة النظام الكوني في الأرض ٢١٩
وهذه آيات ثلاث ٢٢١
١ ـ الأوكسجين ٢٢١
٢ ـ الكِبْريت ٢٢٢
٣ ـ الهِدْروجين ٢٢٢
الكيمياء العضويَّة ٢٢٢
النِّترُوجِيْن ٢٢٣
الفُسْفُور ٢٢٣
المادة ٢٢٤
العناصر ٢٢٥
البحث السادس: أيضاً استقامة النظام الكوني في الأرض ٢٢٧
البحث السابع: فناء الأرض ٢٢٩
البحث الثامن: في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ٢٣١
البحث التاسع ٢٣٤
آياته في الجبال ٢٣٨
البحث الأول: في تعريفها وما يتعلّق به ٢٣٨
البحث الثاني: في فوائد الجبال والمعاجز فيها ٢٤٠
آياته في البحر ٢٥٠
البحث الأول: في تعريفه وما يتعلق به ٢٥٠
البحث الثاني: في منافع البحر ٢٥١
البحث الثالث: في عجائب البحر ٢٥٧
بيان حقيقة الملائكة وأحوالهم ٢٦٢

آياته في الجنّ ٢٧٠
إبليس ٢٧٦
الشيطان ٢٧٨
تعريفه ٢٧٨
بعض الأعمال التي قام الشياطين بها ٢٧٨
الشياطين ٢٩٩
مواضع استعمال البسملة ٢٩٩
آياته في الحيوان ٣٠٣
البحث الأول: في تعريفه وما يتعلق به من فروع ٣٠٣
البحث الثاني: في بعض منافع الحيوانات وفيه فروع ٣٠٤
البحث الثالث: في الأنعام ٣٠٧
البحث الرابع: في (عجائب عالم الحيوانات) ٣١٦
القسم الأول: (في الإبل) ٣١٦
القسم الثاني: في الحيوانات الأخرىٰ وفيه فروع ٣١٨
القسم الثالث: في الفطنة التي رزقها الله لبعض الحيوان ٣٢٠
القسم الرابع: في الهداية الفطرية للإنسان والحيوان ٣٢٦
إلمام الحيوان بصنعة الطب ٣٢٧
الأدوية الناجحة لأوجاع القطط القلبية، والعمى عند الأفاعي ٣٢٨
الرحمة الواسعة التي لا تستثني شيئاً ٣٢٩
القسم الخامس: في الهداية التكوينية في طفل الإنسان وفيه فروع ٣٣٠
القسم السادس: في الهداية التكوينية في الحيوانات ٣٣١
الصَّوْتُ ٣٣٥
القسم السابع: في عالم الجنين في الرحم ٣٣٧
القسم الثامن: في العجائب المدهشة للجنين وفيه فروع ٣٣٨
القسم التاسع: في فوائد البكاء للأطفال ٣٤٢
القسم العاشر: اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الطفل ٣٤٤
القسم الحادي عشر: في (غذاء الطفل بعد الولادة) ٣٤٥

القسم الثاني عشر: من عجائب نظام هذا الكون في الإنسان أيضاً ٣٤٦
آياته في الطيور ٣٥٣
تمهيد ٣٥٣
شرح المفردات ٣٥٤
الطيرُ يُسبِّحُ وأنا صامت! ٣٥٥
١ ـ فَنُّ الطيران الْمعقَّد ٣٦١
٢ ـ «عجائب الطيور» و«الطيور العجيبة» ٣٦٣
٣ ـ الطيور في خدمة الإنسان والبيئة ٣٦٦
٤ ـ دروس التوحيد في وجود الطيور ٣٦٨
آياته في النحلُ ٣٧٠
البحث الأول: في تعريفه وما يتعلق به ٣٧٠
البحث الثاني: في (غرائب خلية النحل) ٣٧٢
البحث الثالث: في جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل ٣٧٤
البحث الرابع: في فوائد العسل من حيث الغذاء ومن حيث الشفاء ٣٧٦
البحث الخامس: في قصة بناء الشمع والتلقيح وغيرهما ٣٧٩
آياته في النمل ٣٨٥
آياته في النبات ٣٩٤
البحث الأول: في تعريفه وما يتعلق به ٣٩٤
البحث الثاني: في أسرار النبات ٣٩٥
كل شيء يسجد لله تكويناً ٤٠٢
كيفية سجود المخلوقات غير الإنسان ٤٠٣
البحث الرابع: في تركيب النبات ٤٠٩
البحث الخامس: الإعجاز في النبات ٤١١
البحث السادس: بعض فوائد النبات ٤١٣
البحث السابع: في التفكر المتعلق بالنبات ٤٢٠
البحث الثامن: (الأنواع غير المحدودة للنباتات) ٤٢٢
البحث التاسع: في عجائب عالم النباتات ٤٢٣

البحث الحادي عشر: في التربة ٤٢٧
بعض الأدلّة على توحيده تعالى ٤٣٧
وحدانيّته تعالى ٤٣٧
الدليل الثاني على وحدانيته تعالى ٤٣٨
آياته في تنسيق نظام الكون ٤٤١
القسم الثاني: من آيات تنسيق نظام الكون هو: «قانون التغيُّر» ٤٤٢
العالم حادث ٤٤٢
علاقة الأفول بالحدوث ٤٤٥
القسم الثالث: من آيات تنسيق نظام الكون (قانون الحركة) ٤٤٦
القسم الرابع: من آيات تنسيق نظام الكون (وحدة عالم الخلق) ٤٤٨
القسم الخامس: من آيات تنسيق نظام الكون (النور وسرعته) ٤٥٠
القسم السادس: من آيات تنسيق نظام الكون (قانون الجاذبية) ٤٥١
القسم السابع: من آيات تنسيق نظام الكون (الشر والخير) وفيه فروع ٤٥٢
القسم الثامن: من آيات تنسيق نظام الكون (القرآن والجواب المجمل على مسألة الآفات والبلايا) ٤٥٨
القسم التاسع: من آيات تنسيق نظام الكون (الطاقة) ٤٦١
القسم العاشر: من آيات تنسيق نظام الكون (الموت) ٤٦٢
ظاهرة النوم الخفيَّة ٤٦٤
الفهرس ٤٧١